عبدالله الخنيزي

أبو طالب مؤمن قريش

(دراسة وتحليل)

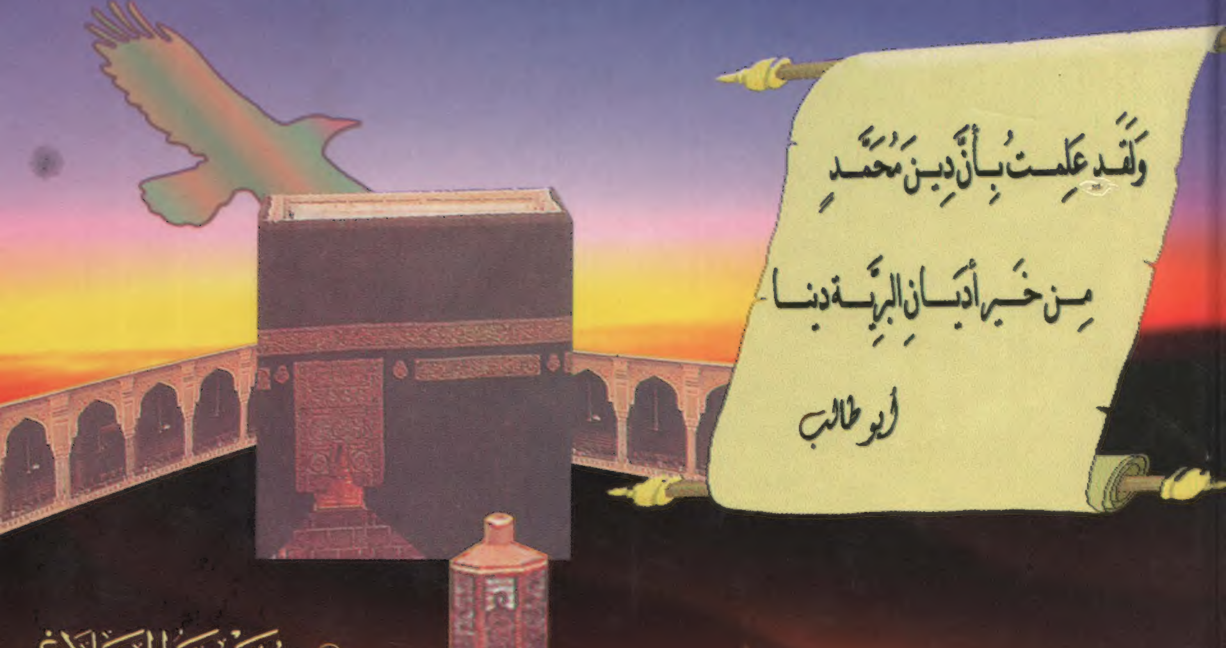

مؤسسة البلاغ
بيروت - لبنان

أبو طالب

مؤمن قريش

عبدالله الشيخ علي الخنيزي

أبو طالب

مؤمن قريش

(دراسة وتحليل)

الطبعة الخامسة

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

مؤسسة البلاغ

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

مكتبة
مؤمن قريش
mamenquraish.blogspot.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطَّبعة الأُولى:	منشورات دار مكتبة الحياة –	١٣٨١هـ – ١٩٦١م.
الطَّبعة الثّانية:	منشورات دار مكتبة الحياة –	١٣٨٢هـ – ١٩٦٢م.
الطَّبعة الثّالثة:	منشورات المؤسَّسة الثّقافيَّة للنشر	١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
الطَّبعة الرَّابعة:	منشورات دار التَّعارف للمطبوعات	١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.
الطَّبعة الخامسة:	منشورات مؤسسة البلاغ	١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

عدا الطَّبعات الأُخرى التي لم يُطّلع عليها، ولم يُعلم بها

مؤسسة البلاغ

لبنان – بيروت بئر العبد – سنتر الانماء ١ ط٣ – ص.ب: ٧٩٥٢-١١

المستودع – طريق صيدا القديم – جانب فرن الأمراء – هاتف : ٤٦٣٢٥٨

المؤلّف

حين طبع الكتاب

مؤمن آل فرعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَكتُمُ إِيْمَانَهُ: أَتَقْتُلُوْنَ رَجُلاً، أنْ يَقُوْلَ: «رَبِّيَ ا للهُ» وَقَدْ جَاءَكُمْ بالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟ وإنْ يَكُ كَاذِباً، فَعَلَيْهِ كِذْبُهُ... وَإِنْ يَكُ صَادِقاً، يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِيْ يَعِدُكُم... إنَّ ا للهَ لاَ يَهْدِيْ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ.(٢٨)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ: يَاقَوْمِ! اتَّبِعُوْنِ أَهْدِكُمْ سَبِيْلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ! إِنَّمَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً – مِنْ ذَكَرٍ، أَوْ أُنْثَى – وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيرِ حِسَابٍ. وَيَا قَوْمِ! مَالِيْ أَدْعُوْكُمْ إِلَى النَّجَاةِ، وَتَدْعُوْنَنِيْ إِلَى النَّارِ؟!. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِا للهِ، وَأُشْرِكَ بِهِ مَالَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوْكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الغَفَّارِ! لا جَرَمَ إِنَّمَا تَدْعُونَنِيْ إِلَيْهِ، لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَلاَ فِي الآخِرَةِ، وَإِنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ا للهِ، وَإِنَّ الْمُسْرِفِينَ، هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ...

فَسَتَذْكُرُونَ ماأقُولُ لَكُمْ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ، إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا، وَحَاقَ بِآلِ فِرعَوْنَ سُوْءُ العَذابِ!.﴾

صدق الله العليُّ العظيم

(غافر) : ٣٩ - ٤٦

الإهداء

إليكَ يا رسولَ الإنسانيَّة ! . .

وإليكَ يا بطلَ الإسلام ! . .

وأنتما نفسٌ واحدةٌ . . .

❋ ❋

إلى سدَّتكما الرَّفيعة أرفع هذا الكتاب - وهو جهد المقلِّ - في مَنْ نصر الدِّين، الذي كرَّستما حياتكما مِنْ أجله فلم يُنصفْه التَّأْريخ، وجار على حقّه واضعو التَّأْريخ.

❋ ❋

إليكما أرفعه راجياً به القربى والنَّفع، في يومٍ لاينفع فيه إلاَّ مَنْ أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

٢٨/٨/١٣٧٤هـ

٢٢/٤/١٩٥٥م

عبدالله الخنيزي

هذا الكتاب

سلختُ مِنْ عمري - في سبيل إيجاد هذا الكتاب - عاماً، أو مايقرب مِنَ العام، منذ أوَّل حرفٍ حبَّرته منه، حتى آخر نقطةٍ منه(1). وبين هذه الفسحة مِنَ الوقت، كان شيءٌ كثيرٌ، مَنْ نصيب البحث والتّنقيب. كما كان شيءٌ ليس بالقليل - مِنَ الوقت - يمرُّ دُونَ أنْ أخطَّ فيه حرفاً، أو أنْ أُنقِّبَ عن شيءٍ...

وبالإضافة إلى هذا... وذاك... فقد كان الوقت اليوميُّ، المخصَّص في سبيل هذا الكتاب: مالايتجاوز الساعة كلَّ يومٍ.

ليس مهمَّاً ماعرضتُ له، ولم يكن مِنْ قصدي...

إنما أودُّ أنْ أُشير إلى: أنّي في صيف عام ٧٥ - ٧٦هـ [١٩٥٦م] زرتُ لبنان الجميل، فقدَّمتُ هذا الكتاب لصديقي الأُستاذ بولس سلامة، لِيُقدِّم له مقدِّمَةً، مجرَّدَةً مِنْ كلِّ صِلةٍ، غير ناظرٍ لسوى الأثر - وهكذا اتّفقنا في الرَّأي - فوضع هذه المقدِّمة، التي بين يدي القارىء الكريم، فأشار فيها إلى نقطة الضَّعف، في هذا الكتاب، وهي ممّا يتّصل باللُّغة.

والنّقد النّزيه، لايأتي بسوى الخيِّر مِنَ الثّمار.

---

(١) - كان أوَّل حرفٍ خُطَّ في مسودَّة الكتاب في ٩/٨/٧٣هـ- ١٤/٤/٥٤م. وآخر حرفٍ مِنْ مسودَّته -أيضاً- في ٢/٨/١٣٧٤هـ- ٢٧/٣/١٩٥٥م.

لذلك – وقد رأيتُ المنفسح مِنَ الوقت – ألقيتُ عليه نظرةَ فاحصةَ، تداركت فيها شيئاً مِنَ الأخطاء، التي وُفّقتُ لاكتشافها. وعدتُ على بعض النّقاط بالصَّقل والتّشذيب. كما زدتُ شيئاً مِنَ المصادر التي وقفتُ عليها، خلال هذا المنفسح مِنَ الوقت. وكذلك زدتُ في بعض المواضع، ماوقفتُ عليه – بعد ذلك – ممّا رأيت الفائدة والتّمام يتطلّبانه، ولاسيَّما في [على العتبة].

وقبل هذا وذاك.. فإني لاأدَّعي لنفسي: العصمة والكمال.

وحسبي منه: أنْ يكون غاية الجهد، وأنَّ الخلل – إنْ وُجد فيه – فما هو عن تقصيرٍ... وا لله مِنْ وراء القصد.

٢٧/ ٥/ ١٣٧٧هـ

٢٠/ ١٢/ ١٩٥٧م

المؤلف

المقدمة

بقلم الأستاذ الكبير

بولس سلامة

بين القطيف وبيني صلةٌ، سببها ملحمة «عيد الغدير»، التي أدرتها على الإمام أبي الحسن. وهذا كتابٌ موضوعه والد الإمام. وقد نوَّهْتُ – في الملحمة – بفضل كفيل النَّبيِّ، وجيه قريش وشيخها، فبقي أنْ أُصدِّرَ هذا المؤلَّف بكلمةٍ خاطفةٍ، تنظرإلى الكتاب نفسه.

لقدِ استهلَّ المؤلِّف كتابه بعرض جرائم بني أُميَّة، وتفنيد التُّهم التي ألصقوها بأهل بيت الرَّسول، فما قصَّر، ولاارتبك قلمه. ولاغرو فإنَّ مَنْ يأْخذ جانب [أبي ترابٍ]، يستقوي...

ولقد عرف ابن قلعة القطيف: أنه في حصنٍ نشطت عليه العوادي، فكانت هي الواهية، وكان هو القائم أبد الدهر.

ولايخفى أنَّ المؤلِّف يرصف التُّهم الباطلة رصفاً بارعاً، ويُكثِّفها لِيزيد في شناعتها، وفي تهجين كلام المفترين على أهل البيت. ولم يفتْهُ الإسناد والأخذ بقول أساطين التَّأْريخ، وأعلام البيان والحديث، على مافي اندفاعه مِنْ حماسة الشَّباب وتوثُّب القلم.

وأحسب أنَّ المقدِّمة – (على العتبة)– هي خطُّ النار، والجبهة الدِّفاعيَّة – الهجوميَّة معاً. فبحسب المؤلِّف أنْ يحشد فيها الفِرى، التي تتهافت، ويُظهر الخصوم كعصبةٍ مِنْ أقزامِ الزنج والأنباط، لِتظهر عظمة الإمام، كما يبزغ الضَّياء بعد ارفضاض الغيوم.

أمَّا الفصل الذي يلي المقدِّمة – وعنوانه (بيتٌ) – فقد أعاد فيه المؤلِّف قولاً معروفاً. وإنما يُعذر على الكلام المكرور، لأنه تمهيدٌ لعرض شخصيَّة أبي طالبٍ. ولقد أبرزها على أنها مركز «الدَّائرة» في قريشٍ – وإنها لكذلك.

وحبذا لو أسعفته اللُّغة بـأفضل مِـنَ الدِّيباجـة الـتي أسـبغها علـى تلـك الصُّـوَر المتعدِّدة مِنْ حياة الرَّجل، فإنَّ إنشاء صاحبنا لم يستقم، بعدُ، فيضَّلع، شـأنه في ذلـك شأن سواد الشَّباب الطَّالع. بيـد أنَّ هـذا الفـرع، الـذي نمتـه دوحـةٌ وفَّـت قسـطها للضَّادِ، يعِد بالثِّمار النَّاضجة، في المستقبل القريب - إنْ شاء الله.

ولقد أحسن المؤلِّـف إذ أبرز شـخصيَّة سـيِّد البطحـاء - ابـن شـيبة الحمـد - فجلاّها، ثم بسطها على فصول الكتاب جميعاً، فنما فضـل كفيـل الرَّسـول ومربِّيـه وحاميه، بنموِّ الرَّسول نفسه، فكان أنَّ اليتيم استظلَّ في كنـف عمـه صبيّـاً ويافعـاً. فَلمَّا بزغت شمس اليتيم مشى العمُّ في نورهـا، وفـاء إلى ظـلِّ ابـن عبـدا لله مجـاهداً، يفديه بماله ونفسه وولده.

ومِنَ الإنصاف للسيِّد الخنيزيِّ، قولنا: إنه بارعٌ في التَّحليـل، وليـس أدلَّ علـى ذلك مِنْ وقفته على الأبيات، التي تُثبت إيمان أبي طالبٍ - وإنْ كان قـد نـال فيهـا مِنَ الشُّعراء، الذين تسوقهمُ الضَّرورة الشِّعريَّة، فتُقوِّلهم مالا يُريدون. وإنـه ليحتـجُّ بقول واحدٍ منهم: «لأنْ يروا حسناً ماليس بالحسن».

بيد أنَّ فضل الشِّعر يظهـر في مااختـاره مِنْ شـعر والـد أبـي تـرابٍ، في فصـل «الشِّعب والصَّحيفة»، حيث يقول أبو طالبٍ:

يُرجُّـــونَ منَّـــا خطَّـــةً دونَ نيلِهَـــا
ضِـــرابٌ وطعـــنٌ بالوشـــيجِ المقـــوَّمِ

- إلى آخر هذه الأبيات، التي يختلج فيها الإيمان المكين، والقلب المضطَّرم، والسيف المحتدم.

ولايفوت صاحبنا التَّبويب العلميُّ. فتراه يُفصِّل الأدلَّة على فضل أبـي طـالبٍ: حيَّاً، فمحتضراً، فميتاً. ثم يتطرَّق إلى مابعد الموت. ويُقيم البرهان بشهادة الرَّسول، ثم الإمام، ثم أهل البيت.

وأحسب أنه لوِ امتهن المحاماة، لَمَا جاء في الرَّعيل الأخير، فإنَّ له مِنْ خصائص الاستدلال والقياس، والخلوص مِنَ المقدِّمات إلى النَّتائج، مايكفل له النَّجاح.

* *

وبعد فلستُ هنا في مقام دراسةٍ وتحليلٍ، فذلك مِنْ شأْن القرَّاء والنُّقاد. بل في مقام التَّصدير بكلمةٍ موجزةٍ، مؤدَّاها: أنَّ المؤلِّف أدرك الغاية، فيما قصد إليه، فتحرَّى واستقرأ، وفنَّد ودافع.

وإنَّ الحسنات الكثيرة، لَتشفع ببعض الهنات، التي وقعت في الصِّياغة، وماكان العرض لِينال مِنَ الجوهر. وفي هذا الكتاب كثيرٌ مِنَ اللؤلؤ، وقليلٌ مِنَ الأصداف.

وأحسبني في رأيي هذا.. أقرب إلى القسوة العادلة، مني إلى المجاملة، فبيني وبين القطيف صداقةٌ – ولكن الحقَّ أَوْلى أنْ يُقال.

بيروت: ٢٥ صفر ١٣٧٦هـ

بولس سلامة

على العتبة

- ١ -

أنا – الآن – أمام سيرة رجلٍ، لعبت فيها الأهواء دوراً كبيراً، ومشت بها الأقلام المأْجورة، ناكبةً عن صراط الحقِّ، ملقيةً على الحقيقة ستاراً صفيقاً... شأْنها مع كلِّ حقيقةٍ صارخةٍ ناصعةٍ، تصدُّها عن الهوى الجموح، والعاطفة الرَّعناء، فتعمل فيها مسخاً وتشويهاً... لتجعل منها متداعي الستر، ومنهار الكنِّ.

رجلٌ خطَّ بسيرته – في التَّأْريخ – سطوراً. على إشراق حرفٍ، فكان مِنَ المجاهدين في الطَّليعة، وكان مِنْ أنصار المباديء القويمة، ورِسل الإنسانية وهداتها – في الرَّعيل الأوَّل.

رجلٌ نصر المبدأ القويم، وكلُّ القلوب له جافيةٌ، وكلُّ العيون تنظر إليه نظرةً شزراء، يتطاير منها الحقد، وترفُّ بالعداء المستفحل، وتُنذر بالمقاومة والعصيان، والثَّورة لإطفاء هذه الشُّعلة المتَّقدة... فتمتدُّ منها أيدٍ، لِتعصف بهذا «النَّبيِّ الجديد»، ذي القبس البهيِّ، الذي عشى بشعاعه العيون الرَّمداء.

ولكن هذا الحصن المنيع، يقف – أمامها – شامخاً، مدلاً بقوَّته، متحدِّياً لها في إرادتها الهوجاء... فترتدُّ هذه الأيدي، وقد ظنَّت: أنها ستنال ماتُريد، وهي أفرغ ماتكون، فتفيض القلوب بالحقد، على هذا النَّصير – أيضاً – وتغضب...! ولكن «غضب الخيل على اللُّجم»؟.

رجلٌ سقى الإسلام بذرةً، في حقلٍ مجدبٍ... ورعاه أملوداً ليِّناً، في مهبِّ الإعصار... ووليداً نعيم الظُّفر، فاشتدَّ وقوي، وانتشر منه نورٌ، دون أن ينال منه عدوٌّ مأأراد، حتى جفَّ هذا النَّبع الدفَّاق، والراعي المخلص الأمين...

رجلٌ كان له في الإسلام شأنٌ، وأبقى أثراً جميلاً، وفضلاً باقياً. ولكن شاءتِ الأهواء أنْ تزوي عنه العيون، وتنظر إليه نظرةً ظالمةً، فراحت تنال منه، وتضع في حقّه الأراجيف، لِتنال مِنْ جوهر الحقِّ، ورُواء الفضيلة.

* *

مرَّ عصر الخلافة الرَّاشدة، وهو يحفل بمآثر أبي طالبٍ: رجل الإسلام الفذّ - ويُسجِّل مآثره الغرَّ - وأياديه البيض، لِيوفيه بعض حقٍّ له عليه.

وجاء عصر الملكيَّة، والسُّلطة الجائرة، وهي لاتستقيم إلاَّ بالنَّيل مِنْ بطل الإسلام عليٍّ «عليه السَّلام» - لأنها قَدِ اغتصبته حقّه، مع بنيه، الشَّرعيَّ - فكانت سيرة أبيه إحدى الجوانب، التي أعملت تلك السُّلطة فيها معاول الهدم، وهي تظنُّ: أنها ستأْتي على شخصيَّة هذا الإمام، التي هي اليوم في سبيل صرف الأنظار عن اغتصابها حقّه.

عندئذٍ راحت تستأْجر ذوي الضَّمائر الزَّنخة، والقلوب القلَّب، التي تلبس لكلِّ ساعةٍ لبوسَها... فلا تعرف للفضيلة معنىً، ولاللرَّذيلة حدّاً... فهي متأجرةٌ وصوليَّةٌ، تبيع الذّمم، وتخفر العهود، وتنقض المواثيق، وتقلب الحقَّ باطلاً، وتُموِّه الباطل حقّاً، وتبيع دِينها بالثّمن البخس الزَّهيد: بدينارٍ زائفٍ، ودرهمٍ مسروقٍ، ومالٍ مغصوبٍ، لِتُحقّق غايتها الدُّون، وتُرضي ضميرها السَّافل، وتحوز رضى السُّلطة القائمة.

ولن يكون لها مجال البقاء والحياة، إلاَّ تحت راية الظَّلام السَّوداء.. فالخفَّاشة لاتجد لها في النَّهار مَدَّة جناحٍ، ولايمتدُّ لعينها منه بصيص نورٍ! فهي تودُّ اللَّيل أنْ تطول منه الرُّقعة، لِيبقى الفضاء مسرحاً لها - وحدها، لايُشاركها فيه ذو جناحٍ!.

- ٢ -

قامتِ الأهواء بدورها، فغيَّرت مجرى التأريخ، وأرادت أنْ تقلب الوضع القائم، فسخَّرتِ الضَّمائر في ركابها، فوضعتِ الأحاديث، لِتُسايِر رغبتها، حتى صار وضع الأحاديث واختلاقها: سلعةً رائجة السُّوق!. فكثر الوضَّاعون الذين يُريدون هدم الدِّين، الذي لم يكن في قلوبهم على قرارٍ، ولم تخلص نفوسهم مِنْ عقابيل الجاهليَّة.

قامت هذه السُّوق السَّوداء، على ثلاث أثافي: إخفاء فضائل عليٍّ - مِنْ ناحيةٍ - ووضع الأحاديث الكاذبة ضدَّه، وتحويل تفسير الآيات مِنْ غيره إليه، ومنه لغيره - في الطَّرف الثَّاني - واختلاق الفضائل والمحاسن، لغيره مِنَ الصَّحابة- مِنْ ناحيةٍ ثالثةٍ.

وقَدْ شجَّع التَّاجر معاوية هذه السُّوق، وهي تعمل في صالحه، فهي حجر الأساس في ملكه، فافتنَّ في ذلك، حسب ماشاء، وقَدْ رأى مقالته ناجحةً، بعدما ذلَّل منها كلَّ صعبٍ، فأسلست له المِقود، ولم تكن تلك الجموح. فالعقيدة على رجراجٍ، والدِّين لعْقٌ على الألسنة، لم تتمثَّله هذه الرُّوح الجاهليَّة تمثُّلاً عميقاً، والأهواء متحفِّزةٌ في الصُّدور، والأغراض تتوثَّب للانطلاق، والذَهب البرَّاق الذي يرين على القلب - في ماهو يخطف الأبصار - يعمل عمله السَّيء المشين.

اتَّخذ أصحاب الأغراض السُّود، والأهواء الشَّائنة، هذا الطَّريق، وقد رأوه يرضي منهم مطمعهم الجشع.

ورأى منهم معاوية النَّهاز: تلك المطيَّة الذَّلول، فحمل على ظهرهم تلك الأحمال الثّقال... فكانوا لِمَا يُريد مطيعين، وإنْ لم يُرد، فهم إليه متقرِّبون.

* *

يكتب إلى عمَّاله:

«أن برئتِ الذمَّة، ممَّن روى شيئاً، مِنْ فضل أبي ترابٍ وأهل بيته»(١).

---

(١) شرح النهج ص ١٥ : ٣.

– وإذا بالخطباء لذلك مستجيبون، ليقوموا بلعن عليٍّ«ع»، في كلِّ كورهٍ، وعلى كلِّ منبرٍ، ويبرأوا منه، ويقعوا فيه وفي أهل بيته، حتى أنَّ المنابر، التي يُلعن عليها عليٌّ – عند أدنى مناسبةٍ – لتربو علىالسبعين ألف منبرٍ.

والعَّامة للخطباء مستجيبون، وهم مصدِّقون.

فماذا تُقدِّر – من العامَّة – تحت كلِّ منبرٍ، مِنْ هذه السبعين ألفاً؟! وكم وراء هذا العامّيِّ مِنْ نساءٍ وأطفالٍ، يأْخذون قوله، مثلما يأْخذ هو قول الخطيب، حتى ينشأ على ذلك لحمهم، ويجري به الدم في العروق؟!.

ثم يعود لِيكتب إلى عمَّاله جميعاً:

[ألاَّ تُجيزوا لأحدٍ، مِنْ شيعة عليٍّ وأهل بيته، شهادةً](1)

– ليأْخذ بخناق الشِّيعة، وينال مِنْ كرامتهم، ويدعهم عرضةً لمكاره أعدائهم، وهدفاً لسهامهم.

ثم يُخصِّص – في قبال هذا – لِمَنْ يروي في فضائل عثمان وشيعته: عطاءً وفيراً، ومنزلةً عاليةً...!

ولايلبث أنْ يكتب لعمَّاله – مرَّةً، الله وحده أعلم بموقعها مِنَ الحساب:

(إنَّ الحديث في عثمان قد كثر، وفشا في كلِّ مصرٍ، وفي كلِّ وجهٍ وناحيةٍ. فإذا جاءكم كتابي – هذا – فادعوا الناس إلى الرِّواية في فضائل الصَّحابة والخلفاء الأوَّلين. ولاتتركوا خبراً يرويه أحدٌ مِنَ المسلمين في أبي ترابٍ، إلاَّ وأتوني بمناقب له في الصَّحابة مفتعلةٍ...! فإنَّ هذا أحبُّ إليَّ، وأقرُّ لعيني، وأدحض لحجَّة أبي ترابٍ، وأشدُّ إليهم مِنْ مناقب عثمان وفضله)(2)

ولايكاد الكتاب يصل الأسماع، إلاَّ والخيال يُحلِّق، فيُنشيء الأخبار، ويُكثر...ويأْتي بالأحاديث، ويُسرف... بعضها مناقب مفتعلةً للصَّحابة، والبعض الآخر: في النَّيل مِنْ عليٍّ «عليه السلام» – وهو الغاية مِنْ هذا الوضع.

---

(1) شرح النهج ص ١٥ : ٣.

(2) المصدر ١٦ : ٣.

ولسنا نرى حاجةً للقول، أوِ الإشارة إلى مقدار قيمة هذه الوفرة مِنَ الأحاديث في الفضائل، أوِ التي تنال عليَّاً وآلهُ، ومافي تلك مِنَ الغلوِّ المفرط، والجهل المضحك، ومافي هذه مِنَ: البغض القتّال، والعداء الخبيث الأسود... حيث لم يبقَ لهذه، أو تلك، قيمةٌ أو وزنٌ، وليست تثبت تحت مطرقة النَّقد لحظةً، لأنها وُلدت مِنْ زنىً، وبُنيت على أساس ملحٍ، مالبث أنْ نالته الرُّطوبة فذاب.

ولكن موقف السُّلطة الحاكمة - آنذاك - ومايُصدره الحاكم بأمره، التّاجر معاوية، كان السَّبب الفعَّال في تقوية رواج هذه السُّوق، التي ليس لبضاعتها مِنْ كسادٍ، ولايُرجى منها سوى الربح المادِّي الوفير... فتُلقى هذه الأحاديث المفتعلة، مِنْ ذرى المنابر، وتُعطى لمعلّمي الكتاتيب، لِتُعطى الأطفال، فيحفظونها كما يحفظون القرآن الكريم، أو أتقن حفظاً.

وبهذا تكون هذه الأحاديث أوسع انتشاراً، وأكثر تداولاً، وأمضى أثراً - هذا من ناحيةٍ... ومِنْ ناحيةٍ أُخرى: يكون الربح والمصلحة أكثر شمولاً، فينال منه صاحب المصنع، والمصدِّر، والمستورد - حسب اللُّغة التِّجارية، وهي صبغة هذه الأحاديث - يشترك في الربح: خالق الحديث، ومنتجه، وملقيه، ومعلّمه، ومَنْ لفَ لفَّهم...

ويعود التّاجر الكبير معاوية، لِيكتب لعمّاله، في جميع البلاد:

(انظروا إلى مَنْ قامت عليه البيِّنة: إنه يُحبُّ عليَّاً وأهل بيته، فامحوه مِنَ الدِّيوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه)(١).

ولايكتفي بهذه المطاردة العنيفة، وهذا التَّحدِّي الصارخ، وهذه الحرب الاقتصاديَّة الخانقة، حتى يشفع كتابه ذاك بآخر:

(مَنِ اتَّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكّلوا به واهدموا داره)(٢).

فيُضيِّق - بذلك - الحصار، أشدَّ منه، مِنْ ذي قبل، بكثيرٍ وكثيرٍ، فيّهدِّد كلَّ مَنْ يحفل قلبه، بذرَّةٍ مِنْ حبٍّ، لهذا الرجل، أو هؤلاء القوم، فمجرَّد تهمة رجلٍ بحبِّهم، مهدَّدٌ بالحرب الحامية الاوار: فالذِّمّة منه بريئةٌ، فهو عرضةٌ وهدفٌ لكلِّ سوءٍ وعدوٍّ..

---

(١) و (٢) المصدر ذاته.

وهو ممحوٌّ مِنَ الدِّيوان، ومسقَطٌ عطاؤُه ورزقه، فلا يقف وبقيَّة المواطنين على قدم المساواة، وهو مخنوق الحريَّة، لايُفكِّر بعقله، بل عليه أنْ يكون دميةً تُسيَّر وتُوجَّه، بدون إراداةٍ أو تفكيرٍ... وهو – إلى ذلك – مهدور الكرامة والعزَّة، محاطٌ بالخطر، يرتقبه بين اللَّحظة وأُختها، ينتظر التّنكيل به، وأنْ تُسقط عليه داره.

وهو لايكتفي بإصدار هذه الأوامر الجائرة الظَّالمة، والتي تخنق العدالة الاجتماعيَّة، وتُلاشيها – لايكتفي بهذا، بل يختار مَنْ يقوم بتطبيق هذا الجور، فيُولِّي على العراق صنيعته، ولحيق نسبه – زياد بن أبيه! – لِتشتدَّ الوطأة على الشِّيعة منهم، وهو بهم خبيرٌ، وبمكامنهم فطينٌ، حيث كان إليهم قريباً، قبل أنْ يرين على قلبه العمى(١)..

---

(١) – ماكنت أحسب أنْ أقف على قولةٍ يفوه بها أديبٌ، يعيش في القرن العشرين، حيث يُظنُّ فيه أنّه تخلَّص مِنْ رواسب ذلك العهد البغيض المظلم، ومافيه مِنْ: بيع الضمائر، ومسخ الحقائق، لولا وجود أشخاصٍ، لايزالون –كما يظهر– يعيشون برواسب ذلك التأْريخ المظلم، فيبثُّون سمومه بين المجتمع.

وإلاَّ فما كنت أظنُّ أنْ يقول حسن السَّندوبي في شرحه للبيان والتَّبيين، ص٢٠٤:١ عند ترجمته لزياد –مثل هذه القولة النَّابية الخبيثة:

(ولست آخذ زياداً بتركه عليّاً، والتحاقه بمعاوية، ولاأرى في ذلك مايطعن في عقله وفضله وكفاياته –كذا؟!– لأنَّ معاوية اعترف له بأُخوَّته، مِنْ أبي سفيان، وليس بعد اطمئنان الإنسان على نسبه شيءٌ).

ولو كان لدينا مجال التَّعليق على هذه القولة المائنة، لكشفنا عمَّا شُحنت به هذه الكلمات القليلة، مِنْ: هدمٍ وتضليلٍ، وتزويرٍ وافتراءٍ، ومسخٍ وتشويهٍ لقداسة التَّعاليم الإسلاميَّة والإنسانيَّة، ففيها مافيها مِنْ: تحدٍّ للرسول«ص» في حديث: «الولد للفراش»، وتحبيذٍ لإلحاق ولد الزنى بالزَّاني، وعدم عدِّ الخروج على الإمام الشَّرعيِّ أيَّ ذنبٍ، أو جرمٍ..!

لا! بل إنَّ كلَّ هذه الأعمال الشَّائنة، مّمَا يُدعِّم عقل وفضل «!» وكفايات زيادٍ! ويا للعار!!.

وشتَّان بين السَّندوبي هذا، وبين الجاحظ، حول هذه الخزية –استلحاق زياد بن أبيه!.

فهذا يعدُّها مِنْ عقل وفضل وكفايات زياد...!

وذاك يستدلُّ بها دعماً لتقرير، يُثبته بناصع الأدلَّة، بحيث يُخرج معاوية مِنَ الفجَّار، لِيُلحقه بالكفَّار، في كلمةٍ سنأتي بها، بعد خطوات قليلة، عند وقوفنا حول فرية «عام الجماعة»!.

ولقد تضاءل عجبي واستغرابي ودهشتي، مِنْ هذه القولة النَّابية –للسَّندوبي– بعد أنْ خطوت في قراءة شرحه هذا، خطواتٍ، فوقفت مشدوهاً أمام تعليقةٍ، سوَّدت سبعة سطورٍ– ص١٨٣ و١٨٤:٢– هي لطخةٌ سوداء في شرحه، حيث قام فيها بالدِّفاع، عن الإباضيَّة، مراغمةً للأحاديث الكثر المتواترة، والمخرّجه في جميع الصحاح، والمسلَّمة لدى جميع المسلمين ⟸

⟸ عن الرَّسول«ص»، في أنَّ الخـوارج «قومٌ يمرقـون مِـنَ الدِّيـن، كمـا يمـرق السـهم مِـنَ الرَّمِيَّة» - حسب التَّعبير النَّبويِّ الأقدس.

إلاّ أنَّ هذا السَّندوبيَّ اعتبرهم: (مِنْ أفاضل أهل القبلة، وممَّنْ ينفرون مِنَ البدع التي ليست مِنَ الدِّين في شيءٍ، ومِنْ هنا يتَّهمهم بعض المسلمين بالتَّشدُّد، وبعدم مسـايرتهم للتَّقدُّم، بـل يرمونهـم بمـا هـم منـه براء).

أرأيت كيـف تجنَّى على جلِّ المسلمين، الذين يخضعون لِمَا جاء في الخوارج، على لسان الرَّسـول الأعظم؟!.

ولايقف عند هذا الحدِّ!. بل يُضيف:

(وقَدْ كنتُ خُدعتُ بقول خصومهم فيهم، فردَّدتُ مجمـل مـايتَّهمونهم بـه في بعـض هوامـش الجزء الأوَّل. ثم تبيَّن ليَ اليقين فيهـم، فعلمـتُ أنهـم مِـنْ خيـار المسـلمين، وممَّـنْ يرجعـون في كـلِّ أُمورهم، مِنْ عبادةٍ ومعاملةٍ، إلى الكتاب والسُّنَّة.

ولايرعْك تنديد الجاحظ بهم، فإنهم كانوا فيمـا سـلف خصومـاً للمعتزلـة. رضـي الله تعـالى عنِ المسلمين كافَّةً).

إنه ليترضَّى عمَّن مَرق مِنَ الإسلام، وهو يعتبرهم مِنَ المتمسِّكين بالسُّنَّة.

ولاأدري مارأيه فيما ورد في حقِّهم في السُّنَّة الثَّابتة، المسلَّمة بين المسلمين جميعهم!.

وكيف يجمع بين ذلك، وبين ترضِّيه عن المسـلمين جميعهـم، إذا كـانتِ الخـوارج منهـم، بعـد مروقهم مِنَ الدِّين، مروق السَّهم مِنَ الرَّمِيَّة، حيـث بقيَّـة المسـلمين -عـدا مَـنْ ينتمـي للخـوارج في الرَّأي، وعدا مَنْ يُخالف السُّنَّة الثَّابتة- على يقينٍ وتسليمٍ بما جـاء فيهـم عـنِ الرَّسـول، ولاينظـرون إليهم، إلاّ بنظرة النَّبيِّ الكريم لهم، فهم ليسوا سوى خارجين مِنَ الدِّين، وأنَّ صلاتهم ليست سـوى مكاءٍ وتصديةٍ، يقرأُون القرآن، لايبلغ تراقيهم - وهـي صفـاتٌ أضفاهـا عليهـمُ الرَّسـول الأعظـم- وماهم سوى صورةٍ مكبَّرةٍ للنِّفاق الدِّينيِّ الماكر، الخادع للأغرار: أمثال هذا الشَّارح الغِمر!.

ولقد لحظتُ فيه ميلاً «خارجيّاً» قبل حاشيته التي عرضناها هنا: فإنه عندمـا يُـترجِمُ خارجيّـاً، نجده يحشو التَّرجمة بالثَّناء، ويُضفي عليه حلل المدح، وأهازيج الإطراء...

وإنه لعلى العكس، عندمـا يُـترجم لِمَـنْ فيه ميـلاً شـيعيّاً، فإنـه إنْ لم يُهملـه، أو لم ينـل منـه، يقتضب ويختصر، مهما وجد لذلك سبيلاً، ومهما كانت شخصيَّة المترجَم، عدا الـنَّزر القليـل، ممَّـنْ يفرض عليه القول فيه فرضاً، فلا يستطيع تخطِّيه.

والسبب في موقفه هذا كلِّه، بالنِّسبة لزياد، وللخوارج، وللشِّيعة -السبب في ذلك كلِّه واحدٌ.

فهو -في جميعه- لايصدر إلاّ عن شيءٍ في قلبه تجاه الإمام عليٍّ...

وماهي سوى ثمرةٍ مِنْ بذرة معاوية، لمناهضة الإمام، للانتزاء على المسلمين.

- ٣ -

لقد تفنّن معاوية في بيع هذه السِّلع وشرائها، وهو ذلك التّاجر النّهّاز، الذي لايدع فرصةً، إلاّ اهتبلها في صالحه الفرديّ، وأنانيته التّافهة.

وما الرَّشوة، وتقسيم الأموال، والتّرشيح للرئاسة، إلاّ أثمانٌ زهيدةٌ لديه... وإنها لكفيلةٌ بشراء الوفر العديد، مِنَ الضّمائر المعروضة، في هذه السُّوق السَّوداء!.

لذلك... فإنّه لِمَنَ السّهل جدّاً: أنْ يعقد - في كلِّ يومٍ - صفقةً، لِيشتري ضميراً، ويبيع ذمةً، ويقضي على معتقدٍ.

ولّما كانتِ الغاية مِنْ كلِّ هذا، هي محاربة عليٍّ، في سبيل التغلُّب على حقّه، والانتزاء على الأمَّة، فإنه لَيُوجِّه عنايته للنّيل مِنْ عليٍّ ذاته، ويرتكب مِنْ أجل غايته، حتى مالايُعقل.. فهو لايتورَّع أنْ يُذيع بين أهل الشام - ممّن لايُفرِّق بين: النّاقة، والجمل(١)، بأنَّ «عليّاً لايُصلّي». وأنَّ عليّاً هو مهريق دم عثمان، وأنَّ عليهم أنْ يطلبوا ذاك الدَّم المطلول، مِنْ هذا السَّفّاك...

وليس ثمّة مِنْ دِينٍ، أو خُلُقٍ قويمٍ، أو إنسانيَّةٍ رفيعةٍ، تقف في وجه هذا الرَّجل - القاحل منها - لِتحدَّ مِنْ طغيان شهوته، أو تردَّ شيئاً مِنْ جماحها، بل أطلق لشهوته العنان، وأسلس لها المِقودَ، فأخذت شوطها البعيد... تتفنّن في المنكر، وليس مَنْ يزع، وتوغل في الأراجيف، وليس مَنْ يُنكر، وتبعّد في الكذب، وليس مَنْ ينهى، وتفاخر بالباطل، وليس مَنْ يغضب!

إذا رُزقَ الفتى وجهاً وقاحاً
تقلّبَ في الأمورِ كمَا يشاءُ

* *

(١) إشارةً لحادثةٍ تأريخيَّةٍ مشهورةٍ.

دعا إليه سمرة بن جندب – وسمرة أحد تجّار الحديث(١) – فبذل معاوية إليه مئة ألف درهمٍ، كيما يروي أنّ هذه الآية نزلت في عليٍّ:

---

(١) – لعلَّ مِنَ الخير: أنْ نضع –هنا، أمام القارىء الكريم– صورةً مصغَّرةً، تعرض جانباً مِنْ جرائم سمرة الشَّنيعة:

جاء في ص٢٥ ج١، مِنْ مسند الإمام أحمد، مسنداً عن ابن عبَّاس:

[ذُكر لعمر رضي الله عنه: أنَّ سمرة – وقال مرَّةً: بلغ عمر أنَّ سمرة باع خمراً، قال: قاتل الله سمرة. إنَّ رسول الله صلّى الله عليه و«آله» (*) وسلَّم، قال: لعن الله اليهود حُرِّمت عليهمُ الشُّحوم فجمَّلوها فباعوها].

ولسمرة جرائمُ وآثامٌ، تندى لها الصمُّ الصِّلاد: حياءً وخجلاً، حيث قتل مِنَ البصرة –وقد استخلفه عليها زياد اللَّعين، ونعمَّا المخلِّف والمستخلف– قتل فيها ثمانية آلافٍ!.

وإنه لرقمٌ يشبه الخيال!. ويُصوِّر الدَّمار الذي حلَّ بالأُمَّة مِنْ جرَّاء حكَّام الجور؟. فثمانية آلاف بريء، يقضي عليهم سمرة، وماهو إلا أميرٌ مؤقّتٌ... وليس يتحرَّج أو يتأثّم منها!. بل يقول جواباً لزيادٍ الذي سأله، لِيصل إلى دخيلة نفسه:

[هل تخاف أنْ تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟].

ولكنه يجيب بما هو بنتن زياد شبيهٌ، ليكون قريباً مِنْ سقوط نفسيَّته:

[لو قتلتُ إليهم مثلهم ماخشيتُ!].

فهو ليس يرى للأُمَّة أيَّة كرامةٍ، أو قيمةٍ... وإنما هي في ملكٍ، كهذا، مهدورة القيم، لاتُساوي قتلة الرَّجل أنْ يمرَّ موكب أميرٍ –كسمرة– فيقضي على مَنْ يقضي، بدون ذنبٍ، أو جرمٍ...!

وإذ يمرُّ سمرة على مَنْ أوجر بحربةٍ، مِنْ طلائع خيله، فيراه متشحِّطاً بدمه، لاينـدم ولايأسف، بل يقول هذه القولة، التي تُعبِّر عن اللامُبالاة:

[إذا سمعتم بنا قد ركبنا، فاتَّقوا أسنَّتنا].

وهو –بجميع جرائمه وأحداثه– لايعدو أنْ يكون واحداً ممَّنْ سبر غورهم، ودرس نفسيَّتهم معاوية، فرآهم ممَّنْ يُرضون شهوات نفسه، ويسيرون في ركاب هواه. وإنَّ مثل سمرة لَيعترف بذلك، فلنسمع له قولته:

[والله لو أطعتُ الله، كما أطعتُ معاوية، ماعذَّبني أبداً].

ولكنه، وقد أطاع معاوية في معصية الله، فيالَه من عذابٍ، يُقاسي حرَّه وويلاته!.

وقد رأينا الاكتفاء بهذا العرض الموجَز، عن جرائم سمرة، وهي أكثر مِنْ أن يحوط بها العرض الموجز. وليرجع بها القارىء في مصادرها مِنْ التأريخ –كتأريخ الطَّبريِّ ص١٧٦: ٤، والكامل ٣:٢٢٩– أحداث سنة ٥٠ – والغدير ٢٩، ٣٠: ١١.

(*) أضفنا في الصَّلاة على الرَّسول، الصَّلاة على «آله»، وجعلناها بين قوسين، فلسنا مِمَّنْ يُصلِّي على الرَّسول «الصَّلاة البتراء»، التي نهى عنها «ص». غير أنَّ أمانة النَّقل، دعتنا لإضافتها بين القوسين. وهذا ماسنسلكه فيما يأتي.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنيَا، وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ، وَإذا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها، وَيُهْلِكَ الحُرْثَ والنَّسْلَ - واللهُ لايُحِبُّ الفَسَادَ﴾(١).

وأنَّ هذه الآية نزلت في ابن ملجم، وهي:

﴿ومَنِ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾(٢).

ولعلَّ سمرة، رأى في هذا الثَّمن مالايفي بتفسيرٍ منحرفٍ لآيةٍ واحدةٍ، فكيف بآيتين؟! وراح معاوية يُساومه، فزاده مئة ألفٍ أُخرى... وليست المئتا ألفٍ، سوى ثمن تحريفٍ لتفسير آيةٍ واحدةٍ... فراحا يتساومان، حتى تمَّت الصَّفقة بأربعمئة ألف درهمٍ، فروى سمرة ذلك...!(٣)

وهكذا بمال الله، يُحارب أولياء الله! وبمال الإسلام يجهز عليه به! وبمال المسلمين، تُشوَّه قداسة مبدئهمُ الرَّفيع!.

* *

شاء معاوية: أنْ يستأجر قوماً، لوضع الأحاديث المنتقصة مِنْ عليٍّ... فاختار بعضاً مِنَ الصَّحابة والتَّابعين، الذين هم في نفوس العامَّة ثقةٌ، وقداسةٌ خُلعت عليهم، لتكون عماد مايرفعون مِنْ واهي البناء(٤).

---

(١) - البقرة: ٢٠٤ و٢٠٥.

(٢) - البقرة: ٢٠٧.

(٣) - ص٣٦١ م١ -الشَّرح الحديديُّ، والغدير ٢:١٠١ و٣٠:١١.

(٤) - لقد كانت الحيرة تنتابني، والعجب يأخذ منّي، أنْ أحد مَنْ يخلع على جميع الصَّحابة صفة القداسة والتَّنزيه، وأنْ لايُوجِّه إليهم أيَّ لومٍ على مايفتريه بعضهم، أو يقترفه...! وكيف يجمعون بين هذا، وبين دلالة القرآن والسُّنَّة التي تُعارض رأيهم، مادام في القرآن والسُّنَّة عدَّة آياتٍ وأحاديث، تدلُّ على النِّفاق المتفشِّي بين المسلمين، في عهد الرَّسول(ص).

ولو لم يكن لدينا مِنْ ذلك، سوى «آية الانقلاب»، و«منافقي المدينة»، و«الأعراب» وسورة المنافقين، وماجاء في الصِّحاح مِنْ أحاديث الحوض وغيرها -مِمَّا ذكرتها الصِّحاح... ⟸

وكان مِمَّنَ عقد معه تلك الصفقة – الرَّابحة ماديّاً، والخاسرة في ماعدا ذلك – قومٌ، عُدَّ منهم: أبو هريرة. وعمرو بن العاص. والزَّاني المغيرة بن شعبة. وعروة بن الزُّبير(١) – فاختلقوا الأخبار القباح، التي تحمل بين حروفها، الطَّعن على عليٍّ عليه السلام، والبراءة منه، في قبال جُعْلٍ يتقاضونه مِنْ معاوية، يُرضي مطامعهم و«يُرغب في مثله» – على حدٍّ تعبير الحديديٍّ.

فافتنَّ كلٌّ منهم في الوضع والافتراء، حتى أنَّ الزُّهريَّ، حدثه عروة بن الزُّبير، أنه قال: حدَّثتني عائشة: قالت: كنت عند رسول ا لله، إذ أقبل العبَّاس وعليٌّ، فقال: يا عائشة! إنَّ هذين يموتان على غير ملَّتي – أو قال: دِيني!.

وحديثٌ ثانٍ عنه: أنَّ النَّبيَّ قال لعائشة:

إنْ سرَّكِ أنْ تنظري إلى رجلين مِنْ أهل النَّار، فانظري إلى هذين قد طلعا.

فنظرت، فإذا العبَّاس وعليٌّ!(٢).

وروى عمرو بن العاص – وهو خدن معاويه وشريكه في أعماله – روى في ماروى: أنه سمع النَبيَّ(ص) يقول:

⟸ بل لو لم يكن هذا.. لَمَا وجدنا السَّبيل إلى تطهيرهم وتقديسهم، وأخْذ أعمالهم حَجَّةً مسلَّمةً، وسيرة بعضهم تنقض عرى الإسلام عروةً عروةً، كمعاوية ومَنْ هو في سلسلته... فكيف وهذه الآيات تفضحهم، وهذه الأحاديث تُحذِّر منهم، وتكشفهم؟!

فكيف الجمع بين هذا وذاك، وهما على طرفي نقيض..؟

وهذا لايعني كلَّ الصحابة – طبعاً – لأنَّ بينهم مَنْ هو مثال العدالة والحقِّ، ويُحاط بالتَّقديس والإجلال.

ولكن فقد وضح أنَّ ذاك كان حجر الأساس، في هذه الحرب الجائرة، المشبوبة الأوار، تُشنُّ ضدَّ إمام المتَّقين، الحدِّ الفاصل بين الإيمان والنِّفاق –كما جعله الرَّسول(ص)، في المستفيض مِنْ أحاديثه.

ففي سبيل حربه، وفي سبيل الطَّعن عليه، مِنْ أجل أنْ تأْتي النَّتيجة المرجوَّة، مِنْ استئجار هذه الفئة مِنْ بعض الصَّحابة –كانت هذه الفرية الكاذبة، وصُيِّر منها المدماك الأوَّل، في هذا البناء الظلوم.

(١) – ص٣٥٨ م١ –النهج. ولسنا نُريد العرض – بالتفصيل – لواقعة زنى المغيرة. ولها في التَّأريخ سطورٌ سود. فَمَنْ شاءها – وهي أشهر ماتكون – فليرجع لها في مصادرها.

(٢) – تجد الحديثين «!» في الشَّرح الحديديِّ – ص٣٥٨م١.

(إن آل أبي طالبٍ، ليسوا لي بأولياء. إنما وليِّيَ ا لله وصالح المؤْمنين)(١).

وقال أبو جعفر الإسكافيُّ – في روايته عن الأعمش:

لَمَّا قدم أبو هريرة العراق، مع معاوية – عام الجماعة(٢) – جاء إلى مسجد الكوفة، فهاله مارأى مِنْ كثرة مستقبليه، فجثا على ركبتيه، ثم ضرب «صلعته»، مراراً – ولعلّه يستوحيها!– وقال:

---

(١) – المصدر ذاته ص٣١٨م١، وص١١م٣، وصحيح مسلم ١٣٦:١، وفيه (آل أبي – يعني: فلاناً)...!

(٢) – هكذا حلا لبعض المؤرخين المأجورين أنْ يُسمُّوا هذا العام، وهو اسمٌ لايُعبِّر عن واقع ذلك العام، الذي انتزى فيه معاوية على الحكم الإسلاميِّ، إلاَّ تعبيراً عكسيّاً! فهو عام التَّفرقة والتَّباعد والتَّنافر، وليس فيه أثرٌ للجماعة والاجتماع!.

وقد قدِّر لي – بعد مدَّةٍ مِنْ كتابة هذه السُّطور – أنْ أقف على كتاب «معاوية بن أبي سفيان في الميزان»، وقرأتُ فيه ماعُلِّق على تسمية هذا العام بهذا الاسم، فوجدتُ فيه تحرياً للوزن بالقسط، وإنْ كان الكتاب – في بعض نقاطه – قد بُخس فيه الميزان، فحاف ومال، مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، حيفاً وميلاً بارزاً، تلمسه اليد، وتُحسُّه العين، إلاَّ أنَّ هذا لايُعنينا في موضوعنا هذا.

جاء في ص٦٦ قوله:

(ولو حاسبه التَّأريخ حسابه الصَّحيح، لَمَا وصفه بغير مفرِّق الجماعات، ولكن العبرة لقارىء التَّأريخ في زنة الأعمال والرِّجال: أنْ تجد مِنَ المؤرِّخين مَنْ يُسمِّي عامه –حين انفرد بالدولة– عام الجماعة، لأنَّه فرَّق الأُمَّة شيعاً شيعاً، فلا تعرف كيف تتَّفق إذا حاولتِ الاتِّفاق، ومالبث أنْ تركها بعده تختلف في عهد كلِّ خليفةٍ شيعاً شيعاً، بين ولاة العهود!).

وضرب كثيراً مِنَ الأمثلة، عن خطط هذه التفرقة، حتى عاد – في ص ١٨٨– ليقول:

[فليس أضل ضلالاً، ولاأجهل جهلاً، مِنَ المؤرِّخين الذين سمَّوا سنة «إحدى وأربعين هجرية» بعام الجماعة، لأنها السَّنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة، فلم يُشاركه أحدٌ فيها، لأنَّ صدر الإسلام لم يعرف سنةً، تفرَّقت فيها الأُمة، كما تفرَّقت في تلك السَّنة، ووقع فيها الشَّتات بين كل فئةٍ مِنْ فئاتها، كما وقع فيها].

وراح –بعد ذلك– يعرض نماذج أُخرى مِنْ أعماله المفرِّقة، التي فتَّتِ الوحدة الإسلاميَّة المتماسكة، وهدَّدت دعامتها المكينة، ولايزال المسلمون يجنون من شجيٍّ ثمارها ويشربون مِنْ مائها العكر، فيصطاد فيه مَنْ لايعيش إلاَّ في الوسط الموبوء، حاملاً معول الهدم والتَّفرقة، سائراً في ملتوي الطَّريق المنتاد، الذي سلكه معاوية. ⟸

[يا أهل العراق! أتزعمون أني أكذب على الله وعلى رسوله، وأُحرق نفسي بالنَّار؟!](١).

⟹ وللجاحظ كلمةٌ قيِّمةٌ، تتَّصل بهذه النُّقطة، التي مشت فيها الأقلام المأُجورة، ونرى -لزاماً- عرضها هنا، حيث أنها تعرض هذه النَّاحية عرضاً مدعماً بالدَّليل، فقال في رسالته في بني أُميَّة - ص٢٩٣ و٢٩٤ مِنْ رسائله - بعد عرضٍ موجزٍ، عن بعض الأحداث التي أفسحتِ المجال لانتزاء معاوية، على الأُمَّة الإسلاميَّة «العظمى»:

[فعندها استوى معاوية على الملك، واستبدَّ على بقية الشُّورى وعلى جماعة المسلمينَ مِنَ الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سمُّوه «عام الجماعة»، وماكان عام جماعةٍ، بل كان عام فرقةٍ وقهرٍ، وجبريَّةٍ وغلبةٍ، والعام الذي تحوَّلت فيه الإمامة ملكاً كسرويَّاً، والخلافة منصباً قيصرياً، ولم يعد ذلك «أجمع» الضلال والفسق(*)، ثم مازالت معاصيه مِنْ جنس ماحكينا وعلى منازل مارتَّبنا حتى ردَّ قضيَّة رسول الله صلى الله عليه «وآله» وسلَّم ردَّاً مكشوفاً، وجحد حكمه جحداً ظاهراً في ولد الفراش، ومايجب للعاهر، مع اجماع الأُمّة على أنَّ سميَّة لم تكن لأبي سفيان فراشاً، وأنه إنما كان بها عاهراً. فخرج بذلك مِنْ حكم الفجَّار إلى حكم الكفَّار.

وليس قتْل حُجر بن عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراجَ مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثاربالفييء، واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشَّفاعة والقرابة، مِنْ جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشَّرائع المشهورة، والسنن المنصوبة وسواء فيما يستحق الكفار: جحد الكتاب، وردُّ السُّنة، إذا كانتِ السُّنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلاَّ أنَّ أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشدُّ.

فهذه أوَّل كفرةٍ كانت مِنْ الأُمَّة، ثم لم تكن إلاَّ في مَنْ يدَّعي إمامتها والخلافة عليها. على أنَّ كثيراً مِنْ أهل ذلك العصر، قد كفروا بترك إكفاره. وقد أربَتْ عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا، فقالت: لاتسبُّوه فإنَّ له صحبةً، وسبُّ معاوية بدعةً، ومَنْ يبغضه فقد خالف السُّنَّة. فزعمت أنَّ مِنْ السُّنَّة: ترك البراءة مِمَّن جحد السُّنَّة].

ونكتفي بعرض هذه القولة -أمام القاريء- وهي تُصوِّر أحد جوانب معاوية المنهارة- مِنْ ناحيةٍ. وتُصوِّر إلى ذلك: انحطاط القيم، حيث مُسخت الحقائق، وشُوِّه رواء الحقِّ، وقُلبتِ المفاهيم والمقاييس.

وتزداد أهميَّة هذه القولة، وتتضاعف قيمتها: أنْ يكون قائلها الجاحظ.

(١) - إنَّ هذا مِنْ أبي هريرة -أعترافٌ، فرضه عليه تداعي الخواطر، والحديث الباطن.

(*) كذا في النُّسخة، ولعلَّ الصِّحَّة: «أنْ جمع الضلال) الخ.

وا لله! لقد سمعت رسول ا لله «صلى ا لله عليه وآله» يقول:

إنَّ لكلِّ نبيٍّ حرماً، وإنَّ حرمي بالمدينة، مابين عيرٍ إلى ثورٍ(١) فَمَنْ أحدث فيها حدثاً، فعليه لعنة ا لله والملائكة والنّاس أجمعين، وأشهد با لله أنَّ عليّاً أحدث فيها.

ومابلغ معاوية قوله، حتى أجازه وأكرمه، وولاّه المدينة.

وتحضر حريز بن عثمان الوفاة، ويذكر عليّاً – حينذاك – فيقول، لِيختتم به عمله:

[ذاك الذي حلَّ حَرَمَ رسول ا لله (صلّى ا لله عليه وآله)، حتى كاد يقع](٢).

وليس هذا بغريبٍ منه، بعد قوله:

[إنَّ النّبيَّ – وقد حضرته الوفاة – أوصى بأنْ تُقطع يد عليٍّ](٣).

ولانعلم! فلعلَّ عليّاً – عند حريز – كان مِنْ لصوص اللّيل، كما شهد عليه بذلك الملك الخليع «الوليد بن عبدالملك» وقد ذكر عليّاً، فقال:

[لعنة ا للهِ – بالجرِّ – كان لصٌّ بن لصٍّ] – بالرَّفع طبعاً!.

---

(١) – غلَّط ابن أبي الحديد – في شرحه ص٣٦٠م١– بعد ذكره هذا الافتراء: رواية «مابين عيرٍ إلى ثورٍ» وصوَّبه بأنه «مابين عيرٍ إلى أُحدٍ».

ثم قال: وأمّا قول أبي هريرة: إنَّ عليّاً عليه السَّلام أحدث في المدينة، فحاشى لله! كان عليٌّ عليه السَّلام أتقى لله مِنْ ذلك. وا لله لقد نصر عثمان نصراً، لو كان المحصور جعفر بن أبي طالب، لم يبذل له إلاَّ مثله.

وأردف ذلك بأقوالٍ، لاترتضي أبا هريرة، وسيكون لنا عندها وقفةٌ، في ماسيمرُّ بنا مِنْ فصول الكتاب.

(٢) و(٣) ص ٣٦٠م١ شرح النَّهج.

وفي الغدير – ٥:٢٥١ – شيءٌ مِنْ أعمال حريز القباح، وتحريفه الوقح، تجاه الإمام الأعظم عليه السَّلام.

ونحن لانستغرب كلَّ مايختلقه حريز، بعد أنْ نعرف عنه أنه كان مِمَّنْ يلعن عليّاً –عليه السَّلام– ولايكتفي بذلك، حتى تبلغ لعناته –وتُردُّ عليه مضاعفةً– سبعين لعنةً [الغدير ٥:٢٥٠ ، ١١:٨٧].

ولانحتاج، بعد ذلك، لِنعرف أنَّ الحاكم أشار إلى شهرة حريز بالنُّصب [المصدر ١١:٨٧].

ولكن –مع كلِّ هذا– نجده أحد رجال صحيح البخاري –ويا للأسف!.

فعجب الناس مِنْ لحنه الفاضح، ومِنْ نسبته عليّاً – عليه السلام – للصوصيَّة، وقالوا: [ماندري أيهما أعجب؟](1).

وهكذا ينحدر هؤلاء بالقمم الشامخة، إلى أحط منحدرٍ!.

وإننا لنسأل حريزاً – لو كان له سمعٌ ولسانٌ – عماذا يرى في أبي بكر – وهو أوّل خليفةٍ تولّى المسلمين، بعد الرسول _ إذ لم ينفذ وصية الرسول، فلم يقطع يد عليٍّ...؟!

---

(1) – الشَّرح الحديديُّ– ص ٣٥٦م١.

وذكرها الجاحظ في البيان والتبيين –ص ٢٠٩:٢– وفيه:

[علي بن أبي طالب لص بن لص، صبَّ عليه شؤبوب عذابٍ]، بحيث اعتبر جهله في ضم اللاَّم –في لصٍّ– وأنه جهل مالم يجهله أحدٌ –على حدِّ تعبيره– إلاَّ أنَّ هذا لايستقيم مع نصِّ أرباب اللُّغة على تثليث لام اللُّص، فينتفي الجهل، حينئذٍ، باللُّغة، ولكن الجهل المفضوح في رواية الحديديِّ.

ومجرى حديث الجاحظ، أنه يعني بقائل هذا اللَّغو: الوليد، إلاَّ أنَّ السَّندوبيَّ الشَّارح، اشتهى صرْف هذا عنِ الوليد، إلى أحد ولاته، حيث علَّق على الضمير العائد للوليد: «ومع هذا أنه»، فقال: [هو يزيد بن أبي مسلم].

وممَّا يدعم أنَّ الجاحظ يعني الوليد: أنَّ الحديث –قبل هذه القصَّة يدور حوله، وبعدها –أيضاً– قصصٌ مِنْ لحن الوليد –خليفة المسلمين– وجهله باللُّغة العربيَّة، كجرِّ المنصوب –تارةً– ورفعه أُخرى– حتى بلغ تحريفه المخزي إلى بعض الآيات الكريمة، في قصصٍ مضحكةٍ مبكيةٍ...! وحتى أنَّ أباه عبدالملك قال: [أضرَّ بالوليد حبُّنا له، فلم نوجِّهه للبادية]– ومِنَ الحب مايقتل!.

وقد علَّق السَّندوبيُّ –على ذلك– موضِّحاً– النِّقاط الملحونة، في هذر الوليد، حتى أنه أوضح بأنَّ الوليد هو «أحد الأخوين اللَّحَّانين، وهما: الوليد ومحمَّد». كما أشار لذلك الجاحظ، أيضاً.

وبعد هذا، ليس بخفيٍّ عليك ماأراده مِنْ صرفه لحنه في سباب عليٍّ، لأحد ولاته، صرفاً صدر عن قصدٍ مفضوحٍ، وغايةٍ معروفةٍ...

وليس هذا، سوى دعمٍ لِمَا سبق إيضاحه، عمَّا لمسناه في نفسيَّة السَّندوبيِّ، وميله الجارف، وهواه الجموح، نحو كلِّ منحرفٍ عنِ الإمام عليٍّ عليه السَّلام!.

كانت هذه الحرب الدِّنيئة. يسعر أُوارها معاوية، ويمدُّ وقودها بمال الإسلام والمسلمين... يغتصبه وينتزعه مِنْ أهله، لِيغْدقه على آخرين، في قبالة حديثٍ ينتحلونه، أو منقبةٍ يفتعلونها، وأُخرى يُسدلون عليها ستاراً، أو آيةٍ يُحرِّفونها عما أنزلها الله، فيُحرِّفون الكلم عن مواضعه...

وكانت - إلى جانب هذه - حربٌ أُخرى، هي: المطاردة لكلِّ مَنْ يحفل قلبه بحبِّ عليٍّ عليه السلام، ويختلج لسانه بحمده وذكره الطَّيِّب. ومَنْ عُثر عليه مِنْ هؤلاء، فبين اثنتين: البراءة، أوِ السَّيف الذي لايرحم!.

وقد ضرب حُجر بن عدي وأصحابه، المثلَ للتضَّحية في سبيل المبدأ الرَّسيخ، والإيمان الصَّليب، الذي لايُميله إعصارٌ، ولايُخيفه سيفٌ بطَّاشٌ!.

ولم يكن معاوية، وقَدِ اشترى ملك المسلمين، وحوَّل الخلافة للملك العضوض، بالذي يحدُّ مِنْ غلوائه في سبِّ عليٍّ شيءٌ، فقد شاءها أنْ تكون بدعةً باقيةً، يُسجِّلها الدهر - في كلِّ يوم - سطراً فاحم الحرف، في تأريخ هذا الجائر الغدور.

رووا: إنَّ قوماً أُمويِّين، نصحوا لمعاوية، فقالوا:

إنَّك قد بلغتَ ماأمَّلتَ، فلو كففتَ عن لعن هذا الرَّجل!.

فقال:

لا والله! حتى يربوا عليها الصَّغير، ويهرم الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً(١)...

ولم يقف معاوية، في النَّيل مِنْ عليٍّ، عند هذا الحدِّ، فحسب! بل تخطَّاه، حتى نال مِنْ قداسة الرَّسول، ومقام النُّبوَّة.

---

(١) - ص ٢٥٦: الشرح الحديدي، والغدير ٢:١٠٢- عن الجاحظ.

وفي الغدير ٢٥٧- ١٠:٢٧١ عرضٌ مبسَّطٌ لبدعة معاوية في سبِّ عليٍّ ولعنه، عليه السلام، ودراسةٌ تعقيبيَّةٌ ممتعةٌ.

وحسبنا مِنْ ذلك ما قصَّه مطرف بن المغيرة بن شعبة، فقد قال:

وفدتُ – مع أبي المغيرة – إلى معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدَّث معه، ثم ينصرف إليَّ فيذكر معاوية، ويذكر عقله، ويعجب مما يرى منه. إذ جاء ذات ليلةٍ، فأمسك عن العشاء، فرأيته مغتمًّا، فانتظرته ساعةً، وظننت أنه لشيءٍ حدث فينا، أو في عملنا، فقلتُ له:

مالي أراك مغتمّاً، منذ اللّيلة؟!.

فقال: يا بنيَّ! إني جئتُ مِنْ أخبث الناس وأكفرهم!.

قلتُ له: وماذاك؟

قال: قلتُ له، وقد خلوتُ به:

إنّك قد بلغتَ مناك – يا أمير المؤْمنين!– فلو أظهرتَ عدلاً، وبسطتَ خيراً؟ فإنّك قد كبرت!. ولو نظرتَ إلى إخوتك مِنْ بني هاشم، فوصلتَ أرحامهم، فوا لله ماعندهم – اليوم– شيءٌ تخافه!.

فقال لي:

هيهات! هيهات! ملك أخو تيمٍ فعدل، وفعل مافعل، فوا لله ماعدا أنْ هلك، فهلك ذكره، إلاَّ أنْ يقول قائلٌ: «أبو بكرٍ». ثم ملك أخو عديٍّ فاجتهد، وشمَّرَ عشر سنين، فوا لله ماعدا أنْ هلك فهلك ذكره، إلاَّ أنْ يقول قائلٌ: «عمر». ثم ملك أخونا عثمان، فملك رجلٌ. لم يكن أحدٌ في مثل نسبه، فعمل ماعَمل وعُمل به، فوا لله ماعدا أنْ هلك، فهلك ذكره، وذِكرُ مافُعلَ به.

وإنَّ أخا هاشم يُصرخ به – في كلِّ يومٍ، خمس مرَّاتٍ– «أشهد أنَّ محمَّداً رسول ا لله»!. فأيُّ عملٍ يبقى بعد هذا – لاأُمَّ لك!– إلاَّ دفناً دفناً(١)؟!.

---

(١) – صلح الحسن ص ٢٢٥ عن مروج الذّهب للمسعودي [ص ٢:٣٤٢]، والنهج [٢:٣٥٧] وبرجوعنا لها للنّهج– ١:٤٦٢– وجدنا بينها وبين هذه الصُّورة بعض اختلافٍ، مثل: «وإنَّ ابن أبي كبشة» –بدل: «وإنَّ أخا هاشم». وتجدها في الحسن بن عليّ ص٢١٢، والغدير ٢٨٣، ١٠:٢٨٤ كما أنَّ سيِّدنا الوالد، أشار لها –مرَّتين– في كتابه «الدَّعوة...» ص٢٧٣ و١:٣١٢ .

وهل لنا أنْ نقول شيئاً، بعد هـذه القولـة مِنْ معاويـة، الـذي يؤلمـه أشـدَّ الألم، وينقضُّ مضجعه - كالسَّهم النَّافذ - ذكْر الرَّسول الأعظم«ص»، على المـآذن؟! في حين أنه يتحكَّم في المسلمين، ويبتزُّهم حقوقهم، متسـتِّراً باسـم الخلافـة الإسـلاميَّة، التي حوَّلها للملك العضوض الغاشم!!.

وماعسانا أنْ نعجب مِنْ رجلٍ، أو مِنْ قولٍ، نال مِنَ المغـيرة الزَّانـي الغـدور(١)، ماظهرت شاراته على وجهه، ولمس ذلك منه ابنه، كما لـو حـدث عليهـم - أو في عملهم - شيءٌ ذو بالٍ..! وليس يُؤثِّر على مثل المغيرة شيءٌ، كما يُؤثِّر عليه خلعـه مِنْ عملٍ، أو خسرانه في مالٍ...! ولكنه - وهو الشِّرير - لم يُطق صبراً علـى كفـر معاوية، ونيله مِنَ الرَّسول«ص» - فما حال مَنْ كفَّره النُّمرود، كما يقولون؟!.

* *

وليس لنا أنْ يمتدَّ بنـا السَّـير في تقصِّي أقـوال معاويـة وأفعالـه، الـتي يُنـاهض فيهـا الرَّسول، ويُخالفه بقصدٍ، وإصرارٍ. ممَّا يخرج به عن حظيرة الإسلام - والإسلام: قـولٌ، وعقيدةٌ، وعملٌ - ومعاوية يُناهضه في جميع ذلك، غير مكتفٍ بناحيةٍ دون أُخرى.

ونحن لو أُطعنا اليراع، وشئنا هذا التَّقصي، لخرجنا بموضوع الكتاب، إلى جادَّةٍ غير هذه.

ولكننا نرى أنْ نُرجع القارىء الكريم، إلى الموسـوعة الضَّخمـة: الغديـر، ولاسـيَّما جزئه العاشر، ففيه: عرضٌ شاملٌ، ورائعٌ حقَّاً، وتقصٍّ لنواحٍ عدَّةٍ، مِنْ هذه المخالفـات، التي أشرنا إليها، والتي يـأتي بهـا معاويـة قـولاً وعمـلاً، وعـن عنـادٍ مقصـودٍ، وإصـرارٍ مفضوحٍ، وتحدٍّ لاذعٍ، وتهكُّـمٍ سـاخرٍ، يدفـع كـلَّ ذلـك: حقـدٌ دفـينٌ، وشـركٌ رسـيخٌ موروثٌ، وسياسةٌ مكيافيليَّةٌ وصوليَّةٌ، وعداءٌ سافرٌ، ورثـه مِـنَ البيـت الأُمـويِّ، والبيئـة الجاهليَّة الموبوءة، لهذا البيت الهاشميِّ الكريم، في أشخاص زعمائه وقادته الهداة البررة.

---

(١) - في النهـج ص ١٧٧م١: إنَّ المغـيرة كـان يقـول: والله مانصحتُـه -يعـني عليَّـاً- قبلهـا، ولاأنصحه بعدها، مابقيتُ.

فحبَّذا الصَّحابيُّ العدل! «والدِّين النَّصيحة!».

مضى هذا العصر المظلم، لِيعقُبه عصرٌ أشدُّ ظلمةً، وأحلك رقعةً. وعلى المدلج في العتمة: أنْ تشتدَّ عليه وطأة الظَّلام الثَّقيل، قبل أنْ يُزيح نور الفجر، عن عينيه، تلك الغشاوة الفاحمة.

جاء عصرٌ، أخذوا فيه لعن عليٍّ «سنَّةً»!، وقد أخذت في القلوب مكاناً، عمَّقته الأهواء، وأفسحت إليه، ليكون على قرار.

فإنْ سها على الخطيب، أو إمام الجماعة: لعْنُ عليٍّ عليه السلام – مرَّةً واحدةً – أخذته الجلبة الصَّاعدة إليه مِنْ كلِّ مكان، تُطالبه، هاتفةً: السُّنة! السُّنة!. فيعرف – حينذاك – أيَّ خطأ ارتكب، وأيَّة سُنَّةٍ ترك!.

فمعاوية قد حفر في كلِّ قلبٍ أمويٍّ – نسباً، أو نزعةً – هذه الكلمة، التي تتصدَّع لهولها الجبال، وتتفطَّر السماوات – فكانوا بها يختمون خطبة الجمعة:

[اللّهمَّ إنَّ أبا ترابٍ قد ألحد في دينك، وصدَّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذِّبه عذاباً أليماً](١).

ولم تكد تُمحى مِنَ القلوب، وتُنسى مِنَ الأفواه، إلاَّ في عصر عمر بن عبدالعزيز – الخليفة الزَّاهد.

غير أنَّ بين العصرين، مساوىء، تندى لها الجباه، وتأْريخاً مسودَّ الجبين، قاتم الحرف، فعلتْ فعلها السيء، فغيَّرت مجرى التَّأْريخ، ودنَّست نضارة الحقِّ.

وليس عصر الحجَّاج الطَّاغية الغدور – في إمارته – وهو التِّلميذ النَّبيغ لمعاوية...(٢)

ليس هذا العصر، بالذي يُنسى، وهو الحفيل بكلِّ سوءٍ. فقد دعَّم مِنْ بناء معاوية، وأضاف إلى ذلك الصَّرح الظَّلوم لبناتٍ، رفعت مِنْ عالي بنائه الطَّاغي.

---

(١) – ص٣٥٦ م١ مِنَ النهج، والغدير ٢:١٠٢– عنه، وعنِ الجاحظ– ٢٩٠:١٠، والدَّعوة ١:١٥٥.

(٢) – نُريد بهذه التَّلمذة: انتهاج سيرة معاوية.

ففي عصر هذه الطَّاغية، أعمل السَّيف في رقاب الشِّيعة، وقتل صبراً، وعلى الظِّنة والتُّهمة، ماهو بالأساطير أشبه!.

وماهو سوى دعوةٍ، مِنْ دعوات الإمام عليٍّ عليه السلام(١) على أهل العراق، الذين ودَّ لو يُصارفهم بغيرهم، مصارفة الدِّرهم بالدِّينار!.

وكان الحجَّاج ذا نقمةٍ، فأرضى سفالة ضميره، وفائر حقده، ومستفحل بغضائه. فكان يلعن عليّاً – كما كان سلفه معاوية – ويأمر بلعنه!.

استعرضه – يوماً – رجلٌ، وكان راكباً، فقال له: أيُّها الأمير! إنَّ أهلي عقُّوني، فسمَّوني عليّاً، وإني فقيرٌ بائسٌ، وأنا إلى صلة الأمير محتاجٌ!.

فبلغ لطفُ هذا التَّوسُّل – لدى الحجَّاج – ماأثار كوامن حقده، ورواسب نفسه اللَّئيمة، فبدَّل اسمه، وولاّه عملاً، وأشخصه إليه(٢).

* *

وأراد الحجَّاج أنْ يُكافيء عبدا لله بن هانيء، حيث قد شهد معه مشاهد، فشاء أنْ يُزوِّجه مِن ابنة سيِّد فزارة: أسماء ابن خارجة، وابنة رئيس الثمانيَّة: سعيد بن قيسٍ الهمدانيِّ.

وإذ لم يقبلا عبدا لله زوجاً، دعا للأوَّل بالسياط، وللآخر بالسيف، فأطاعا! وزوجاه ابنتيهما«؟!» – ونعم هذا الزَّواج الشرعيُّ، يقوم به أمير المسلمين؟!.

حينذاك أخذ الحجَّاج يمنُّ على عبدا لله – هذا – بما أنعم عليه. وإذا بهذا يقف في وجهه، ليردَّ عليه هذه المنَّة، بقوله:

– لاتقل – أصلح ا لله الأميرَ! ذاك! فإنَّ لنا مناقب، ليست لأحدٍ مِنَ العرب.

– وماهي؟.

– ماسُبَّ أمير المؤمنين عبدالملك، في نادٍ لنا قطٌّ.

– منقبةٌ وا لله!.

---

(١) – إشارة إلى دعوات الإمام، عليه السلام، الكثيرة على أهل العراق، كقوله: «اللّهم سلِّط عليهم غلام ثقيفٍ، يسقيهم كأساً مصبَّرة»، وغيرها.

ومادعوات السِّبط الحسين –يوم الطَّفِّ– ببعيدةٍ، ولاسيما قوله: «ولاتُرضِ الولاةَ عنهم أبداً» الخ.

(٢) – ص٣٥٦م١، و١٦م٣، مِنْ شرح ابن أبي الحديد.

– وشهد منّاصفّين –مع أمير المؤْمنين معاوية!– سبعون رجلاً. ماشهد منّـا مـع أبي ترابٍ، إلاّ رجلٌ واحدٌ، وكان، وا لله، ماعلمته، إمرأ سوءٍ.

– منقبةٌ وا لله!.

– ومامنّا رجلٌ، عُرض عليه شتْم أبي ترابٍ، ولعْنه، إلاّ فعل، وزاد ابنيه: حسناً وحسيناً، وأُمَّهما فاطمة!.

– منقبةٌ وا لله!.

– ومأحدٌ مِنَ العرب، له مِن الصَّباحة والملاحة مالنا.

غير أنّ هذه لم يعدَّها الحجَّاج مِنَ المناقب، ووجَّه قائلها الذّميم، الشّديد الأُدمة، المجدور، العجرُ الرَّأْس(١)، المائل الشّدق، الشَّديد الحول، القبيح الوجه(٢).

إن هذا الوجه شاهدٌ عكسيٌّ، على هذه المنقبة، الـتي ضـنَّ بهـا عليـه الحجَّـاج، فضحك في وجهه:

– أمَّا هذه – يا أبا هانيء! فدعها!(٣).

* *

لقد بلغ معاوية ما أمَّـل، إذْ أبقـى شـتم عليٍّ ولعْنـه بدعـةً، ربـى عليهـا الصَّغير، وهـرم الكبير. ولكن دون أنْ ينال مِنْ جوهر الحقّ ماأراد – فا لله متمٌّ نورَه، ولو كره الكافرون.

جـاء الخلـف الآثـم، لذلـك السَّـلف الشّرير، فـافتنَّ في تلـك البِـدع، حسـب ماشاءت له سفالة ضميره.

يصعد المنبر – في العراق – خالد بن عبدا لله القسري – وكان أمـيراً في ملـك هشام – ويلعن عليّاً عليه السلام، فيقول:

اللّهمَّ العن عليَّ بن أبي طالبٍ، ابن عبدالمطلب، بـن هاشـم، صهـرَ رسـول ا لله «صلّى ا لله عليه وآله» على ابنته، وأبا الحسن والحسين.

---

(١) – العجرُ: مصدرٌ، وهو –هنا– بمعنى «النُّتوء».

(٢) – كذا سجَّل وصفَه التَّأْريخ. فلعلّه مِنْ فصيلة القرود والخنازير!.

(٣) – ص ٣٥٧م١، مِنَ النَّهج الحديديِّ، والدَّعوة ص١:٢١٠٠

ويُقبل على النَّاس، وقد أخذ منه الجذل محلاً عميقاً، فقد أتى ببدعـةٍ جديـدةٍ، إ لعـن عليّاً «عليـه السـلام»، لعنـاً، لايقبـل التّـأويل والصَّـرف، فـلا كنيـة فيـه، ولاغموض، ويُسائلهم حينئذ:

هل كنَّيتُ؟!(١).

ومـرةً أُخـرى يعيـد تلـك الصُّـورة البشـعة مِـنْ معاويـة، في نيلـه مِـنَ الرَّسـول الأعظم«ص»، وهو على بدَعه يسير، وبضلاله ينتهج، وفي تلك التُّربة الخبيثة، الـتي طلعت فيها تلك الشَّجرة الملعونة – أُميَّة السوء – نشأ واستُعبد.

إنه ليقول – مرَّةً أُخرى – بعد أن انتهى مِنْ شتمه لعليٍّ، حيث خطب النَّـاس، في يوم جمعةٍ، فلم يكتف بـالقربى مِنَ ا لله – في هذااليوم الفـاضل – بشـتم علـيٍّ دون النَّيل مِنَ الرَّسول الأعظم«ص»، فقال:

(وا لله إنْ كان رسول ا لله لَيستعمله – يعني عليّاً – وإنـه ليعلـم مـاهو، ولكنـه كان ختنه).

أرأيت كيف بلغ مساسه للرَّسـول، وقدسيَّة الرِّسـالة، وطهـارة النُّبـوَّة، حيـث جعل مِنَ الرَّسول رجلاً عاطفيّاً، يدور مع الهوى، والعاطفة، مجانباً للحقِّ والصِّـدق، بحيث يخرج قائلها – كما كان قبله معاوية – مِنْ حظيرة الإسلام، بعد النَّيل الشَّائن مِنْ نبيِّ الإسلام.وقد كان سعيد بن المسيَّب، المشهور بانحرافه عن عليٍّ حاضراً، وقد نعس لحظة ألقى فيها خالد قولته، ففتح عينيه مذعوراً، ويسأل:

ويحكم! ماقال هذا الخبيث! رأيتُ القبر انصدع، ورسول ا لله يقول: كذبتَ يـا عدوَّ ا لله!(٢).

---

(١) – النَّهج ١:٣٥٦، والكامل للمـبرِّد ٦٧٧ و٢:٦٧٨ بزيادة توضيـح، وهـي: «بـن عبـد مناف، ابن عم رسول ا لله صلى ا لله عليه «وآله» وسلَّم، وزوج ابنته فاطمة».

وقدِ استكبر المؤلِّف ذكْر اللَّعن، فعبَّر عنه بقوله: «فعل ا لله على عليٍّ» الخ.

(٢) – أعيـان الشِّيعة ٣٥:٧٨، وص١٥ مِـنْ رسـائل الجـاحظ في نقـض العثمانيَّـة لأبـي جعفـرٍ الإسكافيِّ.

بهذه الأعمال القِباح، وبهذا الأُسلوب البذيء، المقصى فيه العنصر الأخلاقيُّ، والممحل مِنَ الإنسانيَّة - بكلِّ هذا قاوموا الحقَّ، وقد رأوه لايُرضي منهم المطمع الجشع، ويُحرِّم عليهم مقاعد، تُبوِّئهم مقاعد مِنْ جهنَّم.

والتَّأريخ بمثل هذه الأعمال، مسودَّةٌ منه الصَّحائف، والكاتب ينال منه العجز، لو شاء الحصر!.

ولكن مايُثير الألم: أنْ نجد مثل هذه الأعمال السُّود، يقوم بها أناسٌ، هم رعاة الأُمَّة، ونُسمِّيهم: أُمراء المؤْمنين - تارةً - وخلفاء الرَّسول - مرَّةً ثانيةً - فلا نرى فيهم غير: طليقٍ، ومنافقٍ، وسارقٍ، وزانٍ، وجائرٍ، وسكِّيرٍ، ووزغٍ، وفاجرٍ... إلى آخر هذه الحلقة المفرغة، مِنَ النَّتن الخنَّاق، المنبعث مِنْ صفات هؤلاء الوُلاة الدُّون.

فمعاوية الطَّليق المنافق: أمير المؤْمنين. ويزيد السِّكير العربيد: خليفة الرَّسول. ومروان الوزغ بن الوزغ، خليفة المسلمين. و... و... إلى أنْ تطوف بمثل الطَّاغية عبدالملك، أو النَّاقص يزيد، أوِ الحمار مروان.

ثم نعود... فنرى هذه الأقوال المفتعلة، والأحاديث المختلقة، والكلم المحرَّف، والتَّفاسير المغرضة، تنبعث مِنْ شفاهٍ، تقول: «سمعنا رسول الله يقول...»

ونبحث عن أصحاب هذا الزُّور المفتعل، والبهتان الآثم، فنجدهم - ويالألم الكاسف!- أُولئك الذين تُخلع عليهم صفة أصحاب الرَّسول... ثم يُتَّخذ مِنْ صفة «الصُّحبة»: سياجاً منيعاً، يحوط هذا الزُّور، ويرعى ذلك البهتان، وستراً واقياً على هذه المساوىء، وتلك المناكير!.

ومَنْ حاول تخطِّي هذا السِّياج، أو إزاحة هذا الستر، فإنه للرَّجل المتخطِّي - في رأْي أصحاب هذا الفنِّ مِنَ التِّجارة - للحقِّ، والقائل في أصحاب الرَّسول مالايجوز، والحسود الشَّانىء لهم، إذ يغمطهم حقَّ هذه الصُّحبة المقدَّسة، ولايرفعهم

عن بشريَّتهم التي هووا بها – هم أنفسهم – إلى درجة الحيوانيَّة البهيميَّـة الحمقـاء، وهدُّوا – بأيديهم – أُسس ذلك البناء الشَّـموخ... وحطَّمـوا – بمعـاولهم – ذلـك السياج الذي شُيِّد لهم، ومزَّقوا بأناملهم – تلك السُّتر البالية، بما أجرمـوا وخـانوا، وراءها، بعيداً عنِ العيون، ظانّين أنَّ عيون الرُّقباء عنهم غافيةٌ ساهيةٌ...

وهـم يعملـون مـايعملون، ويتقـاضون عليـه – مِنْ مـال ا لله، ومـال الأُمَّـة – مايُشعل قبورهم ناراً، وتُكوى بـه جبـاههم وجنوبهـم، وتُبـدَّل جلودهـم غـير تلـك الجلود.

إنهم لَينالون هذا المال، الذي تُبعثره أيدي أُولئك، الذين يُسـيِّرون دفَّـة الملـك، ولايهمُّهم سـوى بقـاء العـرش تحتهـم، فيبذلـون – في سـبيل حمايـة العـرش – كـلَّ وسيلةٍ،، وكلَّ غالٍ ومرتخصٍ، ولاتهمُّهم سوى النَّتيجـة، بـدون مبـالاةٍ، أوِ اختيـارٍ للوسيلة، مادامتِ «الغاية تُبرِّر الواسـطة». ولكنهـم – مـع هـذا – يُعتـبرون: أئمَّـة المسلمين، وخلفاء الرَّسول!.

وهكذا ساروا بالأُمَّة إلى مهاوي الضَّلال، مجهزين على الضَّمير الحيِّ، سـاخرين مِنَ العدالـة، مجـانبين للحقِّ، قـائلين لـلزُّور، أكّـالين للسُّحت، سمَّـاعين للكـذب، لاتهمُّهم سوى أنانيَّتهمُ الحمقاء، ونهمهمُ البشع.

هذا يكذب ويختلق، ويفتري ويُزوِّر، ليأْخذ أجر أتعابه، ذهبـاً مسـروقاً، وفضَّـةً منهوبةً، في رشواتٍ مخزيةٍ مخجلةٍ...!

وذاك يدفع هذا بسخاءٍ مدرارٍ، ومـاهو لديـه، سـوى الطُّعـم الحقـير، في سـبيل السَّيطرة على الدَّست، وسوم الأُمَّة ألوان العذاب، وأنماط الهوان والتَّنكيل.

وبين هذا وذاك دماءٌ مطلولةٌ، وحقوقٌ مهـدورةٌ، وكرامـاتٌ مسـتباحةٌ، وظلـمٌ فاشٍ، ومناكيرُ معلنةٌ، وفقرٌ أسودُ كفورٌ.

وليس هذا سوى النَّتيجة الطَّبيعيَّة المحتومة، لهذا العصر المظلم الجائر.

يمضي هؤلاء، وقد دسُّوا في الدِّين، وعاثوا حسب ماشاءت الأهواء الدُّون، وأفسدوا حسب مااشتهتِ الأغراض السُّودَ والمطامع البهيميَّة...

يمضي هؤلاء، لِيجيء – بعدهم – أُناسٌ، يتقبَّلون ماجاء، ويأْخذونه على أنه حقٌّ!.

ولو أمعنوا قليلاً، وأعملوا شيئاً مِنْ فكرهم، وقاموا بمهمَّة الباحث، لتكشَّف لهم هؤلاء عن مساوىء وعوراتٍ، ليس لها سوى الرُّغام، تُدَسُّ فيه، فلا تُعكِّر مِنْ صفاء الجوِّ، ولاينبعث منها مايُسوِّد صفحة الدِّين البيضاء.

يمضي أولئك، وقد دنَّسوا الصفحات، وسوَّدوا التَّأْريخ، لِيخلف مِنْ بعدهم خلْفٌ، يزيد في الطِّين بلَّةً، ويُضيف إلى المناكير، مايزيد في بنائها.

وإنَّ مِنْ هذا الخلف الآثم، مَنْ لايقف عند حدٍّ مِنَ الإسفاف والزُّور، بل يمضي سادراً في الغيِّ والإفتراء، فلا رقيب مِنْ دِينٍ، ولامحاسب مِنْ ضميرٍ، ولارادع مِنْ حقٍّ، ولاخوف مِنْ عقابٍ.

وقد كنتُ أظنُّ أنْ أقف على الكثير مِنَ الكذب والزُّور، في نيل عليٍّ عليه السلام مِنْ عصر معاوية، ومَنْ خلَف بعده مِنْ ملوك الشَّجرة الملعونة في القرآن، ومَنْ هم منهم، في الهوى والنَّزعة، مِنَ المأْجورين الآثمين.

ولكن لم أتصوَّر، أو أظنَّ: أنْ أقف على مثل هذه الفرية، يأْتي بها السَّيوطيُّ: سبباً في نزول هذه الآية الكريمة:

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبوا الصَّلاَةَ، وَأَنْتُمْ سُكَارَى، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُوْلُونَ﴾(١).

فيأْتي بهذه الفرية، ويُضاعفها أنْ ينسبها لعليٍّ نفسه، إذ ينسب إليه أنه قال – وهو، يقيناً، لم يقل:

---

(١) – النِّساء: ٤٣.

(صنع لنا عبدالرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا، وسقانا مِنَ الخمر، فأخذتِ الخمر منّا، وحضرتِ الصَّلاة فقدَّموني، فقرأتُ: «قل يا أيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون، ونحن نعبد ماتعبدون» فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

ونحن لانُريد أنْ نُناقش السَّيوطيَّ في السَّند، ومافي الافتراء ذاته مِنْ تناقضٍ في الرِّوايات، وتحريف اسم المصلّي - هنا - وإقحام اسم عليٍّ، هذا الإقحام الشَّائن، رغم أنَّ بعضها يُهمل الاسم، ولايذكر عليّاً بشيءٍ، وبعضها يُعيِّن غيره مِنَ الصَّحابة...

نحن لانُريد العرض بشيءٍ ما، لهذه المناقشة... بل نكتفي بالإشارة إلى تهافت محتوى هذا الافتئات. في تناقضه المكشوف، مع صريح القرآن، والأحاديث الثَّابتة، في حق عليٍّ «عليه السَّلام».

فشرب الخمر نقيضٌ، لآية التَّطهير، التي لايتطرَّق الرَّيب ولاالشَّكُّ، في أنَّ عليّاً ضمن نطاقها، بل هو أوَّل المنطبقة عليهم، ونقيضٌ لكونه نفس الرَّسول، في آية المباهلة، اللَّهمَّ إلاَّ أنْ لايأبى المفتئت: أنْ ينال الرَّسول بمثل مانال به نفسه!، وهو عليٌّ «عليه السَّلام».

وهي - مِن نظرةٍ أُخرى لجوانب هذا الافتئات - نقيض للثَّابت مِنْ سيرة عليٍّ، التي لم يختلف فيها اثنان، مِنْ أنَّ عليّاً لم يُشرك با لله، طرفة عينٍ، منذ وُجد، فكيف يُمكن الجمع بين هذا، وبين قراءته المحرَّفة - وأستغفر الله! - للآية: «ونحن نعبد ماتعبدون - وهي خطابٌ للكفَّار؟!.

وليس لنا أنْ نُناقش مثل هذا الافتئات المفضوح، بأكثر مِنَ الإشارة للشَّاطيء مِنْ بعيدٍ. إذ لو شئنا البسط والتَّقصي. والإحاطة الشَّاملة، لَما اتَّسع لنا مجال الوصول للهدف مِنْ هذا الكتاب.

ولكن يجب أنْ نُشير إلى: أنَّ هناك مَنْ ذكر حادثةً، كهذه، سبباً لنزول هذه الآية، وذكر شخصاً، غير عليٍّ هو الذي صلّى بالسكارى... فجاء مَنْ جاء،

---

(١) - أسباب النُّزول ٦٣.

وأسدل السِّتار على ذلك الصَّحابيِّ الكبير، ليُقيم مقامه عليّاً، دون أنْ يخشى عاقبة الكذب، ومايتنتج عنه من نيلٍ للرَّسول«ص» في ماينال به عليّاً، نفس الرَّسول!.

على أنَّ مِنَ المفسِّرين مَنْ ذهب إلى أنَّ هذا السُّكر، الذي جاء في الآية، ليس سكْر الخمرة، وإنما سكر النَّوم خاصَّةً(١).

* *

ونتتبَّع شيئاً، ممَّا أتى به هذا الخلف، الذي باعد بين الشِّقَّة، ووسَّع في هوَّة التَّفرقة والنِّفار، بما أتى به مِنَ الطَّمَّات، التي لاترتكز على شيءٍ، مِنْ صدقٍ، أو حقٍّ، أو على حسن قصدٍ، فقط.

نتتبَّع شيئاً مِنْ ذلك، ونُطالع بعض ماسطَّروه مِنْ أمثال ماعرضنا نماذجه، فنعجب لِما يُجيب به «الغزاليُّ» سائلاً، سأله عن لعْن يزيد:

– هل مَنْ صرَّح بلعن يزيد، يكون فاسقاً؟، ويجوز التَّرحم عليه؟.

فكان هذا جوابه:

إنَّ مَنْ لعنه يكون فاسقاً عاصياً – كذا؟!– لأنه لايجوز لعْن المسلم، ولايجوز لعْن البهائم، فقد ورد النَّهي عن ذلك، وحرمة المسلم أعظم مِنْ حرمة الكعبة، بنصِّ النَّبيِّ صلّى الله عليه «وآله» وسلَّم. ويزيد صحَّ إسلامه، وماصحَّ أمره بقتل الحسين، ولارضاه بقتله، ومالم يصحَّ منه ذلك، لايجوز أنْ يُظنَّ به ذلك. فإنَّ إساءة الظَّنِّ بالمسلم حرامٌ. وإذا لم يُعرف حقيقة الأمر، وجب إحسان الظَّنِّ به. ومع هذا فالقتل ليس بكفرٍ، بل هو معصيةٌ. وأمَّا التَّرحم عليه، فهو جائزٌ!. بل هو مستحبٌّ، لأنه داخلٌ في المؤْمنين، في قولنا في كلِّ صلاةٍ: اللَّهم اغفر للمؤْمنين والمؤْمنات(٢).

أرأيتَ هذا التَّناقض، وماوراءه مِنْ تدليسٍ؟! فإساءة الظَّنِّ بالمسلم حرامٌ. وقتْل الحسين ليس بكفرٍ. وحرمة المسلم أعظم مِنْ حرمة الكعبة – بنصِّ الرَّسول –

---

(١) – مجمع البيان: ٥:١١٢، والكشَّاف: ١:٣٩٧.

(٢) – السيرة الحلبية: ١:١٩٥.

فيحرم لعْن يزيد!، ولكن لاحرمة للحسين، ولاكرامة لدمه، ولاقيمة لِمَا جاء به الرَّسول في حقِّه، فليس في قتْله ماينال مِنْ كرامة يزيد: خليفة الرَّسول، وأمير المؤْمنين!، بل ولامايخدش في إيمانه، بل هو مندرجٌ تحت عموم قول المصلّي: «اللهم اغفر للمؤْمنين والمؤْمنات»!!!.

وليس القول بإيمان مَنْ قتل أباه، ونكح أُمه، وشرب الخمر في رأْس أبيه، مِنْ حيث شذوذ هذا القول، وتجنّيه على الحقِّ والصِّدق، إلاَّ دون القول - بله الاعتقادَ والدِّفاع بحرارةٍ- بإيمان يزيد الخمور والفجور، السُّكر والعربدة، الاستهتار والتَّهتُّك.

ولكن قتل يزيد للحسين «عليه السَّلام»، كان هو الدَّافع الأوَّل لهذا الموقف المخزي مِنَ الغزالي، في جانب يزيد، مدافعاً دفاع المستميت.

ويظهر أنَّ للغزاليِّ، حول هذا الموضوع - الدِّفاع عن إمامهِ يزيد بن معاوية - عدَّة مواقف، تتكرَّر حسب الحاجة، أو بدونها...! فهو يقول، مرَّةً أُخرى:

[فإنْ قيل: هل يجوز لعن يزيد، لأنه قاتل الحسين، أو آمرٌ به؟ قلنا: هذا لم يَثْبُتْ أصلاً، فلا يجوز أنْ يُقال إنه قَتَله، أو أمر به، مالم يثبت -«كذا؟!»- فضلاً عن اللَّعنة، لأنه لايجوز نسبة مسلمٍ إلى كبيرةٍ، مِنْ غير تحقيقٍ!](١).

ويعود، لِيُصرِّح عن مكنون ضميره، إذ لايكتفي بهذا الدِّفاع عن يزيد، بإنكاره الوقائع المسلَّمة، التي لايشكُّ فيها إلاَّ عنودٌ مكابرٌ، أو جهولٌ معتوهٌ... فتبرئته يزيد مِنْ قتْل الحسين، ليس بكافٍ لديه، لأنه عارفٌ مقدار ماحتمله مِنَ التَّضليل، وإنكار «أنَّ الواحد نصف الإثنين».

يعود، فيُحاول الدِّفاع مِنْ بابٍ آخر... الدِّفاع عن قتلة الحسين جميعهم، حتى ولو سلَّم أنَّ يزيد منهم، في رأْيه الفائل... فهو لم يستمت في دفاعه عن يزيد، ولو لم يكن قاتلاً للحسين، آمراً به، راضياً شامتاً... يقول:

---

(١) - إحياء العلوم ٣:١٢١ وإنَّ للغزاليِّ رأْياً آخر ينقض هذا الرَّأي، حيث عاد إلى رشده، وذلك في ص١٠ مِنْ (سرِّ العالمين)... وهذه الآراء تصدر عنِ: الدَّافع لوضع هذا الكتاب، أو ذاك...

[فإنْ قيل: هل يجوز أنْ يقال: قاتل الحسين لعنه ا لله، أو: الآمر بقتله لعنه ا لله؟.
قلنا: الصَّواب أنْ يُقال: قاتل الحسين، إنْ مات قبل التَّوبة، لعنـه ا لله، لأنـه يُحتمـل أنْ يموت بعد التَّوبة](١).

وراح يستدلُّ بفرية توبة وحشي، قاتل حمزة، وعدم جواز لعنه!، مع أنَّ وحشيّاً لم يمرَّ به يومٌ، تخلَّى فيه عن وحشيَّته، وقد اختتم حياته بمعـاقرة الخمرة، مدمناً لها، حتى غلبت عليه، فلا يكاد يصحو منها(٢).

ولكن (الغزاليَّ، وموقفه هذا، في محاولته أنْ لاتنال كافراً، أو فاسـقاً - كـيزيد، ووحشيٍّ، ومَنْ إليهما - لعنة لاعنٍ...

... إنَّ هذا الذي وقف مدافعاً عـن يزيـد ووحشـيٍّ، بـل حتى عـن زعيمهمـا إبليس، لعنه ا لله، إذ يقول:

[ولاخطر في السُّكوت عن لعن إبليس، فضلاً عن غيره](٣).

... إنَّ هذا - بكلِّ هذه المواقف الشَّـائنة، الـتي لايُريـد أنْ تنـال اللَّعنـة، حتى إبليس وحفدته. لايتأثَّم، ولايتحرَّج أنْ يقول: مثل هذه الطَّامَّة.

[الثَّانية: اللَّعن بأوصافٍ أخصَّ منه، كقولك: لعنة ا لله على اليهـود والنَّصـارى والمجوس، وعلى القدريَّة والخوارج والرَّوافض، أو على الزُّناة والظَّلمة وآكلي الربا، وكلُّ ذلك جائزٌ](٤).

وقد يُظنُّ أنَّ بين الموقفين كثيراً مِنْ تناقضٍ... فهو يُجيز - هنـا - لعْـن هـؤلاء الطَّوائف! بينما هو - هناك يُدافع عن مثل يزيد وطغمته، مِنْ قتلة الحسين، بعـد أنْ لم يرَ أيَّ بأسٍ في السُّكوت عن لعن سيِّدهم إبليس!.

(١) - إحياء العلوم ٣:١٢٢.
(٢) - الاستيعاب: ٣:٦١.
(٣) - احياء العلوم: ٣:١٢١.
(٤) - الإحياء ٣:١٢٠.

ولكن نظرة، فيها شيءٌ مِنْ رويَّةٍ وعمقٍ، تجعلنا لانجد شيئاً مِـنْ هـذا التّناقض، بل تربط بينهمـا الرَّبـط الموثَّـق. لأنَّ إجازتـه لعـن الرَّوافـض - هـذا النَّبز للطائفـة الشِّيعيَّة الحقَّة - يتّحد والدِّفاع عن يزيـد، في المرمـى، والهـدف، والغايـة. فـالجميع نتيجةٌ حتميَّةٌ، وثمرةٌ مريرةٌ، مِنْ بذرة الكره للعترة الطَّاهرة، آل رسول ا لله«ص».

ولسنا نستغرب - بعد كلِّ هـذا - أنْ يصفَّ الشيعة - أتبـاع آل البيـت «عليهمُ السَّلام» - مع الخوارج والقدريَّـة، في صـفٍّ واحـدٍ، وجـواز لعـن الجميـع لديه، لأنَّ الكل - لديه - مارقٌ مِنَ الدِّين، لايُرجى لهم خيرٌ، ولاتُقبل منهم توبةٌ.

بل لو صـرَّح عـن رواسـب مكنونـه ، لفضَّـل جميـع الفِرق والطوائـف والمِلـل الباطلة، على الفرقة الشيعيَّة، لأنَّ ذنبهـا الوحيـد: أنَّهـا شـيعةٌ لعلـيٍّ وبنيـه - هـذه الجريمة التي لاتُغتفر، والدَّرن الذي لايُغسل!.

وفرقٌ كبيرٌ جدّاً، بين موقف الغزاليِّ، في دفاعه عن يزيد الرَّذيلة، وقتلة السِّـبط الحسين، وبين موقف الجاحظ، مِنْ هـذه النُّقطـة بـالذات.ولعـلَّ مِـنَ الخـير أنْ نـأْتي بمقطعٍ ممَّا قاله الجاحظ، حول ذلك، وهذا المقطع حلقةٌ متَّصلةٌ بما سبق أن استشهدنا به مِنْ قول الجاحظ، حول فرية «عام الجماعة»:

[ثم الذي كان مِنْ يزيد ابنه، ومِنْ عمَّاله وأهل نصرته، ثـم غـزو مكَّـة، ورمـي الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسـين - رضـي ا لله عنـه - في أكـثر أهـل بيتـه: مصابيح الظَّلام، وأوتاد الإسلام، بعد الذي أعطى مِنْ نفسـه، ومِـنْ تفريـق أتباعـه، والرُّجوع إلى داره وحرمه، أو الذَّهاب في الأرض، حتى لايُحسَّ به، أوِ المقام حيث أُمر به، فأبوا إلاَّ قتله والنُّزول على حكمهم](١).

ثم راح يستدلُّ بأعمالٍ قام بها يزيد، ممَّا تُثبت كفره، حتى قال:

[واحسبوا ماروَوا عليه مِنَ الأشـعار، الـتي قولهـا شـركٌ، والتَّمثُّـل بهـا كفـرٌ، شـيئاً مصنوعاً، كيف نصنع بنقر القضيب بـين ثنيـتي الحسـين. رضـي ا لله عنـه! وحمـل بنـات

(١) - رسائل الجاحظ ٢٩٤.

رسول الله صلّى الله عليه «وآله» وسلّم حواسر على الأقتاب العارية، والإبل الصعاب، والكشف عن عورة عليٍّ بن الحسين، عند الشّكّ في بلوغه؟ على أنهم إنْ وجدوه وقد أنبت قتلوه، وإنْ لم يكن أنبت حملوه، كما يصنع أمير جيش المسلمين بذراري المشركين؟!. وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصّته: دعوني أقتله، فإنه بقيّة هذا النّسل، فأحسم به هذا القرن، وأُميت به هذا الدّاء، وأقطع به هذه المادّة..!؟

خبِّرونا: على مَ تدلُّ هذه القسوة وهذه الغِلظة بعد أنْ شفوا أنفسهم بقتلهم، ونالوا ماأحبُّوا فيهم؟. أتدلُّ على نُصبٍ، وسوءِ رأيٍ، وحقدٍ، وبغضاء، ونفاق، وعلى يقينٍ مدخولٍ، وإيمانٍ مخروجٍ؟!. أم تدلُّ على الإخلاص، وعلى حبِّ النّبيِّ – صلّى الله عليه «وآله» وسلّم– والحفظ لهُ وعلى براءة السّاحة، وصحّة السريرة؟. فإنْ كان على ماوصفنا لايعدو الفسق والضّلال، وذلك أدنى منازله. فالفاسق ملعونٌ، ومَنْ نهى عن شتم الملعون ملعونٌ](١).

ولانرى حاجةً في تعليقٍ على هذه القولة مِنَ الجاحظ، فإنَّ فيها، وفي ماتلاها مِنْ هذه الرِّسالة، للردِّ المفحم – سواءً كان بقصدٍ، أو بغير قصدٍ– على الموقف المشين، الذي وقفه الغزاليُّ، في دفاعه عن عصبة الجور والآثام، مجموعة الرّذائل، الشّجرة الملعونة في القرآن.

* *

وبعد أنْ نقف على تلك القولات المائنة، يفوه بها الغزاليُّ – وهو المعطى لقب «حجّة الإسلام»! – غير متأثِّمٍ ولامتحرِّجٍ... فإننا لانرى أيّة غرابةٍ، إذا قرأنا له قوله:

[يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكايته، وماجرى بين الصّحابة مِنَ التّشاجر والتّخاصم، فإنه يُهيج بغض الصّحابة والطّعن فيهم، وهم أعلام الدِّين، وماوقع بينهم مِنَ المنازعات، فيُحمل على محامل صحيحةٍ، ولعلَّ ذلك لخطأٍ في الإجتهاد، لالطلب الرِّياسة والدُّنيا كما لايخفى](٢).

---

(١) – المصدر ص ٢٩٥.

(٢) – الغدير ١٠: ٢١١ عن تفسير روح البيان ٤: ١٤٢، لإسماعيل البروسوي.

وغير خفيٍّ مايعنيه دفاعه هذا، وماشحن مِنْ تضليلٍ وتزويرٍ، مِنْ تحريم ذكر فاجعةٍ لم تمرَّ بالإنسانية مثلها، ومأساةٍ لم ولن يُشاهد بنو الإنسان نظيرها، وقد عدَّ - مِنْ أجل ذلك - يزيد وطغمته مِنْ أعلام الدِّين، الذين لايستقيم إلاَّ بهم، فلا يجرحهم إلاَّ مرتابٌ أو مبطلٌ.

وهو - هنا - شمل بالدفاع كلَّ مبطلٍ غشومٍ، حيث تناول بالدفاع، حتى عن معاوية في موقفه مِنْ حرب الإمام عليٍّ «عليه السلام»، لاجتهاده في ذلك، وأنه ليس لطلب الرِّياسة والدُّنيا، وإنْ كذَّبه أبو يزيد، وابن أبي سفيان، وحفيد أميَّة ذاته، في خطابه لأهل الكوفة:

أ[يا أهل الكوفة! أتُراني قاتلتكم على الصَّلاة والزَّكاة والحجِّ؟ وقد علمتُ أنكم تُصلُّون وتُزكُّون وتحجُّون. ولكنني قاتلتكم لأتأمَّر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتانيَ ا لله ذلك وأنتم كارهون، ألا إنَّ كلَّ مالٍ أو دمٍ، أُصيب في هذه الفتنة فمطلولٌ، وكل شرطٍ شرطته فتحت قدميَّ هاتين](١).

وليس لنا أنْ نُطيل الوقوف، عند كلِّ فريةٍ أتى بها الغزاليُّ، وكتابه «إحياء العلوم» - هذا الكتاب الذي سُمِّي بضدِّه!، وكثيرةٌ هي الأسماء المضادَّة للمسمَّيات! - وكتابه هذا مشحونٌ بالتَّفاهة والمين، والغشِّ والتَّضليل.

وماعرضْنا هذا، سوى نماذج تُعطي الصُّورة الواضحة، لِمَا ابتلت به الأُمَّة الإسلاميَّة، مِنْ رجال سوءٍ،هم تجَّار الدُّنيا باسم الدِّين.

إذ لولا ذلك، لَمَا جاء مَنْ يقول: «إنَّ الحسين قُتل بشرع جدِّه»(٢). - وهو أبو بكر بن العربي - ذلك أنَّ يزيد «إمام زمانه»، والحسين خارجٌ عليه!، وقتْله هو الجزاء الشَّرعيُّ، الذي يستحقُّه في دِين جدِّه.

---

(١) - الحديدي: ٦:٤، والغدير ٣٢٦:١٠ مسنداً.

(٢) - مقدِّمة ابن خلدون ص٢١٧ عنِ «العواصم والقواصم» لابن العربي.

وابن العربي يمتاز على الغزاليّ، في صراحتـه، فهما متّفقان في الرّأي والغاية، ولكن الثّاني، قدّم السُّمَّ ممزوجاً بما ظنّه عسلاً... أما الآخر فقدّمه صرفاً، يبين ظاهره عما في باطنه مِنْ خبثٍ، ومايحمل مِنْ سوءٍ...

* *

وليس يرضى المؤرِّخ ابن خلدون: أنْ ينال واحداً مِنْ أهل البيت المطهَّر، دون آخر، فأرسل هذه القولة الرّاعدة:

[وشذّ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها، وفقهٍ انفردوا به – إلى أنْ قال: وهي كلُّها أُصولٌ واهيةٌ. وشذّ بمثل ذلك الخوارج. ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم. بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح، فلا نعرف شيئاً مِنْ مذاهبهم، ولانروي كتبهم، ولاأثر لشيءٍ منها، إلاّ في مواطنهم. فكتُب الشّيعة في بلادهم، وحيث كانت دولتهم قائمةً في المغرب والمشرق واليمن، والخوارج كذلك. ولكلٍّ منهم كتبٌ وتآليف وآراءٌ في الفقه غريبةٌ](١).

وإنها لمفخرةٌ لابن خلدون: أنْ يدع فقه أهل البيت!، ولكن الأئمة مِنْ أهل البيت «عليهمُ السَّلام»، لم يبتدعوا شيئاً. وإنْ تكن أقوالهم مذاهب مبتدعةً – كما يقول ابن خلدون – فإنها راجعةٌ للقرآن العظيم «الذي جاء بتطهيرهم»... فليكنِ القرآن ينبوع بدَع أهل البيت وأصلها!.

ومفخرةٌ أُخرى له: أنْ يضعهم في قبال الخوارج، ويقيس شذوذ هؤلاء بأولئك! فتكون النتيجة المريرة، هي: مروق أهل البيت مِنَ الإسلام، كمروق الخوارج مِنَ الإسلام، في نصوص الرّسول«ص».

ومفخرةٌ ثالثةٌ: أنْ يُوسع مذهب أهل البيت – وهو صميم الإسلام – جانب الإنكار والقدح والازدراء!.

ولقد أسرف البعض في ذلك، حتى اضطرّ لمخالفة السُّنّة – الثّابتة لديه – لأنّ شيعة أهل البيت تعمل بها، فرغبةً في البعد المنفسح عنِ التّشبُّه بالشّيعة، عدل عنِ الثّابت مِنَ السُّنّة، إلى مايُخالفها].

---

(١) – المقدّمة ص٤٤٦.

ولابدَّ – هنا – مِنَ الإشارة إلى نماذج هذه المخالفة، التي ارتُكبت عمداً، لمجرَّد أخذ الشيِّعة بها، كسُنَّةٍ نبويَّةٍ:

إنَّ السُّنَّة في القبر هو التَّسطيح – كما هو الرَّاجح مِنْ مذهب الشَّافعيِّ – إلاَّ أن هناك مَنْ نصَّ على [أنَّ التَّسنيم أوْلى، لأنَّ التسطيح صار شعاراً للشيعة][1].

وقال الغزاليُّ والماورديُّ، حول ذلك:

[إنَّ تسطيح القبور هو المشروع، لكن لمَّا جعلته الرَّافضة شعاراً لهم، عدلنا عنه إلى التَّسنيم][2].

وكذلك التَّختُّم حيث أنَّ السُّنَّة تنصُّ عليه في اليمين، ولكنَّا نجد مَنْ يقول:

[إنَّ المشروع التَّختُّم في اليمين، ولكن لَمَّا اتَّخذته الرَّافضة جعلناه في اليسار][3].

وفي هذا الخلاف، قُصد به خلافُ الشِّيعة المتَّبعة للسُّنَّة، بالاضافة إلى اتِّباع معاوية، مبتدع هذا الخلاف للسُّنة، لأنه أوَّل متخذٍ للتَّختُّم في اليسار!.

وكثيراً مانجد مثل هذه الجملة الوقحة:

[إلاَّ أنه صار شعاراً للإماميَّة فينبغي تجنُّبه][4].

[ولأنه يُؤدِّي إلى الإتِّهام بالرُّفض][5].

[ولاينبغي للمؤْمن أنْ يتشبَّه بيزيد الملعون في بعض الأفعال، وبالشِّيعة والرَّوافض والخوارج أيضاً][6].

وكثيراً مانجد تعليل ترك السُّنَّة، «لكونه شعاراً للرَّافضة»!، [فإنَّ ترك السنَّة سنَّةٌ، إذا كان شعاراً لأهل البدعة، كالتَّختُّم باليمين، فإنه في الأصل سنَّةٌ، لكنه لما كان شعار أهل البدعة الظَّلمة صارتِ السُّنَّة: أنْ يُجعل الخاتم في خنصر اليد اليسرى، في زماننا][7].

---

(١) – ص٢٠٩ : ١٠ مِن الغدير.

(٢) – ص٢١٠ : ١٠ مِنَ الغدير.

(٣) و (٤) و (٥) و (٦) و (٧) – الغدير ص ٢١٠ – ٢١١ : ١٠.

وهكذا صار الخلاف للشيعة أصلاً معمولا به، وبدعةً تُخالَف بها السُّنّة الثّابتة، وليس مِنْ نكرٍ حول ذلك، حتى أنَّ هناك مَنْ قال عند «بيان التّشبُّه بالرّوافض»:

[ومِنْ هنا ذهب مَنْ ذهب مِنَ الفقهاء، إلى ترك بعض المستحبَّات، إذا صارت شعاراً لهم، فإنه وإنْ لم يكنِ التّرك واجباً لذلك، لكن في إظهار ذلك مشابهةٌ لهم، فلا يتميَّز السُّنيُّ مِنَ الرَّافضيِّ، ومصلحة التّميُّز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم، أعظم مِنْ مصلحة هذا المستحبِّ](١).

وتزدحم الأسئلة، وتكثر علامات الإستفهام، حول هذه الآراء المخالفة للسُّنّة، والمناهضة للشّرع، والجانية على حقِّ طائفةٍ حقّةٍ، لاذنب لها، إلاَّ أنها أخذت تعاليم الدِّين الحنيف، وأوامر القرآن الكريم، وسنّة الرَّسول الأعظم، مِنْ ينابيعها الصَّافية العذبة، وخضعت لِمَا جاء به هؤلاء، في حقِّ العترة الطَّاهرة.

هل مِنَ السُّنّة: هذه المخالفة؟!.

وهل يجب في نظر هؤلاء المخالفة، في كلِّ عملٍ يأتي به كلُّ مَنْ لم يُسايرهم في رأيهم، وأقوالهم هذه؟!. أم يختصُّ هذا الخلاف بالشِّيعة فقط – أو بعبارةٍ أصحَّ: بمخالفة أهل البيت، وحدهم، أحد الثقلين اللّذين خلّفهما الرَّسول الأعظم، ليهتدي مَنْ تمسَّك بهما، وينجو مَنْ تعلّق بحبلهما، ويهلك ويغرق مَنْ خالفهما، إنْ تقدم عليهما، أو تأخّر؟!.

وهل أن سنّة محمَّدٍ بن عبدا لله، قابلةٌ للتّحريف والتّغيير؟!.

أليس حلاله حلالاً، وحرامه حراماً، إلى يوم القيامة؟.

وماجزاء مَنْ يجرؤُ على القول: بأنَّ هذا العمل مِنْ سنّة الرَّسول، وأنا محرِّمه – أو: وأنا مخالفه، مِنْ أجل أنْ أتميَّز عن شيعة أهل البيت؟!.

إنَّ الشِّيعة تُقيم الصَّلاة، وتُؤتي الزّكاة، وتُؤدِّي ليس الواجبات الشّرعيَّة فحسب، بلِ الكثير مِنَ المندوب، ابتغاء مرضاة ا لله – فهل يجب على مَنْ يُريد مخالفتهم: أنْ يدع

---

(١) – الغدير ص ١٠:٢١٠.

ماتقيم وتُؤْتي وتُؤدِّيه الشِّيعة؟!. أم عليه – على الأقلّ – أنْ يأْتي بشيءٍ يُخالف به السُّنّة الثَّابتة، في سبيل أنْ لايأتي بهذا العمل المماثل لِمَا تأْتي به الشّيعة؟!.

وبعد أنْ نقف على هذا الاعتراف السَّافر، في تجويز مخالفة السُّنَّة الثَّابتة، لانلبث أنْ نجد مَنْ يرمي الشِّيعة بمثل هذا!، فيصدق المثل العربيُّ الصَّائب:

«رمتني بدائها وانسلَّت».

ودائماً نجد مصداق ذلك، في موقف أعداء أهل البيت، مِنْ شيعتهم!.

وهكذا بُليت الأُمَّة الإسلاميَّة، بأُناسٍ لم يستخدموا المعرفة، في سبيل الحقِّ، وإسعاد البشريَّة، بل استخدموها: معولاً للهدم، وبذاراً تُؤْتي ثمار التَّفرقة المرَّة... ولم يُوجِّهوا عقولهم مِنْ أجل توضيح الحقائق، والبحث عنها، بل في سبيل إضاعتها وتشويهها، كلُّ ذلك طمعاً في منصب، أو رتبةٍ، أو جاهٍ، أو مالٍ!.

فنحن، إنْ كنّا نعجب لأولئك، الذين اختلقوا الأحاديث، وافتعلوا الأكاذيب، وأتوا بالمنكر مِنَ القول، والزُّور مِنَ الحديث...!

... أو من معاوية – ومَنْ إليه، مِمَّن اشترى الضَّمائر، وخان العهود، ونقض الميثاق، وخضم مال الله «خضمة الإبل نبتة الرَّبيع»، وخفر الذّمم واستعلى على الأُمَّة، وانتزى على حقوقها...

أقول: إنْ كنّا نعجب لأولئك، لأفاعيلهم المنكرة، وأقاويلهمُ المفتعلة... فإنَّ عجبنا لهؤلاء، الذين زادوا الطّين بلّةً، وفي المزمار نغماتٍ، وأخذوا تلك المناكير على أنها أعمالٌ، لايُوجَّه إليها ذرَّةٌ مِنْ نقدٍ، ونقلوا ذلك الزُّور المفتعل، على أنه أحاديث موثوقة السَّند، وقد ندَّت بها شفتا رسول الله«ص» – وأستغفر الله!.

إنَّ عجبنا مِنْ هؤلاء، لاينتهي لحدٍّ، فهو جارفٌ مشتدٌّ. ذلك أنَّ أولئك، اختلقوا مااختلقوا، بعدما باعوا آخرتهم بدنياهم، وضميرهم وإنسانيَّتهم، وقبضوا الثَّمن البخس: ذهباً وهَّاجاً، وفضَّةً ناصعة البياض – وإنْ كانت قيمة ضمائر مسودَّة الدَّخلة...

وأمَّا المشتري، فهو: رجلٌ متاجرٌ، لايعرف فضيلةً، ولايقيم لها وزناً...! لايعرف سوى الغاية الدُّون، التي ينشدها، ويعدو خلفها، فيتّخذ كلَّ وسيلةٍ جسراً لها - مهما كلّف الثّمن، ومهما كان خسرانه في ميزان القيم...!

إنَّ الغاية - لديه - تُبرِّر الواسطة، حتى ولو كانت الواسطة: تقوض أركان الدِّين، وطعنه في الصَّميم، والإجهاز على آخر رمقٍ، مِنَ الضَّمير الإنسانيِّ!، والخنق لصوت العدالة الحقَّة، وتلاشي أصدائها المرنة!.

إن السِّياسة الميكافيليَّة - التي يتّبعونها - كفيلةٌ بأنْ تقتلع كلَّ القيم والمفاهيم -مهما كانت- التي تُحاول تأخير سيرها إلى هدفها الدُّون...

وإنَّ قولة الملك العباسيِّ، عند قبر الرسول«ص»:

إنَّ الملك عقيمٌ!، ولو نازعني صاحب هذا القبر، لضربتُ خيشومه بالسَّيف!.

- في الوقت الذي يملك فيه أزمَّة الأُمور، وينتزي على حقوق الأُمَّة، ويُهدِّد كرامتها، باسم الخلافة الإسلاميَّة، هذه التي يبرأ منها الدِّين الإسلاميُّ الحنيف، ويدعو لجهادها، والقضاء عليها، وإعادتها، لمن تتوفَّر فيه كلُّ المميِّزات لهذا المنصب الخطير!.

إنْ هذه القولة، تُعبِّر أصدق تعبيرٍ عن أسلافه، وعن خلفائه - وإنْ لم ينطق بها لسان غيره... غير أنَّ القلوب تخفق بها، والأعمال تنتهج ماجاءت به...

إنَّ ما ينفطر له القلب ألماً: أنْ نغوص في بطون الكُتب، وقد وُضعت لِتُؤرِّخ حقبةً مِنْ حقب التَّأْريخ، أو لِتجمع بين الشتيت مِنَ الأحاديث، التي رواها الرُّواة عنِ الرَّسول«ص» لِتُجمع تراثاً باقياً...

... أنْ نرجع إليها لِنبحث عن موضوعٍ، نُريد أنْ نُزيل ماعلق به مِنْ أوضارٍ، ومانالَه مِنْ وضع الوضَّاعين، فنعرف زيفه مِنْ صحيحه، وجوهره مِنْ مرذوله – فنجد أنفسنا: كغريقٍ، أخذه الموج مِنْ جميع نواحيه، وغشَّاه الظَّلام، فسدَّ عليه النُّور، فلا يلمح حتى إشعاعةً، تُريه بريق أملٍ في الحياة...!

فهذه الكُتب حافلةٌ بالأراجيفِ الموضوعة، والخرافات المضحكة، والأحاديث المختلقة... وإنَّ واضعها ليعرف حقيقتها، ويعلم بواقعها المشين... غير أنه ألَّف كتابه – مثلاً – لذلك الوزير، أو لهذا الملك، أو لِيُقدِّمه لذلك الوجيه الكبير – لِينال مايُرضي شهوته الحمقاء، ويُشبع نهمه المادِّي المسعور!.

فهو يُحاول شحنه، بكلِّ مايُرضي به رغبات هذا الذي ألَّفه مِنْ أجله، ويُرضي نزواته وشهواته، لِينال أجره غير منقوصٍ!، فإنه إنْ لم يُرضِ هذا – وإن أسخط في سبيله الحقَّ وا لله – لم يُرضِ مطامعه، ولم يُحقِّق آماله.

وهذا هو السَّبب المباشر، لِمَا نتج مِنِ اضطرابٍ وتخبُّطٍ، حين مانرجع لموضوعٍ، فنجده في كتابٍ، نقيضه في آخر، حتى يكاد يعمى على الباحث، طريقه الألحب!.

وَمِنْ هنا... نجد بعض المؤلِّفين، يأتي بالفكرة – أوِ الرأي – في هذا الكتاب، في حين أنه يُخالفها، أشدَّ المخالفة، وينقضها، أبشع النَّقض، في كتابه الآخر، ذلك أنَّ كلَّ كتابٍ سار فيه حسب الهوى الجارف، الذي ينشده مَنْ وُضع له الكتاب الأوَّل... وإذ يضع الكتاب الثَّاني، لِمَنْ تُخالف رغبته وهواه، تلك الرَّغبة وذاك الهوى... فإنْ الموضوع يختلف هنا، عنه هناك، والحقُّ الواضح هناك، باطلٌ لاريب فيه، هنا...!

ولو شئنا أنْ نضرب الأمثال، لطال بنا السير، ولخرجنا عن دائرة موضوعنا، الذي نحاول اجتياز هذه «العتبة» إليه[1].

* *

ولكن فخذ هذا المثل، على الاضّطراب والتّخبُّط، في سبيل إرضاء الشّهوات والأغراض، ولو بمسخ الحقائق، ونكران الواقع، والتّجني على الحقّ.

فليس مَنْ يُنكر: أنَّ النّبيَّ«ص»، قد لعن الحكم بن أبي العاص ومَن ينتج مِنْ سلالته - وهل تُنتج الجيفة غير النّتن الخنّاق؟!- وأنه «ص»، وقد أتى الحكم بابنه مروان - في ولادته - قد قال«ص»:

«إنه الوزغ بن الوزغ، الملعون بن الملعون»[2].

وأنه «ص» لعنه، ومروان في صلبه، فمروان فضضٌ مِنْ لعنة رسول ا لله - كما عبَّرت بذلك السَّيدة عائشة.

وأنه «ص» قد طرد الحكم، مِنَ المدينة، حتى لحق الرّسول بربِّه، فولي أبو بكر وعمر، وجاء إليهما مَنْ تشفَّع فيه، فأبيا عليه، وثارا في وجهه، مغلظين له، قائلين:

«أنُجير طريد رسول ا لله؟، أو نُحلُّ عقدةً عقدها؟»[3].

وكان مّما أجاب به عمر، حين طلب عثمان له الشفعة، قال:

«يُخرجه رسول ا لله صلى ا لله عليه «وآله» وسلّم، وتأمروني أنْ أدْخله؟!. وا لله! لو أدخلته لم آمن أنْ يقول قائلٌ: غيَّر عهد رسول ا لله صلّى ا لله عليه

---

(١) - لنا أنْ نستشهد -هنا- بموقف الغزالي، مِنْ يزيد وقتله للحسين «عليه السلام». وتناقضه في ذلك، بين كتابيه: «إحياء العلوم» و«سر العالمين»، حيث سبق أنْ أشرنا إليه...

(٢) - ينابيع المودَّة ص٢٥٦، والنِّزاع والتَّخاصم ص٥، وشرح النهج ١:٥٥ وكشف الأستار ٨٥، وأبو هريرة: ١٢٦، والدَّعوة ١:١٨٩، والغدير ٥:١٣٠ و٢٥٢ و٨:٢٦٦ مسنداً لعدَّة مصادر، وذكر -في الجزء الخامس- أنَّ الحاكم جمع هذه الأحاديث، المتّصلة بالموضوع، وصححَّها في مستدركه ص ٤٧٩- ٤:٤٨٢.

(٣) - شرح النّهج ١:٦٦، والغدير ٢٥٠ و٨:٢٦٠، وأُشير لذلك في ص٨٠ مِنْ رسائل الجاحظ.

«وآله» وسلّم!. وا لله لئن أُشقَّ باثنتين - كما تُشقُّ الأبلمة[1] - أحـبُّ إليَّ مِـنْ أنْ أُخالف لرسول ا لله أمراً!. وإيَّاك - ياابن عفان! - أنْ تُعاودني فيه، بعد اليوم»[2].

وليس يظنُّ واحدٌ - بعـد هـذا - أنْ يجيء الشِّهاب الخفـاجيُّ، فيقـول بتوبـة الحكم، وخلوص طويَّته[3]!.

* *

ثم مَنْ ذا - لولا مال معاوية! -يقول بإسلام- بله إيمـان- أبـي سـفيان، وهـو العدوُّ الألدُّ للمسلمين، ورسول الإسلام، والذي لم يُسلم إلاَّ مكرهاً!.

جاء به العبَّاس - وقد أمَّنه - للرَّسول، فقال له:

ويحكَ! - يَا أبَا سفيانَ؟ - أمَا آنَ لكَ أنْ تعلمَ أنْ لاَ إله إلاَّ ا للهُ؟!.

أبو سفيان: بأبي أنت وأمِّي! ماأوصلك، وأحلمك، وأكرمك!.

وا لله لقد ظننت أنه لو كان مع ا لله إلهٌ غيره، لقد أغنى عني شيئاً!.

الرَّسول: ويحكَ - يَا أبَا سفيانَ! - أمَا يأنَ لكَ أنْ تعلمَ أنِّيْ رسولُ ا للهِ؟!.

أبو سفيان: بأبي أنت وأُمِّي! ماأوصلك، وأحلمك، وأكرمك!.

أمَّا هذه، ففي النَّفس منها شيءٌ!.

العبَّاس: ويلك: اشهد شهادة الحقِّ، قبل أنْ تُضرب عنقك[4]!.

هذه هي صورة إسـلامأبي سـفيان - كمـا يرويهـا التَّـأريخ!- ومـاهذا، سـوى استسلامٍ، قبل أنْ تُضرب عنقه...

وإنه لايلبث - بين حينٍ وآخر - أنْ يُظهر مافي خفايا نفسه، وطوايـا ضمـيره، مِنْ رواسب الشِّرك الرَّسيخ، والحقد الدَّفين.

---

(١) - يُقال: المال بيننا شقَّ الأُبلمة -بضمِّ الهمزة- أيْ: نصفين.

(٢) - شرح النَّهج ١:٢٣٢.

(٣) - السِّيرة النَّبويَّة: ١:٢٢٩.

(٤) - ارجع للاستيعاب ٤:٨٦، والشَّرح الحديديِّ ٤:٢٠٨، والغدير ص٣:٢٢٣ وأشار إلى ذلك الجاحظ، في كتابه [فضل هاشم على عبدشمس] رسـائل الجـاحظ ص٧٨- وقـد أشـار لكلمـات الكفـر والنِّفاق مِنْ أبي سفيان، بعد إظهاره للإسلام، ولكنها إشارةٌ مِنَ الشَّاطيء البعيد، يعرفها المتتبِّع.

رأى النّاس يطأُون عقب رسول الله(ص) فحسده، هامساً لنفسه:
«لو عاودتُ الجمع، لهذا الرَّجل؟!».
وإذا بالرَّسول يضربه في صدره:

«إذنْ يُخزيكَ الله»!.

فاستمع لجوابه، الذي يُصوِّر لك كوامن نفسه، ورواسبها:
«ماأيقنت أنك رسول الله، حتى السَّاعة»(١).

ولكنه حتى بعد هذه السَّاعة، لم يتيقّن، ولم يعرفِ اليقين إلى قلبه باباً، فيلجه، فكان أشدُّ مايُؤذيه: أنْ يُعبَّر بما يُشتمُّ منه رائحة الاعتراف بنبوَّة محمدٍ«ص». فاسمعه كيف يُعبِّر عن ذلك، مخاطباً العبَّاس بن عبدالمطّلب – وقد رأى الرَّسول، في جيشه الخضمِّ، وكتائب الأنصار تحفُّ به – فيقول:

[والله – يا أبا الفضل! – لقد أصبح «ملك» ابن أخيك، اليوم، عظيماً](٢).

وينظر أبو سفيان للنّبيِّ – وهو بالمسجد – نظرةً تتمثّل فيها كلُّ ماتحمله نفسه مِنْ: ضعةٍ وحقدٍ، وضغينةٍ وكيدٍ، وأسفٍ قتّالٍ، أنْ لم ينل مِنَ الرَّسول مايُلاشي دعوته، وأنْ لم يتغلّبِ الباطل، الذي كافح عنه ونافح، – حتى استخذى وفشل – على ذلك الحقِّ الأبلج المتلألأ، في دعوة محمَّد بن عبدالله فيُخاطب نفسه، عاتباً لائماً أسيفاً:

«ليت شعري! بأيِّ شيءٍ غلبني؟!».

فلم يُمهله الرَّسول، في موازنته التّجاريَّة المادِّيَّة هذه، حين يقيس الغلبة بالكثرة، والهزيمة بالقلّة، بل أقبل عليه ضارباً بيده بين كتفيه، مجيباً له بما يُفحمه، وبما يتحدَّاه، فيُهير منه القوى، ويقلب عليه موازين النّصر والغلبة، في عرفه المادِّيِّ:

«بالله غلبتكَ – يَا أبَا سفيانَ!»(٣).

* *

---

(١) – الإصابة ٢:١٧٢، والغدير ٨:٢٨٥، و٨٣:١٠.

(٢) – الإمام علي صوت العدالة ٢٠٧ و٢٠٨ (٤:٧٧١).

(٣) – المصدر ص ٢٠٨ (٤:٧٧١).

ولايصل لسمعه نبأُ بيعة عثمان، حتى يدخل عليه، فيسأل:

«أفيكم أحدٌ مِنْ غيركم؟».

فما استيقن صفاء الجو، حتى راح يقول:

(قد صارت إليك بعد تيمٍ وعديٍّ، فأدرها كالكرة. واجعل أوتادها بني أُميَّة. فوالذي يحلف به أبو سفيان[1] مازلتُ أرجوها لكم... ولتصيرنَّ إلى صبيانكم وراثةً، وإنما هو الملك، ولاأدري ماجنَّةٌ ولانارٌ[2]).

ثم يتّجه نحو قبر الحمزة، لِيُطفيء لهبةً مِنَ الحقد، لاتزال تستعر في داخله... وهاهي ذي -اليوم- قد أخذت لهبتها تنطفيء، فَرَكَلَ القبر برجله، وفحَّ صوته البغيض الحقود:

« يا أبا عمارة! إنَّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسَّيف، أمسى في يد غلماننا يتلعَّبون به»[3].

ورضيت نفسه - اليوم - بما فعل، أكثر منها في يوم «وحشي»، وماقامت به «آكلة الأكباد» مِنْ عملٍ شنيعٍ...!

* *

---

(١) - ليس يجهل القارىء مايحلف به أبو سفيان، وفي أُذنه أصداءٌ، لكلمته -في إحدى حروبه للرَّسول: «اعلُ هبل!»- أي: أظهر دِينك. وختام قولته هذه، تحمل ألف دليلٍ ودليلٍ: «ولاأدري»- الخ.

(٢) - الاستيعاب ٨٧ و٨٨ ج٤، وشرح النَّهج ١:١٣٠، والامام علي ١:٣١٩، والنِّزاع والتَّخاصم ٥ و٢٧، ومعجم القبور ١:١٩٣، وأصل الشِّيعة ٥٥ و٥٦، والغدير ٢٨٥ و٣٣٩ قارب (٢٧٨ و٣٣١):٨، و١٠:٨٣ والإمام علي صوت العدالة ٢٤٩ باختلافٍ يسيرٍ، وفيه أيضاً ص ٤:٩١٥.

(٣) - النِّزاع والتَّخاصم ٢٧، وشرح النهج ٤:٥١، ومروج الذَّهب ٣٥١، ٢:٣٥٢ والإمام علي ١:٣٢٢، والغدير ١٠:٨٣، وفي الإمام علي صوت العدالة ص٢٠٩ (٤:٧٧٢) كلمةٌ تشبه هذه، ولعلَّها أشدُّ مرارةً وحقداً في التَّعبير عن دخيلة نفسه السَّوداء:

«انهض! فقد صار إلينا الملك، الذي حاربتنا عليه!».

ولكن... فإنك - وأنت تبحث في كتُب الحديث - ستجد فصلاً معقوداً، لفضائل أبي سفيان...!

ثم لم يرضَ هؤلاء الوضّاعون، بفضائل أبي سفيان المختلَقة - بعد ادّعائه الإسلام، أو نسبته إليه - حتى رأوا له الفضل على الإسلام! ولعلّ ذلك في ابتغائه الغوائل للإسلام، ومناهضته للرّسول، في حروبه الدّامية الحقود!. لم يرضَ هؤلاء حتى جاءوا بهذه الكذبة الصّلعاء - ولا كصلعة أبي هريرة:

[ومَنْ مثل أبي سفيان؟! لم يزلِ الدِّين به مؤيَّداً قبل أنْ يُسلم وبعدما أسلم ومَنْ مثل أبي سفيان؟!، إذ أقبلت مِنْ عند ذي العرش، أُريد الحساب، فإذا أنا بأبي سفيان معه كأسٌ مِنْ ياقوتةٍ حمراء، يقول: اشرب يا خليلي!. أُعار بأبي سفيان، ولـ الرِّضا بعد الرِّضا، رحمه الله](١).

ونحن إذ ندع التّعليق على هذه الفرية الفاضحة، فلأنّ في حياة أبي سفيان - الحافلة بكلِّ مايُؤكّد هذه الفرية! - مايصدُّنا عنِ التّعليق... وفي صفحات التّأْريخ - على ماسارت به الأغراض، وماأملته الشّهوات - مايحول بيننا وبين القول، وفيه مايكفينا مؤونة الحكم..!

* *

وكما تجد مثل هذا الفصل، بين طيّات كتُب الحديث - مثلاً - فإنك تجد الكتُب مزدحمةً بالثّناء على الزاني المغيرة بن شعبة، والوزغ الملعون مروان بن الحكم، وإمامَيْ الضّلال - كما يقول ابن أبي الحديد(٢) - عمرو بن العاص، وابن آكلة الأكباد معاوية - ومَنْ إليهم، مِنَ: الطُّلقاء، وأبناء الزِّنى، وأصحاب الأعلام مِنَ البغايا...

---

(١) - الغدير ٧٩ و٨٠:١٠ مسنداً.

(٢) - شرح النّهج ٣:١٥، حيث استنتج ابن أبي الحديد، ذلك في شرحه لخطبة الإمام عليٍّ «عليه السلام»، جاء فيها ذكر أئمة الضّلال، فرآه يعني هذين، ومَنْ شايعهما على الضّلال.

ليس يرضى ابن حجر، بما ختم به «صواعقه المحرقة»، التي حاول فيها، أنْ يُحقَّ خلافة معاوية - كما يقول! -حتى ألَّف كتاباً، شاء أنْ يضع له هذا الإسم الضَّخم:

[كتاب تطهير الجَنان واللِّسان، عنِ الخطور والتَّفوُّه بثلب «سيِّدنا» - كذا؟! - معاوية بن أبي سفيان](١).

أرأيت هذا العنوان المرعب؟!

فيجب عليك: أنْ تُطهِّر جَنانك ولسانك، عن خطر التَّفوُّه، بذكْرِ مايشين الطَّاهر، سليل الأطهار، معاوية، سيِّد ابن حجر، ومَنْ إليه مِنَ التُّجَّار باسم المعرفة!.

أمَّا حربه لعليٍّ، وبغيه عليه، وإراقته دماء المسلمين، وشتمه عليَّاً، وابتداعه سبَّه، وقتله عمَّاراً وحجراً وأصحابه، وسمُّه الحسن والأشتر - ومَنْ إليهما - واستدعاؤُه زياداً - ومالِى ذلك مِنْ أعماله القِباح - فهو مجتهدٌ، مأجورٌ عليها، وهو الأمين السَّابع، أوِ الثَّالث(٢).

---

(١) - تجد كتابه «العظيم؟!» -هذا- على هامش صواعقه المحرقة.

(٢) - مِنْ بين الأحاديث الموضوعة:

«الأمناء سبعةٌ: اللَّوح، والقلم، وإسرافيل، وميكائيل، وجبريل، ومحمَّد، ومعاوية».

وفي بعضها يقلُّ العدد إلى ثلاثةٍ.

«إنَّ الله ائتمن على وحيه جبريل، وأنا، ومعاوية... وكاد أنْ يُبعث معاوية نبيّاً، مِنْ كثرة علمه، وائتمانه على كلام ربِّي، يغفر الله لمعاوية ذنوبه، ووقاه حسابه، وعلَّمه كتابه، وجعله هادياً مهدياً، وهدى به»! -راجع الغدير ٥:٢٦٢

وفي هذا الجزء -مِنْ ص ٢٥٣ إلى ٢٨٤، تحت عنوان [سلسلة الموضوعات- صُورٌ رائعة، ابدعها الخيال الخلاَّق، في مناقب أشخاصٍ كان لمعاوية منها نصيبٌ اوفى!].

وقد بلغ مجموع هذه السِّلسلة -مِنَ الصُّور الزَّاهية- مئة صورةٍ.

وفي ص ١٠:٦٩ نماذج مِنْ هذه الصُّوَر.

وإنك، وأنت تقرأ سطورا مِنْ هذا الكتاب، لتتمـزَّق منـك نيـاط القلـب: ألماً، وغيرةً، على الحقائق أنْ تُمسخ، وعلى الحقِّ أنْ يُعادى ويُمتهـن،!. فـإنك واجـدٌ في هذا المسمَّى بكتاب: أحاديث، قالها الرَّسول في ذمِّ معاوية، فشاء أنْ يُؤوِّلها – على تعدُّد وجوهٍ! – إلى: فضائلَ–ومحامد، في حقّه..!

وهو – إلى ذلك – مشحونٌ بوفرةٍ هائلةٍ، مِنَ الأحاديث المختلقة، والأراجيـف لموضوعة، على لسان الرَّسول«ص» ولسان علـيٍّ «عليـه السـلام»، لِتُبرِّر موقـف معاوية مِنْ عليٍّ، وحربه وشتمه إيَّاه...!

أمَّا أنا فـأعذر ابن حجر – في كتابه هـذا – مـادام تأليفه لـه، كـان نتيجـة «الطَّلب الحثيث مِنَ السُّلطان همايون أكبر سلاطين الهند»...!

وهذه هي ثالثة الأثافي، التي مُنينا بها، وفشـا – بسـببها – موضـوع الحديـث، وزور المقال...!

ونحن، إنْ وجدنا شائبةً مِنْ عذرٍ واهٍ، يُنتحل لمثل هؤلاء التُّجَّار: باعـة الضمـير، ومدنِّسي وجه الحقيقة والواقع، في سبيل مجاراة الحكم الزَّائف – حينئذٍ – والحكَّـام المنحرفين الجائرين، بأُجورٍ ورِشىً، تُستلَب مِنَ الأُمَّة وضعاف الأناسين.

ونحن إنْ وجدنا مَنْ يعـذر بعـض هـؤلاء، في أنَّ منهـم مَـنْ قـد يقـول مـايقول، ويختلق مايختلق، خوفاً مِنْ سياسـة البطـش والتّنكيـل، بكـلِّ مَـنْ لايُجـاري الوضـع المشوَّه – آنذاك...!

وهـي – ولاشـكَّ – أعـذارٌ زائفـةٌ، لاتنهـض بالدِّفـاع عنهـم، ولاتُبرِّر شـائن موقفهم، وقد كشفنا عـن ذلـك – ماوسـعنا المجـال... فعليهـم – وحدهـم – تقـع مسؤوليَّة هـذا الانحراف والتّزوير، لأنهـم وضعـوا الأُسـس، وبنـوا القواعـد لهـذا الصَّرح الظّلـوم، فاحتلّـه الغـاصب والجـائر، وتوارثـه العليـم والجهـول... فوسَّعاه ماوسعهما ذلك، تحت ستر العصور المظلمة...!

ولكن أيُّ عـذرٍ لِمَنْ يسير في هـذا الطريق الشّائك الملتوي، بعد أنْ كشف البحث والتّدقيق - تحت النُّور الوضَّاح - عمَّا هنالك مِنْ حقـائق ممسوخةٍ، وحقٍّ ممتهنٍ، وكشف عمَّا وراء الأكمة...؟!

أيُّ عذرٍ لهذا الـذي يعيش، في هـذا العصر - المسمَّى بعصر النُّور، وعصر الحريَّة - وهو يجترُّ مِنْ ماضيه المظلم المشوَّه، دون أنْ يُكلِّـف نفسه مهمَّة البحث والتَّنقيب المدقَّق...؟!

وإذا كانتِ السِّياسة الشَّوهاء - آنذاك - تتطلَّب هذا الموقف الهدَّام، وتُقدِّر وتُكافىء مَنْ يحمل معول الهدم والفِرقة، ويحمل القلم المأْجور، ويستخدم العقل والعلم والمعرفة، في سبيل إرساء دعائم مايشاؤون مِنْ بناءٍ متداعٍ منهارٍ...

...وإذا كانت ملوك المسلمين - حينذاك - المتسمُّون بالخلفاء - ومـاهم بهم - قد سبقوا لِسياسة: «فرِّق تسد» - فإنَّ العصر، اليوم، غيره أمس... والوضع، الآن بخلافه قبلئذٍ... والرُّؤساء العرب، غيرهم أمس...

فنحن - الآن في أمسِّ الحاجة للوئام والوحدة، وتماسك الصُّفوف، والعمل الموحَّد لمجابهة العدوِّ المشترَك، وتناسي الأحقاد الموروثة، وتصفية الجوِّ - الذي شاء مَنْ شاء تلبيده بداكن الغمام - لكي تُشرق الشَّمس، فتُنير الوجود، وحينئذٍ يفتضح الحائل مِنَ الصِّبغة... وتصفو المياه، فيخسر مَنْ لايصيد، إلاَّ في العكر منها...

وإنَّ الواجب على مَنْ شاء أنْ يصل إلى الواقع الصَّميم، ويُغربل التّراث الذي خُلط بالدَّخيل... عليه: أنْ يتجرَّد مِنْ عاطفته الرَّعناء، وتقـاليده الموروثة، ويعمل بإخلاص النَّزيه، وبجدِّ الباحث، وبصبر المتتبِّع، لايرجو سوى وجه الله، وحده، ولاينشد غير الحقيقة النَّاصعة، ولايهدف لسوى الحقِّ الأبلج.

ومَنْ لم تتوافر فيه هذه الكفاءات والمؤهِّلات، فعليه أنْ يتناسى الماضي، وهو منه على الجهل الصَّفيق، فلا يخبط في الدَّيجور، ولايهرف بما لايعرف، ويتَّهم بالهوى الجموح، والعاطفة المشبوهة الرَّعناء، دون ارتكازٍ لعقلٍ ومعرفةٍ، أو إدراكٍ واطِّلاعٍ،

فيفتُّ الوحدة المتماسكة، ويصدع الشَّمل والصَّف الموحَّد، وهو لايخدم سوى العدوِّ المتربِّص، سواءٌ أعلم بذلك، أو جهل، قَصَدَ أو لم يقصد، في حين أنه يُغضب ربَّه والحقَّ، ودِينه الذي يزعم: أنه له ذلك المخلص، المتمسِّك به.

ولكن – ونقولها والألم يقطر مِمَّا يخطُّه اليراع، حيث ينبعث مِنَ الأعماق... ولكن –ويا للأسف المرير!، ويا للخيبة الكاسفة!... ولكن – ولعن الله «لكن»، هذه الخبيثة...

ولكن هذا العصر – عصر المدنيَّة والنُّور، عصر الذَّرَّة والعلم، عصر البحث والتَّنقيب في المجهول، وعنِ المجهول – مُنِيَ بأُناسٍ، يعيشون فيه بأجسامهم، في ماهم يعيشون في ظلمات الماضي بعقولهمُ الحجريَّة، التي هي مِنْ مخلَّفات عصور الانحطاط، فعاثوا في صفوف الأُمَّة فساداً، وغرَّروا بالبسطاء مِنَ العامَّة، وشوَّهوا العلم والمعرفة، وهم به متفيهقون، وبها متشدِّقون...!

ولسنا نُحاول – هنا – مناقشتهم، بله الردَّ عليهم، وهو مالايتَّسع له القول – هنا – إلاَّ أنه لايسعنا إلاَّ أنْ نتساءل:

ماذا دعا الرَّافعيَّ «مثلاً» في مثل كتابه «تحت راية القرآن»، وهو يردُّ فيه على كاتبٍ غير شيعيٍّ – أنْ ينال مِنَ الشِّيعة، بالبهت والكذب، لولا شيءٌ في نفسه...؟!

ولماذا يُصرُّ مثل الدكتور أحمد أمين، ويُلحُّ على النِّيل مِنَ الشِّيعة – أيضاً – في مجموعةٍ مِنْ كُتُبه، التي زعم: أنه يضعها لتأْريخ الإسلام، وهو يُشوِّه منه ناصع الصَّفحات، بهذا النِّيل المكذوب، بالرَّغم من اعتذاره لسماحة الإمام كاشف الغطاء، بأنه لم يرجع، في هذا النِّيل، لمصدرٍ، ولم يأْخذه عن مرجعٍ[1] – وهو عذرٌ أقبح مِنْ فعلٍ – وأنه سيُكفِّر عن ذلك في الجديد مِمَّا يكتب، فكان تكفيره: مضاعفة الكيل مِنَ الشَّتائم والسُّباب...؟!

---

(١) – أصل الشيعة ص ٥٠.

ولصالح مَنْ يُفرغ مثل عبدا لله القصيمي(١)، ومحمد رشيد رضا(٢)، ومحب الدين الخطيب(٣)، وأمثالهم مِنَ المستعمَرين – «على وزن المفعول» – فكريّاً، والمأجورين...

لصالح مَنْ يُفرغ مثل هؤلاء: كلَّ سمِّهمُ الزُّعاف، وحقدهمُ المتأصِّل، وضغائنهمُ المتأجِّجة، بكلِّ ماتحمله نفوسهم مِنْ أمراضٍ نفسيَّةٍ، وأوباء تربويَّةٍ ووراثيَّةٍ – بيئيَّةً

---

(١) – في كتابه «الصِّراع بين الإسلام والوثنيَّة»، ويعني بالإسلام مجسَّداً في أهل السُّنَّة، وبالوثنية متمثِّلةً في الشِّيعة. وقد قام سيِّدنا الوالد –رحمه ا لله– بالرَّدِّ عليه ردّاً علميّاً، هادفاً لوحدة الصَّفِّ، وتنقية الجوِّ، مع فضحه لكلِّ كذبه وافتراءاته، مع تحلِّيه بنزاهة الأُسلوب، وحسن النِّيَّة والقصد، حيث لم يكن مِنْ قصدٍ، سوى: إحقاق الحقِّ، والعودة بالمسلمين إلى نبع الإسلام. الرَّويِّ العذب –وهو دِين السَّماحة والمحبَّة والودِّ– قبل أنْ يحاول المغرضون المفرِّقون تلويثه، بكلِّ ماستطاعوا إلى ذلك مِنْ قوَّةٍ، ومهما وجدوا إليه السَّبيل، بتفريق الصُّفوف، وتمزيق الشَّمل.

وإنْ كنَّا نأسف لشيءٍ، فلأنَّ القضاء لم يُمهل سيِّدنا لإتمام كتابه، والوقوف به حيث أراد، إلاَّ أنَّ ماوصل إليه يكفي ردّاً على القصيميِّ؛ فكتابه – بمجلَّديه الضَّخمين– ليس سوى شتمٍ وسبابٍ مكرورٍ. وقد مثل للقرَّاء هذا الردُّ العظيم.

(٢) – في كتابه «السُّنَّة والشِّيعة، أو الوهابيَّة والرَّافضة» وغيره. ويكفي أنْ يكون له هذا الكتاب الهدَّام المضلِّل الكذوب، الذي شحنه بالدَّسِّ والكذب، وملأه بالسُّباب والشَّتم!.

(٣) – في كثيرٍ ممَّا كتب وعلَّق... كتعليقاته المسمومة، والبذيئة الوقحة، في سبابٍ مخجلٍ، يُنزِّه عنه يراع مَنْ ينتسب لدينٍ، أو عروبةٍ– وهما: شممٌ، وسماحةٌ، وخلقٌ رفيعٌ، وكرمٌ– ويُخجل الأمَّة التي ترضى به، وذلك على كتاب «مختصر منهاج السُّنَّة»... حيث جرَّح في تعليقاته كثيراً مِنْ رجالات الشِّيعة وعلمائها، قدماء ومعاصرين، في أُسلوب لايعرف الحياء ولاالتَّهذيب، حيث يُمليه الحقد الدَّفين، والعاطفة المسمومة.

ولنا في مايكتبه في مجلَّة الأزهر، خير دليلٍ، على ماتحمله نفسيَّته الملتاثة. وإنَّه لَيُؤسفنا جدّاً: أنْ تصدر مثل هذه المجلَّة عنِ الأزهر، وتحمل اسمه، وهو المؤسَّسة الدِّينيَّة الكبرى، التي يُرجى منها –وهو مايحتمه عليها الدِّين، الذي تعمل على نشره وإعزازه– أنْ تعمل على محو الطائفيَّة، وتُجنِّد رجالاتها على توحيد الصَّفِّ الإسلاميِّ، وتطهيره مِنْ أعدائه، الذين يندسُّون بين الصُّفوف، لتفريقها وفتِّ وحدتها.

ويتحتَّم على شيخ الأزهر الأُستاذ الكبير «شلتوت» –اليوم– بعد إقدامه على الخطوة الجبَّارة، وهي تدريس الفقه الشِّيعيِّ فيها: أنْ يُعقبها بخطوةٍ، لها أهميَّتها الكبرى، وهي: أنْ يُسكت هذا الصَّوت المبحوح الزَّاعق: صوت الخطيب؛ إذ لايُجدي البناء، ولايستقيم الصَّرح، مادام هناك هدَّامٌ مخرِّبٌ، ينحت في الأساس بمعوله البغيض.

أمَّا لو كانتِ الأسماء تُطابق «المسمَّيات» دائماً، لكان اسم هذا الهدَّام، غير «محبِّ الدِّين»... ولكنها الأسماء الخدَّاعة الكاذبة المضلِّلة، والسَّراب البهرج...!

أو بيتيَّةً – فيعكس كلُّ ذلك فيهم ردَّة فِعلٍ، فيروحون يتنفّسون – وهم في ذلك الجوِّ المحموم، والوسط الموبوء – ويُحرِّقون الأُرَّم على الشّيعة، في كُتُبٍ ملأى بالكذب والإفتراء والدَّسِّ، فيُضاعفون الخلاف والفرقة، في الوقت الذي يدعو ويُوجب على كلِّ مخلصٍ: أنْ يقضي على أسباب هذه الفرقة والخلاف...؟!

ألم يكن خيراً هم في دِينهم ودنياهم: لو عملوا مايجب عليهم، واستغلُّوا مواهبهم ومعرفتهم، فيما يعود بالنّفع الشامل، والخير العميم، في سبيل إرضاء الله والضمير، والحقِّ والدِّين، وعادوا لنبع الدِّين الصَّافي، وارتووا مِنْ نميره العذب، الذي يفيض بالمحبَّة والخير، وينشر السَّلام، ويدعو للإلفة والتّماسك، كالبنيان المرصوص، يشتدُّ ببعضه البعض؟!.

ولكنهم – ويا للأسف! – ساروا وراء غرضٍ مشبوهٍ، وسلكوا في طريقٍ معوجٍّ، فتفرَّقت بهمُ السُّبلُ، حتى ضلُّوا الصُّوى، وتاهوا عن معالم الحقِّ في مهاوي الضَّلال، ومتاهات الفِرقة... فكان مِنْ كلِّ ذلك هذه الثّمار، التي هي: شجىً في حلق الطّاعم، وقذىً في عين النّاظر...

ولعلّهم – مع كلِّ هذا – يظنُّون في أنفسهم: أنهم قاموا بخير مايجب عليهم، وأدَّوا واجبهم، كأفضل مايكون الأداء. ولو عادوا لقليلٍ مِنْ فكرٍ، وشيءٍ مِنْ رويَّةٍ، لصَدمهمُ الواقع المرُّ البغيض، ولرأوا أنفسهم بعيدين عن صافي نبع الدِّين العذب، وماهم مِنْ صفائه إلاّ كنسبة دم يوسف للذئب!.

ولسنا بهذا نُنكر وجود فئةٍ، استوعبت تعاليم الدِّين، ونذرت نفسها لدفع الزَّيف عنه، وجلاء الرِّيب، التي حاول المغرضون تشويهه بها، فعملوا خير مايجب عليهم، دون غرضٍ أو غايةٍ، سوى وجه الله والحقِّ، ورفعوا صوتهم عالياً، صافي النّبرة، واضح القصد، ودعَّموا صرح الوحدة، وفضحوا – مااستطاعوا – ماعمله أُولئك مِنْ أعمالٍ، في سبيل بثِّ الفِرقة، وشقِّ الصُّفوف، وتشويه الحقِّ، وقلْب الوقائع، وتغيير الأحداث.

وليس مِنْ موضوعنا التّبسُّط في هذا الجانب البنّاء، حتى نأتي ببعض هؤلاء الخيِّرين، وماقاموا به مِنْ عملٍ صالحٍ مفيدٍ...

هذا موضوعٌ، كان لابدَّ مِنْ عرضه، ونحن في سبيل الحديث عن أبي طالب. إذ علينا: أنْ نلمَّ، أو نُشير إلى وضْع الأحاديث واختلاقها - مادام أبو طالب أحد ضحاياها...!

فبعد أنْ عرفنا ماقام به معاوية، تجاه عليٍّ، ومناوأته له بالسَّيف واللِّسان، فإنَّ ذلك السَّيل الجارف، لابدَّ وأنْ ينال أبا طالب منه شيءٌ.

ولو لم يكن أبو طالب أباعليٍّ، لَمَا ناله ماناله... ولم يأتِه البلاء، إلاَّ لأنه أبو عليٍّ - كما يقول سيِّدنا الوالد.

فليس مِنَ الغرابة في شيءٍ - بعدما عرفنا الدَّواعي والظُّروف، التي حجبتِ الحقائق، وشاءت أنْ تُواريها في العدم، لولا فيضٌ مِنْ عناية ا لله، بنوره الوضيء أنْ يُطفأ...!

... ليس مِنَ الغرابة في شيءٍ: أنْ يقف التَّأْريخ، ذلك الموقف المناهض، حين مايعرض لحياة هذا البطل المغوار، ويقف منه ذلك الموقف المريب الواهن، عند مجلس الاحتضار: حين مايُسلِم الشَّيخ روحه الطَّاهر، وقد قرَّت منه العين، وارتاح الضَّمير، بنصره رسالة السَّماء.

ولم يكن لِيُبالي بما لقيه مِنْ ظلم التَّأْريخ الشَّنيع، الذي لم يحفل بذكره إلا لِماماً - والأغراض مليئةٌ بتلك الإلمامة، مِنَ الذكر المبتور... فتتناسى أعماله الجسام، ودفاعه الحميد، ومواقفه الصِّلاب: منافحاً عنِ العقيدة، ممكِّناً لها مِنَ الأفئدة، رافعاً لها في البناء، مشيداً بها في الذِّكر، يتغنّى برسالة الإله، ويفتخر بمآثر رسول الإنسانيَّة!.

والتَّأْريخ، وإنْ ذكر له بعض شيءٍ مِنْ هذا، إلاَّ أنه - في كثيرٍ مِنَ الأحايين - لايلبث أن يُناقض نفسه، فينقض ماأبرم، حين مايذكر: أنْ بينه وبين هذا البطل،

شيئاً في النّفس - فهو أبو عليّ...! فيعوجُ منه السَّير، وتلتوي الطُّرق، ويحيد عن الصِّراط المستقيم، لحاجةٍ في نفسه، يُريد أنْ يقضيها - إنْ لم يكن قد قضاها...!

ولكن السَّحاب، مهما تراكم، واربدَّ منه الوجه، فإنه وإنْ حجب مِنَ الشمس وجهها النيِّر، فلن تعدم الشَّمس فرجةً، تطلُّ منها بالشُّعاع المؤنس الماتع، وليس لظلامٍ أنْ تنتشر منه الرُّقعة، وهي في السَّماء تسير...!

لذا... فإنك واجدٌ - على الرَّغم مِنْ موقف التَّأْريخ الشَّائن - مِنْ تأْريخ هذا الرَّجل المظلوم: مايجلو حياته، على: نقاء صفحةٍ، ولمعان سطرٍ، وإشراق حرفٍ.

* *

لقد ظننت - بادىء الأمر - أنَّ المهمة ثقيلة المحمل، بهيظة العبء، لَمَّا رأيت قلَّة المصادر - أو بالأصحِّ: لَمَّا رأيت الموقف المخزي الشَّائن!.

ولكني لم أكد أسير في طريقي خطواتٍ - وإذا بي، أمام وفرةٍ مِنْ تأْريخ هذا الرَّجل، جمعتها مِنْ أشتات الكتب، التي يُعوِّل عليها الكاتب الثَّبت، النَّاشد الحقَّ، لوجه الحقِّ وحده!.

حين ذاك قلتُ: لن يعدم الحقُّ ناصراً... ولن تبقى قولة الزُّور!، فما لها سوى العمر، القصير الأمد - ﴿وإنَّ الله مُتِمٌّ نورَه، ولو كره الكافرون﴾.

وإنَّ السَّحابة، وإنْ طال بها البقاء، فإنَّ عاصفةً لابدَّ وأنْ تُمزِّق منها الصَّفحة.

وإنَّ السَّماء، وإن اكتست بالسُّحب الثِّقال، وتلبَّدتبالغمام الأدكن، فلابدَّ وأنْ يعرف الصَّحو إليها السَّبيل.

* *

وماتوفيقي إلاّ بالله، عليه توكّلتُ، وإليه أُنيب!.

الجزء الأول

في مدارج الحياة

بيت

في وسطٍ مظلمٍ، وبيئةٍ جاهليَّةٍ، قد تردَّت في حمأة الخمول والجهـل، مِـنْ حيـث النَّظرة الدِّينيَّة، فتعدَّدت فيها الأصنام والأوثان... فلكلِّ قبيلةٍ أربابٌ، ولكـلِّ بيـتٍ آلهةٌ!؛ بل ولكلِّ شخصٍ ربٌّ، ليس يُشاركه فيه ثانٍ...

في ذلك الوسط، وتلك البيئـة، حيـث الشُّعور الهامد، والإحسـاس المفقـود، والعيون المغمضة، عن كلِّ ماحولها، مِنْ آياتٍ، تدلُّ على إلهٍ واحدٍ، وعلاماتٍ تُنبيءُ عن ربٍّ فردٍ، ليس في ملكه مِنْ شريكٍ...

في ذلـك الوسـط، الـذي اجتاحتـه هــذه العاصفـة المرعبـة، فـأبدلت الدِّيــن السَّماويَّ، وملَّة إبراهيم الحنيف، إلى عبـادة أحجـارٍ وأخشـابٍ، لاتسـمع ولاتعـي، لاتنفع ولاتضرُّ، ينحتها الإنسان بيده، ويُزخرفهـا بألوانـه، لتكـون إلهـه المعبـود، أو شفيعه الذي يُقرِّبه مِنْ ا لله زلفى!.

في ذلك الوسط، واللَّيل جاثمٌ عليه بسحابته السَّوداء، الزَّاحمة الظُّلمة... ومِـنْ بين تلك الأكداس البشريَّة، المغمضـة العيـن، المقفلـة القلـب، الخـامدة الإحسـاس، المتردِّية في عميق الظُّلمة، وهوَّة العماية.

مِنْ بين هذا وذاك... قد يشذُّ مِنْ بينهم رجلٌ – وهو نسبة الواحـد إلى الآلاف – أو بيتٌ، وهو نسبة الواحد إلى الملايين...!

مِنْ بين هذا وذاك.. ومِنْ بين تلك الأكداس البشريَّة المزدحمة، قد يشذُّ واحـدٌ، فيرى بعينٍ جديدةٍ، وقلبٍ متفتِّحٍ: ذبالة نـورٍ... فيفـرُّ إليهـا ليقتبـس منهـا إشـعاعةً، فيستنير بها في الطَّريق المظلم... ويقرأ في الكتب السَّماويَّة، فيقـرُّ منـه القلـب بعـد طول وجيبٍ، ويُدغدغه الحلم والرَّجاء، فيرتاح منه الضَّمير، وقدِ اطمأنَّ، بعد طول تشـكيكٍ، حيـث طـاف بمرحلـةٍ حرجـةٍ، هـي أشـدُّ مراحـل الانتقـال والتَّطـوُّر، ومايُرافقهما مِنْ أتعابٍ ومخاوفَ...!

يقرأُ في تلك الكتب، فيراها تُبشّر برسولٍ، ويرى الطّبيعة تُبشّر برسولٍ، ويرى كلَّ شيءٍ حوله، يدعو بضرورة وجود ذلك الرّسول، وإنَّ كلَّ شيءٍ حوله، يُنذر بقرب عصره المأمول.

ويرى في الكتب مايُحدِّد أرض ذلك النّبيِّ المنتظر - وهل مِنْ غير مكّة ينبثق ذلك النُّور البهيُّ؟ - فيرقص القلب جذلاً، وتنتشي النّفس سكراً، وهو يأمل أنْ يكون أحد مَنْ يقتبس مِنْ ذلك الشُّعاع النّيِّر، ويُحامي عن ذلك الضّوء الهادي...

ومِنْ بين هذا وذاك... ومِنْ بين تلك البيوت المتراصّة، والتي لم يكد يخلو منها بيتٌ واحدٌ، إلاّ وقد حلَّ في الرُّكن منه قطعةٌ مِنْ حجرٍ، أو خشبٍ، إليها يسجد كلُّ مَنْ في البيت، ويتّجهون لها بكلِّ قلوبهم صاغرين متضرِّعين... وهي آخر «مَنْ» و«ما» يُودِّعون. وأوّل «مَنْ» و«ما» يستقبلون، إنْ دعا لسفر أحدهم أمرٌ ذو شأنٍ. ومِنْ هذا الرَّبِّ الجاثم، الذي تستوعبه العين، وتحوطه اليد، يرجون المعونة ويستمدُّون التّوفيق. فتنبسط الأيدي راجيةً؛ الأيدي التي خلقت هذا الإله الأصمَّ، امتدَّت تدعوه وترجوه، ثم هي تخافه وتخشاه...! وهذا هو غاية الانحطاط الفكريِّ، والإسفاف بالمستوى الإنسانيِّ، والكفر بالعقل البشريِّ الخلاّق،

مِنْ بين تلك البيوت: بيتٌ واحدٌ، لم يَمْتَدَّ له مِنْ هذا الظّلام الفاحم، حتى خيطٌ، والمصباح الذي أشعله الخليل، لايزال على وقيدٍ، لم تعصف به العواصف، ولم يجتحه إعصارٌ، مهما اشتدَّ وصلُب!، فهو عميق الإيمان، لم يُفارقِ الحنيفيَّة البيضاء، ولم يُخالجه الشَّكُّ في ماجاءت به ملّة إبراهيم، ولم تُزعزعه الرِّيبة في صدق دعوته، التي وُحِّد فيها الرَّبُّ الأعظم.

وماهذا البيت، الذي يشدُّه بالخليل سببان: سبب النّسل والأبوّة، وسبب الدِّين والوحدانية لإلهٍ واحدٍ... ليس هذا البيت، سوى امتدادٍ لدعوةٍ مِنَ الخليل، أجابه بها الرَّبُّ العظيم.

في هذا البيت، الضَّارب الجذر بالإيمان، والرَّسيخ القدم في العقيدة الحقَّة، الذي لم تُدنِّسه الجاهليَّة بأوضارها، ولم ينله الشِّرك بخزيه.

في هذا البيت الكريم، فتح أبو طـالبٍ عينيـه، ودرج في الحيـاة، فـرأى في هـذا البيت حياةً، غير الحياة التي يراها بين النَّاس، وعاش عيشةً، غير التي يعيشها النَّاس.

ورأى في عميد البيت – أبيه عبدالمطَّلب – رجلاً، ليس كالرِّجال، الذين يـرى فيهم تلك الكثرة، فلا يرى منهم سوى هيكلٍ مِنَ الجلد والعظـم، أو دميـةٍ لاتحمـل ذرةً مِنْ عقل، وإنْ أغرتِ العين ببريقها الفارغ... فيفتح عينيه، كمـا قُـدِّر لدعبـل، مِنْ بعده، أنْ يفتحها، وصاح صيحته:

إنِّـي لأفتـحُ عيـنِيْ حـينَ أفتحهـا   على «كثيرٍ» ولكنْ لاأرى «أحداً»!

رأى في أبيه عبدالمطَّلب: ذلك الزَّعيم المطاع، والرَّجل المهـوب، يقـول، فينفـذ القول، ويحكم، فلا يُردُّ الحكم، وهو الجواد المعطاء، والسَّخيُّ الفذُّ، يُطعم فينال مِنَ الطَّعام راكب البعير، وهو على ظهر بعيره، ويُرفـع مِـنْ مائدتـه علـى قمـم الجبـال، لِتنال مِنْ طعامه طيور الفضاء، ووحوش الصَّحاري... حتى لُقِّب بالفيَّاض، ومطعـم طير السَّماء.

وإنه لَـيراه مجـاب الدَّعـوة، يدعـو الله، فتُلبَّـى دعوتـه... فهـو مرضـيٌّ عنـه في السَّماء، ومحمودٌ في الأرض، فدُعي «شيبة الحمد».

وإنه لَيرى فيه صفاتٍ، لم تكن في غيره، مِنْ هذه الأكداس البشـريَّة. وهـو الـذي يسـنُّ سنناً، ليست سوى الدَّليل، على رفعة النَّفس، ونقاء السَّريرة، وعمق الإيمان، بحيـث تنهض بالبرهان على بقاء الحنيفيَّة، التي جاء بهـا أبوه إبراهيـم(ع)، فإنـه لَيُحـرِّم الخمر علىنفسـه، ويُحرِّم نكاح المحارم، ويُحدِّد الطَّواف بالبيت سبع مرَّاتٍ، بعد أنْ كان غـير محدودٍ، وينهى أنْ يطوفَ عارٍ بالبيت، ويقطع يد السَّارق، ويُحرِّم الزِّنا، وينهى عن الموؤُودة، وأنْ يُستقسـم بالأزلام، وأنْ يُؤكل ماذُبح على النُّصب، ويسنُّ الوفاء بالنَّذر(١).

---

(١) – السيرة الحلبيَّة ١:٥، والنَّبوية ١:٢١، والبحار ٦:٣٨، والعبَّاس ١٧، وينابيع المودَّة ٢:٩٠.

ويجيءُ الإسلام، فيُقرُّ كلَّ هذه السنن، التي سنَّها عبدالمطَّلب.

نادم حرب بن أُميَّة بن عبدشمس – والد أبي سفيان – وكان أحد اليهود في جوار عبدالمطّلب، فأغلظ هذا اليهوديُّ لحربٍ في المقال، في أحد أسواق تهامة، وثارت حفيظة ابن أُميَّة – والغدر له وراثةٌ مِنَ الجد عبدشمس، وهي ميزةٌ لهذا الفخذ، وإحدى طباعه المتأصِّلة الجذر – فلم يلبث أنْ أغرى على اليهوديِّ مَنْ قتلَه!.

ولايعرف عبدالمطَّلب غدرة حربٍ، حتى يهجره، فلن ترضى نفسه بنديمٍ غدَّارٍ. ولم يدع حرباً يذهب كأنْ لم يجنِ شيئاً، فأجبره على إعطاء مئة ناقةٍ، لابن عم اليهوديِّ – دية الدَّم المطلول(١).

وهو – إلى كلِّ هذا – يرفض أنْ يخفض الهام، لِيسجد لصنمٍ، فيعبد حجرةً صماء، أو خشبةً باليةً – وهو ذو العقل الرَّجيح، والذّكاء الوَقّاد(٢).

وهو أوَّل مَنْ تحنَّث بغار حراء، فكان إذا أهلَّ شهر رمضان، صعد الجبل، فتعبَّد فيه ليالي – ذوات عددٍ، يُمعن الفكر في جلال ا لله وعظمته.

* *

---

(١) – السيرة الحلبيَّة ص٤ ج١. ويذكر ابن الأثير –في تأْريخه ص٢٠٩– لهذه الحادثة، صورةً غير هذه. ويعزو قتل اليهوديِّ، إلى أنه تاجرٌ ذو مالٍ وفيرٍ، مّما أغاظ حرباً، وأثار كوامن حسده، ورواسب نفسه، فدفع إليه مَنْ قتله، وأخذ ماله... ثم يزيد عليها: إنهما تنافرا إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة، فأبى أنْ يدخل بينهما، فحكم بينهما نفيل بن عبدالعزَّى العدويُّ –جدُّ عمر بن الخطاب– فقال، لحربٍ:

[يا أبا عمرو! أتُنافر رجلاً هو أطول منك قامةً، وأوسم وسامةً، وأعظم منك هامةً، وأقلُّ منك ملامةً، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً –«أي: أكثر منك عطاء»– وأطول منك لدداً]– الخ.

وأُشير إليها في حليف مخزوم ص٢٧ –في حادثةٍ تختلف خطوطها الأوليَّة عن هذه– كما أُشير للمنافرة في البيان والتَّبيين ١:٢٩٣

(٢) – يقول ابن أبي الحديد –في شرحه ١:٣٩– عند عرضه للأُمَّة التي بعث ا لله فيها محمَّداً «ص».

«فأمّا الذين ليسوا بمعطِّلةٍ مِنَ العرب، فالقليل منهم، وهم المتألِّهون أصحاب الورع والتحرُّج عنِ القبائح، كعبدا لله، وعبدالمطَّلب، وابنه أبي طالبٍ»– الخ.

وإنَّ أبا طالبٍ، لَيرى أباه، يـوم جاء أبرهـة للكعبـة، فصُودرت لعبـد المطّلـب أنعامٌ، فراح يطلبها منه. وكاد يصغر في عينيه، حيـث لم يعـرض لأقـدس المقدَّسـات لديه – الكعبة – وقـد جـاء لِيهدمهـا... فمـا كـان إلاَّ أنْ أجابه، بجـواب المؤْمِـنِ، الوطيد الرَّجاء با لله، العميق الثّبات والإيمان:

«أنا ربُّ الإبل. وللبيت ربٌّ يحميه!».

وعاد فأخذ بحلقة باب الكعبة، وناجى الإله، مناجاة موحِّدٍ مؤمِنٍ:

يـــا ربُّ! لاَ أرجـــوْ لَهُـــمْ ســـواكَا
يـــا ربُّ!فـــامنَعْ منهُـــمُ حِماكَـــا
إنَّ عـــدوَّ البيـــتِ مَـــنْ عاداكَـــا
امنعهـــمُ أنْ يخربُـــوا فِناكَـــا(١)

ثم قال – مرةً أُخرى – بلهجة المطمئن، العارف بالنّتيجة:

... لاهُـمَّ إنَّ العبـدَ يمنـعُ رحلَـهُ، فـامنعْ حلالَـكْ
لاَ يغلـبنَّ صليبُهُـمْ ومِحـالُهُمْ – عـدواً – مِحـالَكْ
ولئـنْ فعلـتَ، فإنّـه أمـرٌ تتـمُّ بـه فعـالُكْ
أنـتَ الـذيْ إنْ جـاء بـاغٍ، نرتجيـكَ لـهُ، فذلِـكْ
ولّـواْ ولِم يحـوُوْا سـوى خزيٍ، وتُهلكُهُمْ هنَـالِكْ
لَمْ أسـتمعْ يومـاً بـأرجسَ منهُـمُ يبغُـوْا قتـالَكْ
جـرُّوْا جمـوعَ بلادِهِـمْ والفيلَ كيْ يسبُوْا عِيالَكْ
عَمَـدُوْا حمـاكَ بكيدِهِـمْ جهلاً، ومارقبُوْا جلالَـكْ
إنْ كنـتَ تـاركَهُمْ وكعبتَنَا فأمرٌ مَّا بَدَا لَـكْ

ثم عقّب بقوله:

---

(١) – الكامل لابن الأثير ١:٢٦١، والبحار ٢٣:٦، ومروج الذّهب ٢:١٢٨، وفيه: «قراكا»، بدلاً مِنْ «فناكا».

يا معشر قريش!، لايصل(١) إلى هدْم هذا البيت، فإنَّ له ربّاً يحميه ويحفظه!.

ثم يدعـو ا لله، وإذا بالطَّير «الأبـابيل»، تُحلّق في السَّماء، طـائراتٍ صامتـةً؛ لِتقذفهم بحجـارةٍ، هـي أسـرع فتكـاً مِـنَ القنـابل الذَّريَّـة، وهـي لاتتعـدَّى المجـرمَ في إصابتها، ولاتنال البريءَ بسوءٍ، كما تُفني القنابلُ الأُممَ البريئة، وتقضي على الحيـاة العامرة... فهذه صنْع الإنسان، وتلك صنْع خالقه!.

* *

وإن أبا طالب، ليسمع أباه في نجواه، وقد ضُربتِ القداح عليـه، وعلـى إخوتـه التّسعة، لِيبرَّ عبدالمطَّلب بنذره، ويفي به، وقد أجاب ا لله دعوته، فرزقه عشـرةً مِـنَ الولد.

يـــــا ربُّ! أنـــــتَ الملـــــكُ المحمـــــودُ
وأنـــــتَ - ربِّـــــي! - الملـــــكُ المعبـــــودُ
مِـــــنْ عنـــــدكَ الطَّـــــارفُ والتَّليـــــدُ(٢)

وإنه لَيأخذ مكانه - مِنْ بين إخوته - وعبدالمطَّلب يُلقي عليهم دروسه القيِّمة، ويأْمرهم بـالأوامر الإلهيَّـة... فينهـاهم عـن دنيَّـات الأُمـور، ويـأْمرهم بـترك الظُّلـم والبغي، ويحثُّهم على مكارم الأخلاق... ويُحذِّرهـم يومـاً، يلقـى فيـه كـلٌّ جـزاءه، حيث لايقدم إلاّ على ماعمل... فكثيراً ماكان يسمع منه مثل قوله:

«لئن يخرج مِنَ الدُّنيا ظلومٌ، حتى يُنتقم منه، وتُصيبه عقوبةٌ!».

ومـاإنْ هلك رجلٌ ظلومٌ - مِنْ أهـل الشَّـام، دون أنْ يمسَّـه في هـذه الـدَّار، أيُّ سوءٍ، حتى جاءه مَنْ يتحدَّاه، فإذا به يجيب:

[وا لله إنَّ وراء هذه الدَّار داراً، يُجزى فيها المحسن بإحسـانه، ويُعـاقب المسـيءُ بإساءته](٣).

---

(١) - كذلك وجدناها. ولعلَّ فاعل «يصل» ضميرٌ، يعود لأبرهة.

(٢) - السِّيرة النَّبويَّة ص٦٦ ج١.

(٣) - النَّبويَّة ٢:٢١، والحلبيَّة ٤:١، والعبَّاس ١٧، والغدير ٧:٣٥٢.

وهذا أبوه عبدالمطّلب، يستقبل مولوداً لابنه عبدالله - ذلك المولود الذي ينتظره الكون، ويُنادي به، لِيستقبل إشراقة نوره الوضّاح - فلم يكد الوليد يستقبل الكون، حتى يُبشَّر بذلك الجدُّ، فيدخل على أُمِّه، لِتُحدِّثه بما رأت، حين ألقت مافي بطنها، وكلُّه سمعٌ مرهفٌ لهذا الحديث العذب... ثم يأْخذ الطّفل، ويمضي به للكعبة ليدعو الله، ويشكره على هذا الفضل الشّامل:

الحمـدُ للهِ الـذيْ أعطـانِيْ
هَـذا الغـلامَ، الطّيِّـبَ الأردانِ...
قـدْ سـادَ فِيْ المهـدِ علَـى الغُلمـانِ
أُعيـذُهُ بـا للهِ ذيْ الأركـانِ
حتَّـى أراهُ بـالغَ البنيـانِ
أُعيـذهُ مِـنْ شـرٍّ ذِيْ شـنْآنِ...
مِـنْ حاسـدٍ مضطَّـربِ العنـانِ(١)

وإنَّ عبدالمطّلب لَيُولي هذا اليتيم عنايةً، ويبذل في رعايته أقصى جهده، وينظر إليه نظرةً عميقةً، تخترق المستقبل، وترى مكان هذا اليتيم منه، وقد دانت له الأرض - مِنْ غربها إلى شرقها - وخضعت لعظمته الهام، وخفقت بحبِّه القلوب، ودانت لعظمة دعوته، ولهجت بذكره الألسن، وردَّدت عاطر الثناء، وآيات الإكبار.

فعبدالمطّلب - وهو الزَّعيم المهيب، والمعظَّم في قريشٍ، والمطاع بين العرب - يُفرش له حول الكعبة، فتحفُّ حوله رؤساء قريشٍ، دون أنْ يستطيع واحدٌ منهم: أنْ يطأ مِنْ فراش عبدالمطَّلب طرفَه - بله الجلوسَ وإيَّاه عليه!.

ولكن هذا الطّفل اليتيم، يجيءُ - بروحه الطَّموح، ونفسه الوثوب - فيتخطّى الناس، ليجلس بجانب جدِّه، ولربما سبقه، فيجلس محلَّه، فإذا جاء جدُّه وأرادوا أنْ

(١) - أعيان الشّيعة ٦، ٢:٧، وذُكر البيتان الأوَّلان، بإبدال «بالبيت» عن «با لله» في مروج الذّهب ٢:٢٨١ وذُكر البيت الأوَّل وصدر الثاني في البحار ٦:٧٩، وكاملةً، مع اختلافٍ في بعض الكلمات، في البحار -أيضاً- ٦/٩١.

يُبعدوه عن محلّه، فعبدالمطّلب ذلك الزجّار لَمِنْ شاء أنْ يتجرّأ، فيُنحّي هذا الطّفل العظيم!. ويقول مرَّةً:

– دعوه! إنّ له شأناً!.

ويُجلسه إلى جانبه، وهو يُربِّت على ظهره، وقد بدت على وجهه بشائر الفرح، وعلامات الرِّضا والسُّرور، فلن يخيب فيه الرَّجاء الجميل، والأمل الخضل!.

ومرَّةً أُخرى، يقول لِمَنْ شاء أنْ يمنع محمَّداً، عن فراش جدِّه:

– دعوا ابني يجلس، فإنه يُحسُّ مِنْ نفسه بشيءٍ!، وأرجو أنْ يبلغ مِنَ الشَّرف، مالم يبلغه عربيٌّ، قبله، ولابعده!.

ومرَّةً ثالثةً يقول:

– ردُّوا ابني إلى مجلسي!، فإنه تُحدِّثه نفسه بملكٍ عظيمٍ، وسيكون له «شأنٌ!»(١)

وإنه ليخصُّ – تارةً – أبا طالبٍ بالتَّوصية به:

– يا أبا طالب!، إنَّ لهذا الغلام لشأناً عظيماً!، فاحفظه واستمسك به، فإنه فردٌ وحيدٌ!، وكن له كالأُمِّ، لايصل إليه شيءٌ يكرهه!(٢).

وماكان عبدالمطّلب، بالذي يتكلّم جزافاً! فما هو مِمَّنْ يُرسل الكلام على عواهنه، ويهرف بما لايعرف!.

إنه ليعرف بأنَّ لحفيده «لشأناً» – وأيَّ شأن!.

وإنَّ الأدلة عليه، لعلى وفرٍ... فإنَّ دليلاً واحداً – مِنْ بين ألف دليلٍ ودليلٍ – لَيُؤكّد مايراه ببصيرته النّافذة، وقد كثُرتِ الأدلّة، وتوفّرتِ العلامات، حتى أصبح لديه سيلٌ مِنْ هذه وتلك... ولايعترضه فيها شكٌ، ولاريبٌ...!

---

(١) – السِّيرة الحلبيَّة ١٢٩:١، والنَّبويَّة ٢٣:١، والهشاميَّة ١٧٨:١، والبحار ٤٢:٦، والعبَّاس ١٨، وعلى هامش السِّيرة ١٨٥:١.

(٢) – المجالس السنية ٣٦:٤.

وماحياته هو، وسيرته البيضاء، سوى واحدٍ مِنْ تلك الأدلّة، على هذا «الشّأن»، الذي يراه لحفيده، فهو مقدِّمةٌ تُشير وتُبشِّر بالنّتيجة...

وإنّه لعلى يقينٍ، مّما ذهب إليه، مِنْ حقٍّ جليٍّ، ومِنْ واقعٍ رهينٍ... فإنَّ كلَّ ماحوله لَيُصدِّقه، وكلَّ ظاهرةٍ تُعمِّق منه الإيمان – وإنْ لم يكن منها، إلاَّ ذلك المطمئن العميق.

هؤلاء قومٌ مِنْ بني مدلج، وهمُ القافة(١)، العارفون بالآثار والعلامات – يقولون له: «احتفظ بمحمَّدٍ، فإنّا لم نرَ قدماً أشبه بالقدم التي في المقام، منه»(٢).

وهذا سيف بن ذي يزن الحميريُّ، وقد ولي الحبشة، بعدما وُلد الرَّسول بعامين، فراحتِ العرب تفد عليه، تُهنئه باسترجاعه ملك آبائه، إذِ استنقذ ملك اليمن مِنَ «الحبشة»... وكان في الطَّليعة: وفْد قريشٍ. وفي طليعة الطَّليعة: زعيمها «عبدالمطَّلب».

وإذ وقف عبدالمطَّلب – أمام سيفٍ – وألقى كلمةً، هي آيةٌ في البلاغة والفصاحة، مّما أرغمت هذا «السَّيف» على الانحناء، أمام هذه العظمة الفذّة، والشَّخصيَّة الكبيرة، والزَّعيم المبجَّل...فرحَّب بهم، وحلُّوا منه محلَّ الضُّيوف الكرام...

وشاء أنْ يطول منهم أمد البقاء لديه، حتى مضى شهرٌ، وهم في ضيافته... وإذ ذاك أدنى إليه عبدالمطَّلب، لِيُلقي إليه بسرٍّ خطيرٍ – ظنّاً منه بأنَّ عبدالمطَّلب، لم يكن به ذلك الخبير – ويُلقي إليه بنبأٍ مشرقِ الحواشي، يحمل – بين أطرافه – «شرف الحياة، وفضيلة الوفاة»، للوجود بأجمعه... وإنَّ لعبدالمطَّلب منه، للحصَّة الفضلى، والنَّصيب الأوفر:

---

(١) – القافة: العارفون بالآثار. والقيافة: تتبُّع الآثار.

(٢) – يُريدون بالقدم: قدم إبراهيم الخليل (عليه السَّلام).

ارجع للحادثة إلى: السيرة الحلبيَّة ١:١٢٩ وذكرت في كلٍّ مِنَ: البحار ٦:٤٨، وتذكرة الخواص ٨، وأعيان ٢:١٠ بزيادة:

«إن عبدالمطلب، قال لأبي طالبٍ: اسمع مايقولون».

«إذا وُلد بتهامة، غلامٌ بين كتفيه شامةٌ، كانت له الإمامة، ولكم به الزَّعامة، لى يوم القيامة».

ثم يُعقّب بعد قولةٍ لعبدالمطّلب:

«اسمه محمَّدٌ. يموت أبوه وأُمُّه، يكفله جدُّه وعمُّه»(١).

ولايلبث أنْ يكشف السِّتر، ويُلقي ببقايا السِّرِّ الكمين:

«والبيت ذي الحجب، والعلامات على النُّقب(٢). إنك لجدُّه - يا عبدالمطَّلب! - غير كذبٍ»(٣).

وإذ ذاك يخرُّ عبدالمطَّلب، ساجداً لربِّه، يُناجيه بكلمات الشُّكر، على هذه النِّعمة الفضلى، ويرفع رأْسه مثلج الصَّدر، باسم الثَّغر، ويقصُّ على الملك طرفاً مِنْ حياة هذا النَّبيِّ العظيم، حتى يقول:

«مات أبوه وأُمُّه، وكفلته أنا وعمُّه»(٤).

تلك دلالاتٌ يراها، إلى جانب دلالاتٍ أُخرى، تزخر بها حياة حفيده، ويراها متكرِّرةً وفيرةً. وإنَّ واحدةً منها - حتى لو لم تكن لها ثانيةٌ - لكفيلةٌ بقيام البرهان نصيعاً، والحجَّة دامغةً، على أنَّ حفيده محمَّداً، هو ذلك النَّبيُّ المنتظر، الذي قرأه في الكتُب المنزلة مِنَ الحقِّ، على لسان رسله.

فكيف بها دلائلُ كثار، تضاعف لديه، وتضاعف، وتزدحم وتكثر - وفي كلِّ يومٍ دليلٌ نابضُ ملحٌّ؟.

تمرُّ سنون «جداب»(٥)، وقدِ انقطع فيها الغيث، وضحل الماء، فيبس مِنَ الحشيش ماكان على اخضرارٍ، وجفَّ مِنَ الضَّرع ماكان ذلك الدَّرور. فكانتِ

---

(١) - ذُكرت هذه الجملة، في الاستيعاب -ص١٤ ج١- وقد أشار لهذه القصَّة، إشارةً مِنْ بعيدٍ.

(٢) - النُّقب -بضم نونه- الطَّريق في الجبل.

(٣) - أُشير لها -مِنَ الشَّاطيء البعيد- في أعيان الشِّيعة ٩:٢.

(٤) - شئنا الاقتضاب في تسجيل هذه الحادثة. ومَنْ شاءها في شيءٍ مِنْ تفصيلٍ، فليرجع للسِّيرة الحلبيَّة ١٣٥- ١/١٣٧، والنَّبويَّة ٦٦-٦٨ و١:٧٩، والبحار ٦:٢٨.

(٥) - لم نجد -في اللُّغة- صورةً لهذا الجمع.

الحياة – لديهم – تلك الخشنة الملمس، الجافية الحواشي، الجهمة الطّلعة، فاسودَّت منهمُ النَّظرة، وكساهمُ الوجد والأسى، والرُّعب والخوف: غلالةً صفراء على سوادٍ، تعلو الوجوه، وتكسو الأجسام...

وليس – ثمَّة – مِنْ شفيعٍ، إليه يضرعون، سوى عبدالمطَّلب. فبروحيَّته يدعونه، ليتقدَّم إلى ربِّه، فتجود عليهمُ السَّماء بالقطر، وتعود لهم الحياة كما كانت مِنْ قبلُ... وإنَّه للمشفَّع عند ربِّه، فلْيرحم هذه النُّفوس، وقد أشرفت على الموت، بعد ضياع الأموال، وموات الأنعام.

وقد دلَّتهم على هذا الوجيه عند الله، والوسيط الذي لاتُردُّ له وساطةٌ... دلَّتهم عليه رؤياً في المنام، بصفاتٍ كريمةٍ، وأوصافٍ رقاق(١).

يا لجلال الموقف! ويا لروحيَّته!.

هاهو ذا عبدالمطَّلب، تحفُّ به هالةٌ مِنَ الأشبال، وجمعٌ مِنْ بطون مكَّة، يفوح مِنْ بينهم عبَق الطِّيب، وذكيُّ العرْف، فيستلمون الرُّكن – في طريقهم لقمَّة أبي قبيسٍ – وقد أخذ حفيده محمَّداً – فندَّت شفتاه بدعواتٍ، انبعثت مِنْ قلبٍ يسيل رقَّةً، ويطفح إيماناً:

[لاَهُمَّ هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك، وإماؤك وبنو إمائك، وقد نزل بنا ماترى، وتتابعت علينا هذه السُّنون، فذهبت بالظِّلف والخفِّ والحافر، فأشفت على الإنفس... فأذهِب عنَّا الجدب، وائتنا بالحياء والخصب](٢).

يا للدَّعوة المؤمنة، تصعد للسَّماء، فلا يحجبها شيءٌ... ويا للدَّعوة المؤمنة، يسمعها الرَّبُّ الرَّحيم، فيُجيب النِّداء!.

فلم يبرحوا الجبل، إلاّ والسَّماء متراكمة السُّحب، تحمل «الخصب»، وتُغدق «الحياء» وتطرد «الجدب» المقحَل، وتنهمر السماء مدراراً، وتجود السُّحب

---

(١) – ارجع لمعرفة الرُّؤيا، للسِّيرة الحلبيَّة: ١٣١-١٣٣ ج١، ولشرح النَّهج: ٢/٢٥٥.

(٢) – الحياء –هنا– بمعنى المطر. وتأتي بمعنى الخصب والنبات.

ض، وتسيل الأودية: «خصبا»، و«حياءً»... وتفترُّ ملء الشِّفاه بسمات.
اح قلوبٌ، وتشعُّ عيون فرحى... وتُقطِّب وجوهٌ، وتتلوَّى شفاهٌ، وتشمئزُّ
بٌ، ويتطاير - مِنْ عيونٍ - شررٌ حقود...

غير أنَّ هذه السبيل عليها مقطوعٌ!. أمَّا تلك، فالمجال - لها - فسيحٌ، على
اع مدىً...!

ولايكاد الرَّكب يُشارف مكَّة، وإذا بصوتٍ رقيقٍ ينبعث مِنْ أحد بيوت مكَّة.
عث لحناً عذباً، صافي النَّبرة، رائع الوقع... فهذه «رقيقة» بنت أبي صيفي بن
شم، ينطلق لسانها بشعرٍ، يُعبِّر عن مدى الفرحة، وتهزج بلسانٍ حلوٍ:

بشيبةِ الحمدِ أسقى ا للهُ بلدتَنَا
وقدْ عدمنَا الحيَا، واجلَّوذَ المطَرُ(١)

فجادَ بالماءِ جُونيٌّ لهُ سَبَلٌ
دانٍ، فعاشتْ بهِ الأنعامُ والشَّجرُ(٢)

مَنّاً مِنَ ا للهِ بالميمونِ طائرُهُ
وخيرِ مَنْ بشَّرتْ - يوماً - بهِ مُضَرُ

مباركُ الاسمِ، يُستسقى الغمامُ بهِ
مافي الأنامِ لهُ عدلٌ، ولاخطرُ(٣)

---

(١) - اجلوذ المطر: طال تأخُّر هطوله.

(٢) - الجون: ضدٌّ، يُطلق على: الأبيض والأسود، وألوانٍ أُخر مضادَّة. والجُوْنيُّ -بواوٍ مضمومٍ ماقبلها- ضرْبٌ مِن القطا، سود البطون والأجنحة.
وعلى أيِّ معنىً، فالكلمة -هنا- على سبيل الكناية، يُراد منها: وفرة المطر، وكثرة انهماره.
ويُوضح هذا كلمتا: «له سَبَلٌ»، -بفتح السين والباء- أي: له انهمارٌ، وهطولٌ منصبٌّ.

(٣)- السِّيرة الحلبيَّة ١٣٣:١، والنُّبويَّة ١/٦٤، والبحار ١٢٧، ١٢٨ ج٦، وشرح النَّهج ٢:٢٥٥، وفيه البيتان الأوَّلان فقط، واختلافٌ في دعاء عبدالمطَّلب عن هذه الصُّورة.

وإذِ انهطل المطر، وسالت به الأودية، فأنبتتِ المراعي الخصاب، لم يكن لبلاد قيسٍ ومضرٍ – مِنْ ذلك – نصيبٌ، فلم تمرَّ بهمُ السُّحب المغدقة، التي تحمل «الحيا»، فيسيل: خصباً، ونماء...

وإذ ذاك اجتمع عظماؤُهم، يتبادلون الآراء، فوحَّدوا الرَّأْي – ولم يجدوا غيره – أنْ يفزعوا لعبدالمطَّلب، هذا الذي سقى الله على يديه مكَّة، مِنَ الأرض والسَّماء، فلم تبخل عليه تلك، ولاهذه(١). وليس الله برادٍّ دعوةً، تنبعث مِنْ قلب هذا الشَّيخ الكبير، وله عند ربِّه المكان العليُّ. فقالوا:

– لقد أصبحنا في جهدٍ وجدبٍ. وقد سقى الله الناسَ بعبدالمطَّلب فاقصدوه، لعلَّه يسأل الله تعالى فيكم.

وإذ وصلوا مكَّة، فدخلوا عليه، رحَّب بهم، وقام خطيبهم، لِيُنهي لعبد المطَّلب حاجتهم، ومافي الوقت متَّسعٌ لتأجيلٍ، وكلُّ يومٍ يحمل بين ساعاته، لهيب اللَّفحة، ورائحة الموت:

[قد أصابتنا سنونٌ مجدباتٌ، وقد بان لنا أثرك، وصحَّ عندنا خبرك، فاشفع لنا عند مَنْ شفَّعك، وأجرى الغمام لك].

وفي اليوم التَّالي، كان عبدالمطَّلب عند وعده لهم... وهاهو ذاك في «عرفات» والنَّاس، وولده حوله – وبنيهمُ الحفيد الحبيب، محمَّدٌ اليتيم – وقد ألَّفوا هالةً، يشعُّ منها سنىً، ويعلوها جلالٌ. فأخذ مكانه مِنْ كرسيِّه، وفي حجره حفيده الكريم، فيرفع يديه نحو السَّماء، وينبر بصوتٍ خاشعٍ، ويرمق السَّماء بطرفٍ يشعُّ إيماناً، ويُناجي ربَّه بقلبٍ، يطفح بالعقيدة:

---

(١)- إشارةً إلى ماأُمر به مِنْ حفر زمزم... وإلى الماء النَّابع مِنْ تحت خفِّ فرسه، وهو في طريقه إلى محاكمة قريشٍ -بعد حفره زمزم- وقد أشرف هو وأصحابه على الهلاك، وصافحوا عزرائيل...! وأبى أُولئك «الكرام!» أنْ يجودوا عليهم برشفةٍ مِنْ مائهمُ الكثير!. فسقاه الله ربُّه، وسقاهم مِنْ فيضه، فرجعوا مذعنين له، «قبل أنْ يصلوا للحكم، وهاهو ذا ربُّه قد حكم له!.

وكأنَّ التَّأريخ يُعيد نفسه!. فمنعُ الماء مِنْ جانب أُولئك اللِّئام! والجود به مِنْ جانب هؤلاء الكرام! -عادةٌ مكروهةٌ، أو طبيعةٌ لأولئك وهؤلاء، لايستطيعون لها فراقاً...!

فعليٌّ ومعاوية! ثم مع الحسين ويزيد!.

[اللّهمَّ ربَّ البرق الخاطف، والرَّعد القاصف، ربَّ الأرباب، وملِّين الصِّعاب!.
هذه قيسٌ ومضر، مِنْ خير البشر، قد شعثت رؤُوسها، وحدبت ظهورها، تشكو إليك شدَّة الهزال، وذهاب النُّفوس والأموال!.
اللّهمَّ فأتح لهم سحاباً خوَّارةً، وسماءً خرَّارةً، لِتضحك أرضهم، ويزول ضرُّهم].
وماكان يبلغ مِنْ دعواته إلى هذا الحدِّ، وإذا بسحابةٍ دكناء، قدِ انعقدت، وكان لها دويٌّ، فقصدت نحوه، وهي جوابُ دعوته، لتأْخذ طريقها نحو بلاد هؤلاء المجدبين، ويحول الجدب إلى خصبٍ، والمحل إلى نماءٍ زكيٍّ، ويصرفهم عبدالمطَّلب.
(يا معشر قيس ومضر! انصرفوا، فقد سُقيتم)(١).
وتنطلق حنجرة أبي طالبٍ، مزغردةً:

أبونَا شفيعُ النَّاسِ حينَ سُقُوا بهِ
مِنَ الغيث رجَّاسُ العشير بكورُ(٢)
ونحنُ - سنينَ المحلِ - قامَ شفيعُنَا
بمكَّةَ يدعُوْ، والمياهُ تغورُ..
فلمْ تبرحِ الأقدامُ، حتّى رأوا بها
سحاباتُ مزنٍ، صوبهنَّ درور
وقيسٌ أتتنَا بعدَ أَزْمٍ وشدَّةٍ
وقدْ عضَّهَا دهرٌ أكبُّ عثورُ
فما برِحُوا حتّى سقى الله أرضَهُمْ
بشيبةَ غيثاً، فالنَّباتُ نضيرُ(٣).

وتمضي حياة عبدالمطَّلب: خضلة الحواشي، مشرقة السَّنى، وهَّاجةَ النُّور، مليئة بإرهاصات النَّبي المنتظر، الذي قرأه في الكتُب السَّماويَّة - وهو بعدُ- نورٌ في جبينه.
ثم رآه - وإنه لَمِنْ صلبه - فكان له ذلك الحدب الشَّفيق، والمربِّي الحنون...

(١) - السِّيرة الحلبيَّة ص١٣٣/١، والنَّبويَّة ١:٦٥
(٢) - سحاب رجَّاس: شديد الهدير، أوِ الصَّوت.
(٣) - إثبات الوصيَّة ص٨٧

وإنه ليس ينسى هذا الذي استأثر بقلبه، وآثره على بضعةٍ مِنْ ولده... إنه ليس ينساه، حتى في آخر لحظةٍ، تُختم به حياته المديدة، التي بلغتِ المئة والعشرين – على قولٍ – ونيَّفت على الخمسة والثمانين – في قولٍ آخر.

إنه وهو يُعالج سكرات الموت، لَيُدير عينيه في ولده، وقد حفُّوا به، ليختار مِنْ بينهم مَنْ يُلقي عليه مهمَّةً، شغلت منه فكره... وليست هذه بالمهمَّة اللَّينة، فعليه: أنْ يُحسن الاختيار، لِيُغمض عينين قريرتين.

ويمتدُّ بصره، ليلتقي بأبي طالبٍ. فليس خيراً مِنْ هذا، تُلقى على كاهله هذه المهمَّة الشَّاقَّة، وهو الذي شاركه في القيام بها، منذ بزغ نور هذا السِّراج السَّاطع:

أُوصيكَ – يا عبدَ منافٍ! – بعدِيْ
بموحَدٍ – بعدَ أبيهِ – فردِ(١)

ويُردف بقوله:

وصَّيتُ مَنْ كَنَّيْتُهُ بطالبِ
عبدِ منافٍ، وهوَ ذوْ تجاربِ(٢)
بابنِ الحبيبِ أكرمِ الأقاربِ
بابنِ الذيْ قدْ غابَ، غيرَ آئبِ(٣)

---

(١) – ص٧ قسم ١ ج٣ أعيان الشِّيعة، وص ١٢٥ ج٣٩ منه، في خمسة أبياتٍ، وعمدة الطَّالب ص٦، بإبدال «موحدٍ» بواحدٍ، والمناقب ١/٢١، والبحار ٦/٤٧ في ٥أبياتٍ. ومعجم القبور ١/١٨٣.

(٢) – في أعيان الشيعة –ص ٣٩:١٢٥– جاء فيه: [كفيت]، بدل كَنَّيته. وعلَّق عليها سماحة المؤلِّف المقدَّس، فقرَّبها بـ[كفلته]، وهو لم يلتفت لذلك، لأنَّ الخطاب موجَّهٌ لأبي طالبٍ، وهو الذي كنَّاه بهذه الكنية، ولم يُوصِ به مَنِ اسمه «طالبٌ»، على أنه يجب –حينئذٍ، على رأيْ سماحته– أنْ ينصب «طالباً»، بعد حذف الباء منه، فيكون «وصَّيتُ مَنْ كفلته طالباً» لأنَّ وصَّى المشدَّدة، مِنَ الأفعال المتعدية لمفعولٍ واحدٍ بنفسها. ثم نختار، بعد ذلك، باسم عبد مناف، لأنه يكون عندنا حينئذٍ، اسمان: طالب، وعبد مناف، في حين أنهما: اسمٌ، وكنيةٌ.

(٣) – الأعيان –في جزئيه– والعبَّاس ص١٩.

وذُكر صدر البيت الأوَّل في مروج الذَّهب ص١٣٢ ج٢، وعجز الثاني بإبدال «ليس بآئب».

وذُكر البيت الأوَّل في عمدة الطَّالب ص٦، ومعجم القبور ١/١٨٤.

وتقع هذه الوصيَّة، مِنْ نفس أبي طالبٍ، مكانها العميق، فيرضى بها:

لاَ تُوصِـــنِي بــلازمٍ وواجــبِ
إنِّـــيْ سمعـــتُ أعجـــبَ العجـــائبِ
مِـــنْ كـــلِّ حـــبرِ عـــالمٍ وكـــاتبِ
بَـــانَ - بحمـدِ اللهِ - قـــولُ الراهـــبِ(١)

ويعود عبدالمطَّلب للقول:

[انظر - يا أبا طالبٍ! - أنْ تكون حافظاً لهذا الوحيد، الذي لم يشمَّ رائح أبيه، ولم يذق شفقة أُمِّه. انظر أنْ يكون - مِنْ جسدك - بمنزلة كبدك. فإني قـ تركتُ بنيَّ كلَّهم وخصصتك به، لأنك مِنْ أم أبيه، واعلم(٢)، فانِ استطعتَ أ تتبعه فافعل، وانصره بلسانك، ويدك، ومالك.

فإنه والله سيسودكم، ويملك مالا يملك أحدٌ مِنْ آبائي(٣). هل قبلتَ؟].

فأجابه: «قد قبلتُ. والله على ذلك شاهدٌ!».

ومدَّ يده إليه، فضرب بها على يد ابنه - أبي طالبٍ - وأرسل كلمته المنبثقة مِنْ عميق قلبه، وقدِ استراح مِنْ عناء هذه المهمَّة الثقيلة، واستقبل الموت بطمأنينة ضميرٍ:

«الآنَ خُفِّف عليَّ الموت!».

وراح يغمره بفيضٍ مِنْ قبلات الحنان، تحمل شفقة الوالد الحدب، ويقول:

«أشهد أني لم أرَ أحداً - في ولدي - أطيب ريحاً منك، ولاأحسن وجهاً»(٤)

(١) - المناقب ص٢١ ج١، والعبَّاس ص١٩، والأعيان ١٢٥ ج٣٩.

(٢) - في المجالس السَّنِيَّة ٤/٣٧، والبحار ٦/٤٣ زيادةٌ، بعد هذا:

يا أبا طالبٍ! إنْ أدركتُ أيَّامه، تعلم: أني كنت أبصر النَّاس به، وأعلم النَّاس به، فإنِ استطعت -الخ.

(٣) - وفيهما بعد هذا- أيضاً:

يا أبا طالبٍ! ماأعلم أحداً مِنْ آبائك، مات عنه أبوه، على حال أبيه، ولاأُمُّه على حال أُمِّه، فأحفظه لوحدته- الخ.

(٤) - البحار ص ٤٣ ج٦. وذُكرت -في إثبات الوصيَّة ص١٠٧- وصيَّة عبدالمطَّلب لأبي ، في صورةٍ غير هذه. وذُكرت لها صورةٌ أُخرى في كتاب «الحجَّة» ص٧٧.

شخصيّةٌ

في ذلك البيت، الرَّفيع العمد، والعميق الجذر، والشَّامخ البناء... وتحت رعاية ذلك الوالد الحدب، ومِنْ تعاليمه الرَّفيعة، وعلى مدرسته الفذَّة... تخرَّج أبو طالبٍ، بعد أنْ درج في هذه الحياة – وله مِنْ ماضيه «العظامي»: مايغرس في قلبه: انتهاج المثل العليا، والسَّير في الطريق الألحب.

وإنْ تكن للوراثة أثرٌ فعَّالٌ، في خلْق شخصيَّة الإنسان، وتغذية عقله، وتوجيهه – كما يرى ذلك علماء النَّفس – فإنَّ أبا طالبٍ قدِ استفاد مِنْ هذه الوراثة، فائدةً غير محدودةٍ... وماهو سوى دليلٍ نابضٍ، للعلماء النَّفسيِّين، فإنْ يستشهدوا به، فليس علينا إلاَّ الإذعان! وليس – ثمة – مِنْ مجالٍ لقولٍ أو ردٍّ.

فأبو طالبٍ صورةٌ واضحة الخطوط، بارزة المعالم، لماضٍ مشرق الحواشي، وضَّاح السَّنى، لامع النُّور... ففيه مِنْ صفات أبيه عبدالمطَّلب، وجدِّه هاشم، وأجداده الأفذاذ: ماجعلت منه تلك الصُّورة، الواضحة، الرَّائعة.

وليس مِنْ نكيرٍ أنْ يكون أبو طالبٍ، كما كان، وقد أراد ا الله منه: أنْ يكون كافل نبيِّ الإسلام – وهو الصُّورة الكاملة للإنسان، والنُّسخة المثاليَّة للإنسانيَّة...

ليس مِنْ نكيرٍ: أنْ يكون أبو طالبٍ، كما كان، وتحت رعايته نشأ الرَّسول الأعظم، وقضى – تحت جناحه – شبابه الزَّاهر، وهو أعظم مراحل عمر الإنسان حراجةً، وأشدُّها: فعاليةً، وإحساساً، وتأثُّراً...

إذن... فقدِ اجتمعتِ لأبي طالبٍ: عظاميَّةٌ شامخةٌ، وعصاميَّةٌ ناصعةٌ، ازدوجتا، فكان منهما: أبو طالبٍ كافل محمَّدٍ اليتيم – أوَّلاً – وأبو طالبٍ نصير الرَّسول وحاميه، والمؤْمِنُ برسالته – ثانياً – فهو: شيخ البطحاء، وبيضة البلد.

ازدوجت تلك العظاميَّة والعصاميَّة، حتى لو أنك أردت أنْ تبحث عن خطوط إحداهما، دون الأخرى، لَاستعصى عليك!، ومـاأنت بقادرٍ أنْ تتميَّز مِنْ بينهما خطّاً، تقول عنه: هذا عظاميٌّ، أو ذاك: عصاميٌّ!.

وكان شيئاً محتوماً - كما قلتُ - أنْ يكون أبو طالبٍ كما كان، مادامت السَّماء قدِ اختارته لهذه المهمَّة... فكان نصير رسالة السَّماء، قام بواجبه تجاهها، كأحسن مايُراد منه!.

وليس مِنْ نكيرٍ - أيضاً: أنْ يُشارك أبو طالبٍ أباه: الزَّعامة، في حياته، فيكون الشخصيَّة الأُوْلى، بعد أبيه... وأنْ يُشاركه حتى في رعاية الرَّسول، والحدب عليه(١)، لينفرد - أخيراً -بكلتي المهمَّتين-: الزَّعامة، والرِّعاية. فيكون: الزَّعيم الأوَّل، والرَّاعي الأوحد، والكفيل الذي ليس له ثانٍ، أو شريكٌ!.

ماضٍ حفيلٌ رائعٌ، وحاضرٌ ضخمٌ ساطعٌ، يُكوِّنان حياةً فضلى، تُنتج الخير والثَّمر النَّضير، وتُبقي عطراً عبق الشَّذى، فوَّاح العَرْف، يُعطِّر الوجود، والعدوَّ والصَّديق، على حدٍّ سواء - كما تُشرق الشمس على الوهاد، وقمم الجبال.

ولكن الأنف المزكوم، لايستنشق العَرْف الفوَّاح! والعين الرَّمداء. لاتُبصر الشُّعاع النِّيِّر...!

وظاهرةٌ واحدةٌ، يكاد يكون أبو طالبٍ صاحبها الأوحد!، وتكاد تكون - أيضاً- هي أوَّل خطٍّ، وآخر خطٍّ يُميِّز عصاميَّته مِنْ عظاميَّته...

لم تكنِ الزَّعامة والسِّيادة، بالتي تُنال بكفٍّ مِنَ المال على قلَّةٍ، بله على فراغٍ، بل لابُدَّ لها مِنْ مالٍ وفيرٍ، يكون الدَّعامة الأُوْلى، في بناء الزَّعامة، والرَّكيزة التي عليها تعتمد... وبدونه لاأظنُّ السَّبيل، إلاَّ مقطوعاً على مَنْ يحفل قلبه بحبِّها.

ولكن أبا طالبٍ، كان ذلك الزَّعيم المهيب، والسَّيِّد الأوَّل، والرَّئيس المطاع، وهو الخالي الوفاض مِنَ المال - الإله المعبود - فلم يكن ذلك الثَّريّ، ولاذلك الوارم الكيس(٢).

---

(١) - السِّيرة الحلبيَّة ص١٣٧ ج١.

(٢) - النهج شرح الحديديِّ ص٩ م١ و٤٦١ م٣، والسِّيرة النَّبويَّة ص٩٩ ج١، والحلبيَّة ١٥٣ ج١، وفضل هاشمٍ على عبد شمسٍ -رسائل الجاحظ- ص١٠٩، ومعجم القبور ص١٩٨ ج١، وأعيان الشِّيعة ص١٢٤ ج٣٩، والإمام عليٌّ صوت العدالة ص٥٥ ج١.

ولكنه، وإنْ كان ذلك الخالي الوفاض، الفارغ الكيس - فإنه ذلك الثَّريُّ الكبير، مِنْ حيث الخصائص النَّفسيَّة. فهو مِنْ صفات الزَّعامة، لعلى وفرٍ وغنىً، بحيث تفرضه زعيماً، لايُنازعه في ذلك أحدٌ، حتى ولو كان ذا مالٍ، ولايُعدَل عنه لغيره. فمثله مَنْ لايُعتاض عنه بغيره... وغيره لن يقوم مقامه، ولايُغني غناه.

ورث مِنْ أبيه: ملامحه وخصائصه، فكان الرَّجل المسماح بغير طلبٍ، والمعطاء بغير منَّةٍ، فضارع الدِّيمة الهاطلة، في انهمارها، على فراغ يده، ومسيس حاجته للمال... وإنه لَيتحمَّل - في سبيل ماتفرضه عليه طبيعته - أنْ يُثقل كاهله بالدَّين، لئلا يدع معروفاً، أو خصيصةً عريقةً، قام بها أبوه، وكانت له مِنْ بعده.

قام - بعد أبيه - بسقاية الحاجِّ، وانتهج منهجه فيها، بعد أنْ حفر زمزم، فكان يقذف في الماء التَّمرَ والزَّبيبَ، ليعذب منه المذاق، في أفواه هؤلاء، الضَّاربين في كبد الصَّحراء، ولهواتهم على لهبةٍ ووقيدٍ، فينقعوا تلك الغُلَّة، والظَّمأ اللاَّهب...

وكان عامٌ أسود، أملق فيه أبو طالبٍ، ورأى نفسه، مِنْ عادته، على غير اقتدارٍ!، ورأى نفسه تفرض عليه: أنْ لايتخلَّى عن مكرمةٍ، تُذكِّره بالأب الرَّحيم. فراح يستدين - مِنْ أخيه العبَّاس - عشرة آلاف درهم، إلى موسمٍ آخر، لعلَّه أنْ يستطيع سدَّها فيه، فلا يسقي الحاجَّ - وهم ضيوف الله - ذلك الماء المرير...

وجاء عامٌ آخر، لم يستطع أنْ يدفع فيه لأخيه دَينَه. بل رأى يده لاتطول إلى القيام بواجبه، نحو الحاجِّ!،ورأىنفسه أمام أمرٍ واقعٍ!، فليذهب - مرَّةً أُخرى - لأخيه العبَّاس، ويستدين منه أربعة عشر ألفاً، ليدفع له جميع مالِه، في عامٍ مقبلٍ.

ولكن العبَّاس، لم يُعطه هذا المبلغ مِنَ المال - هذه المرَّة - إلاَّ بعد شرطٍ، أخذه لنفسه، هو: أنه إذا عجز أبو طالبٍ، عن سدِّ دَينه - في عامه المقبل - فعليه أنْ يترك السِّقاية إليه...فكان ذلك(١)...

---

(١) - شرح النَّهج الحديديِّ ص٤٦١ م٣، والسِّيرَة الحلبية ص١٧ ج١، والنَّبويَّة في الصَّفحة ذاتها، وكامل ابن الأثير ص٢:١٤، ومجالس ثعلب ص٣٧ ق١.

غير أنَّ السِّقاية – وقد أفلت مِنْ يده الزِّمام– لم تكن بالتي تُؤثّر على مقامه، أو تخدش مِنْ زعامته، وهو نبعة الخير في مكّة، ومجاب الدَّعوة في السَّماء، وهمزة الوصل بين الأرض والسماء...

وإنَّ له لخصائص وملامح، لو شئنا أنْ نعرض لها، ونتناولها بالحديث، لطال بنا المقام...

إنَّ له مِنْ تلك الخصائص والملامح: ماتفرضه زعيماً تُجلّله الهيبة والوقار، وكهفاً مِنَ المنعة، حيث ليس لأحدٍ أنْ ينال منه سوءاً، وماهو، بالذي تهزُّه عاصفةٌ نكباءُ، وليس بالذي تلين منه قناةٌ...

وإنَّ مِنْ بين تلك الصِّفات والظَّواهر: ماتدعنا نُؤمِنُ، بل ماتفرض علينا أنْ نُؤمِنَ – إذ لامجال لشكٍّ – بأنه على ملّة الخليل إبراهيم: الحنيفيَّة البيضاء(١). فما كانتِ الجاهليَّة – بما فيها مِنْ: أوضارٍ، وأرجاسٍ، ومنابعَ للشَّرِّ والآثام – بالتي تطبعه بطابعها!. بل وليست بالتي تحرف منه المسلك، أو تحيد به – ولو مصادفةً – عن لاحب الطَّريق، وواضح المنهج...

وليستِ البيئة التي عاشها، ولابسَ منها الحياة العامَّة – وهي أكبر مؤثّرٍ على الانسان، وأعظم مدرسةٍ، يتلقّى منها الانسان الدُّروس العمليَّة، التي تتعلّق بالخصائص النفسيَّة...

ليستِ البيئة بالتي تُكيِّفه، ولم يكن هو بالذي يصطبغ بها، أو يتأثَّر بها، وله مِنْ عقله الرَّاجح، ونظره البعيد، وفكره النَّافذ، ونفسيَّته الفضلى، وخصائصه الموروثة، وملامحه البارزة...

له مِنْ كلٍّ هذا، قوَّةٌ تُسيطر عليه، أنْ لاينساق في بيئةٍ متردِّية، أو مستوىً منحطٍّ، أو جاهليَّةٍ رعناء... بل له مِنْ كلٍّ هذا، قوَّةٌ، لأنْ يكيِّف هذه البيئة،

---

(١) – لابن أبي الحديد كلمةٌ – في شرحه للنّهج ص٣٧ م١ –تُؤيِّد مانذهب إليه. نقلناها في الفصل، الذي قبل هذا، والذي عقدناه عن عبدالمطّلب.

ويُعطي هذا المجتمع المنحطّ دروساً عليا. فلابُدَّ مِنْ وجود مثله، في فترةٍ، تكون بين بعث رسولين، أو بعد انقطاع الوحي مِنَ السَّماء، لئلاَّ تكون الحجَّة على الله للنّاس(١).

إنَّ وجود أبي طالبٍ – بعد عبد المطَّلب – حاجةٌ ضروريَّةٌ، لابدَّ منها...! وسيرةٌ، كهذه، لابدَّ وأنْ تكون إرهاصاتٍ لرسالةٍ، تُشرق على الوجود، وتُبدِّد سحابة الظَّلام الحلولكة، لئلا يكون مثل هذا النُّور المرتقبِ اشعاعه، فجاءةً لعيونٍ رمداء، قد ألفتِ الظَّلام، فلا ينفتح لها جفنٌ أمام مصباح.

ولابدَّ مِنْ مصباحٍ، يُرسل إشعاعةً، هي كبشيرٍ لشروق نور بهيٍّ. ولابدَّ مِنْ نجمٍ، يهتدي به السَّاري، تحت سحابة اللَّيل الفاحمة، لئلاَّ يهوي في هوَّة مِنَ التِّيه عميقةٍ، فاغرة الفم... فلابدَّ مِنْ وجود مثل أبي طالبٍ، كحجَّةٍ لله على الناس...

ولابدَّ وأنْ يكون أبو طالبٍ، كما كان –كما قلنا– ولابدَّ أنْ تكون سيرته على مثل هذا الإشراق والإشعاع... مادام هو مربِّي الرَّسول، ذلك النُّور المشعُّ. ومادام هو أحد تلك الإرهاصات، التي تُبشِّر بشروق هذا النُّور البهيِّ...

فليس مِنْ نكيرٍ: أنْ تحفل شخصيَّته بكلِّ مقوِّمات الزَّعيم، وأنْ تزخر بالصِّفات الفضلى، والميزات الرَّفيعة، لتُميِّزه عن كلِّ مَنْ وماحوله، وتحوطه بهالةٍ مِنَ التَّقدير والإكبار، مِنْ كلِّ مَنْ حوله.

فهو: نبعة الخير، والكهف الحصين، الذي يقي مِنَ الحوادث والطَّوارىء. فإليه يلجأ الضَّعيف المضام. ومِنْ كفّه النَّديانة ينتهل المعدَم، فتعود له الحياة المخضرَّة. وبه يتوسَّلون، حينما ينقطع مِنَ السماء قطرها المدرار.

---

(١) – أُشير لذلك في العبَّاس ص٨-١٩، عنِ المجلسيِّ في البحار ص٣٠٢ و٤٧٥ ج٦ وذكر عنِ الطَّبرسيِّ: إجماع أهل البيت على ذلك. وذكر: أنَّ الصَّدوق –في إكمال الدِّين ص١٠٢ –قال: إنه –كأبيه– مِنْ أعرف العلماء وأعلمهم بشأن النَّبيِّ، وكانا –هو وأبوه– يكتمان ذلك عن الجهّال والكفرة. وأُشير لذلك في معجم القبور، ص١٩٠ و١/٢٠٠، وفي الغدير ص٣٩٠ و٣٩٥ ج٧ مايُؤيِّد ذلك.

وهو: الوصول للرَّحم، الكشَّاف للكروب، البرُّ الرَّحيم، الجواد بما يملك، مِنْ غير منَّةٍ، والسمح بما يستطيع، بلا طلبٍ، قويُّ الإرادة، منطيقٌ فصيحٌ، يتدفَّق بلاغةً، حديديُّ القلب، ثبْت الجنان، جميل الطُّلعة، مهوب الجانب، موفور الاحترام والتَّعظيم(١).

وإنَّ له بالتَّشريع لداريةً، فهو ذو معرفةٍ شاملةٍ، وعلمٍ عميقٍ. فيُحرِّم على نفسه شرْب الخمر، ومقارفة الموبقات(٢)، وكلَّ ماحوله مِنْ أوضار الجاهليَّة، وأرجاس الشِّرك، وآثام الوسط المنحطّ. ويرتفع -بروحيَّته- إلى أفقٍ واسعٍ، رفيع المستوى، مديد الرُّقعة، نقيٍّ الجواء، على صفاءٍ وطهارةٍ.

وكان أوَّل مَنْ سنَّ «القَسامة» - في دم عمرو بن علقمة - فأقرَّتها -بعْدُ- السُّنَّة النَّبويَّة(٣).

* * *

وهناك ظاهرةٌ روحيَّةٌ - مِنْ ظاهرات أبي طالبٍ - لمسها معاصروه. ففي حرب الفِجَار - بين: هوازن، وكنانة - كان يحضر أبو طالبٍ، ومعه الرَّسول. فمتى حضر، كان النَّصر حليف هوازن. ومتى غاب دارت عليها الدَّائرة.

---

(١) - بمثل هذا جاء وصفه في التَّأريخ، فراجع -منه- ص١٠٧، ١٠٨ مِنْ إثبات الوصيَّة.

(٢) -- السِّيرة النَّبويَّة ١/٧٩، والحلبيَّة ١:١٣٤، وأبو طالب٢٣، وهاشم وأُميَّة ص١٥٧، ومعجم القبور ص١٩٨ ج١.

(٣) - شرح النَّهج الحديديّ ص٤٦١ ج٣. وقد ذُكرتِ الحادثة في صحيح البخاري ٢:١٩٦.

والقسامة -بفتح القاف- اسمٌ مِنْ «أقسم»، وُضع موضع المصدر وهي الأيمان تُقسم على أولياء الدَّم، فيُقال: «حكم القاضي بالقسامة»، أو «قُتِلَ فلانٌ بالقسامة».

وذلك أنْ يجتمع أولياء القتيل، فيدَّعون على رجلٍ أنه قاتل صاحبهم. وتكون معهم أمارةٌ غير البيِّنة، فيحلفون خمسين يميناً بأنَّ هذا هو القاتل.

وهؤلاء الذين يحلفون يُسمَّون «قسامةٌ» -أيضاً- وسير الحلف، هنا، على خلافه، في سائر الدَّعاوى، لنصوصٍ خصَّصته.

وله في كُتب الفقه موضوعٌ مختصٌ، فَمَنْ شاء الشُّمول، رجع له في مظانّه.

فطلبت هوازن مِنْ أبي طالبٍ: أنْ لايغيب عنها: ليُواتيها النَّصر. فكان عند طلبها(١).

وماهو إلاَّ نبعة السَّماء، وثِمال الأرض، وباقية الخليل إبراهيم، وسلالة الذَّبيح إسماعيل. يدعو الله، فتنهمر السَّماء بقطرها، وتُفرش الأرض بالنَّماء والخصب، وتغدودق بالحياء الهطَّال(٢).

* *

أخرج ابن عساكر، عن جلهمة بن عرفطة – ومالنا وللتعليق؟.. فلندع لسان صاحبِ السِّيرة، هو الذي يُحدِّثنا، عن لسان جلهمة. قال(٣):

قدمتُ مكَّة، وهم في قحطٍ وشدَّةٍ، مِنِ احتباس المطر عنهم...فقائِلٌ يقول: اعمدوا اللاَّت والعزَّى. وقائلٌ منهم يقول: اعمدوا مناة الثَّالثة الأُخرى. فقال شيخٌ وسيمٌ، حسن الوجه، جيِّد الرَّأْي:

أنَّى تؤْفكون!، وفيكم باقية إبراهيم، وسلالة إسماعيل؟!(٤).

[ولم يغب عنهم: مايعنيه هذا الشَّيخ الوسيم، المجوِّد الرَّأْي، والحسن الوجه. وماكان هذا العلم بالجديد عليهم، وهم منه على عمق معرفةٍ، وشمول درايةٍ].

قالوا: كأنك عنيتَ أبا طالبٍ!.

فقال: إيهاً...!

فقاموا بأجمعهم، وقمتُ معهم، فدققنا الباب عليه، فخرج إلينا «رجلٌ حسن الوجه، عليه إزارٌ قدِ اتَّشح به»(٥)، فثاروا إليه، فقالوا:

---

(١) – النَّهج الحديديُّ ٣:٤٦٢، والسِّيرة النَّبويَّة ١:٩٨، والحلبيَّة ١:١٥٢.

(٢) – الحياء –هنا– بمعنى المطر. ويجيءُ بمعنى الخِصب والنَّبات.

(٣) – النَّبويَّة ١:٨٠، والحلبيَّة ١:١٣٨ – وبين الرِّوايتين تصحيفٌ، في بضع كلماتٍ، كـ«اعمدوا»، فإنها «اعتمدوا»، في الحلبيَّة.

(٤) – هذه الجملة إحدى البراهين القائمة، على ماذهبنا إليه، قبل قليلٍ مِنْ هذا الفصل.

(٥) – مابين هذين القوسين تعبيرٌ، مِمَّا اختصَّت به السِّيرة الحلبيَّة.

يا أبا طالبٍ! أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلمَّ فاستسقِ إلينا!.

فخرج أبو طالبٍ، ومعه غلامٌ – وهو النَّبيُّ «ص» كأنه شمس دجَنٍ – تجلَّت عنها سحابةٌ قتماء، وحوله أُغيلمةٌ، فأخذه أبو طالبٍ، فألصق ظهر الغلام بالكعبة، ولاذ الغلام – أيْ: أشار بإصبعه إلى السَّماء، كالمتضرِّع الملتجىء – ومافي السَّماء قزَعةٌ(١)، فأقبل السحاب منْ ههنا وههنا، واغدودق الوادي، وكثر قطره، وأخصب النَّادي والبادي(٢).

ولعلَّ أبا طالبٍ – كما يقول صاحبا السِّيرة – إلى هذه الحادثة، أشار – في مابعدُ – بقوله مِنْ قصيدته اللاَّمية:

وأبيضَ يُستسقَى الغمامُ بوجهِهِ – الخ.

* *

بهذه الصِّفات المثلى، والميزات الفضلى، والخصائص والملامح البارزة، نال أبو طالبٍ مكانه، فدانت له القلوب بالحبِّ، وأحاطته بالإكبار، وتنحَّت له عن محلِّ الرِّئاسة. وماغيره بجديرٍ لها، وهو على رقعة الأرض، يخفق له قلبٌ، وتمشي به قدمٌ.

فكان – كما كان أبوه – تُوضع له وسادةٌ، يجلس عليها وحده، فيجيىءُ الرَّسول، ويجلس عليها، فيقول:

إنَّ ابن أخي لَيُحسُّ بنعيمٍ – أيْ: بشرفٍ عظيمٍ(٣).

---

(١) – القزَع –محرَّكٌ– قطعٌ مِنَ السَّحاب صغارٌ متفرِّقٌ. والقزعة –محرَّكةً أيضاً– القطعة منه.

(٢) – ذُكرت هذه الحادثة في الغدير، ص٣٤٦ ج٧، وأُسندت فيه –عدا السِّيرتين– إلى: شرح البخاريِّ للقسطلانيِّ ص٢:٢٢٧، والمواهب اللَّدنية ١:٤٨، والخصائص الكبرى ٨٦ و١:١٢٤، وطُلبة الطَّالب ٤٢.

وأُخرجت في الحجَّة ٩١ –باختلافٍ في مقدِّمة القصَّة– والبحار ٦:٣٨٨، وقالا: إنَّ الذي دلَّهم على أبي طالبٍ، هو: ورقة بن نوفل –عمُّ خديجة.

وذُكرت في أبو طالبٍ ص٤٩ وذُكرت بإيجازٍ في الإمام عليٍّ صوت العدالة ص٣٤، وفيه ص٥٥ ج١، وفي أعيان الشِّيعة ص٣٩:١٢٦.

(٣) – السِّيرة النَّبويَّة ١:٨٠، والحلبيَّة ١:١٣٨، والبحار ٦:١٢٩، وأعيان الشِّيعة ٢:١١.

دلائل

إنَّ في شعر أبي طالبٍ هذا دليلاً على أنه كان يعرف نبوَّة النَّبيِّ صلّى الله عليه «وآله» وسلّم، قبل أنْ يُبعث، لِمَا أخبره به بحيرا الرَّاهب وغيره، مِنْ شأنه، مع ماشاهده مِنْ أحواله... ومعرفة أبي طالبٍ بنبوَّته صلّى الله عليه «وآله» وسلّم، جاءت في كثيرٍ مِنَ الأخبار، زيادةً على أخْذها مِنْ شعره.

الإمام عبدالواحد السفاقسي

-النّبويّة ٨٨: ١-

«.... ولقد كان أبي يقرأُ الكتب جميعاً. ولقد قال: إنَّ مِنْ صلبي لنبيَّاً، لوددتُ أني أدركتُ ذلك، فآمنتُ به، فَمَنْ أدركه مِنْ ولدي، فلْيُؤمِنْ به»[1].

* *

ماكان ذو القولة - هذه - بحاجةٍ لدليلٍ مجدَّدٍ، وهو ذو العقيدة الرَّسيخة، والإيمان الوطيد...

إنَّ لديه - مِنَ الدَّلائل - لوفراً، يفوق العدَّ، ويأبى الحصر... وإنَّ واحداً - مِنْ بينها - لكفيلٌ بإثبات مايذهب إليه... ومايجلو عنِ النَّفس الشَّكَّ والرَّيب... لو كان هذان ممَّا يعرفان طريقهما إلى نفس بيضة البلد.

إنَّ هذه الأدلَّة المنتصبة، وهذه البراهين الواضحة، لممَّا يزيد إيمان أبي طالبٍ عمقاً، وشمولاً، وامتداداً، وماكان -في يومٍ مَّا- ذاك المزعزع العقيدة، ولاالرَّجراج الإيمان.

إنَّ دليلاً واحداً - مِنْ بين ألف دليلٍ ودليلٍ - لَتفرض على كلٍّ مَنْ له ذرَّةٌ مِنْ عقلٍ: أنْ يُؤْمِنَ بمثل ماآمَنَ به أبو طالبٍ، وأنْ يكون ذلك المتين المعتقد، والرَّسيخ العقيدة، والثَّابت على المبدأ القويم.

إنَّه لَيعلم - علماً لايخالجه ريبٌ - بأنَّ ابن أخيه، هو ذلك الرَّسول المنتظَر، الذي قرأه أبوه في الكتُب السَّماويَّة جميعاً، وبشَّرت به الرِّسالات السَّماويَّة، منذ يومها الأوَّل، وفي فجرها البكر.

وهو - إلى ذلك العلم الثَّابت - يلمس دلائلَ صارخةً، وبراهينَ سافرةَ الوجه، ليس لمكابرٍ إلاَّ أنْ يذعن لها - فكيف بمؤْمنٍ عميقٍ، لاتزيده البراهين والدَّلائل، إلاَّ: عمق إيمانٍ، وشمول معرفةٍ، ومتانة معتقدٍ، وثبوت مبدءٍ، ورسوخ يقينٍ...؟!

---

(١) - شيخ الأبطح ٢٢، والغدير: ٧:٣٤٨، والعبَّاس ١٨ و٢١.

لقد شاهد وفراً مِنْ هذه الدَّلائل، وعبدالمطَّلب -بعدُ- على رقعة الوجود، وقد يُشاهد بعضاً منها أبوه عبدالمطَّلب، فيدلُّه عليها، ويُخبره عنها... غير أنَّه -اليوم- وقد كان هو الكافل الأوحد لابن أخيه، فإنَّه لَيُشاهد مِنْ هذه الدَّلائل وفراً أكثر، تكاد تزدحم لديه... ولاتكاد رقعة يومٍ تزول، أو سحابة ليلٍ تُطوى، إلاَّ ويلمس - بين تضاعيفها - دليلاً نابضاً، وبرهاناً صارخاً...

إنَّه لَيُشاهد -عن كثبٍ- مِن ابن أخيه: أشياء، وملامح، وَمميِّزاتٍ، لاتكون لرجلٍ عاديٍّ، كما يعيش النَّاس، وتُطوى حياته، يوم يُسلم الرُّوح، فيتلاشى مِنَ الوجود ظلُّه، ومِنَ الجواء صداه، كأنْ لم يُخلق، ولم يعبر بهذا الكون، ولم تطأْ له فيه قدمٌ...

لا...! بل إنَّه لَيُشاهد - مِنْ بين تلك الملامح والمميِّزات - مايُبرهن على أنَّ ابن أخيه هو أكمل صورةٍ لخلْق الله، منذ خلق آدم، حتى تقوم السَّاعة، وهو النُّسخة المثاليَّة، لارتفاع الإنسان، بالقيم المثلى، إلى قمَّةٍ شامخةٍ، لايرقى إليها الطَّير، وينحدر عنها السَّيل - على حدِّ تعبير ابنه الإمام، بعدُ، وهو «صورةٌ طبق الأصل»، لهذه الصُّورة الكاملة.

ومِنْ بين تلك الدَّلائل الكثار، والبراهين الوفر، التي لاتقع تحت الحصر... مِنْ بينها دلائلُ -غير الدَّلائل الرُّوحيَّة والخُلُقية، «بضمِّ الخاء»- دلائلُ ملموسةٌ صارخةٌ، يُحسُّها ويلمسها، ويُشاهدها، حتى مَنْ لم يكن مِنَ العقل ذلك المكتمل، ومِنَ الإيمان ذلك العميق...

يُحسُّها حتى هؤلاء المادِّيُّون، الذين لايعرفون غير مايلمسون، ولايُحسُّون سوى مايقع عليه منهمُ النَّظر...

فكيف بكميل العقل، ورجيح الإيمان، ونافذ النَّظرة، وبعيد الغَور، ومكتمل المعرفة، ومتين المعتقد...؟!

ولسنا نُحاول أنْ نحشد –في هذا الفصل– مِنَ الدَّلائل والبراهين، مايضيق عنه هذا الكتاب، وهي مبعثرةٌ بين الصَّفحات –مِنَ المراجع– وتحتاج إلى طويل وقتٍ، لِتُجمع مِنْ بين الزَّوايا.

ولكن فلنأْخُذ بعضاً منها، لِنعرضه على القرَّاء – بالإضافة إلى مامرَّ بنا– وليس هذا البعض، إلاَّ كدليلٍ على الكلِّ:

* *

أ- نبع الماء

ذكروا مِنْ بين الإرهاصات، التي سبقت بعثة الرَّسول صلّى ا لله عليه «وآله» وسلَّم: أنَّه كان مع عمِّه أبي طالبٍ – بذي المجاز(١) – إذ عطش أبو طالبٍ، وليس – ثَمَّةَ ماءٌ، يُطفأ لهبة عطشه، فذكلا لابن أخيه ماألَمَّ به مِنَ العطش... فما كان منه، إلاَّ أنْ أهوى بعقبه إلى الأرض – وفي روايةٍ أُخرى: أنَّه ركض صخرةً برجله(٢) – وقال «شيئاً»، فإذا بالماء يتدفَّق، لم يرَ مثله أبو طالبٍ – كما حدَّث – فشرب، حتى اطفأ لهبة الظمأِ، وعاد فركضها – مرَّةً أُخرى – لِتعود سيرتها الأوْلى(٣).

* *

(١) – ذو المجاز: موضعٌ على فرسخٍ مِنْ عرفة، كان سوقاً للجاهليَّة، وذُكر في معجم البلدان -ص٥٥ ج٥- أنه [موضع سوقٍ بعرفة، على ناحية كبكب، عن يمين الإمام، على فرسخٍ مِنْ عرفة، كانت تقوم في الجاهليَّة ثمانية أيَّامٍ] -الخ.

(٢) – ركض الصَّخرة برجله: ضربها.

(٣) – السِّيرة النَّبويَّة ١:٨٩، والحلبيَّة ١:١٣٩، وتذكرة الخواصِّ ٩، والعبَّاس ٢٠، والبحار ٦:١٢٩.

ب- مع العائف

إنَّ رجلاً مِـنْ «لِهْـب» كـان عائفـاً(١). فـإذا مـاقدِم مكّـة، أتتـه رجـال قريـشٍ بغلمانهم، لينظر لهم، ويعتاف لهم فيهم... وكان أبو طالبٍ، مِنْ بين الحشـد، الـذي أتاه، ومعه الرَّسول، فنظر العائف للرَّسول، ثم كان لديه ماشغله عنـه...ومـا انتهـى شاغله، حتى قال:

الغلام! عليَّ به!.

ومإإنْ رأى أبو طـالبٍ، حـرْص هـذا العـائف عليـه، حتـى أوجس منـه خيفـةً، وأحسَّ شيئاً، يفرض عليه أنْ يُغيِّبه، فلا تقع عليـه هاتـان العينـان، النافذتـا البصـر، البعيدتا النَّظر... ولم يأْبه لصياح العائف:

ويلكم!! ردُّوا عليَّ الغلام، الذي رأيتَ آنفاً!. فوا لله ليكونَنَّ له «شأْنٌ»(٢)...

ولم تكن هذه الكلمة – «شأْنٌ» – بالجديدة الجـرس، ولاالغريبـة النَّبرة، علـى مسمع أبي طالبٍ، فإنَّه لعليـمٌ بـأنَّ لـه «شـأناً». وإنَّـه للعليـم _أيضـاً– بماهيَّـة هـذا «الشَّأْن»...

* *

---

(١) – عاف الطَّير: زجرها: فتشاءم، أو تفاءل، بطيرانهـا. والعـائف –اسـم فـاعلٍ– المتكهِّـن بالطَّير، أو بغيرها.

(٢) – السِّيرة الهشاميَّة ١٩٠ ج١، والنَّبويَّة ١:١٩٠، والحلبيَّة ١:١٣٩، وأبو طالبٍ ٣٢.

ج- إنَّك لمباركٌ

شاهد أبو طالبٍ ظاهرةً بارزةً، تتضح بالدَّليل الصَّارخ، منذ انحاز الرَّسول إلى عائلته – بعد وفاة عبدالمطَّلب، فأبو طالبٍ– وهو المقلُّ مِنَ المال – كان كثير العائلة.

ولقد كان هذا الإقلال –مِنْ جانبٍ– وهذه الكثرة – في الطَّرف الآخر – سبباً فعَّالاً، لئلاَّ تشبع عائلته، إذا جلست على المائدة، إنْ فرادى، وإنْ جميعاً... ومتى ضمَّتِ المائدةُ الرَّسولَ، فإنَّهم ينفضُّون عنها، وهم مِنَ الشِّبع على اكتنازٍ، وفي الطَّعام فضلةٌ... فكان أبو طالبٍ يقوله لهم، إذا حضر وقت الطعام، ولم يجد بينهمُ ابن أخيه:

– كما أنتم، حتى يأْتي ابني.

وإنَّ الواحد – مِنْ بين هؤلاء – لَيشرب «القعب»(١) مِنَ اللَّبن... ولكنَّ أبا طالب يأخذ القعب، لِيبدأ بالرَّسول، فيشرب، وتشرب العيال جميعاً، مِنْ هذا القعب ذاته، فيقول أبو طالبٍ:

– إنَّك لمباركٌ(٢).

---

(١) – القعب: القدح الضَّخم الغليظ.

(٢) – السِّيرة النَّبويَّة ١:٨٠، والحلبيَّة ١٣٧، ١:١٣٨، والبحار ١٢٤ و٦:١٢٩.

وقد أشار لذلك عمر أبو النَّصر، في كتابه [فاطمة بنت محمَّدٍ صلّى الله عليه «وآله» وسلَّم] ص١٨ وتجد صورةً حرفيَّةً، لِمَا قاله –هنا– في كتابه [محمَّدٌ النَّبيُّ العربيُّ] ص٤٧ وكثيراً مايحدث لأبي النصر –في كتبه– مثل هذا التَّكرير.

وذُكرت في العبَّاس ص٢٠. وأُشير لها في «على هامش السِّيرة» ص١٩٠، ١:١٩١، و١٥١، ٢:١٥٢.

وقد شاهد أبو طالبٍ هذا الدَّليل المكرور –بعدئذٍ– يوم «الإنذار»، حينما دعا الرَّسول زعماء قريش، فأوْلَمَ لهم بفخذٍ مِنَ اللَّحم، وعُسٍّ مِنَ اللَّبن... –العُسُّ بضمٍّ عينه: القدح، أوِ الإناء الكبير– وإنَّ الواحد منهم، ليأْتي على المسنَّة، وعلى العُسِّ. وهم –حينذاك– أربعون رجلاً، ينقصون واحداً، أو يزيدونه –كما حدَّث بذلك الإمام عليٌّ «عليه السَّلام».

وكلُّ مَنْ عرض سيرة الرَّسول صلّى الله عليه «وآله» وسلَّم، ذكر هذه الحادثة، فلم نرَ حاجةً لأنْ نُرجعها لمصدرٍ، وهو متعدِّدٌ، ولاأنْ نخصَّها ببحثٍ، وهي مستفيضةٌ.

د - إلى الشام

بلغت عناية أبي طالبٍ بالرَّسول، حدًّا يتجاوز الوصف، فقدِ اتّحدت الرُّوحان، حتى كان مِنَ الصَّعب – أو العسيرِ – أنْ يستطيعا فراقاً، فما كان محمَّدٌ بالذي يقرُّ له قرارٌ، وقد شاهد عمَّه مزمعاً على سفرةٍ، قد يطول منها الأمد..!

وليست نفسه بالتي ترضى بهذا الفراق، ولم تعد تستطيع تصوُّره، حيث لم يبق – لديه – حصنٌ، يقيه الزَّعازع، غير هذا الشَّيخ الحدب.

فإنْ هو سافر بدونه، فإلى مَنْ يلجأُ؟ ومَنْ ذا يقيه هجير الظَّهيرة، ويُخفّف عنه آلام اليتم، وينتهل منه نبع الحنان والشَّفقة؟!.

فلم يكدِ الرَّسول يشهد عمَّه، يخطو نحو راحلته، وإذا بدموعٍ تنحدر مِنْ عينيه، وعبراتٍ غزارٍ قد أخذت طريقها على وجنتيه.

فيالِلدموع اليتيم، يشهدها الشَّيخ الحدب، فيخفق لها قلبه الرَّحيم، فيرقُّ لهذا الصَّبِّ...!

ولم يستطع أنْ يسمع مِنِ ابن أخيه هذه الكلمات:

– يا عمِّ! إلى مَنْ تكلني؟ لاأبَ لي، ولاأُمَّ!.

فكان جواب أبي طالبٍ – وليس له إلاَّ أنْ يُجيب بما أجاب:

– وا لله لأَخرجنَّ به معي، ولايُفارقني، ولاأفارقه، أبداً.

فأخذه معه، قريباً منه، فليس لهما، أنْ يكونا، إلاَّ على راحلةٍ واحدةٍ.

وراح الرَّكب يطبع في الصَّحراء خطوطاً، لايلبث أنْ يُلاشي النَّسيم منها الأثر: حتى إذا بلغ الرَّكب «بُصرى» –مِنْ أرض الشَّام – أراد أنْ يستردَّ بالرَّاحة، تعب السَّير المغذّ(١).

وكان – هنا – راهبٌ، يُقال له «بُحيرى»، في صومعةٍ له، قدِ انتهى إليه علم «النَّصرانيَّة».

ولكنَّ الرَّكب، يشهد – لأوَّل مرَّةٍ – مِنْ هذا الرَّاهب، مالم يشهده مِنْ قبل. فكثيراً ماطاف الرَّكب بهذه الرُّقعة مِنَ الأرض، دون أنْ يعرض لهم هذا الرَّاهب، أو يُبادلهمُ المقال.

لقد أطلَّ الرَّاهب – مِنْ صومعته – فشاهد الرَّكب، ولفت نظره – مِنْ بين الرَّكب – هذه الغمامة، التي تُظلُّ واحداً مِنْ بين هؤلاء جميعاً، آثرته بظلِّها، فوقته هب الشَّمس، ووقيد الصَّحراء اللاَّهبة... وإذِ استقرَّ بالرَّكب المكان، لفت نظره – مرَّةً أُخرى – مِنْ بين هؤلاء أيضاً، هذه الشَّجرة، التي تهصَّرت منها الأغصان،

---

(١) – زادتِ السِّيرة النَّبويَّة –١:١٩٠– والحلبيَّة –١:١٤٠– عند عرض هذه الحادثة، مايلي:
إنَّ الرَّكب –قبل أنْ يصل إلى «بُصرى»– نزل على صاحب ديرٍ، فقال صاحب الدَّير لأبي طالبٍ:
– ماهذا الغلام منك؟.
– ابني!.
–ماهو بابنك!، ومايبنغي أنْ يكون له أبٌ حيٌّ، لأنَّ مَنْ كانت هذه الصِّفة صفته، فهو نبيٌّ. ومِنْ علامة ذلك النَّبيِّ –في الكتُب القديمة– أنْ يموت أبوه، وأُمُّه حاملٌ به، وأنْ تموت أُمُّه، وهو صغيرٌ.
– وما النَّبيُّ؟.
– الذي يأتيه الخبر مِنَ السَّماء، فيُنبىءُ أهل الأرض.
– الله أجلُّ مِمَّا تقول.
فيُحذِّر الرَّاهب أبا طالبٍ، أنْ يتَّقي عليه اليهود.
ومرَّ الرَّكب براهبٍ –صاحب ديرٍ آخر– فكان بينه وبين أبي طالبٍ مثل هذا الحوار. وقال – بعد ذاك– أبو طالبٍ، لابن أخيه:
– يا ابن أخي! ألاَ تسمع مايقولون؟!.
– أي عمِّ! لاتُنكر لله قدرةً!.

فتُظلّل ذاك المستظلّ بالغمامة – قبلئـذٍ – وتختصُّـه، مِنْ بـين هـؤلاء جميعـاً، بفيئهـا وظِلالها...

لقد أخذ منه العجب، غـير أنـه لم يطـل لـه أجـلٌ... فسـرعان ماتلاشـى، حـين ماثاب إليه فكره، وعادت إليه ذاكرته، إلى مابين السُّطور، مِنْ كتابه المقدَّس.

وإذ نزل مِنْ صومعته، وأمر بطعامٍ أنْ يُصنع، بعث إلى الرَّكب، فقال له:

إني صنعتُ لكم طعاماً – يا معشر قريـشٍ! – فأنـا أُحـب أنْ تحضـروا كلُّكـم: صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحرُّكم.

فانبرى إليه – مِنْ بينهم – مَنْ أخذ منه العجب أقصى مكانٍ:

وا لله – يا بُحيرى! – إنَّ لك لَشأناً اليوم. ماكنتَ تصنع هذا بنا!. وقد كنّا نمرُّ بك كثيراً!! فما شأنك اليوم...؟!

وبعد جوابٍ منه، نزلوا عند رغبته، فاجتمعوا لديه، ولم يتخلّف مِنْ بينهـم غـير الرَّسول – وهو السَّبب المباشر، لِمَا شاهدوه مِنْ هذا الرَّاهـب: العميـق النَّظـرة – فقد كان عند الرِّحال، تحت الشَّجرة.

وطافت مِنَ الرَّاهب نظرةٌ في القوم – فاحصةٌ، فلـم تقـع علـى مايُشـبع نهمهـا الصَّيَّاح، وينقع غلّتها اللّهبى... فكان بينه وبينهم حوارٌ:

– يا بحيرى! ماتخلّف عنك أحدٌ، ينبغي له أنْ يـأتيك، إلاّ غلامـاً، وهـو أحـدث القوم سنّاً، فتخلّف في رِحالهم.

ولم يكن ليقف هذا الحوار، عند ساحلٍ، لولا أنْ قام مِنْ بينهـم مَـنِ «احتضـن» الغلام، وجاء به. فعادت – مِـنْ بحيرى – تلـك النَّظـرة الفاحصـة... ثـم ينظـر إلى أشياء مِنْ جسده، نظرةً بعيدةً، لِيجد فيه صفاتٍ، قرأها في الكتـاب المقـدَّس، تخـصُّ هذا الغلام العظيم.

وإذْ تفرق القوم عن الطَّعام، راح بحيرى يسأل الرَّسول، عن أشياء، يهدف مِـنْ ورائها: أنْ يُطبِّق علمه، ويُعمِّق منه الإيمان...

وعاد الرّاهب لأبي طالبٍ، يسأله سؤال اللّهفان:

– ماهذا الغلام منك...

– ابني!.

– ماهو بابنك!، ومايبنغي لهذا الغلام أنْ يكون أبوه حيّاً.

– فإنه ابن أخي!.

– فما فعل أبوه؟.

– مات، وأُمُّه حبلى به.

– صدقتَ!، فارجع بابن أخيك إلى بلده. واحذر عليه يهودا!، فوا لله لئن رأوه، وعرَفوا منه ما«عرفتُ» لَيبغُنّه شرّاً، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا «شأنٌ» عظيمٌ. فأسرع به إلى بلاده(١).

وعاد الرّسول – مع عمّه – وقد تفتّحت عيناه على جوانب مِنَ الحياة، وطاف بعالمٍ جديدٍ، غير عالم مكّة، الذي فيه ربا ودرج.

أمّا أبو طالبٍ، فعاد به، وهو أشدُّ مايكون عليه حذراً، يحوطه بعنايته، ويغمره بفيض حبِّه، ويحرسه بكلِّ حيطةٍ واحتراسٍ، فيخاف عليه مِنْ تلك الشّرذمة الفتّاكة، المغلولة اليد، يهود الخبيثة، التي تُريد – لو تستطيع – أنْ تُطيح بهذا الغصن الفارع، قبل أنْ يتفتّح عن: زهرٍ باسمٍ، وثمرٍ نضيرٍ.

---

(١) – السِّيرة الهشاميَّة ١٩١– ١٩٤:١، والنّبويَّة ٩٠–٩٢:١، والحلبيَّة ١٣٩–١٤٢:١، وتأْريخ الطَّبريِّ ٢٢–٢٤:٢، والكامل لابن الأثير ٢٣، ٢٤:٢، وقصص العرب ٩٩، ١٠٠:١، وذُكرت –بإيجازٍ– في البحار ٥٩–٦١ و٦١، ٦٢ و١٢٩، ١٣٠:٦، وأبو طالبٍ ٣١، وعلى هامش السيرة ٧١–٨٣:٢، وبين الرِّوايات تباينٌ في التّعبير. وفي بعضها زيادةٌ على البعض الآخر.

وأمّا روايات البحار الثّلاث، ففيها ذاتها اختلافٌ. فالرِّواية الأُولى تختلف عن غيرها، وفيها شيءٌ مِنَ التّناقض.

ففي أوّل الحادثة نراه يقول: إنّ بحيرى سأل أبا طالبٍ: أيّ شيءٍ منه؟ فيُجيبه: أنا عمُّه. وإذا بنا في نهاية الحادثة يقول: إنّ بحيرى سأله مثل هذا السؤال، فيُجيب: هو ابني...الخ.

ولكن الحادثة الثّانية، هي الصّحيحة الرِّواية، ومثلها الثّالثة. ويُعذَر في ذلك: أنّه يجمع أحاديث، وعلى الآخذ منها التّمحيص.

وماكانت هذه الصُّورة، بالتي تزايل مخيلة شيخ البطحاء، وقدِ اختزن منها صوراً، لاتزول.

ولكنه – وقد شاء: أنْ يُسجِّل هذه الصُّورة، لِتبقى محفورةً على جبين الزَّمن، تقرأها الأجيال التالية – راح يُودعها بعض شعره، لِتتسلَّمها الأجيال: وثيقةً رائعةً:

إنَّ ابنَ آمنةَ النَّبيَّ محمَّداً
عنديْ يفوقُ منازلَ الأولادِ...
لَّما تعلَّقَ بالزِّمامِ، رحمتُهُ
والعِيسُ قدْ قلَّصْنَ بالأزوادِ(١)
فارفضَّ مِنْ عينيَّ دمعٌ ذارفٌ
مثلُ الجُمانِ، مفرَّقُ الأفرادِ
راعيتُ فيهِ قرابةً موصولةً
وحفظتُ فيهِ وصيَّةَ الأجدادِ
وأمرتُهُ بالسَّيرِ بينَ عمومةٍ
بيضِ الوجوهِ، مصالتِ أنجادِ(٢)
سارُوا لأبعدِ طيَّةٍ معلومةٍ
فلقدْ تباعدُ طيَّةُ المرتادِ(٣)
حتّى إذا ما القومُ بُصرى عاينُوا
لاقَوْا على شركٍ مِنَ المرصادِ:

---

(١) – قلص القوم: اجتمعوا فساروا. قلصتِ النَّاقة براكبها: أسرعت. استمرَّت في مضيِّها. الأزواد – جمعُ زادٍ، وهو: مايُتَّخذ مِنَ الطَّعام للسَّفر.

(٢) – المصالت مِنَ الرِّجال: الشَّجاع الماضي في الحوائج. الجبين الصَّلت: الواضح المستوى البارز. أنجاد جمع نجد: الضَّابط للأمور، يُذلل المصاعب. الشَّجاع الماضي في مايعجز غيره. السَّريع الإجابة إلى مادُعي إليه.

(٣) – في روايةٍ طبَّة –بالواحدة بدل المثنَّاة– وهي مؤنَّث طب، ومعناهما: النَّاحية والجهة.

حبراً – فأخبرَهُمْ حديثاً صادقاً
عنهُ، وردَّ معاشرَ الحسَّادِ

قومٌ يهودٌ قدْ رأوْا، لّما رأى:
ظلَّ الغمامِ، وعن ذي الأكبادِ(1)

ثارُوْا لقتْلِ محمَّدٍ، فنهاهُمُ
عنْهُ، وجاهَدَ أحسنَ التّجهادِ

فثنى زبيراً، مِنْ بحيرا، فانثنى
في القومِ بعدَ تجاولٍ وبعادِ(2)

ونهىا دريساً، فانتهى عنْ قولِهِ
حبرٌ، يُوافقُ أمرُهُ برشادِ(3)

وعاد يُودعها هذه الأبيات:

ألْم تَرني مِنْ بعدِ هَمٍّ هممتُهُ...
بفرقةِ حرٍّ الوالدينِ حرامِ(4)

بأحمدَ، لّما أنْ شددتُ مطيَّتيْ
برحلِيْ، وقدْ ودَّعْتُهُ بسلامِ

بكى حزَناً، والعيسُ قد فصلتْ بنَا
وأخذتُ بالكفَّينِ فضْلَ زِمامِ

---

(1) – كذا وجدناها في مصادرها، وفي روايةٍ: «ناغري الأكباد»، وهي أقرب للصِّحَّة، لأنَّها واضحة المعنى.

(2) – زبير ودريس وتمّام: أحبارٌ مِنَ اليهود، عرضوا للرَّكب، يبغون الرَّسول، فردَّهم بحيرى عنه. ونحن لم نشأْ أنْ نأْتي عليها، عند عرضنا للقصَّة، بغية الإختصار.

(3) – الغدير ٧:٣٤٤، والحجَّة ٧٦ –وبينهما بعض الاختلاف– والأعيان ١٤٧، ٣٩:١٤٨ –بدون الأربعة الأبيات الأخيرة. وأُشير إليها في معجم القبور ١:١٨٥.

(4) – الهمُّ –هنا– ماهمَّ به الرَّحل، أو أحال فكره لفعله وإيقاعه.

ذكـرتُ أبـاهُ... ثـمَّ رقرقـتُ عَـبرةً

تجـودُ مِـنَ العينـينِ ذاتِ سـجامِ

ويروح يُسجِّل هذه الحادثة، ويُودِع مشاهدها هـذه الأبيات، حتى يصل إلى موقف بحيرى، وردّه أحبار اليهود الثّلاثة، فيقول:

فجـاءُوا وقـدْ همُّـوا بقتْـلِ محمَّـدٍ

فردَّهُـمُ عنْـهُ بحسْـنِ خصـامِ

بتأويلِـه التَّـوراةَ، حتّـى تيقَّنُـوْا

وقـالَ لهُـمْ: رمتُـمْ أشـدَّ مـرامِ

أتبغـونَ قتـلاً للنَّـبيِّ محمَّـدٍ؟!

خصصتُـمْ علـى شـؤْمٍ بطـولِ أثـامِ

وإنَّ الـذيْ تختـارُهُ منْـهُ مـانعٌ

سـيكفيهِ منكُـمْ كيـدَ كـلِّ طغَـامِ

فذلـكَ مِـنْ أعلامِـهِ وبيانِـهِ

وليـسَ نهـارٌ واضـحٌ كظـلامِ!(١)

ولسنا نرى حاجةً، لأنْ نسترسل، فنُورد كلَّ ماسجَّله، بعد هذه الحادثة.

* *

لسنا – بعد هذا – بِمَنْ يشكُّ في أنَّ أبا طالبٍ، كان ينظر إلى هذه الإرهاصات – وقد شئنا أنْ نقف منها، عند هذا الحدِّ – نظرةً فاحصةً، تلقى الكثير مِنْ عنايته، والقصيّ مِنِ اهتمامه، فيعمل فيها فكره، فاحصاً منقباً. فليس مايشهد، مِنِ ابن أخيه، بالشيء العاديِّ، الذي لايُلفت النَّظر، أو يُنبِّه الفكر.

---

(١) – الغدير ص٣٤٥، ٣٤٦ ج٧ مسندةً، والحجَّة ٧٧، ٧٨، في اختلافٍ، في اللَّفظ، والعدد. وجاءت طائفةٌ منها في الأعيان ٣٩:١٤٨، وبعض أبياتها في معجم القبور ١:١٨٥.

فما هذه الملامح والدّلالات - التي يراها مِنِ ابن أخيه - بالتي يجدها عند غيره، مِنْ هذا الحشد، مِنَ النّاس!.

فلِمَ طلب منه ذاك العائف: أنْ يعود به إليه، وقد مرَّ به كثيرٌ غيره، فاعتاف لهم، دون أنْ يلقوا شيئاً مِنِ اهتمامه، ودون أنْ يسترجع واحداً، مِنْ بين هؤلاء الكثيرين...؟!

ولَمّا لم يجد لطلبه مَنْ يُلبّيه، أرسلها قولةً مرنةً، بعيدة الصدى، عالية النّبرة، تُوغل في المستقبل المجهول، لِتُقرِّب إحدى نقاطه، فتجلوها نصاعة البياض: «فوا للهِ ليكوننَّ له شأنٌ»!.

ثم هذه العناية، التي شاهدها الرّكب، مِنْ بحيرى، وقد كان الرّكب يطوف بهذه الصّومعة، ولم يسبق له أنْ رأى - قبلئذٍ - مارأى اليوم؟.

ثم ذاك الحديث، الذي جرى بينه وبينه... فإنّه لَيحفل ببراهين، كلٌّ منها يقوم بالبيِّنة الثّابتة، التي لاتُدحض...؟

يقول له: «إنّه ابني». فيُجيب جواب الجازم، الذي لايُخالجه ذرَّةٌ مِنْ شكٍّ أو ريبٍ: «ماهو بابنك». ويزيد: «وليس ينبغي أنْ يكون أبوه حيّاً»...!

ثم يُحذّره مِنْ «يهود»، فإنّه كائنٌ له «شأنٌ عظيمٌ»...!

إنها لدلائل صارخةٌ، ليس له أنْ يُخالجه فيها شكٌّ، أو يعترضه ريبٌ!.

* *

كلُّ هذا إلى جانب ماكان يسمعه مِنْ أبيه عبدالمطّلب، ومايُشاهده هو، مِنْ «بركة» هذا الغلام...

إنَّ البركة، لَتفيض مِنْ أنامله. فيشبع الكثير مِنْ قليل الطّعام، إذا امتدَّت يده إلى صحاف الطّعام، أو قُعب اللبن...

وإنَّ الماء، لَيتدفّق عذباً رويّاً حين ماركض الصّخرة برجله، في قاحل الصّحراء...

وإنَّ الغمامة، لَتقيه - مِنْ بين الرَّكب - وهج الشَّمس، وحرَّ الهاجرة، حتى إذا استقرَّ بهمُ المقام، رأى الشَّجرة: قد تهصَّرت منها الأغصان، لِتُظلِّل هذا الغلام، المبارك الطَّلعة.

* *

وكلُّ هذا وذاك، إلى جانب صفاتٍ ومزايا، تحفل بها شخصيَّة ابن أخيه مِنْ: صدقٍ في المقال، ورفعةٍ في الأفعال، ومثاليَّةٍ في الأخلاق، وجمالٍ في الملامح، وعذوبةٍ في المنطق، وفصاحةٍ في اللِّسان، و... و... إلى نهاية الحلقة المفرغة، مِنَ الخلال الطَّيِّبة، والخصال الحميدة...

وكلُّ هذا جميعاً، يشهده مِنْ غلامٍ، لم يكد يخطو، مِنْ عقده الثَّاني، سوى عتبته، أولم يكد...

وكلُّ هذا جميعاً، يشهده مِنْ غلامٍ، لم يكن لِيشهد بعضاً، مِنْ ملامحه، في حشدٍ مِنَ الخلق، الذين تجمعهم وإياه بلدٌ واحد، وتربطهم جميعاً عاداتٌ، في هذه البيئة المنحطَّة، والمستوى الواطىء. فلم يعلق به شيءٌ مِنْ عاداتهم الدُّون. ولم يُشاركوه في شيءٍ مِنْ خصاله الرَّفيعة... فما وجد فيه شيئاً، يُنكره عليه.

وماكان هو - وحده - بالذي لمس هذه الظَّاهرات، مِنِ ابن أخيه، بل إنَّ مكة كلَّها، لتعرفه «الصَّادق الأمين»، وترضى به حكماً - يقول فتُطيع... ويُحدِّث، فتُصدِّق... ويأمر، فتُذعن...!

زواج

تلك الرحلة الموفّقة، دفعت أبا طالبٍ – وهو المقلُّ مِنَ المال، والمكثر مِنَ العيال...

... دفعته، لأنْ يُطارح ابن أخيه الحديث، لِيدفعه إلى عملٍ، يستدرُّ منه الرُّبح، ويُخفّف عنه ثقْلَ الحاجة اللّحوح... فإنَّ لابن أخيه لمستقبلاً، لايرضى له أنْ يكون: عالةً، أو خمولاً...

لقد رأى أنَّ خير عملٍ يليق به، هو: أنْ يخرج في تجارةٍ، لواحدٍ مِنْ هؤلاء الأثرياء.

وإنَّ مكانة ابن أخيه، التي يتمتّع بها، والصّفات التي تحفل بها نفسه، لتفرضه على هؤلاء، فلا يطلبون عنه بديلاً... بل تدفعهم للسِّباق، فلن يناله، إلاّ مَنْ كان على جانبٍ، مِنَ الحظِّ، موفورٍ.

وتسمع خديجة بالحوار، بين الرَّسول وعمِّه، فتبعث إليه، وهي أشدُّ ماتكون غبطةً: أنْ يخرج في تجارتها، هذا «الصَّادق الأمين»...

ويعود الرَّسول: موفور الرِّبح، مضاعفه... فيُوسِّع له هذا – في قلب خديجة الطِّيب – موضعاًعميقاً، حتى شُغفت به حبّاً، وتمنّته شريكاً لحياتها، وليست تجد مَنْ يُضاهيه، أو يُدانيه جمالَ ملامحَ، ومكارم خُلقٍ، وصدْقَ مقالٍ، وأمانةً، وعلوَّ فعالٍ...

وخديجة، منذ أصغت إلى غلامها «ميسرة» – هذا الذي صحب محمَّداً، في رحلته هذه – وهو يقصُّ عليها ماشاهد مِنْ دلالاتٍ، حدثت لمحمَّدٍ«ص» في طريقه إلى الشام.

منذ ذلك الحين... شُغلت بمحمدٍ عمَّا دونها، ورأتْ فيه الرَّجل الكامل، الذي يجب عليها أنْ لاتعدل عنه زوجاً كريماً.

ولكن كيف...؟ وأنّى تتحقّق لها هذه الرَّغبة المتوثّبة، وهناك عاداتٌ وتقاليد تقف أمامها عنيدةً، تُعيقها دون البُغية المرجوَّة، والأمل الجميل...؟

إنَّ العادة تفرض على المرأة: أنْ يتقدَّم إلى خطبتها الرَّجل... أمَّا هي، فلا تسمح لها أنْ تتقدَّم، طالبةً يد مَنْ تهوى...!

فهل لها أنْ تقف أمام هذه العادة، مكتوفة اليد، ليتبعثر منها الرَّجاء الحلو، والأمل المنعش...؟!

أم تتخطَّى هذا السدَّ، قبل أنْ يتحطَّم عليه قلبها وأملها، وتضيع حياتها، عندما يكون محمَّدٌ نصيب غيرها؟!.

واهتدت إلى حلٍّ، تُحطِّم به هذه العادة، دون أنْ يشعر أحدٌ بأنَّها قد تخطَّت سُور هذه ا لتَّقاليد الموروثة...!

فدسَّتْ للرسول: «نفيسة بنت مُنْيَة» لِتُطارحه الحديث، وتُلقي في سمعه رغبة خديجة إليه.! فلعلَّها تعود إليها بما يُطمئن منها الضَّمير، ويُزيل هذا الكابوس.

لم يكد الحديث منَ الحوار، الذي دار بين الرَّسول«ص»، ونفيسة، يُشارف النّهاية، حتى خطت نفيسة لخديجة، تُلقي إليها بالرِّسالة النَّاجحة... وحتى اندفع الرَّسول، لعمِّه أبي طالبٍ، يُثلج منه الضَّمير، بهذا النَّبأ الضَّحوك...

ويُعقد حفل الزَّواج، فيقوم إمام قريشٍ، وسيِّد العرب - يوم ذاك - أبو طالبٍ، ويقول:

[الحمدُ للهِ الذيْ جعلنَا مِنْ ذرِّيَّةِ إبراهيمَ، وزرع إسماعيلَ، وضِئضِىءِ معدِّ(١)، وعنصر مضرَ، وجعلنَا حضنةَ بيتِهِ، وسُوَّاسَ حرمِهِ، وجعلَ لنَا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنَا حكَّام النَّاس.

ثم إنَّ ابن أخي هذا - محمَّد بن عبدا لله - لايُوزن برجلٍ، إلاَّ رجح به: شرفاً، ونُبلاً، وفضلاً، وعقلاً... فإنْ كان في المال قلَّ، فإنَّ المال ظلٌّ زائلٌ، وأمرٌ حائلٌ، وعاريةٌ مسترجعَةٌ.

---

(١) - الضُّؤضؤ والضِّئضىء: الأصل والمعدِن.

ومحمَّدٌ مَنْ قد عرفتم قرابته...! وقـد خطب خديجة بنت خويلـد، وبـذل لها ماآجله وعاجله«كذا»...

وهو، وا لله! – بعد هذا – له نبأٌ عظيمٌ، وخطرٌ جليلٌ جسيمٌ](1).

* *

هذه الخطبة – مِنْ أبي طـالبٍ – تدلُّنـا على شيئين، ونلمس منها ظاهرتين، يُقرُّهما أبو طالبٍ.

لقـدِ افتتـح مقالـه، بحمـد ا لله، الـذي جعلهـم، مِـنْ ذريَّـة إبراهيـم، وزرع إسماعيل...فلم تنَل منهمُ الوثنيَّة المنحطَّة، ولم تُدنّسهم بأوضارهـا... فكـانوا عنصـراً ممتداً، وإِشعاعةً باقيةً، تتَّصل بالنُّور الأوَّل، وتبقى رمزاً أبديًّا، ودعوةً ممتدَّةً، للحنيفيَّة البيضاء...

وإنَّ هذه الظَّاهرة، التي امتازوا بها، جعلت منهم حضنة البيـت الحـرام، الـذي شاده – بـأمرٍ مِـنَ ا لله – أبوهُـم الخليـل... فهـم – وحدهـم – سـوَّاس الحـرَم... وبذلك كانوا حكَّام النَّاس...

غير أنَّ هذا كلَّه... ليس غير مقدِّمةٍ، لِما بعده...

فراح يشيد بقيمة ابن أخيه المعنويَّة... فهـو: الكميـل مِـنْ بـين هـؤلاء كلِّهـم، والرَّاجح الكفَّة، في ميزان القيم والمعنويَّات...! فليس مَنْ يُدانيـه – بلـه يرجحـه – في صفاته ومزاياه...

---

(1) – السِّيرة النَّبويَّة ص106 ج1، والحلبيَّة 165 ج1، وفاطمة بنت محمَّد ص44، وشرح النَّهج للحديديِّ 312 ج3، وأبو طالبٍ ص4، والحجَّة 36، والبحار 135 ج6، وتذكرة الخواصِّ 312، والغدير 274 ج7 مسندةً.

وذُكرت فصولٌ منها في إعجاز القرآن –للباقلاَّني– ص234، وأعيان الشِّيعة ص137 ج39، والكامل للمبرد ص1174، 1175 ج3

وقد شئنا: أنْ نختصر خطوط هذه الحادثة، وأنْ نقف –منها– عند هـذا الحدِّ، حيث مساسه بموضوع الكتاب.

ويَرجع لها، في مصادرها، مَنْ شاءها مفصَّلَةً.

وهو – بعد هذا – سيبلغ مالم يبلغه اليوم...! فله بعد هذا – ويُقسم عندئذٍ با لله... وللقسَم – هنا معناه وقيمته، في مايذهب إليه...

... فله شأنٌ عظيمٌ، وخطرٌ جسيمٌ...

وليس، غير اختياره لعبء الرِّسالة، وهداية البشر، لِيختم صفحة النُّبوَّة، بسطرٍ على إشعاع سنىً، وإشراق حرفٍ.

ليس غير هذا... ذلك «الشَّأْن العظيم»، أوِ «الخطر الجليل الجسيم».

فهو: ينظر مِنْ حياته، إلى أبعد مِنْ واقعه – اليوم – لِيُعلن لهذا الحفل البهيج، بهذه البشرى...! ولِيُقرِّب منهم هذا «الشَّأْن»، لئلاَّ يفجأهم، أو ليكونوا منه على ارتقابٍ...

في فجر الدعوة

الفجر الأول

إنَّ اليتيم، الذي قضى هذا الأمد، في كنف بيضة البلد، فسهر هذا على راحته، وتحوَّطه بعنايته... أصبح – اليوم – مفتول السَّاعد، عبْل الذّراع.

فهو ربُّ بيتٍ، وأبٌ لأطفالٍ، تُكوِّن أُسرةً، تُريد أنْ تحيا حياةً صالحةً، فتتوفَّر فيها مقوِّمات الحياة الفضلى – يوم ذاك – وأسباب الإستقرار...

وإنها لفي فيضٍ، مِنَ السَّعادة والاطمئنان...حتى وإنْ كان ربُّها – مِنَ المال – لعلى قلّةٍ.

فهلِ انتهت – بذلك – المهمَّة، التي تحمَّلها شيخ الأبطح، منذ لدونة غصن ابن أخيه، ونعومة أظفاره، إلى اليوم، فأدَّى بذلك وصيَّة أبيه، في هذا الحفيد اليتيم، وقضى واجبه تجاهه، لِيفرغ – اليوم – للعناية بأولاده، ولم يحصلوا إلاّ على النّزر منها – طيلة هذه المدَّة – حيث آثر بها ابن أخيه، وأوقف عليه دونهم: قلبه، وراحته، وعاطفته؟!.

إنَّ الجواب محتومٌ أنْ يكون: «لا...!»

قد يكون الجواب: «نعم!»، أو قد يكون مفروضاً أنْ يكون «نعم»، لو كان اليتيم، غير يتيم عبدالله بن عبدالمطَّلب...

لو كان أيُّ واحدٍ مِنَ النَّاس، غير هذا، الذي سيُغيِّر مجرى التَّأْريخ، وسيفيض بالسَّنى والنُّور، على هذا الكون المدلهِمّْ.

أمَّا واليتيم – الذي ظلَّ في رعاية بيضة البلد – هو ابن عبدالله، فإنَّ المهمَّة لم تنتهِ، عندما كان هذا اليتيم زوج خديجة، وأباً لزهراتٍ باسماتٍ...

بل إنَّ المهمَّة، لم تبدأ، سوى اليوم، الذي طوى فيه الرَّسول أربعين عاماً، مِنْ سنيه...

وإنه لَليوم المنتَظر، الـذي ودَّ عبدالمطَّلـب – مِنْ عميـق أعماقـه – أنْ يُدركـه فيشهد إشراق سناه، وباهر نوره، ويُؤمِنَ بما فيه مِنْ حقٍّ...

... وإذ رأى منه حبـل الحيـاة، علـى انقطـاعٍ، أوصـى بـه ابنـه الأثـير، لِيرعـاه ويكلأه وحده، وأشرك معه أبناءه جميعاً، لِيُؤْمِنَ بـه منهـم، مَنْ يُدرك هـذا اليـوم العظيم.

وأبو طالبٍ... منذ ذلك اليوم...وهو يرقب فجـر يومـه هـذا، وينتظـره بنفـاد صبرٍ، وعدم تصبُّرٍ. فلا يُريد أنْ يبعد بـزوغ فجـر هـذا اليوم، ولايـدري إلى متـى، ستمتدُّ رقعة عمره؟، ومتى سُتطوى صفحة حياته؟...

... فيخشى أنْ يدهمه الموت – مثله مثل أبيه، مِنْ قبل – فلا يشهد فجر هـذا اليوم، ويفوته شرف الإيمان بما فيه مِنْ جلالٍ، وحقٍّ، وعظمةٍ...

* * *

أجل! إنَّ ذلك اليوم، قد أطلَّ بوجهه البسَّام، ومحيَّاه الضَّحوك.

وهاهو ذا أبو طالبٍ، وقد أشرق منه الوجه، وتفتَّحت منه الأسارير، وبـدت عليـه بشائر الخير، وشارات الرِّضى والاطمئنان، إذ لمح –بعينيه– فجر ذلك اليوم المنتظر...

فهذا ابن أخيه، قد ذهب لعمِّه العبَّاس – أخيه – ليقول له:

«إنَّ ا للهَ قدْ أمرنِيْ بإظهارِ أمرِيْ».

ويطلب منه النُصرة، لِيشدَّ أزره، ويُقوِّي ساعده... غير أنَّ العبَّاس، لايجـد مِـنْ نفسه القدرة والكفاءة، لِيقوم بعـبء هـذه المهمَّـة البهيـظ، ويقـول لـه، بعـد عـذرٍ مبسَّطٍ:

[... ولكن قرِّب إلى عمِّك أبي طالبٍ، فإنَّـه أكـبر أعمـامك... إنْ لاينصـرك، لايخذلك، ولايُسلمك].

ولا تكاد باصرة أبي طالبٍ، تلتقط شبحيهما، حتى يهتف:

«إنَّ لكما لَظِنَّةَ وخبراً! ماجاء بكما في هذا الوقت؟!».

ويُصغي لأخيه ا لعبَّاس، وهو يبسط له ماجاء به ابن أخيه، ومـادار بينهمـا مِنْ حديثٍ، وإذا به قد ركَّز نظره في ابن أخيه، وقـد أشـرق مِنْ عينيـه بريـقٌ جـذَّابٌ، سلَّطه على ابن أخيه، كالمجهر الذي يشفُّ عما بين الطوايا.

ثم يقول له هذه القولة، التي تُشيع في قلب محمَّدٍ غبطةً، وتُشـجِّع منـه الجَنـان، وتُعطيه طاقةً وقوَّةً علـى المضـيِّ في أمـر ربِّـه، بثبـاتٍ، وشـجاعةٍ، واطمئنـانٍ، وقـوَّة إيمان... فلديه سندٌ يقيه الزَّعازع، وحصنٌ يلجأُ إليه، عند نُذر الإعصار المارد:

[اخرج - ابنَ أبي! - فإنَّك الرَّفيع كعباً، والمنيـع حزبـاً، والأعلـى أبـاً!. وا لله لايسلقك لسانٌ، إلاَّ سلقته ألسنٌ حدادٌ، واجتذبته سيوفٌ حدادٌ... وا لله لَتذلنَّ لك العرب، ذلَ البهم لحاضنها!.

ولقد كان أبي، يقرأُ الكتاب جميعاً... ولقد قال: إنَّ مِنْ صلـبي لنبيَّـاً، لَـوددتُ أنّي أدركت ذلك الزَّمان، فآمنتُ به. فَمَنْ أدركه مِنْ ولدي، فليُؤْمِنْ به](١).

شاء أبو طالبٍ أنْ يُوفِّي محمَّداً حقَّه، فيذكر صفاته وسؤدده. ثـم راح يُطمئنـه ويُشجِّعه، لِيمضي قدماً، إذْ وعده النُّصرة والتَّضحية، في سبيل رسالته...

ثم بَعُد منه النَّظر، إلى المستقبل الباسم، الذي سيصل إليه ابـن أخيـه، فتـذلُّ لـه العرب، وتُؤمِنُ بدعوته، وتُسلِّم إليه أمرها...

وعادت به الذَّاكرة، إلى شخص أبيه، حيث ألقى إليـه، وإلى ولـده، وصيَّتـه... وهاهي ذي قد تحقَّقت... وهاهو ذا النَّبيُّ قد بُعث... فعليه أنْ يُؤْمِنَ بـه، وينصـره، لِترضى روح عبدالمطَّلب، وتهنأ، ويقرَّ عيناً...

* *

---

(١) - ذُكرت في الغدير -ص٧:٣٤٨- وجاء فيه: أخرجهـا فقيـه الحنابلـة إبراهيـم بـن عليٍّ الدَّينوريُّ، في كتابه «نهاية الطَّلب وغاية السَّؤل في مناقب آل الرَّسول». وأرجع القاريء -أيضـاً- إلى «الطَّرائف» للسَّيِّد ابن طاوُوس -ص٨- و«ضياء العالمين» للشَّيخ أبي الحسن الشَّريف.

وذُكرت في «شيخ الأبطح» -ص٢٢- وفيه: إنَّ إبراهيم هذا، أخرجها بعدَّة أسانيد.

وذُكر القسم الأخير -مِنْ قولة أبي طالبٍ هذه- في العبَّاس ص١٨ و٢١.

وهي – – إلى هذا – مفتاحٌ لمستودع إيمان أبي طـالبٍ...! فهـي – علـى أقـلِّ تقديرٍ. إذا لم نتلفّت إلى تلك الدّلائل والشّـارات – فهـي أوّل الـبراهين علـى إيمانـه العميق، واعتناقه للّدعوة المحمّديَّة، واطمئنانه لصدقها...

ولولا ذلك... لكان أوّل المنكرين عليه، والثّائرين في وجهه. وإنه لفي مقدوره ذلك، ومحمَّدٌ ربيبه، ودعوته – بعد – لم تنشط، ولم يكد يتقبّلها أحدٌ...فهي: بـذرةٌ لم تقـم لهـا سـاقٌ، ولم يصلـب لهـا عـودٌ...فَمِنَ اليسـير: أنْ يسـحقها، دون أدنـى صعوبةٍ...

أو – على أقلِّ تقديرٍ – يدَعُ ابن أخيه وشأنه، دون أنْ يعِده النُّصرة، ودون أنْ يبثَّ فيه روحاً دافقةً، وعزيمةً صُلبةً.

بينما نرى أبا طالبٍ: على عكس ذلك. فهو – في قبوله هذه الدَّعوة – كمَـنْ يرتقب حدثاً، سيكون بـين: لحظـةٍ، وأُخـرى... وإذْ رأى الشّـارات الأُوْلى، لم تكـن عليه مفاجأةً، ولاحدثاً غريباً.

لذلك... لم يكدِ العبَّاس يُنهي قوله، ويُدير في ابن أخيه نظرته البعيدة، حتى بدأ قوله آمراً ابن أخيه ببثِّ الدَّعوة: «اخرج – ابنَ أبي!».

فلو لم يكن بدعوته مقتنعاً، ولصدقها مطمئنـاً، لَمَـا كـان يقـول ماقـال، ولَكُنّـا نشهد منه موقفاً واهناً، غير هذا الموقف المشجِّع...

ولكن الإيمان بالدَّعوة، والإطمئنان إليها، يفرضان عليـه هـذا الموقـف العظيـم، ليمدَّ ابن أخيه بقوَّةٍ وثبـاتٍ وشـجاعةٍ... فالمهمَّـة الـتي أُلقيـت علـى كاهلـه بهيظـة المحمل....! فعليه: أنْ يُؤازرها، ويُدافع عنها، وينصرهـا نصـراً مبينـاً، وهـو العليـم بأنَّها رسالة السَّماء، والتي بشَّرت بها الكتُب المقدَّسة، مما قرأ عبدالمطَّلب.

يوم الإنذار

وتلا ذلك اليوم يومٌ آخر، لايقلُّ روعةً وجلالاً، عن ذلك اليوم...!

فحين تلقّى الرَّسول مِنَ الملائكة آية الإنذار، أمر عليّاً – وهو المؤْمِنُ الأوَّل بالدَّعوة – أنْ يدعو إليه «عشيرته الأقربين»، مِنْ رؤساء قريش، فألقى إليهم مايُريد مِنْ هذا الاجتماع، والغاية منه.

وتفرَّق الجمع، دون جدوىً...!

وعاد، فجمعه – مرَّةً أُخرى – فهو «رائدٌ لايكذب أهله»، وهو «رسول الله إليهم – خاصَّةً – وللعرب، عامَّةً».

وإذ انتهى الرَّسول مِنْ دعوته، بادره عمُّه أبو طالبٍ، بالقول:

[ماأحبَّ إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشدَّ تصديقنا لحديثك. وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ماتُحبُّ. فامضِ لِمَا أُمِرتَ به.! فوالله لاأزال أحوطك وأمنعك، غير أنَّ نفسي، لاتُطاوعني على فراق دِين عبدالمطَّلب](١).

فعارض أبو لهبٍ أبا طالبٍ، في المقال:

«هذه – والله! – السَّوأة!. خذوا على يديه، قبل أنْ يأخذ غيركم».

وإذا بأبي طالبٍ، يُجيبه:

«والله لَنمنعنّه مابقينا»(٢).

ثم يلتفت لابن أخيه، لِيقول له:

---

(١) – الكامل لابن الأثير ص٤١ ج٢.

(٢) – الكامل لابن الأثير ص٤١ ج٢، والسِّيرة الحلبيَّة ١:٣٢١.

[قم – يا سيِّدي! – وتكلّم بما تُحبُّ، وبلّغ رسالة ربِّك، فأنتَ الصَّادق الصِّدِّيق](١).

* *

يا لروعة الإيمان، تملك على ابن عبدالمطّلب نفسَه، فيندفع: مصدِّقاً، مؤمِناً، مشجِّعاً، مِنْ بين قومٍ يربو عددهم على الأربعين، قد نسج الجهل على عيونهم غشاوةً، فلم تستطع عينٌ منهم أنْ تكتحل بهذا النُّور المشرق.

إنه لَيُحبُّ معاونته، ويقبل نصيحته، ويُصدِّق حديثه...

فهل هذا غير الإيمان العميق، والانقياد الصَّادق، والطّاعة مِمَّن يعرف ويختار، لامِمَّنْ يجهل ويُسيَّر...؟

إنه لأسرع بني أبيه لِمَا يُحبُّ... فعليه أنْ يمضي لِمَا أُمِر به... فوا لله لَيحوطنَّه ويحميه، ويدفع عنه العوادي...

أليس هو الإيمان النّاطق؟. فهو يبذل المعونة، ويأمره بإنفاذ أمر ربِّه، والصُّدوع برسالته...

فهو لو لم يكن ذلك المؤْمِنَ بالدَّعوة، والمطئن لصدقها، لكان له حديثٌ، غير هذا الحديث، وموقفٌ يُغاير موقفه هذا...وكذلك رأينا أبا لهبٍ، كيف وقف، وكيف أشار... حتى كان بينهما حديثٌ، اضطرَّ – خلاله – أبو طالبٍ: أنْ يثور في وجهه، وأنْ يضعه مكانه:

«اسكتْ – يا أعور! – مأنت وهذا...؟»(٢).

ألم يكن أبو طالبٍ، وأبو لهبٍ، عمَّي الرَّسول؟.

فلِمَ يقف كلٌ منهما موقفاً، يُخالف الآخر، أتمَّ الخلاف...؟

فهذا يُضحِّي في سبيله، بما يستطيع، ويُثبِّته، ويُشجِّعه، ويقف في جانبه، يُنافح عنه ويُكافح، ويسلق عتاة قريشٍ، بلسانٍ أحدَّ، غير آبهٍ، ولاخوَّافٍ...؟

---

(١) – شيخ الأبطح ص٢٢، والغدير ٧:٣٥٥ –مسنداً لمراجع.

(٢) – البحار ص٤٥٠ ج٦ والغدير ص٣٥٥ ج٧، وشيخ الأبطح ص٢٢.

وذاك يقف ذلك الموقف الواهن، ينال مِنَ الرّسول، ويُفرّق عنه القوم، ويقطع عليه حديثه، ويسخر ممّا جاء به...؟

ألم يكن الإيمان – وحده – هو الذي يفرض على أبي طالبٍ: أنْ يقف موقفه هذا، ولايحيد عنه...؟

كما أنَّ الشِّرك – وحده – هو الذي يفرض على أبي لهبٍ: أنْ يقف موقفه ذاك، ولايحيد عنه...؟

* *

وأبو طالبٍ، بعدما أخذ، مِنْ حديثه ماأخذ، وأظهر لعتاة قريشٍ: أنّه قدِ انصاع لدعوة محمَّدٍ، وأنّها قِد احتلّت مِنْ قلبه السُّويداء – رأى عيوناً شزراء، تلتهمه بنظرها الحاقد... فرأى: أنْ يُعمِّي على هؤلاء موقفه، وذلك لصالح الدّعوة المحمَّديَّة، فينفسح لديه طريق الجهاد والدِّفاع، والمناصرة الفعَّالة:

«غير أنَّ نفسي، لاتُطاوعني على فراق دِين عبدالمطّلب...».

ومادِين عبدالمطّلب هذا...؟

إنّه الحنيفيَّة البيضاء: دِين إبراهيم الخليل.

وماهذا الدِّين، إلاّ امتدادٌ لشعلة ذلك الدِّين، وامتدادٌ لتلك الدّعوة العميقة، وإكمالٌ للأديان الإلهيَّة.

وإنَّ هذا خير طريقٍ، رأى أبو طالبٍ أنْ يسلكه، فيُعمِّي على هؤلاء، الذين أُقفلت قلوبهم، وعميت منهمُ العيون.

لذلك... لم يكد يرى مِنْ أبي لهبٍ: موقفه المشين، حتى وقف محتدماً، ثائراً في وجهه، لِيردَّه إلى حيث يجب أنْ يكون...

ثم وجَّه القول لابن أخيه: «قم يا سيِّدي!».

وهذه الكلمة – «سيِّدي» – برهانٌ ناطقٌ على إيمان إبي طالبٍ.

«سيِّدي»: كلمةٌ يُوجِّهها أبو طالبٍ، ليتيم أخيه وربيبه.. وهو – لولا النُّبوَّة – له عليه حقوقٌ... وكان أولى أنْ يقولها إليـه! فهـو عمُّـه ومربِّيـه، وكافلـه، ويكـبره سنّاً...(١) – وكلُّها حقوقٌ لـه علـى ابـن أخيـه، تضعـه موضـع احـترام ابـن أخيـه، وتفرض على محمَّدٍ أنْ يُوجِّه إليه كلمات التَّعظيم والإجلال...

ولكن الله أعطى محمَّداً –حين اختاره لرسالته– حقوقاً، هي فوق كـلِّ هـذا... فهو المصباح الذي تهتدي به الإنسانيَّة، في محلولك طريقها الملتـوي. فهـو – بذلـك – فوق العمومة، والتَّربية، والكفالة، والسِّنِّ، وغيرها...

كلُّ هذا... لمحه أبو طالبٍ، حين انبعثت مِنْ حنجرته: «قم – يا سيِّدي!». فهو سيِّده، مادام رسولَ ربِّه، وقد فُرضت عليه طاعتـه، وتصديـق رسـالته، والانصيـاع لأوامره ونواهيه.

ولذلك أردف على قوله: «يا سيدي!» بقوله:

«وتكلَّم بما تُحبُّ، وبلِّغ رسالة ربِّك، فإنَّك الصَّادق الصِّدِّيق – أوِ المصدَّق».

---

(١) – لسنا مِمَّنْ يرى للسـنِّ –وحدهـا– قيمـةً ذاتيـةً، تضع المسِنَّ، في منزلـةٍ وقيمـةٍ، فـوق مستوى مَنْ يدنو عنه في السِّنِّ، إذا لم تكن للمسِنِّ مميزاتٌ أخرى...

فالشَّخص الذي يرى لنفسه الأفضليَّة بالسِّنِّ –وحدها– إنمـا هـو شـخصٌ فـاقدٌ لكـلِّ الخـلال المميِّزة، والرَّاجحة في ميزان القيم.

فهو يتشبَّث بهذه الخلَّة التَّافهة، لِيُخفي النَّقص، ويسـتر الفقـر المدقـع، المـتردِّي فيـه، ويتشـبَّث بالطُّحلب، الذي لاينجو به الغريق...

ولكن التَّشبُّث بهذه المزعمة، قديمٌ في تأْريخنا الإسلاميِّ، حيث فرضته ظروفٌ سياسيَّةٌ زمنيَّـةٌ، وماديَّةٌ بحتَةٌ.

وخير مانزن به الإنسان، هو قولة الإمام عليٍّ عليه السلام: [قيمةُ كلِّ امرىءٍ مايُحسن]، و: [المرء بأصغريه: قلبه ولسانه].

ونعود، فنقول: بأنَّنا لسنا مِمَّنْ يرى للسِّنِّ –وحده– أيَّة قيمةٍ ذاتيَّةٍ، ما لم تكن للمسِـنِّ مـيزاتٌ أُخرى، فيكون السِّنُّ –حينئذٍ– مما يشدُّ بقيمة تلك المميِّزات. أو إنَّ تلك المميِّزات الأُخرى، تُضفـي على السِّنِّ شيئاً مِنْ قِيمها، فتتماسك، وتلتحم، لِينتج منها الجلال والوقار، الذي يبـدو وراء السِّـنين الطِّوال، التي مرَّ بها المسِنُّ... فاكتسب منها التَّجاريب النَّافعة، وحنَّكته الأيَّام، بدروسها المفيدة...

فمادام هو الصَّادق، الذي لايقول الكذب، والذي لو أخبر بأنَّ خيلاً، تخرج مِنْ شقِّ جبلٍ، لَمَا استطاع واحدٌ مِنْ أهل مكّة: أنْ يفوه بكلمة تشكيكٍ! - فكيف له أنْ يُنكر رسالته، والزّمن لها مرتقبٌ، والنُّذر تترى، والبشائر تتواصل، والطَّبيعة تحتم طلوعه...؟

ثم وجد عيوناً تتغامز، وألسنةً تتهامس، حتى وصلت لسمعه كلمةٌ، فيها تهكمٌ وسخريةٌ:

«قد أمرك أنْ تسمع لابنك»(١) - يعنون عليّاً، حين نصَّ عليه الرَّسول بالوصاية.

ولكنه لايأبه لِمَا يقولون! ولايُزعزعه هذا القول مِنْ هؤلاء! فيُجيبهم بكلمةٍ، يقطع عليهم بها مجال القول، ويُعطي ابنه طاقة تشجيعٍ:

«دعوه فلن يألوَ ابن عمِّه خيراً...»(٢).

* *

وماكانت هذه القولة - مِنْ أبي طالبٍ - بالأُوْلى، التي يسمعها الإمام عليٌّ، مِنْ أبيه، وتحمل مدى رضاه وارتياحه، لنصرة ابن عمه، سيِّد البشر...

لقد رآه - في يوم الرِّسالة البكر - وهو يُصلّي خلف الرَّسول، وقدِ اختفيا، حذراً مِنَ المشركين، وإذ أجاب عليٌّ أباه على سؤاله:

«يا أبتِ! آمنتُ با لله وبرسول ا لله، وصدَّقتُه بما جاء به، وصلَّيت معه لله، واتبعته».

- أجابه أبو طالبٍ:

---

(١) - الكامل لابن الأثير ٤١ ج٢، والطَّبري ٢:٦٣، وغاية المرام ٧٠ و٧٨ و١٥٣ و١٦٤ و١٨٥ و٣٢٠ و٣٢٢ و٦١٣، والغدير ٢٧٩-٢:٢٨٣، و٣:٢٠٩، وأعيان الشِّيعة ٩٨-١٠٢ ج٢ و٣٩:١٦٤، ونقض كتاب العثمانيَّة -وهي في رسائل الجاحظ- ص٣١، والدَّعوة لسيِّدنا الوالد ص١٢٤ و١:٢٤١.

(٢) - الغدير ٧:٣٥٥.

«أما إنه لايدعوك إلاّ إلى خيرٍ، فالزمه»(١).

إنَّها كلمةٌ، تنمُّ عن إيمانٍ واطمئنانٍ عميقين، في قلب قائلها... فليس يدعو الرَّسول لسوى الخير... ومَنْ هو داعٍ للخير، فعلى كلِّ عاقلٍ أنْ يلزمه، لعله ينال نصيباً مِنْ خيره...

إنَّها لدليلٌ - مِنْ بين تلك الدَّلائل، الوفيرة العدد - على إيمان بيضة البلد... وإلاّ لو لم يكن ذلك المؤْمِنَ بالدَّعوة، فما له، وللدِّعاية لها، وتثبيت ابنه على اعتناقها والتزامها...؟

بل لو لم يكن كما كان، لرأيناه: ينهى ابنه عليّاً، عنِ الانصياع لها، وأنْ يرفض ماجاء بها. فهذا ابنه، وهو أوَّل مَنْ يبذل له النَّصيحة، ويأْخذ بيده إلى الْحَبِ الطُّرق - ولو حسب رأْيه!.

فلو لم يعرف: أنَّ في لزوم عليٍّ لابن أخيه، واعتناقه ماجاء به مِنَ السَّماء... لو لم يرَه خيراً - وليس يدعو محمَّدٌ لسوى الخير - لَمَا قال له قولته هذه... ولزَجره، ونهاه، وأنَّبه وردعه.

* *

وليس هذا، هو السَّطر الأوحد، في هذه الصَّفحة المشرقة، مِنْ تأْريخ أبي طالبٍ النَّصيع. بل إنَّ له سطوراً أُخرى هي على إشراقٍ وسطوعٍ، كهذا...

فقد رُوي عنِ الإمام عليٍّ «عليه السلام» قوله:

---

(١) - الطَّبريُّ ٢:٥٨، والإصابة ٤:٢١٦، والسِّيرة الهشاميَّة ١:٢٦٤، والنَّبويَّة ١:١٧٦، والحلبيَّة ١:٣٠٦، وشرح النَّهج ٣:٣٠٥، وينابيع المودَّة ١٦٨ [٢:٢٨]، والرياض النَّضرة ٢:١٥٩، وغاية المرام ٥٠٠، وأبو طالب ٥٠ والعباس٢٣، والغدير ٧:٣٥٦ مسندةً إلى بعض المصادر، ممَّا ذكرنا، وإلى: تفسير الثَّعلبيِّ، وعيون الأثر ١:٩٤، وأسنى المطالب ١٠.

وذكرها الإسكافيُّ، في نقض العثمانيَّة -رسائل الجاحظ ص٥١ وذُكرت في الإمام عليٍّ صوت العدالة ص٣٥، وفيه ص٥٧، ٥٨ : ١.

قالَ لِيْ أبيْ: يا بنيَّ! الزمْ ابنَ عمِّكَ، فإنّكَ تسلمْ بهِ مِنْ كلِّ بأسْ آجلٍ وعاجلٍ.
ثم قال لي:

إنَّ الوثيقـــة في لـــزوم محمَّـــدٍ
فاشـدُدْ بصحبتِـــهِ علـــيُّ! يديكَـــا[1]

* *

فهو – هنا – قد دلَّ ابنه على: أنَّ لزوم ابن عمّه، فيه السَّلامة مِنْ كلِّ بأسٍ في دنياه هذه، وفي أُخراه...

إنه لَلإيمان باليوم الآخر، يوم تُوفّى فيه كلُّ نفسٍ أجرها، وتقدم على فعلها...

* *

وإنه لَيرى الرَّسول – مرَّةً أُخرى – وهو يُصلّي، وعلـيٌّ عـن يمينـه، فيقـع منـه النَّظر على ابنه جعفر، ويهتف به:

«صِلْ جناحَ ابنِ عمِّكَ. فصلِّ عن يساره»[2].

وإذ ذاك تنطلق حنجرة أبي طالبٍ، بهذه الأبيات، التي يذكر فيهـا ابنيـه: عليّـاً وجعفراً، وهما ثقتاه، عندما يُلمُّ به الزمن، وتنوبه النُّوَب، فيختارهما لمهمّةٍ فضلـى، هي: نصْر ابن عمِّهما:

إنَّ عليّـــاً وجعفـــراً ثقتِـــي
عنــدَ ملــمِّ الزَّمـــانِ والنُّـــوبِ
لاتخـــذلاَ، وانصـــرَا ابـــنَ عمِّكمَـــا
أخــيْ لأُمِّــيْ – مِــنْ بينِهِــمْ – وأبــيْ

---

(١) – الشَّرح الحديديُّ ٣:٣١٤، والحجَّة على الذَّاهب ٦٣، وأعيان الشِّيعة ص٩ ج٣ ق١، و١٤٤ ج٣٩ وهاشم وأُميَّة ١٦٣

(٢) – السِّيرة النَّبويَّة ١:١٧٧، والحلبيَّة ١:٣٠٤، والإصابة ٤:١١٦، والحديديُّ ٣:٢٧٢، والحجَّة ٦٥، والبحـار ٤٠٣ و٤٤٤ و٦:٤٤٥، وأعيـان الشِّـيعة ٣:٩ ق١ و١٠، ١١ ج١٦، و١٣٩ ج٣٩، وتفسير عليِّ بن إبراهيم ص٣٥٣، وأبو طالبٍ ٥٠، وهاشم وأُميَّـة ١٦٣، والغدير ٣٥٧:ج٧ مسندةً – بالإضافة لبعض المصادر، ممَّا ذكرنا– إلى: أُسد الغابة ١:٢٨٧، واسنى المطالب ٦ والأوايل للعسكريِّ.
وذكرها الإسكافيُّ، في حادثةٍ: في رسالته: نقض العثمانية –راجع رسائل الجاحظ ص٤٩ و٥١

والله لأخـــــذلُ النَّـــــبيَّ، ولاَ
يخذلُــهُ – مِــنْ بــنيَّ – ذو حسَـــبِ[1]

أرأيتَ هذا الإعتراف السافر: «والله لأَخذلُ النَّبيَّ»...؟

إنَّه لقسمٌ عظيمٌ، قد وفَّاه أبو طالبٍ، وقام به، فلم يخذله طوال حياته، ولم يخذله مِنْ بنيه أحدٌ، قد ورث منه هذا الحبَّ، والشَّرف الضَّخم...

* *

ومَّرةً أُخرى: يهتف بأخيه الحمزة – أبي يعلى – ويدعوه لإظهار دِين الله، وأنْ يصبر على المكروه، الذي سيلقاه، نتيجة هذا الإظهار، فعليه أنْ يحوط مَنْ أتى بالحقِّ مِنْ ربه، بنصرٍ صادقٍ، وعزيمةٍ ماضيةٍ...

ولْندع أبيات أبي طالبٍ، تصل إلى سمعنا بصافي نبرتها:

فصبراً – أبا يعلى! على دِينِ أحمـدٍ
وكـنْ مظهـراً للدِّيـنِ – وُفِّقـتَ – صـابرَا
وحُـطْ مَـنْ أتـى بـالحقِّ مِـنْ عنـدِ ربِّـهِ
بصدقٍ وعـزمٍ، لاَتكـنْ – حمـزُ! – كـافرَا
فقـد سـرَّني، إذْ قلـتَ: أنَّـكَ مؤْمِـنٌ
فكـنْ لرسـولِ اللهِ – في اللهِ – نـاصراً
ونــادِ قريشــاً بــالذيْ قــدْ أتيتَــهُ
جَهاراً، وقــلْ: مَاكـانَ أحمـدُ سـاحراً[2]

---

(١) – النهج الحديدي ٢٧٢ و٣:٣١٤، والحجة ٦٥، وديوان أبي طالب:١١، وشيخ الأبطح ٣٨، وإيمان أبي طالب ١٩، وأعيان الشِّيعة ٣:٩ ق١ و١٦:١١، و٣٩:١٤٤، ومعجم القبور ١٩٦ و١:٢٠١، والغدير ٧:٣٥٦ –مسندةً لديوان أبي طالب، والأوايل للعسكري – ونقض العثمانية، رسائل الجاحظ ص٤٩.

(٢) – الشَّرح الحديديُّ ٣:٣١٥، والحجَّة على الذَّاهب ٧١، والمناقب ٣٦، والبحار ٦:٤٥٤، والعبَّاس ٢٢، وإيمان أبي طالبٍ ١٦ –وقد أسندها المحقِّق، لكلٍّ مِنْ: مناقب ابن شهراشوب، وإصابة ابن حجر، والشرح الحديديِّ، ولم يذكر رقم الصَّفحات. لذلك لم نعثر عليها في الإصابة –وذُكرت في الأعيان ص١٤٤، ٣٩:١٤٥ وذُكر الأوَّل والثَّالث في مجمع البيان ٧:٣٧.

إنّه لداعيةٌ إسلاميَّةٌ، يهتبل الفرصة، لِيُعبِّر عما يكنُّه في صدره، ويعرض مـايحفل به جَنانه...

فإنّه لَمِنْ دواعي سروره: أنْ يقول حمـزة: إنـي مؤْمِـنٌ... وإذ قالهـا، فعليـه: أنْ ينصر الرَّسول، نصرةً إلهيَّةً... نصرة الحقِّ للحقِّ، مِنْ دون نظـرةٍ أُخـرى، كواشـجة قرابةٍ، أو دمٍ...! فالدِّين قبل كلِّ شيءٍ، والعقيدة فوق كلِّ شيءٍ...

* *

ولعلَّ مِنَ الخير: أنْ نختتم هذا الفصل، بكلمـةٍ للـبرزنجيِّ، تتناسـب وماعرضنـاه هنا...فقد قال:

(تواترتِ الأخبار: أنَّ أبا طالبٍ، كـان يُحـبُّ النّـبيَّ، صلّـى ا لله عليـه «وآلـه» وسلّم ويحوطه وينصره، ويُعينه على تبليغ دِينه، ويُصدِّقه في مايقولـه، ويـأمر أولاده - كجعفرٍ، وعليٍّ - باتّباعه ونصرته).

وقال:

(هذه الأخبار كلُّها، صريحةٌ في قلبه، طـافحٌ وممتلـئٌ بالإيمـان بـالنّبيِّ صلّـى ا لله عليه «وآله» وسلّم)(١).

---

(١) - ص٣٥٨:٧ مِنَ الغدير، مسندةً إلى ص٦ و١٠ مِنْ «أسنى المطالب».

جهاد

نشطت دعوة الرَّسول، وامتدَّ لها شعاعٌ، وسطع منها نورٌ... فإنَّ لديه لحصناً منيعاً، يقيه الهزاهز، ويمنع عنه الإعصار...

فأبو طالبٍ قد عاهد الله على نصرة دِينه، الذي جاء به ابن أخيه«ص» فهو يحوطه وينصره، ويبذل في سبيل ذلك أغلى شيءٍ في الوجود، حتى ولو روحه، التي تخفق في كيانه، أو فلذة كبده، التي تدبُّ على الأرض، ويُعبِّر عنها بـ«الولد»...

وراح الرَّسول – وقدِ اشتدَّ ساعده، بهذه النُّصرة والحياطة – يبثُّ دعوته بنشاطٍ دائبٍ، لاينثني ولايخاف، وله بناءٌ شامخٌ، يستند إليه، وظِلٌّ وارفٌ، يقيل إليه في الهاجرة...

* *

وهنا... نفتتح صفحةً، مشرقة السُّطور، مِنْ تأريخ أبي طالبٍ النَّصيع، فنُفارق صفحةً ناصعةً، لأُخرى، لاتقلُّ عنها: نصوعاً، ونقاءً، وإشراقاً...

فتلك: صفحة الإيمان العميق... وهذه صفحة الجهاد الصُّلب، والحماية الفذَّة، والبذل والتَّضحية، في سبيل المبدإِ القويم، والمعتقد الرَّسيخ. فيمنع الرَّسول مِنْ عتاة قريش، ويُفسح المجال –أمامه– وسيعاً، لنشر رسالته، وبثّ دعوته، فيحوط ويمنع مَنْ آمن بالدَّعوة، مِنْ حيف قريشٍ، وتعذيبها له. لِتردَّه لظلمة الشِّرك، بعدما اهتدى بنور الإيمان.

إنَّها لصفحةٌ مليئةٌ بالتَّضحية الفذَّة، والجهاد الصَّادق، والدِّفاع الصُّلب.

وما الحياة غير العقيدة والجهاد – كما يقول شوقي – عقيدةٌ رسيخةٌ، وإيمانٌ وطيدٌ، وجهادٌ صامدٌ، ناطقٌ بلسانٍ حديدٍ، إنْ كان اللّسان – وحده – يقوم بالمهمَّة، وإلاّ فسيوف صقالٌ، وسواعدُ مفتولةٌ، وعزائمُ تفلُّ الحديد، وتفتُّ الصَّخر الصَّليد.

لذلك... نشط الرَّسول في دعوته، وقوي صوته، فخافت قريشٌ هـذه الدَّعـوة التي تُريد أنْ تجمع البشـر، لِيُوحِّدوا الإلـه الخـالق الـرزَّاق، وينبـذوا هـذه الأصنـام والأوثان، مِنْ حجارةٍ صمّاءَ، وأخشابٍ باليةٍ، لاتسمع ولاتعي، لاتضرُّ ولاتنفع...

... يقف الإنسان أمامها – مقيّداً، مكتوف اليدين، كالعبد الذّليل، أو الأسـير المغلوب على أمره، فيفقد القدرة والحريَّة، أمام هذا الجماد الميِّت، فيُعطي برهاناً علـى تحجُّر العقليَّـة، ورجعيَّة هذه التَّقاليد، وتبلُّد الحس، وانعدام العقل، مِنْ هؤلاء، الذين يشبهون الإنسان – في هيكله اللَّحميِّ – والجمادات، في فقدانها للعقل، والفكر، والشعور...!

ثم نشطت هذه الدَّعوة، وكثر المؤمنون بها، فجهر الرَّسـول بـالدَّعوة، وسـخر بهذه الآلهة المجمَّعة، قدِ انقاد لكلٍّ منها جمـعٌ غفيرٌ، مِـنْ قطعـان الأناسـين...! وراح يُلمسهم واقعهم المرير... ويدعوهم لنبـذ مـاهم فيـه: مِـنْ ضـلالٍ وعمايـةٍ، ويـأخذ بيدهم، للطَّريق الأبلج الألحب، بنوره الوضي...

ولكن الأعمى، لايدري ماالنُّور...؟ وليسـتِ الخفَّاشـة، بـالتي يمتـدُّ لهـا جنـاحٌ، والشمس تحْبو في رقعة الكون...!

* *

لقد ساء قريشـاً أنْ يعيـب محمَّـدٌ أصنـامَهُمُ، الـتي يعبـدون، ولم يـروا غـير أبـي طالبٍ، يُنصفهم مِنْ هذا الذي جاءهم بالدِّين الموحِّد...!

حينذاك... مشى نفرٌ مِنْ أشراف قريشٍ، لأبي طـالبٍ، يشـكون إليـه: مـالاقوه مِنِ ابن أخيه، مِنْ عيب آلهتهم، فقالوا:

[يا أبا طالبٍ! إنَّ ابن أخيك، قد سـبَّ آلهتنـا، وعـاب دِيننـا، وسـفَّه أحلامنـا، وضلَّل آباءنا...! فإمَّا أنْ تكفّه عنَّا، وإمَّا أنْ تُخلّي بيننـا وبينـه – فـإنَّك علـى مثـل مانحن عليه، مِنْ خلافه – فنكفيكه](١).

(١) – هنا...يظهر سرُّ كتمان أبي طالبٍ إيمانه... وإلاَّ فلولا أنهـم يظنُّونـه علـى دِينهـم، لَمَـا سعواإليه، ولَبادؤوه العداء، وناجزوه الحرب...

ولو فعلوا ذلك، لكانتِ النَّتيجة وخيمةً على الدَّعوة، وبعدُ لَمَّا يصلب عودها!.

فألان لهم أبو طالبٍ في القول، وتلطّف لهم في الردِّ الجميل، حتى انصرفوا عنه، والرَّسول ماضٍ في دعوته، وإظهار دِين ا لله...

ولّما لم يجدوا لشكواهم صدىً محبَّباً، ولم تُؤتِ الثّمـر المرجوَّ، والغاية المتوخّـاة، أجمعوا أمرهم - مرَّةً أُخرى - ومشوا إليه قائلين:

[يا أبا طالبٍ! إنَّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً - فينا - وإنّا قدِ استنهيناك مِـنِ ابنِ أخيك، فلم تنهه عنّا، وإنّا - وا لله! - لانصبر على هذا، مِنْ: شتم آبائنـا، وتسفيه آحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو نُنازله وإيَّاك في ذلك، حتـى يهلـك أحـد الفريقين].

فوقف أبو طالبٍ، بين تيَّارين عنيفين، كلٌّ له أهميَّته وقوَّته واندفاعه؟..!

فهو يخشى أنْ يُعلنها حرباً عواناً مع قومه، فتأْتي على الشَّيخ والأمرد...!

وهو لايستطيع خذلان رسالة السَّماء، ولها في عنقه عهد النُّصـرة، ولاأنْ يـدع ابن أخيه - وهو رسول السَّماء - وله عليه حقُّ النُّصرة - أيضاً - حسـب وصيَّـة والده الشَّيخ، في رمقه الأخير...!

جمع أمره، وصمَّم عزمه، فدعا إليه ابن أخيه، فأنهى إليـه مقالـة هـذا الوفـد... وشاء أنْ يعرف - مِنْ خـلال هـذا الحديـث - عزيمـة ابـن أخيـه، ونشـاطه في أداء الدَّعوة، فعقَّب حديثه قائلاً:

«فأبقِ عليَّ، وعلىنفسك، ولاتُحمِّلني مِنَ الأمر مالا أُطيق!».

ولكنه لم يلمح مِنِ ابن أخيه، سوى الصَّرامة، والقوَّة، والعزم، والمضاء:

[يا عمَّاه! لوْ وضعُوْا الشَّـمسَ فيْ يمِينِـي، والقمـرَ فيْ يسـارِيْ، على أنْ أتركَ هـذا الأمـرَ، حتّى يُظهـرَهُ ا لله، أوْ أهلـكَ فيـهِ، ماتركتُهُ].

وحانت منه نظرةٌ لابن أخيه، وقد قام لِيخرج مِـنْ دار عمِّـه ، ولـلألم في نفسـه محلٌّ عميقٌ، حيث قد ظنَّ - كمـا يُعلّـل بعض المؤرِّخين - بأنـه قـد بـدا لعمِّـه أنْ

سيدعه ويُسلمه، دون أنْ يحوطه وينصره، فانهمرت مِنْ عيني الرَّسول دمعات...(١)

حانت هذه النّظرة مِنْ أبي طالبٍ، فارتاع... وعاد إليه العزم الصُّلب، وقد تغلّب هذا التيَّار البطّاش، فكان له النّصر... فهو يُؤْثر نصرة الدِّين، وحياطة الرَّسول، حتى لو أثمرت هذه النُّصرةُ والحياطةُ عداءَ قريشٍ كلّها، بل ولوِ العرب أجمع...

فعليه أنْ يُجاهد، ولايستكين، مادامتِ المشيئة السَّماويَّة، قد حبته بفيضٍ مِنْ عنايتها، فاختارته حصناً وكهفاً، ومربياً وراعياً، منذ يوم الرَّسول الأوَّل، وفي فجر الرِّسالة البكر...

«اقبل – يا ابن أخي!».

بهذه الكلمة – والرِّقة تسيل مِنْ حروفها – نادى أبو طالبٍ ابن أخيه، فقطع بها حبل الصَّمت الأخرس، والتّفكير العميق... ثم أردف، وقد أقبل عليه ابن أخيه:

[اذهب – يا ابنَ أخي! – فقلْ ماأحببتَ، فوا للهِ لاأُسلمك لشيءٍ أبدا](٢).

ثم هتف به، منشداً هذه الأبيات:

وا للهِ لنْ يصلُوْا إليكَ بجمعِهِمْ
حتّى أُوسَّدَ في التُّرابِ دَفينَا

---

(١) – نحن لانعتقد بأنْ يظنَّ الرَّسول في عمِّه، مثل هذا الظَّنِّ، في الحين الذي يعرف فيه الرَّسول موقف عمِّه تجاهه.

وليست هذه الدَّمعات إلاّ منبثقةً، مِنَ الشَّفقة على عمِّه، حيث أنّه سيقف لأجله، هذا الموقف الحرج الدَّقيق!.

(٢) – الطبريُّ ٦٤، ٢:٦٧، والسِّيرة النّبويَّة ١:١٩٦، والحلبيَّة ١:٣٢٣، والهشاميَّة ٢٨٣، ١:٢٨٥، والحديديُّ ٣٠٥، ٣:٣٠٦، وأبو طالبٍ ٥٧، ٦١، وهاشم وأُميَّة ١٦٦، وأعيان الشِّيعة ١٢٧، ٣٩:١٢٨ وقد أُسندت في الغدير –٧:٣٦٣– إلى مصادر عدَّةٍ.

فاصدعْ بأمركَ، ما عليكَ غضاضةٌ
وابشرْ بذاكَ، وقَرَّ منكَ عيونَا
ودعوتَنِيْ، وعلمتُ: أنَّكَ ناصحِيْ
ولقدْ صدقتَ، وكنتَ - ثمَّ - أمينَا
ولقدْ علمتُ بأنَّ دِينَ محمَّدٍ،
مِنْ خيرِ أديانِ البريَّةِ دِينَا(١)

وليس لنا أنْ نمرَّ بهذه الأبيات الأربعة، دون أنْ نُعيرها نظرةً فاحصةً... فهذه الأبيات صورةٌ رائعةٌ زاهية الألوان، بارزة الخطوط، تعرض لنا إيمان أبي طالبٍ، في لونه الثّابت، وخطوطه البارزة، دون أنْ تمتدَّ إليه يدٌ بزيفٍ، أو غرضٌ بتشويهٍ...

* *

شاء أبو طالبٍ بعد ذاك الحديث، الذي دار بينه وبين قريشٍ، ثم أنهاه إلى سمع ابن أخيه، وقال له قولته تلك، التي أعادتِ الطُّمأنينة إلى قلبه، والسَّكينةَ إلى فؤاده، والهدوءَ إلى نفسه...

---

(١) - الحديديُّ ٣:٣٠٦، والسِّيرة النَّبويَّة ٨٥ و١:١٩٧، وثمرات الأوراق ٢:٤، والعبَّاس ٢٢، ٢٣، وهاشم وأُميَّة ١٦٧، والكشَّاف ١:٤٤٨ (٢:١٠)، وتذكرة الخواصِّ٩، ومعجم القبور ١:١٨٦، والمناقب ٣٤، وديوان أبي طالبٍ٧،،أعيان الشّيعة ٣٩:١٢٨، والبيت الأوَّل في الحلبيَّة ١:٣٢٢، والأخيران في الإصابة ٤:١١٦.

وأُسندت في الحجَّة -٦٣- إلى مصادر عدَّةٍ، وفي شيخ الأبطح -٢٧- مسندةٌ لعدَّة مصادر، وفي ص٨٨ أيضاً.

وأُرجعت في الغدير ٧:٣٣٤ إلى عدَّة مراجع، وذُكر فيه: أنَّ الثّعلبيَّ -في تفسيره- رواها، وقال: [قد اتّفق على صحَّة نقْل هذه الأبيات عن أبي طالبٍ: مقاتل، وعبدالله بن عبَّاسٍ، والقسم بن محضرة، وعطاء بن دينار].

كما أنَّ البرزنجي عدَّه مِنْ كلام أبي طالبٍ المعروف.

وقد أخرجه البيهقي في الدّلائل -كما يقول شارح الكشَّاف ٢:١٠- مِنْ طريق ابن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة بن مغيرة بن الأخنس.

شاء – بعد كلٍّ هذا، وقدِ انبعثت حنجرته بهذه الأبيات، التي صاغها الضَّمير الحيُّ، والعقل الفاحص، والقلب الحدب...

شاء: أنْ يبدأها بما يُشيع الإطمئنان في نفس ابن أخيه، لِيعلم بأنّه له، اليوم، كما كان له قبل اليوم... إنّه له ذلك النَّصير المجاهد، الذّائد الحدب... وسيكون له – كما كان قبل اليوم – حتى يلقى ربَّه، وقد أعطى الرِّضا مِنْ نفسه، ووفى بالعهد المقطوع، وحفظ وصيَّة الأب في لحظته الأخيرة...

فهو لن يحول، ولن يتخلّى عنه. فما عليه مِنْ جمعهمُ الضَّالِّ... فإنَّهم لن يصلوا إليه، ولن ينالوه، حتى يُوسَّد التُّراب، ويُوارى منه الجسم، ويزول ظلُّه مِنَ الوجود...

والبيت الثّاني: صورةٌ أُخرى لِمَا في البيت الأوَّل، إلاَّ أنه أمره بأنْ يصدع بهذا «الأمر» الذي جاء به. فليس عليه مخافةٌ، ولاغضاضةٌ، ولابأسٌ!، بل إنَّ له للبشرى الباقية، فسوف تقرُّ عيناه بالنَّصر المؤزّر، والخلود الدَّائم.

والبيتان الأخيران، هما الصَّوت الحاكي، والصُّورة النَّاطقة، لإيمانه العميق، واطمئنانه للرِّسالة الأحمديَّة.

ففيهما مِنَ الثّناء والاعتراف، مالا يصدر إلاّ عن مؤمنٍ عميقٍ عميقٍ: إيمان معرفةٍ، ودراسةٍ، وتحليلٍ، لا إيمان تسليمٍ، واستسلامٍ، وإذعانٍ...

وتجد ذلك ظاهراً، في الرَّابع مِنَ الأبيات، وهو: مفتاحٌ يُوصلنا إلى أنَّ أبا طالبٍ، كان لديه اطّلاعٌ، ولديه درايةٌ بالأديان، التي سبقت دِين ابن أخيه.

ولذلك، بهذه الإحاطة، والدراية، والإطّلاع، استطاع أنْ يُوازن، ويُرجِّح، ويحكم... فبها عرف: أنَّ دِين محمَّدٍ، هو خير أديان البريَّة...

وليست هذه الحشوة – «مِنْ» – بالتي تجيءُ، أو تنطلق مِنْ حنجرة أبي طالبٍ، لولا الضَّرورة الشِّعريَّة، التي حتمت بها، لِيكون الوزن صحيحاً...

وكثيراً مااضَّطرتِ الضَّرورةُ هؤلاء الشُّعراء، «لأنْ يروا حسناً ماليس بالحسنِ» – كما يقول أحدهم!.

* *

ولكن الأغراض الخالقة، والشَّهوات الرَّاجفة، ماكانت لِتمرَّ بهذه الأبيات - وهي سلاحٌ ماضٍ، وسيفٌ قاطعٌ، يفتُّ دعاواهمُ الباطلة وأراجيفهمُ المغرضة، التي وُضعَت في حقِّ شيخ بني هاشم، لِتنال مِنْ ناصع حياته، وعظيم بلائه، ورفيع قدره، وفذِّ جهاده...

إنَّ هذه الأغراض السَّوداء ماكانت لِتمرَّ بهذه الأبيات - وهي هي، في صريح اعترافها، وهي هي، الصُّورة النَّاطقة للإيمان الوطيد، والاعتراف السَّافر، الذي يفضح كلَّ غرضٍ، ويُجهز على كلِّ فريةٍ...

أقول: ماكان لهذه الأغراض العابثة أنْ تمرَّ بها، دون أنْ تمتدَّ منها يدٌ إليها بتشويهٍ، وتُضيف إليها مايُنيلها المطمع، ويُرضي سفال الضَّمير... فراحت تُضيف إليها بيتاً خامساً، ظنَّته يُشوِّه صفاء الصُّورة، مِنْ لألاء الإيمان، وألَق الاعتراف:

لولاَ الملامةُ، أوْ حذاريَ سبَّةً
لَوَجدتَنِي، سمحاً -بذاكَ- مبيناً!

وإنَّك لتجد الهوَّة السَّحيقة، بين هذا البيت، والأربعة التي قرأت... الهوَّة السَّحيقة، بينه وبينها، في الأداء الفنِّي، وقوَّة الشَّاعريَّة، والإنسجام...

وهذا السيِّد أحمد زيني دحلان، يقول حوله:

[فقيل: إنَّ هذا البيت موضوعٌ، أدخلوه في شعر أبي طالبٍ، وليس مِنْ كلامه](١).

---

(١) - ص٣٣٤:٧ مِنَ الغدير، مسنداً إلى ص١٤ مِنْ «أسنى المطالب» غير أنه شاء أنْ يجاريَ المغرضين، فذكر البيت، عند ذكره لتلك الأبيات، في كتابه «السِّيرة النَّبويَّة»!.

ويظهر: أنَّ هناك تناقضاً -بين الكتابين- كثيراً.

فالسِّيرة حارى فيها، واتَّبع قول المغرضين.

أمَّا «أسنى المطالب» -كما قرأتُ عنه، وقرأتُ منه، في مانُقل عنه(*)- فجهر فيه بالقول الحقِّ...

(*) وقفنا عليه، بعدئذٍ... وضمَّته مكتبتنا... والحمد لله!.

ونحن لو جارينا أصحاب هذه الأغراض السُّود، وسلّمنا معهم بأنَّ هذا البيت، قد قاله أبو طالبٍ - وهو لم يقلْه - فإنّه لايُنيلهم غرضهم، ولم يُشبع مطمعهُم النّهم... فقد طاش سهمهم، ولم يُصب مرماه...

فمعنى البيت: أنّه لولا مايخشاه مِنَ اللّوم، ويحذره مِنَ المسبَّة، لوجده جاهراً بقبول الدَّعوة، مبيناً إيمانه على الملأ مِنْ قريشٍ، غير كاتمٍ.

ومعنى «بَانَ» - في اللُّغة: أتّضح وظهر، وأبان الشَّيء: أوضحه، فهو «مبينٌ» - أيْ: مظهرٌ...(١)

وهذا لايعني: أنّه لولا مايخشاه، لكان ذلك المؤْمِنَ المصدِّق... فإنَّ هذا معنىً لايحمل شيئاً منه هذا البيت المخلوق...

ثم لو كان يحمل شيئاً منه، لكان مِنَ التّناقض بمكانٍ، بعد البيتين السَّابقين: «ودعوتَنِيْ...»، و«لقدْ علمتُ...»، فإنّه بعد ذلك الاعتراف والتّصديق، لايجوز أنْ يصدر مِنْ عاقلٍ، مايُناقضه، أو ينفيه...!

وهذا التّهافت المعنويُّ إضافةً إلى التّهافت الشّعريِّ - وهذا التّناقض الفاضح، بين: معنى البيت - لو حملناه على غير محمله - والأبيات التي سبقته...

إنَّ هذا... لايصدر، إلاَّ مِمَّنْ خُولط في عقله، فلا يدري مايقول، ولايعرف ماينطق...

وحتى الآن، لم يذكر أحدٌ أبا طالبٍ - حتى هؤلاء المغرضون - إلاَّ بحدَّة الذّكاء، وقوَّة العارضة، وبلاغة اللّسان، وقوَّة الحجَّة، ومتانة المنطق...

* *

عرفت قريشٌ موقف أبي طالبٍ، مِنَ الرِّسالة الجديدة، ومِنْ رسولها العظيم... وساءها أنْ يقف أبو طالبٍ، هذا الموقف الجريء الصُّلب، وساءها: أنْ لاتنجح محاولاتها هذه، وتعود بالإخفاق والفشل...

---

(١) - فإظهار الشيء، إنّما يتعلّق بالموجود، وإلاّ... فكيف يُظهر المعدوم...؟
إذن... يتعيَّن أنْ تكون الإبانة عمَّا هو موجودٌ، وغير معلومٍ، لدى قريشٍ، فهم لايعلمون إيمانه المكتوم.

أرادت منه: أنْ يكفَّ محمَّداً، عن ذكْر آلهتهم وعيبها، فما كفَّ، وماهادن...

ثم أرادوه: أنْ يفسح المجال بينهم وبينه، لِينالوا منه مايُرضيهم، أوْ لاَ... فـإنَّهم يُعلنونها عليه حرباً داميةً...

ولكنّهم رأوه: يُشجِّعه في بثّ رسالته، ونشرها، والدَّعوة إليها، ويأمره بذلـك، ويعِده النُّصرة، والجهاد، والدِّفاع...

ووجدوا – بعد ذلك – منفـذاً آخر، هـو – في رأيهـم – آخر مـايرجون... وهاهم أُولاء يأخذون طريقهم إليه، وقـد مشـوا إليـه بعمـارة بـن الوليـد، حتـى إذا جاءوه، قالوا له:

[يا أبا طالبٍ! هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتىً في قريشٍ، وأشعره، وأجمله، فخذه... فلك عقله ونصرته، واتَّخذه ولداً، فهو لك... وأسلم لنا ابن أخيك، هذا الذي قد خالف دِينك، ودِين آبائك، وفرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتلـه، فإنما رجلٌ كرجلٍ..!].

لو كان أبو طـالبٍ، لايعرف للمواقـف حقَّهـا، لكـان لـه – بعـد هـذه القولـة المضحكة – صدى قهقهةٍ عاليةٍ، تُدوِّي بعيـداً، وتـرنُّ حاملـةً كـلَّ معـاني الاحتقـار والاستخفاف، بسخف هذه القولة المنحطَّة...

ولكنه لم يزد على هذه القولة، وقدِ انطلقت مِنْ فيه، هادئةً ساخرةً:

[وا لله! لبئس ماتسومونني!. أتُعطونـي ابنكـم أغـذوه
لكم...! وأُعطيم ابني تقتلونه...؟!
هذا وا لله! – مالا يكون أبداً...!].

حقّاً! إنَّـه لسـخفٌ مـابعده سـخفٌ! وانحطـاطٌ فكـريٌّ، ليـس يعدلـه انحطـاطٌ!، وحيفٌ مِنْ طرازٍ فذٍّ، لم يُرَ له مايُماثله...! إنَّ دلَّ على شيءٍ، فعلـى: انعـدام القيـم، وفجاجة الرَّأي، وتلاشي الفكر، وحيْف الميزان.

وسمع المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف – وهو مِنْ أحلافه – يقول:

[وا لله! - يا أبا طالبٍ! - لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التّخلّص ممّا تكرهه... فما أراك تُريد: أنْ تقبل منهم شيئاً...!].

فأجابه أبو طالبٍ:

[وا لله! ماأنصفونيْ..! ولكنّكَ قد جمعتَ خذلاني،
ومظاهرة القوم عليَّ، فاصنع مابدا لك...!(١).

* *

وقد نظمَ أبو طالبٍ قصيدةً، عرَّض فيها بالمطعم بن عدي، على خذلانه إيّاه!. ثم عمَّم بها مَنْ خذله، مِنْ عبد مناف، ومَنْ نصب له العداء، مِنْ قريشٍ:

ألاَ قَلْ لعمروٍ، والوليدِ، ومطعمٍ:
ألاَ ليتَ حظّيْ مِنْ حياطتِكُمْ بكرُ(٢)
مِنَ الخورِ حبحابٌ، كثيرٌ رغاؤُهُ
يرشُّ على السَّاقينِ مِنْ بولِهِ قطْرُ(٣)
تخلَّفَ خلْفَ الوردِ ليسَ بلاحقٍ
إذاَ مَا علاَ الفيفاءَ، قيلَ لهُ: وبرُ(٤)
أرى أخوينَا مِنْ أبينَا وأُمِّنَا
إذا سُئلاَ، قالاَ: إلى غيرِنَا الأمرُ!

---

(١) - الطّبريُّ ٢:٦٧ -والعبارة ممَّا بين القوسين عنه- والسِّيرة الحلبيَّة ١:٣٢٣، والنّبويَّة ١:١٩٧، والهشاميَّة ١:٢٨٦، والحديديُّ ٣:٣٠٦، وأبو طالبٍ ٦١، ٦٣، والبحار ٦:٤٤٦، وتذكرة الخواصِّ والغدير ٧:٣٦٠ مسندةً لمصادر عدَّةٍ، والأعيان ٣٩:١٢٩.

(٢) - البكر: الفتيُّ مِنَ الإبل

(٣) - الخور: الضّعف. الحبحاب: القصير، الدّميم، السّيء الخُلُق. ويُروى: «حبجابٌ»، ومعناه: الكثير، غير أنَّ هذا لايُمكن، مادامت بعدها «كثيرٌ رغاؤُه». ويُروى «خبخابٌ»، بمعنى الهزيل. غير أنَّ الأقرب للمعني هو: «حبحابٌ»، كما في الأصل.

(٤) - الفيفاء: المفازة لاماء فيها. الوبر: دويبةٌ، تشبه السِّنَّور، وهي دونه.

بلــى! همَـا أمـرٌ، ولكــنْ تجرجَمَــا
كمَا جرجمَتْ مِنْ رأسِ ذيْ علـقٍ صخـرُ[1]
أخـصُّ خصوصـاً: عبـدَ شمــسٍ، ونوفــلاً،
همَـا نبذانَـا، مثـلَ مَــا يُنبـذُ الجمــرُ
همَـا أغمـــزَا للقـــومِ فيْ أخويهمَـــا،
فقـدْ أصبحَـا - منهــمْ - أكفُّهُـمُ صفــرُ
همَـا أشـركَا فيْ المجـدِ، مـنْ لاَ أبـاً لــهُ
مِـنِ النَّــاسِ إلاَّ أنْ يــرسَّ لــهُ ذكــرُ[2]
وتيــمٌ، ومخـــزومٌ، وزهــرةُ، منهُــمُ
وكــانُوْا لنَــا مــولىً، إذَا بُــغيَ النَّصــرُ
فــوا اللهِ لاتنفكُّــكَ منَّــا عـــداوةٌ،
ولاَ منْهُـمُ، مَـا كـانَ مِــنْ نسـلِنَا شـفرُ[3]
فقــدْ ســفهتْ أحلامُهُـــمْ وعقولُهُـــمْ
وكانُوْا كجفـرٍ، بئـسَ مَـا صنعـتْ جفـرُ!
ومَــا ذاكَ.. إلاَّ ســؤددٌ خصَّنَـــا بـــهِ
إلــهُ العبــادِ، واصطفانَــا لــهُ الفخــرُ[4]

---

(١) - تجرجم: سقط وانحدر. وذو علقٍ: جبلٌ لبني أسد، لهم فيه يومٌ على ربيعة بن مالك.

(٢) - رسَّ الحديث، حدَّث به في إسرار.

(٣) - يُقال: ليس هنا شفرٌ -أيْ: ليس هنا أحدٌ.

(٤) - ذكرها ابن هشامٍ -في سيرته ص٢٨٦:١- عدا هذه الأبيات الثّلاثة، وقال: تركنا منها بيتين أقذع فيهما.

وذكرها الأمينيُّ -في الغدير ص٣٦١:٧- وذكر قول ابن هشامٍ، وعقَّب عليه:

حذف ابن هشامٍ منها ثلاثة أبياتٍ، لاتخفى على أحدٍ غايته الوحيدة...الخ.

وذكر -بعدُ- هذه الثلاثة.

رجـــالٌ تمـــالَوْا حاســـدينَ، وبغضـــةً
لأهـلِ العلـى، فبينهـمُ - أبـداً - وتـرُ
«وليـــدٌ» أبـــوهُ، كـــانَ عبـــداً لجدِّنـــا
إلى علجــةٍ زرقــاءَ حــالَ بهَــا الســحرُ(١)

* *

رأى أبو طالبٍ - وقد أعلن رأيه للملإِ مِنْ قريشٍ، وعرفوا موقفه تجاههم - أنْ يتدرَّع، ويستعدَّ للطوارىء، التي تُواجهه بها قريشٌ - بعد ماعرفوا رأيه - فلـم يـرَ غير بني هاشمٍ، وبني المطَّلب: سيفاً صقيل الحدِّ، رهيف المِجسِّ، يعترض به كلَّ مَـنْ رامه بسوءٍ.

فدعاهم إلى أنْ يقوموا بجانبه، في الذَّود عنِ الدِّين الجديد، بحماية ومنْعِ صاحب الرِّسالة، مِنْ عتاة قريشٍ، والقيام دونه في وجوههم، إنْ بدت منهم للشَّرِّ طلائعُ...

فكانوا له عند طلبه، لم يشذَّ بينهم، إلاّ ذلك الأخ الضَّالُ، أبو لهبٍ المنكود...!

ويرى أبو طالبٍ منهم: مواقف مشرِّفةً، فيشيع السُّرور في ملامحـه، حتى يثلـج منه القلب، ويقرَّ الفكر، وتهدأ الخواطر، فهو في مأمنٍ... فليـس يخشـى شرّاً علـى الرَّسول، مِنْ مريديه بالشَّرِّ...

وليس يلبث، حتى يُقابل هؤلاء بالشُّكر الموفور، والثَّناء العطر، يشكر لهـم موقفهم، ويُثني على عملهم البارِّ، مّما يكون لهم حافزاً ومشجِّعاً، وينظم هذا الشُّكر في بضعة أبياتٍ، لِتلهج بها الألسن، وتهزج بها الشِّفاه، وتتناقلها الأفواه، وتتلقَّفهـا الأسماع...

---

(١) - يُريد بوليدٍ: الوليد بن المغيرة، الذي كان أبوه عبداً لجدِّه.

كان الوليد هذا، مِنَ المستهزئين بالرَّسول «ص»، وهو مِنْ بين الذين مشوا إلى أبي طالبٍ، مع مَنْ مشى منْ قريش بشأن الرَّسول. وهو الذي عناه الله تعالى، في قوله:

﴿ذَرْنِي ومَنْ خَلَقْتُ وَحيداً﴾

فقد كان يُسمّى: الوحيد.

ولابدَّ له - وهو يذكر قديم هؤلاء، ويُثني على عملهمُ الحميد - لابدَّ له في هذا المعرض أنْ يذكر محمَّداً، الذي كان له مِنْ هذا الشَّرف أعمقه، وأبعده جذوراً، وجاء بجلائل الأعمال، ممّا لم يسبقه إليه سابقٌ، ولايُدانيه عملٌ:

إذا اجتمعتْ - يوماً - قريشٌ لمفخرٍ
فعبدُ منافٍ سرُّهَا وصميمُهَا(١)
فإنْ حصلتْ أشرافُ عبدِ منافِهَا
ففيْ هاشمٍ أشرافُهَا وقديمُهَا
وإنْ فخرتْ - يوماً - فإنَّ محمَّداً
هوَ المصطفى - مِنْ سرِّها - وكريمُهَا
تدعَّتْ قريشٌ - غثُّهَا وسمينُهَا -
علينَا... فلمْ تظفرْ، وطاشتْ حلومُهَا(٢)
وكنّا - قديماً لانقرُّ ظلامةً
إذا ماثَنَوا صعرَ الخدودِ، نُقيمُهَا(٣)
ونحمِيْ حماهَا - كلَّ يومِ كريهةٍ -
ونضربُ عنْ أحجارهَا مَنْ يرومُهَا
بنَا انتعشَ العودُ الذَّواءُ، وإنَّمَا
بأكنافِنَا تندى، وتنمى أُرومُهَا(٤)

---

(١) - السرُّ: خالص الشَّيء، أطيبه وأفضله. وهو مِنْ صميم القوم، أيْ: مِنْ أصلهم وخالصهم.

(٢) - تدعَّت -هنا بمعنى: اندفعت بشدَّةٍ وعنفٍ وجفوةٍ. طاش: ذهب عقله.

(٣) - ثنى الشَّيء: عَطَفَهُ. صعَّر خدَّه: أماله عنِ النَّظر إلى النَّاس تهاوناً، وكبراً.

(٤) - انتعش: نشط. ذوي النَّبات: ذبل ونشف ماؤُه. الكنف: الجانب، الظِّلُّ. وكنف الإنسان: حضنه، أوِ العضدان والصَّدر. الأرومة: الأصل.

تجد القصيدة في السِّيرة الهشاميَّة ١:٢٨٨

وذُكرت الثلاثة الأُوَل في النَّبوية ١:٢٠، والحلبيَّة ١:٣٣

قويت شوكة الرّسول، فبعدتِ الشُقّة، بين الهاشميِّين والمطّلبيِّين، وبين قريشٍ.

وصار أبو طالبٍ يحذر قريشاً على الرّسول، أشدَّ مِنْ ذي قبل، فصار يحوطه بعنايته، ويخاف عليه الطوارىء فلا يكاد يبعد عن عينيه، لئلاّ يبعث فيه هذا البعدُ: القلقَ، والرُّعبَ، والإضْطراب...فتنتابه الأوهام، وتنوشه الظُّنون...

افتقد أبو طالبٍ ابن أخيه – مرَّةً – وبحث عنه، فلم يجده، فثار به القلق، وعصف به الخوف، وعلَتْ وجهَه خطوطٌ باهتةٌ، هي مزيجٌ مِنَ: الحزن، والإضْطراب، والخوف، والعزم، والمضاء، للثّأرِ والإنتقام... هي مزيجٌ مِنْ هذا كلّه... – ولاسيَّما وقد وصل إلى سمعه بأنَّ قريشاً تنوي اغتيال محمَّدٍ، لتجتثّ الدَّعوةَ مِنْ أبعد جذورها...

هناك... دعا إليه فتيان هاشم والمطّلب، وأمر كلاًّ منهم أنْ يُخبِّيء تحت ثيابه سلاحاً حديد الشَّفرة، ماضي الحدِّ، لايخون عند الضِّراب... وأمرهم أنْ يقف كلُّ واحدٍ منهم، عند زعيمٍ مِنْ رجال قريش، وجعل بينهم وبينه شارةً... فإنْ هو يئس مِنْ وجود محمَّدٍ، فإنَّ دمه لايمضي هدراً، وليس يعدل دمَه المسفوح، حتى دمُ هؤلاء العتاة كلّهم...

فعليهم – إنْ نفذ القضاء في محمَّدٍ – أنْ يأتوا على هؤلاء، في لحظةٍ واحدةٍ. فلكلِّ رجلٍ أعزل منهم، رجلٌ بيده بتّارٌ صقيلٌ. فليس – ثمّة – منجاةٌ مِنَ الإنتقام الصّارخ، وليس لهم محيصٌ، مِنْ جرْع صاب الموت، مِنْ هذا الحدِّ الماضي، النّاصع البياض...

⟹ وذُكرت في الحجَّة ٧٩، ٨٠ –عدا البيتين الأخيرين– مسندةً إلى: كنز الفوائد لأبي الفتح الكراجكيِّ، ومتشابه القرآن لابن شهراشوب.

وذُكرت أبياتُها الأربعة الأُولى –باختلافٍ في كلماتها– في الأعيان ١٤٨:٣٩.

وذُكرت في الغدير –ص٣٦٢، ٧:٣٦٣– مسندةً لعديدٍ مِنَ المصادر.

وذكر لصاحب «أسنى المطالب» قولةً، حول هذه الأبيات، هي:

[هذه الأبيات مِنْ غرر مدائح أبي طالبٍ للنّبيِّ صلّى الله عليه «وآله» وسلّم، الدّالّة على تصديقه].

وذُكرت في شيخ الأبطح ٣٧ –مسندةً– وقد ذكر هذه القولة أيضاً.

وكلٌّ ذهب نحو غايته... فهؤلاء الفتية، قد أخذوا مكانهم، حيث أراد الشَّيخ... وهو قد ذهب، إلى حيث يبحث عنِ ابن أخيه، في مظانّه...

وإذا وجدوه في خيرٍ، لم تمتدَّ له يدٌ بسوءٍ، أخذه بيده، فوقف به على رؤوس الملإِ مِنْ قريشٍ، صارخاً بهم:

«يامعشرَ قريشٍ! هل تدرون ماهممتُ به...؟»

فقصَّ عليهم عزمه، وأمر فتيانه: أنْ يكشفوا لهم عن سلاحهمُ المخبوء، لِيتحدَّاهم ويدلَّهم على مدى قوَّته، فيهابوه. فبان الانكسار في وجوههم، وكان أشَّده وضوحاً، في وجه أبي الجهل العتي...!

وقال لهم:

«وا للهِ! لو قتلتموهُ مابقيتُ منكم أحداً، حتى نتفانى نحنُ وأنتم»[1]

ثم ينظم أبو طالبٍ أبياتاً، يُطري فيها ابن أخيه، بعد أنْ يُشنّع على قريشٍ موقفَها، ويُعلن لها بأنَّه لمحمَّدٍ وآله، ذلك الرَّاعي الحفيظ، الذي يكنُّ له الودَّ، مابين طوايا ضميره، وحنايا صدره، فما هو بقطَّاعٍ للرَّحم:

ألاَ أبلغْ قريشاً، حيثُ حلَّتْ
وكلُّ سرائرٍ منهَا غرورُ
فإنّيْ والضَّوابحِ عادياتٍ
وماتتلوْ السَّفاسرةُ الشهورُ[2]

---

(١) – ذُكرت هذه الحادثة في الحجَّة ٦١، وفي الغدير ٧:٣٥٢، ٣٤٩ بألفاظٍ ثلاثةٍ. ثالثها: لفظ كتاب الحجَّة. وبين الثَّلاثة بعض اختلافٍ، في خطوط الحادثة.

وذُكرت في شيخ الأبطح ٢٦، ٢٧، وذُكرت -في صورةٍ أُخرى- في إثبات الوصيَّة ٩٦ وذُكرت في أبو طالبٍ ٦٧، ٦٨.

(٢) – يُروى: «فإنّي والسَّوابح كلَّ يومٍ»، و«فإنّي والضَّوابح كلَّ يومٍ»، والسَّفاسرة – جمع سفسير، وهو: القيم بالأمر، المصلح له، العالم بالأصوات، الرَّجل الظَّريف، الحدَّاد الماهر -الخ- ولكن العلاَّمة الأمينيَّ، ذكر أنَّها أصحاب الأسفار: الكتُب. والشُّهور -جمع شهرٍ- هي العلماء.

لآلِ محمَّــــــــدٍ راعٍ حفيــــــــظٌ...
ووِدُّ الصَّـــــدرِ منِّــــيْ والضَّمـــــيرُ

فلســـتُ بقـــاطعٍ رحِمِـــيْ وولـــدِي
ولـــوْ جـــرَّتْ مظالِمَهَـــا الجـــزورُ

أيـــأمرُ جمْعُهُـــمْ أبنـــاءَ فهـــرٍ
بقتْـــلِ محمَّـــدٍ...؟ والأمـــرُ زورُ

فـــلاَ – وأبيـــكَ!– لاَظفـــرتْ قريـــشٌ
ولاأمَّـــتْ رشـــاداً، إذْ تُشـــيرُ

بُـــنيُّ أخـــيْ، ونـــوطُ القلـــبِ منِّـــيْ،
وأبيـــضُ، مـــاؤُهُ غـــدِقٌ كثـــيرُ

ويشـــربُ بعـــدَهُ الولـــدانُ ريّـــاً
وأحمـــدُ قـــدْ تضمَّنَـــهُ القبـــورُ

أيَا ابـــنَ الأنـــفِ – أنـــفِ بـــنيْ قُصـــيٍّ–
كـــأنَّ جبينَـــكَ القمـــرُ المنـــيرُ(١)

* *

وهناك حادثةٌ أُخرى، بدا فيها أبو طـالبٍ: صـوَّالاً على قريشٍ، مدلاً عليهم بقوَّته، متحدِّياً لهم في فعالهمُ الدون، يردُّ عليهم بأشدَّ وأنكى.

بينما الرَّسول – في أحـد أيامـه – في مناجـاة ربِّـه، قـدِ ارتقى للعـالم العلـويِّ، وغاب في دنيا الرُّوح، فإذا بقريشٍ قد شاءت أنْ تسخر منه، وهـو يـؤدِّي الصَّلاة، فشـاءت أنْ تُفسـد عليه صلاتـه، وعهـدت بهـذه المهمَّـة الـدُّون، إلى عبـدا لله بـن الزِّبعري، وقام هذا بها نشيطاً، وقد أخذ فرثَ ودمَ جزورٍ، فجـاءه –وهـو سـاجدٌ، غائبٌ في العالم الأفضل– فلطَّخه بذلك...

---

(١) – الغدير مسندةً، ص٣٥٠، ٣٥١ ج٧، والأعيان ٣٩:١٤٩.

وليس للرَّسول غير أبي طالبٍ، يفـزع إليـه، ويشـكو إليـه ماينالـه مِـنَ الأذى، لِيدفع عنه الضَّيم، ويأخذ له بحقّه... فاندفع إليه - بعدما انفتل مِنْ صلاته - محزون القلب، دامع العـين، فهـذه الإهانـة أشـدُّ أثراً، وأعمـق أسـىً، مِـنْ ضـربٍ، أو أيِّ أذىً... ففيهـا مِـنْ ألم السُّـخريَّة، والاسـتخفاف، مـايفيض منــه القلـب، بـالألم النَّهاش...!

وقد ساء أبا طالبٍ: مانال ابنَ أخيه!. وعليه أنْ يأخذ منهـم بحقّـه، ويكيـل لهـم الإهانة بصاعٍ طافحٍ...

فاندفع إليهم - وقد أخـذ ابـن أخيـه، ووضـع سـيفه علـى عاتقـه - وخطـوط الغضب بارزةٌ على صفحة وجهه، وسيماء الثّأر ناطقـةٌ، حتـى طلـع علـى القـوم في ناديهم، فراعتهم منه هذه النَّظـرة الغضبى، وحـاولوا الهـربَ مِـنْ وجهـه، لـولا أنْ سمَّرهم في أماكنهم صوتٌ جهيرٌ، انطلقت كلماته مجلجلةً، مِنْ فم الشَّيخ المهيب:

«وا للهِ! لئنْ قامَ رجلٌ جلَّلتهُ بسيفيْ!»(١)

فلصقوا بالأرض، كَمَنْ فقد الإرادة... فدنا منهم، والتفت لابن أخيه:

«يا بنيَّ! مَنِ الفاعلُ بكَ هذَا...؟»

فدلَّه الرَّسول على ابن الزَّبعرى، وأدناه إليه، فوجأ أنفه، ثم مرَّ بالدَّم والفـرث، على القوم، ولطَّخ به وجوههم ولحـاهم وثيـابهم، وأغلـظ لهـمُ القـولَ، وكـال لهـمُ الإهانةَ.

وعاد لابن أخيه، يقول له بلهجة المنتصر، وإدلال القويِّ:

[يا ابنَ أخيْ! أرضيتَ؟

سألتَ مَنْ أنتَ...؟

أنتَ محمَّدٌ بنُ عبدِا للهِ - وسرد النَّسب الشَّريف -

أنتَ، وا للهِ!، أشرفهم حسباً، وأرفعهم منصباً...

---

(١) - جلَّل الشيء: عمَّمه.

يا معشرَ قريشٍ! مَنْ شاءَ منكمْ أنْ يتحرَّكَ، فلْيفعَل...

أنَا الذي تعرفونِيْ](١).

وأردفَ على هذا قوله:

أنـــــتَ النَّـــــبيُّ محمَّـــــدُ
قـــــرْمٌ أغـــــرٌّ، مســـــوَّدُ

لمســـــوَّدِيْنَ أكـــــارمٍ
طـــــابُوْا، وطـــــابَ المولِـــــدُ

نِعْـــــمَ الأُرومـــــةُ أصلُهَـــــا
عمـــــرُوْ الحطيـــــمِ الأوحـــــدُ

هَشَـــــمَ الرَّبيكـــــةَ فِيْ الجفـــــانِ،
وعيـــــشُ مكَّـــــةَ أنكـــــدُ(٢)

فجـــــرتْ بذلـــــكَ ســـــنَّةٌ
فيهَـــــا الخبـــــيزةُ تُـــــثْرَدُ

ولَنـــــا السِّـــــقايةُ للحجيـــــجِ
بهَـــــا يُمـــــاثُ العنجَـــــدُ(٣)

والمأْزمـــــانِ ومَـــــا حـــــوتْ
عرفاتُهَـــــا، والمســـــجدُ(٤)

---

(١) – ذُكرت هذه الحادثة في: الغدير -٧:٣٥٩- وشيخ الأبطح ٢٨، وبينهـا بعض الاختلاف في الخطوط، وقد أخذنا -هنا- النَّسيج، مِنَ الرِّوايتين.

وذُكرت في الحجَّة ١٠٦، ١٠٨، وثمرات الأوراق ٢:٤،٣، وأبو طالبٍ ٦٣، والمناقب ٣٥.

(٢) – هشَم الثَّريد: كسر الخبز، وفتَّه، وبلّه بالمرق، حتى يكون ثريداً، الرَّبيكة: الزُّبدة مختلطةً باللَّبن. الجفان، جمْع جفنةٍ -بفتح أوَّله- القصعة الكبيرة. الأنكد: العسِر، القليل الخير.

(٣) – يُماث: يُذاب. العنجد -بفتح وضمٍّ أوَّله- الزَّبيب، أو قسمٌ خاصٌّ منه، او ذو اللَّون الأسود منه.

(٤) – المأْزمان: مضيقٌ بين: جمْع، وعرفة، وبين: مكَّة، ومنى.

أنّى تُضامُ، ولَمْ أمُتْ،

وأنَا الشُّجاع العِربدُ[1]

وبطاحُ مكَّةَ لاَ يُرى

فيهَا نجيعٌ أسودُ

وبنُو أبيكَ كأنّهُمْ

أُسْدُ العرينِ توقّدُوا؟

ولقدْ عهدتُكَ صادقاً

فيْ القولِ لاَ تتزيَّدُ

مَا زلتَ تنطقُ بالصوابِ

وأنتَ طفلٌ أمردُ[2]

* *

لقدِ افتتح أبو طالبٍ هذه القصيدة، بالاعتراف السَّافر، الذي لايُبقي لمتعنّتٍ سبيلاً، في جدلٍ، أو نقاشٍ...

فما الفرق: بينَ مَنْ يقول: «أشهد أنّ محمَّداً رسول الله» وبين اعترافه السافر: «أنتَ النّبيُّ محمَّدُ»...!؟

إنّ الواقع يصرخ: أنْ لافرق!. فكلاهما إقرارٌ بنبوَّة محمدٍ(ص).

أمَّا الأغراض الدُّون، والقلوب السُّود، والضمائر المعتلّة، فلعلَّ لها منطقاً، غير منطق الواقع الرَّهين...!

وبعد أنِ امتدح أرومته، وذكرَ فعال عمرو وهو: هاشم - الذي سنَّ إطعام الحجيج، في قحل مكّة وجدبها، وفي ذلك العيش الأنكد، ففرشها بالنّماء والرَّخاء،

---

(١) - العربد -بكسر العين، وكسر وفتح الباء- الشَّديد مِنْ كلِّ شيءٍ، وذَكَر الأفاعي.

(٢) - الحديديُّ ٣:٣١٥، والحجَّة ٧٢ -بزيادة بيتٍ- وشيخ الأبطح ٢٨، وهاشم وأُميَّة ١٧٣، ١٧٤، وديوان أبي طالبٍ ١٢، ١٣، والأعيان ٣٩:١٤٣، والغدير ٧:٣٣٦.

وقد قال ابن أبي الحديد -بعد ذكره لها- إنها «مِنْ شعره المشهور».

وقضى على الجذب، ومحا العيش الأنكد... وأراح القلوب الخافقة، وأشبع البطون السَّاغبة، وأروى الحشاشات الملتهبة.

بعد هذا... أبدى نحوه - أيِ: ابن أخيه - عاطفته الرَّؤوم، فإنّه لن يُضام، وهو على رقعة الأرض، يرفُّ له جفنٌ، وتمشي به قدمٌ... وماهو بالجبان الرِّعديد، ومِنْ حوله أُسود العرين، تسحق كلَّ مَنْ تشمُّ منه رائحة سوءٍ، أو مكروهٍ...!

وبعد كلِّ هذا... اختتم قصيدته ببيتين، هما - في اعترافهما السَّافر - كافتتاحها...فكانتِ الفاتحة والخاتمة، مِنْ معدنٍ واحدٍ...

فهو - فيهما - يُصدِّق ابن أخيه في قوله... فإنّه «لَهو الصَّادق الأمين»، لم يرَه يقول غير الحقِّ والصَّواب، منذ نعومة أظفاره: ولم يجده مائلاً عن منهجه الوضَّاح، ولاحائداً عن طريقه الأبلج...

وإنَّ الذي لايقول غير الحقِّ، حتى في دنيَّات الأُمور، لن يقول غير الحقِّ، فيفتري على الله!، وإنَّ الذي لايكذب على مخلوقٍ، لن يكذب على الخلاَّق العظيم...!

فليس هذا، سوىالتّصديق له في رسالته، والاعتراف منه، بأنّها رسالةٌ سماويَّةٌ، لم يتزيَّد فيها محمَّدٌ(ص)، ولم يقل عنها، غير الصواب الثَّابت، والحقُّ الأبلج...

* *

ويجدر بنا: أنْ نُوافي القارىء، بهذين البيتين -أيضاً- وفيهما تصديقٌ بأنَّ مايقوم به محمَّدٌ، هو الحقُّ الجليُّ. وفيهما تشجيعٌ له وتطمينٌ، للمضيِّ في مهمَّته العالية، بعزيمةٍ لاتُغلب.

ويقول الحديديُ قبلهما:

[ومِنْ شعره المشهور -أيضاً- قوله، يخاطب محمَّداً، ويُسكّن جأشه، ويأمره بإظهار الدَّعوة]:

لاَ يمنعنَّــكَ مِــنْ حــقٍّ تقــومُ بــهِ
أيــدٍ تصــولُ، ولاَ ســلْقٌ بــأصواتِ
فــإنَّ كفَّــكَ كفِّــيْ، إنْ مليــتَ بهِــمْ
ودونَ نفسِــكَ نفسِــيْ، فيْ الململمَّــاتِ(١)

إنَّه للفداء العظيم، والجود الذي ليس بعده جودٌ...! فهو يفديه بنفسه، عندما تُلمُّ به الململمَّات...!

وإنَّه لَيطول بنا السَّير، ويتشعَّب القول، لو شئنا أنْ نعرض لشعره، الذي يتعلَّق بهذا الموضوع...! ولكن فلنأْخذ طريقنا، الذي إليه انتهينا.

على أنَّنا سنعرض له، في ثنايا الفصول الآتية، عندما تدعو الحاجة لذلك...

وقد نضع له «فصلاً» خاصّاً، فنعرض فيه لحفنةٍ مِنْ شعره، في هذا الموضوع...

* *

لم يكن أبو طالبٍ، بالذي يبذل النُّصرة لمحمَّدٍ، في شخصه، فحسب، فلم تكن نصرته، في نطاقٍ ضيِّقٍ، في يومٍ مَّا... فهو: نصير الرِّسالة في مهدها، وراعي محمَّدٍ في طفولته...

وإذ هو نصير الرِّسالة ذاتها، فهو نصيرٌ لكلِّ مَـنْ يعتنقهـا... فليـس يرضـى أنْ ينال واحداً ضيمٌ، أو أذىً، بسببها...

وإنَّ له لَصفحاتٍ رائعةَ الإشراق، بارزةَ العنوان، في هذه النُصرة المؤزَّرة...

وليس لنا أنْ نمرَّ بها، دون أنْ نُشير إلى شيءٍ منها:

* *

عذَّب المشركون عثمان بـن مظعـون الجمحـيَّ، وقـدِ استـنار بهـدى الإسـلام، واستجاب لأصـداء الدَّعـوة المحمَّديَّة، ففـارق ظلمـة الشِّـرك، إلى نـور الإيمـان... فشاعت قريشٌ أنْ تفتنه، وتُضلَّه عن لاحب الطَّريق، فعذَّبته، ونالت منه...

---

(١) - الحديديُّ ٣:٣١٥، والغدير ٧:٣٣٨، والحجَّة ٧٤ -بـإبدال «مليـت» بـ«فتكـت»- وأبو طالبٍ ٣٣، وديوان أبي طالبٍ ١١، والأعيان ٣٩:١٥٠

ولايسمع بذلك أبو طالبٍ، حتى يثأر له، مِنْ هذه الوحشيَّة مِنْ قريشٍ، وهذا العداء المستفحل. ثم يقول:

أمِنْ تذكُّرِ دهرٍ، غيرِ مأمونِ
أصبحتَ مكتئباً، تبكي كمحزونِ؟
أمْ مَنْ تذكُّرِ أقوامٍ ذويْ سفهٍ
يغشونَ بالظُّلمِ مَنْ يدعُوْ إلى الدِّينِ؟
ألاَ ترونَ - أذلَّ اللهُ جمعكُمُ -
أنَّا غضبنَا لعثمانَ بنِ مظعونِ؟
ونمنعُ الضَّيمَ، مَنْ يبغيْ مضيمتَنَا
بكلِّ مطَّردٍ - فيْ الكفِّ - مسنونِ
ومرهفاتٍ، كأنَّ الملحَ خالطَهَا
يشفيْ بها الدَّاءَ، مِنْ هامِ المجانينِ
حتَّى تقرَّ رجالٌ لاَ حلومَ لَهَا...
بعدَ الصُّعوبةِ، بالإسماحِ واللّينِ
أوْ تؤمِنُوْا بكتابٍ منزَلٍ عجبٍ
على نبيٍّ كموسَى، أوْ كذِيْ النُّونِ(١)

ماذا يعني - في بيته الأخير - مِنَ الكتاب العجيب، المنزَل على نبيٍّ، كالنَّبيِّ موسى، ويونس؟.

فهل بعد هذا، غير الإيمان بالقرآن الكريم، وأنَّه كتابٌ إلهيٌّ، منزَلٌ على رسولٍ مِنْ رسل الله، الذين اجتبى؟.

وهل بعده مغمزٌ، أو مطعنٌ، في إيمان هذا الشَّيخ، إلاَّ مِنْ عدوٍّ ضالٍّ؟!.

---

(١) - الحديديُّ ٣:٣١٣، والحجَّة ٥٠، والغدير ٧:٣٣٥، وهاشم وأُميَّة ١٦٤، وشيخ الأبطح ٣٠، وفيه زيادةٌ.وديوان أبي طالبٍ ٩، ١٠ -بزيادةٍ- والأعيان ٣٩:٤٢.

ثم إنّه – إلى جانب مايحمل مِنْ سافر الاعتراف – لدليلٌ على ماسبق أنْ ذهبنا إليه – في هذا الفصل – مِنْ أنَّ عند أبي طالبٍ درايةً وإحاطةً بالأديان، التي سبقتِ الشَّريعة المحمَّديَّة، وهي دليلٌ على امتداد الحنيفيَّة البيضاء...

وإلاَّ... فلولا هذه الدِّراية والإحاطة، لَمَا كان يعرض لمثل هذه الأديان.

والمفروض أنه – عند المغرضين – كالجاهليِّين، تتعفَّر منه الجبين، عند أقدام الأصنام – وأستغفر الله!.

ثم لايكفيه هذا، حتى يذكر هذا الدِّين، بصورةٍ يحضُّ فيها المشركين على اتّباعه، والأخذ بهديه... بل جعله مرفأ السَّلامة: فإمَّا المرهفات الحداد، حتى تقرَّ الرجال، التي هي أشباه الرِّجال، ولارجال – كما يقول ابنه الإمام – أوِ الإيمان بهذا الكتاب العجيب...

وصفة القرآن العظيم، بصفة «عجب»، لها نظيرها في القرآن ذاته، وذلك في حكايته عن مؤمني الجنِّ:

﴿إنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً، يَهْدِيْ إلَى الرُّشْدِ، فآمَنَّا بِهِ﴾(١).

* *

عذَّبتْ قريشٌ – في مَنْ عذَّبت مِنَ المسلمين، وأرادت أنْ تصدَّهم عنِ الهدى، وتفتنهم عنِ الدِّين – أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي. ولم يرَ غيرَ أبي طالبٍ مفزعاً، يلجأُ إليه، لِيقيه غواشي قريشٍ وعواديها، فراح يستجير به...

ولاتعلم مخزومٌ بأنَّ أبا طالبٍ، قد أجار صاحبها، حتى تُؤلِّف وفداً مِنْ رجالها، فمشى إليه، قائلاً:

«يا أبا طالبٍ! هبْكَ منعتَ منَّا ابن أخيك محمَّداً... فما بالُك ولصاحبنا تمنعه منا؟!.

---

(١) – الجنُّ: ١.

فكان أنْ أجاب بهذا الجواب:

[إنّه استجارَ بيْ، وهو ابن أُختي - «لأنَّ أُمَّ أبي طالب مخزوميَّةٌ».

وإنْ أنا لم أمنعِ ابنَ أختي، لم أمنعِ ابنَ أخي!].

فيرتفع للّغط صدىً، ويعلو للجدل صوتٌ،ويخشى الوفدُ الفتنة، فيخاف وخيم العاقبة، فيعود فارغ اليد، مغلوباً على أمره، فاشل المسعى(١).

* *

وإذ رأى أبو طالبٍ: أنَّ أبا لهبٍ، قد قال كلمةً - في هذه الحادثة - في جانب أبي طالبٍ، فقد طمع فيه أبو طالبٍ، وراح يدعوه لنصرة الرّسول، وأنْ يقف إلى جانبه، في حماية الدِّين الجديد - كما هو واقفٌ - فراح يدعوه لذلك، في قطعتين، هذه إحداهما:

وإنَّ امــرَءاً أبُــوْ عتيبــةَ عمُّــهُ...

لفــيْ روضــةٍ، مَــا إنْ يُســامَ المظالِمَــا

أقــولُ لــهُ، وأيــنَ منــهُ نصيحتِــي:

أبَــا معتــبٍ! ثبِّــتْ ســوادَكَ قائِمَــا

إلى أن يقول:

كذبتُــمْ - وبيــتِ اللهِ - نُــبزِى محمَّــداً

ولّما ترَوْا يوماً - لدى الشِّــعبِ - قائمَـا(٢)

* *

لم يكن جهاد أبي طالبٍ، محصوراً في دفع العوادي، وحياطة الرَّسول، ورعايته مِنْ سوء قريشٍ، أو أنْ يُجير أحد المعذَّبين مِنَ المسلمين، فيغضب لذلك غضبة اللَّيث المرعِب، وقد تسوَّرت عليه الذّئابُ عرينَه الحصين...

---

(١) - شيخ الأبطح ٢٩، والنَّهج الحديديُّ ٣٠٦، ٣:٣٠٧، والسِّيرة الهشاميَّة ٢:١٠، والنَّبويَّة١:٢٥٦، والأعيان ٣٩:١٣٠.

(٢) - الحديديُّ ٣:٣٠٧، والسِّيرة الهشاميَّة ٢:١١، والحجَّة ١٠٥ -بدون هذا البيت- والغدير ٣٩٣، ٧:٣٩٤.

لم يكن هو هذا فحسب... وإنْ كان هذا هو أوَّل مايرعى الإنتباه...!

ولكن له هناك ناحيةٌ أخرى، لها قيمتها المعنويَّة الفضلى، وإنْ كانت جهاداً صامتاً...

فأبو طالبٍ، داعيةٌ إسلاميَّةٌ، يشيد بكلِّ مأثرةٍ، يراها لصاحب الرِّسالة – تارةً – ويشيد بمنزلة الدِّين، ويرفع مِنْ ذكره – مرَّةً أخرى – ويدعو النَّاس لتصديق الرَّسول، واعتناق هذا الدِّين – في جهةٍ ثالثةٍ – ويُحذِّر قريشاً سوء المغبَّة، إذا هي تمادت سادرةً في غيِّها، غارقةً في جهلها...

إلى آخر ماهنالك، مِنَ النَّواحي المتعدِّدة، التي يعرض لها أبو طالبٍ، وينظم شعراً رفيعاً، تتناقله الألسن، وتلوكه الشِّفاه، وتترنَّم به الحناجر.

كانت الهجرة للحبشة، بعد ماأذاقت قريشٌ مستضعفي المسلمين: ألوانَ العذاب، وأنماطَ الإضِّطهاد، ومريرَ المذلَّة...

وكان في طليعة المهاجرين جعفر بن أبي طالبٍ.

وماكانت هجرة جعفرٍ، تحت تأثير مادعى غيره للهجرة، فهو: عزيز الجانب، مرهوب الشَّوكة... فيكفيه أنْ يكون ابن أبي طالبٍ، لِتهابه قريشٌ، فلا تنال منه مايكره...

ولكن هجرته كانت مِنْ طرازٍ غير هذا: فهي ذات هدفٍ سامٍ، ليكون حافزاً للهجرة، وراعياً للمهاجرين –هناك– وسفيراً بينهم، وبين دِينهم، الذي قضت عليهم القوَّة الجائرة: أنْ يكونوا بعيدين، عن نبعه الرَّويِّ...

ولكن الخسَّة والنَّذالة، وسقوط النَّفس، وعمى الأفئدة، ليس لها أنْ تقف عند حدٍّ...

فما كان مِنْ قريشٍ، إلاَّ أنْ أوفدت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد –كما يُقال– إلى الحبشة، لِيكيدا –تحت أستار الظَّلام– هؤلاء المهاجرين، فيحيكا لهمُ المؤامرات، على نول الخبث، والغدر، والبهتان...! فيخلقا كلَّ فريةٍ، وينتحلا كلَّ

منقصةٍ، لتصل قريشٌ إلى غايتها الدُّون... لولا أنَّ جعفراً - بنفاذ بصيرةٍ، ورجاحة عقلٍ، واتّزان تفكيرٍ، وعمق إيمان - كشف عن وجه هذه المؤامرة، وردَّ سهام المكيدة والبغي، إلى نحر راميها...

وليس مِنْ موضوعنا عرْضُ هذه الحادثة!، ولكن اليراع شاء أنْ يضع مِنَ الحادثة خطوطَها الأُوْلَى - فَمَنْ شاءها، فلْيرجع لها، في مظانّها، مِنْ كُتب التّأْريخ...

ونحن إنما نُريد أنْ نقول: إنَّ أبا طالبٍ، وقد وصلت إليه أصداء هذه المكيدة، بعث للنَّجاشيِّ -ملك الحبشة- أبياتاً، يحضُّ فيها على إكرام جعفرٍ، وأنْ لايُصغي للقول الزُّور، الذي يُلفّقه الأفّاك الأثيم ابن العاص.

وقد جاء في هذه الأبيات:

ألاَ ليتَ شعرِي! كيفَ فيْ النّاسِ جعفرٌ
وعمروٌ، وأعداءُ النَّبيِّ الأقاربُ؟
وهلْ نالَ إحسانُ النَّجاشيِّ جعفراً
وأصحابَهُ، أمْ عاقَ عنْ ذاكَ شاغبُ؟
تعلّمْ - أبيتَ اللّعنَ!- إنّكَ ماجدٌ
كريمٌ، فلاَ يشقى إليكَ المجانبُ
تعلّمْ بأنَّ الله زادكَ بسطةً
وأسبابَ خيرٍ، كلُّها بكَ لازبُ(1)

ولاتصل الأبيات للنَّجاشيِّ، حتى تشيع في جوانبه الغبطة، ويبدو عليه السُّرور العظيم، حيث لم يكن طامعاً، في مدح أبي طالبٍ إيَّاه... ولايرى أحسن مِنْ أنْ

(1) - ذكر الحديديُّ -٢:٣١٤- البيتين الأوَّلين- وقال: «في أبياتٍ كثيرةٍ»- والسِّيرة الهشاميَّة ١:٣٥٧، بزيادة بيتٍ، واختلافٍ يسيرٍ في بعض الألفاظ -والحجَّة ٥٦- مع اختلافٍ يسيرٍ، أيضاً، في الألفاظ- والغدير ٧:٣٣٧، والأعيان: ٣٩:١٤٤، و١٦:٢٧- بزيادة بيتٍ، وبعض الإختلاف- وذُكر البيتان الأوَّلان في هاشم وأُميَّة ١٦٤.

يشكر أبا طالبٍ -على عاطر ثنائه- بإكرام مثوى مَنْ تركوا ديارهم، وهجروا أوطانهم، لِيكونوا بجواره، فزاد في إكرامهم.

ولايعلم أبو طالبٍ بذلك، حتى يبعث إليه أبياتاً، يدعوه فيها للإسلام، وينصاع للدَّعوة، التي جاء بها الرَّسول الأعظم«ص»:

أتعلمُ -مَلْكَ الحبشِ!- أنَّ محمَّداً
نبيٌّ كموسَى، والمسيحِ ابنِ مريمِ(١)
أتَى بالهدَى، مثلَ الذِيْ أتيَا بهِ
فكلٌّ -بأمرِ اللهِ- يهدِيْ ويعصمِ
وإنَّكُمُ تَتْلونَه فِيْ كتابكُمْ
بصدقِ حديثٍ، لا حديثِ التَّرجُّمِ
فلا تجعلُوْا للهِ نِدّاً، وأسلمُوا
فإنَّ طريقَ الحقِّ، ليسَ بمظلمِ
وإنَّكَ ماتأتيكَ منَّا عصابةٌ
لقصدِكَ، إلاَّ أُرجعُوْا بالتَّكرُّمِ(٢)

وهذه الأبيات صورةٌ أُخرى لإيمانه، وبرهانٌ ناطقٌ على أنه «داعيةٌ إسلاميَّةٌ»، يعمل علىنشر الإسلام، واعتناقه ديناً إلهيّاً، وتصديق صاحب الدَّعوة رسولاً مِنَ السَّماء.

وهي -إلى ذلك- برهانٌ آخر، على تلك الإحاطة والدِّراية -كما سبق أنْ أشرنا- لدى أبي طالبٍ، بكتُب السَّماء، ورسالات الله وأنبيائه.

---

(١) - في رواية: «وزيرٌ لموسى...» - ولكنها غير صحيحةٍ.

(٢) - الحجَّة ٥٦، ٥٧، والبحار ٦:٥٢١، وإيمان أبي طالبٍ ١٨، وشيخ الأبطح ٨٧، ٨٨، ومجمع البيان ٧:٣٧ -بدون البيت الأخير- والعبَّاس ٢٢، والغدير ٧:٣٣١، والأعيان ١٦:١٩، عدا البيت الرابع، مع اختلافٍ في بعض الألفاظ.

وهي تصديقٌ شاملٌ لِمَا جاء مِنْ عند الله، واعترافٌ بنبوَّة رسل الله، كلٌّ مِن محمَّدٍ، وعيسى، وموسى. فمحمَّدٌ قد أتى بالهدى، كما سبق أنْ جاء به المسيح والكليم. وليس هذا الهدى -لديهم كلِّهم- سوى هدى الله.

ودعَّم مايقول، بالبيِّنة، التي لايردُّها المخاطَب. فلمَّا كان النَّجاشيُّ مسيحيّاً، فإنه لَيحجُّه بكتابه المقدَّس - الإنجيل- فإنه سوف يجد فيه مايُبشِّر برسولٍ يأتي، «اسمه أحمد».

وهنا... نلمس، جليّاً، إحاطته بالدِّين العيسويِّ.

وبعد ذلك.. يدعوهم لتوحيد الله، وأنْ يُذعنوا للإسلام، بعدما بان لهم سنن النَّهج القويم... فطريق الحقِّ ألحب، ليس بمظلمٍ...!

وإنَّها للصَّفاقة الوقحة، أنْ نقول بعد كلٍّ هذا: إنَّ أبا طالبٍ لم يُسلم، وهو يدعو النَّاس للإسلام، وإنَّه لَيعرف طريق الحقِّ، ويصرخ بأنه «ليسَ بمظلمٍ»، بل مشعٌّ بالنُّور، يدعو إليه السُّراة والضُّلَّال، لِينقذهم مِنَ التِّيه والعمى... دون أنْ يهتدي هو بهداه، ويقتبس مِنْ نوره... بل يتخبَّط -والعياذ بالله- في دياجي الظُّلَم، وغياهب الباطل...

أستغفر الله! فلن يقول ذلك، سوى الصَّفيق الأرعن، والغاوي الضَّال، الذي لايخشى مِنْ قول الزُّور، ولايأثم مِنِ انتحال الباطل.

* *

وهو -إلى هذا الإيمان الوطيد، والمعتقد الرَّسيخ- مؤمنٌ بالمعجزات، مصدِّقٌ لها، لايُخالجه فيها شكٌّ أو ريبٌ... فالإعجاز، لايكون لإنسانٍ، لاتُميِّزه على غيره ميزة النُّبوَّة والعصمة...

وإنَّ الإعجاز، لَيفرض الإيمان، حتى على ضعاف العقول... فكيف بِمَنْ كان مِنَ العقل على اكتمالٍ، وكان مِنَ الأديان على الإحاطة...؟

جاء أبو جهلٍ للرَّسول«ص»، وبيده حجرٌ، وقد عزم أنْ يضربه به، حين مايسجد في صلاته.

ولكن هذا العزم، يذهب بدداً، فلا يستطيع أنْ يُحقّقه، وهذه أصابعه منقبضةٌ على الحجر –ولا ككفِّ البخيل على قبضةٍ مِنَ الذّهب الوهَّاج– فهي لاتُطاوعه في الانبساط...!

فيعود: مهلوع الفؤاد، مرضوض الهمَّة، مخدوش التّفكير!، فالرُّعب قد زلزل منه عزمه، والخوف قد أنبت في عينيه القذى... فلا يُبصر منبسط طريقه، وقد رأى مايُزعزع منه الرُّوع، فحال بينه وبين ماعزم عليه!.

فيقول أبو طالبٍ، وهو يقرأ المستقبل، فيخشىعليهم ماستلد به لهم مقتبل الأيام، إنْ هم أصرُّوا على العناد، وأصمُّوا آذانهم، دون صافي النّداء، وأغلقوا قلوبهم، دون باهر النُّور، ولألاء الحقِّ...

فإنَّ نهايةً ستُحيق بهم، كما كان –قبلهم– قوم صالح، إذ عقروا ناقة الله، فدمدم عليهم ربُّهم بعذابه، وحاق بهم غضبه:

أفيقُوا –بني عمِّنَا!– وانتهُوا
عن الغِيِّ، فيْ بعضِ ذَا المنطقِ
وإلاَّ فإنِّيْ –إذاً– خائفٌ
بوائقَ... فيْ داركُم تلتقِيْ...!
تكونُ لغابركُمْ عِبرةً...
وربِّ المغاربِ والمشرقِ!
كمَا ذاقَ مَنْ كَانَ قبلَكُمْ:
ثمودُ وعادٌ – فمَنْ ذَا بقِيْ؟
غداةَ أتتْهُمْ بهَا صرصرٌ
وناقةُ ذيْ العرشِ، إذْ تستقِي

فحــلَّ عليهِـــمْ -بهَـــا- ســـخطةٌ

مِـــنَ اللهِ، فيْ ضربـــةِ الأزرقِ

غـــداةَ يعـــضُّ بعرقوبهَـــا

حســامٌ -مِـنَ الهنـدِ- ذوْ رونـقِ

وأعجـــبُ مِـــنْ ذاكَ فيْ أمرِكُـــمْ:

عجـــائبُ فيْ الحَجَـــرِ الملصَـــقِ!

بكـــفِّ الـــذيْ قـــامَ فيْ جنبِـــهِ

إلى الصَّـــابرِ الصَّـــادقِ المتَّقـــيْ

فأثبتَـــــــهُ اللهُ فيْ كفِّـــــهِ

علـــى رغـــمِ ذا الخـــائنِ الأحمـــقِ!(١)

وإنّي لأُحسُّ في هذه القصيدة - إلى جانب اللّهجة الصَّادقة، التي ينضح بها كلُّ شعره...

إنّي لأُحس فيها لهجةً راثيةً حانيةً، تبذل النُّصح، وتمحض الخير، وتدلُّ على النُّور، يبعث ذلك: الشَّفقة، والرِّثاء، لِمَنْ سيسدر في غيِّه، ويعمه في ضلاله... فهو يخاف عليه سوء المنقلَب!.

وإنَّها لظاهرةٌ إنسانيَّةٌ سامية، قلَّ أنْ تظفر بها عند إنسانٍ!.

وهو، لِيمُكّن قولته مِنْ قلوبهم، دعَّمها بما نال عاقري ناقة ذي العرش، حين أصرُّوا على العناد، ولم يأبهوا لإنذار نبيِّهم صالح!.

---

(١) - الحجَّة ٦٢ وذكرها الحديديُّ -٣:٣١٤- وقال: «مِنْ جملة أبياتٍ»، فذكر الأوَّلين والرَّابع، وقال: «ومنها»، فذكر الثّلاثة مِنَ الختام، وفيها: «مِنْ خبثه» بدل -«في جنبه»- و«رغمة»، بدلاً مِنْ (رغم ذا).

وذُكرت في الغدير ٣٣٦، ٧:٣٣٧ -باختلافٍ في بعض الكلمات، وزيادة بيتٍ في ختامها- وفي الأعيان ١٤٢، ٣٩:١٤٣.

وذُكر بعضها في ديوان أبي طالبٍ، ص٩، وبعضها في ص١٠.

وإنَّ هؤلاء -إنْ أصرُّوا على العناد- فنهايةٌ، كتلك، ستُحيق بهم!. وهاهي ذي النُّذر، قد أخذت تبدو منها طلائع...!

فهذا الحجر، قد أثبته الله، في كفِّ هذا الخائن الأحمق، الذي شاء أنْ يرمي به الصَّابر، الصَّادق، المتّقي...!

وإنَّها لصفاتٌ يخلعها -على الرَّسول«ص»- إيمانه، ومعتقده، الذي رأى في هذا الإعجاز نذيراً لقومه... -وياهول نذر الله...!!!

الشِّعب والصَّحيفة

أقضَّ مضجع المشركين: أنْ يكون الرَّسول بهذه المنعة، وأنْ تكون دعوته بمثل هذا الانتشار... فقدِ انحاز إليها الكثير، واعتنقها الوفر، مِنْ مختلف: الطَّبقات، والنِّحل، والبلاد; فلاقت: صدىً بعيداً، متجاوباً مرناً، وتعلَّق بها كثيرون... فوقعت مِنْ أفئدتهم في الصَّميم، حتى أنَّهم لَيُؤْثرون الموت، بعد أنْ يذوقوا ألوان العذاب، وأنماط الأذى، وأقسى الألم، وكأنَّهم يتمتَّعون ويلتذُّون...!

فالألم -في هذا السَّبيل- ألذُّ مِنَ النَّعيم!; والهوان أحلى مِنَ الكوثر!; والهاجرة، بلفحها الوهَّاج، أورف مِنَ الظِّلِّ الممتدِّ...!

فليس للسانٍ منهم أنْ ينبس ببنت شفةٍ، تُشعر المشركين بأنه حاد عن دِين ا لله القويم، وصراطه الألحب!.

وإنَّهم لَيبرحون ديارهم، ويهجرون أوطانهم، ويقلون أحبابهم، في سبيل أنْ ينجوا بأنفسهم، وهم في سلامةٍ مِنْ دِينهم!.

وقفت قريشٌ تتداول الرَّأْي، وتعمل الفكَر، وتبتدع الحيل، وتبحث عنِ المكايد...

ماذا عساها أنْ تعمل، لِتُلملم مِنْ بساط هذه الرِّسالة المنشور، وتُلاشيَ مِنْ صداها البعيد، العميق الجهير، الذي لم يكد يرنُّ، حتىجاوبته القلوب، وأرهفت إليه الأسماع...!

إنَّ كلَّ الحيل، التي انتهجتها، لم تُجدِها نفعاً، ولم تُنلْها الغاية المرتجاة، ولم تُشبع شهوتها الصَّارخة... فوحشيَّتها على نهمها السَّعَّار، وخوفها وقلقها على مصائر آلهتها، التي تعبد، تقضُّ عليها المضاجع، وتنبو بها عنِ الرُّقاد...

أمَّا خوفها على انفلات زِمام الزَّعامة، والتَّحكُّم في مصائر النَّاس، وسومهم الخسف والوبال -فهذا مايبرز في طليعة الأمور، التي تدعوها أنْ تُفكِّر، وتُعمل الرَّأْي...!

إنّها قد سعت لإخمادِ هـذه الجذوة، وبعْدُ لم يمتـدَّ لها لهيبٌ... وإخفـات هـذا الصَّوت، وقـد كـان همسـاً ناعمـاً... وكسْـرِ هـذا الأُملـود، وبعـدُ لم تصلـب لـه قشرةٌ... ولكنها عادت بخفيٍّ حنين، صفر اليديـن، خاويـة الوفـاض... فمحمَّـدٌ – بعمِّه ورجاله– في حصنٍ منيعٍ، وكهف لاتدنو منه الأعاصير.

ولو أنّها امتدَّت يدٌ منها، لِتُخمد في محمَّدٍ جذوة الحياة، وتسفك منه الدَّم على شفرات المواضي –فإنّها سوف تجني مِنْ ذلك الوبال... فسوف تنبت مِنْ كلِّ قطرةٍ مِنْ دمه، سيوفٌ تجتثُّ جذورهم...!

فواجب الأخذ بالثّأْر، سـوف ينبِّـه الدَّفـائن، ويُثير الكوامـن، ويشـحذ الهمـم، ويصقل المواضي...

وهو –إلى ذلـك– سـوف ترتـوي دعوتـه مِـنْ دمـه، وإنَّ لهـا في نفـوس بعـض أصحابه لأقدس وأرفع منزلةً، فسوف يُذيعها بين النّاس، فتكون أسرع انتشـاراً، إذ سيُرافقها قصَّة دمٍ مفسوكٍ، بأيدٍ أثيمةٍ، عشى أعينها هذا النُّور الجديد.

وإنّها قد قاومت أصحابه، وفتنتهـم، وصدَّتهـم فوجـدت نفسـها أمـام حديـدٍ، لايُفلُّ، وأمام صخرٍ لايُفتُّ، وأمام طودٍ لايتزعزع...

فما العذاب والإضِّطهاد، بـالذي يـردُّ مؤمنـاً عـن إيمانـه، أو يفـتن مسـلماً عـن إسلامه... بل إنَّ كلَّ ذلك لممَّا يُمكِّن للدَّعوة في القلوب، ويُرسِّخها في الضَّمائر – ولاسيَّما أنَّ هؤلاء مشوقون إلى روائح الجنَّة، ونعيمها الدَّائم، لِينالوا فيهـا درجـات الشُّهداء الصَّابرين.

إذن... فماذا تعمل، ولاترى سبيلاً للعمل المثمر؟!.

وفي عتيِّ الحيرة، وفي أحرج المواقف، وفي أشدِّها أزمةً، انفرجت شفةٌ مِـنْ أحـد الأبالسة، وكأنه فحيح الأفاعي، فقدِ اهتدى لمحلٍّ يُرضي الحقد الثّائر، وطريقٍ يصل بهم للهدف المنشود، ويُنيلهم البغية الحلوة، والرَّجاء الخميل...

عليهم أنْ يضربوا نطاقاً مِنَ «الحصار السِّـلميِّ» –الحصـار الاقتصـادي– علـى هؤلاء الذين يحمون محمَّداً.

عليهم أنْ يشنُّوها حرباً باردةً، لِينجوا فيها مِنَ الضَّحايا والخسائر، ويقع كل ذلك، على عدوِّهم وحدهم!. ولابدَّ أن يستسلم هؤلاء... فيردعوا صاحبهم عن دعوته، أو يُسلموه إليهم: ضحيَّةً رخيصةً، وفريسةً سهلة الاصطياد، بخيسة الثَّمن.

حينذاك... كتبوا صحيفةً، كان مِنْ بنودها، أنْ يكونوا يداً واحدةً، على بني هاشم والمطَّلب، وحرباً عليهم لايهادنونهم، فلا يتناكحون وإيَّاهم، ولايبيعون إليهم، ولايبتاعون منهم، ولايقبلون منهم صلحاً أبداً -إنْ أرادوه- وأنْ ينفذوا هذا الشَّرط، بدون رأفةٍ، أو رحمةٍ بهم...

وليس يثنيهم عن عهدهم هذا، إلاَّ أنْ يُسلِّموا إليهم محمَّداً، ويُخلوا السَّبيل بينهم وبينه!. فحينذاك، يرفعون عنهم هذا الحصار، وتعود لهم الحياة رويَّة، كما كانت في سابق عهدها.

وختموا الصَّحيفة – وقد تعاهدوا على تنفيذ ماجاءت به، وجعلوا نسخةً منها، معلَّقةً في الكعبة.

وكان ذلك في هلال المحرَّم، بعد سبعٍ مِنَ السِّنين، على البعثة.

* *

ماكاد يمسُّ طبلة أُذن أبي طالبٍ، ماعزمت عليه قريشٌ مِنْ قطيعةٍ آثمةٍ، وعملٍ وحشيٍّ، يدلُّ على سفالة ضميرٍ، واسوداد قلبٍ، حتى نبض شعوره بشعرٍ، نعى فيه على قريشٍ ماعزمت عليه مِنْ ظلمٍ، وحذّرها مايعود عليها، مِنَ البلاء والحرب الضَّروس، في قصيدةٍ نجتزىءُ ببعضها:

يُرجُّون منَّا خطَّةً، دونَ نيلِهَا
ضرابٌ وطعنٌ، بالوشيجِ المقوَّمِ!
يُرجُّونَ أنْ نسخَى بقتْلِ محمَّدٍ
ولَمْ تختضبْ سمرُ العوالِيْ مِنَ الدَّمِ!
كذبتُم -وبيتِ اللهِ- حتَّى تفلَّقُوا
جماجمَ تُلقى بالحَطِيمِ وزمزمِ

وتُقطعَ أرحامٌ، وتنسى حليلةٌ
حليلاً، ويُغشى محرمٌ بعدَ محرمِ

على مَا مضَى مِنْ مقتِكُمْ وعقوقِكُمْ
وغشيانِكُمْ -فيْ أمرِكُمْ- كلَّ مأثمِ

وظلمِ نبيٍّ، جاءَ يدعُوْ إلى الهدى
وأمرٍ، أتى مِنْ عندِ ذيْ العرشِ، قيِّمِ

فلاَ تحسبونَا مسلِميْهِ، فمثلُهُ
إذا كانَ فيْ قومٍ، فليسَ بمُسْلَمِ(١)

ليس يهمُّنا ماتحمله القصيدة، مِنَ التَّحدي الصَّارخ لقريشٍ، والتَّأنيب لها، والتَّخويف مِنَ خوض غمار الحرب -وفي ماتركناه مِنَ القصيدة، تتجلَّى فيه هذه النَّاحية أبرز وأشدّ.

ولكن يعنينا منها -قبل كلِّ شيءٍ- هذان البيتان، اللّذان اختتمنا بهما ماشئناه منها.

فالبيت الأوَّل يتجلَّى فيه ألَق الإيمان، ولألاء المعتقد... فمحمَّدٌ نبيٌّ... ودعوته التي يدعو إليها قريشاً وغيرها، ليست غير الهدى... وليس هذا الأمر، الذي أتى به -وهو الأمر القيِّم- إلاَّ أمر ذي العرش الرَّحمن العظيم.

فمتى كان مثل محمَّدٍ -وأنَّى لهم بمثله!- في قومٍ، مهما كانوا، فإنَّهم ليسوا بمسلميه، وهو رسول ربِّهم إليهم، فإنَّهم لينالون العزَّ به، والشَّرف بمنعه مِنْ يد أعدائه، والهدي بهداه...

وماعسى أنْ تقول -أيُّها المسلم، الذي تقول في مؤمنِ قريشٍ، قول الزّور...؟!

---

(١) - النَّهج الحديديُّ ٣١٢، ٣:٣١٣، والحجَّة ٣٧، ٣٨ -بزيادة خمسة أبياتٍ في أوَّلها، وبيتين بعد «وتُقطع»، وبيتٍ في نهايتها- والغدير ٣٣٣، ٧:٣٣٤ [مسندةً] -بزيادة بيتٍ عمَّا في الحجَّة.
وذُكر بعضها -باختلافٍ في الألفاظ- في إيمان أبي طالب ١٣.
وذُكرت في هاشم وأُميَّة ١٧١، ١٧٢، والأعيان ٣٩:١٤١، بزيادة بيتٍ في نهايتها.

ماعساك أنْ تقول، غير هذا القول، وتُؤدِّي عن إيمانك بدعوة النَّبيِّ، أحسن مِنْ هذا الأداء، وأفصح مِنْ هذا البيان...؟!

* *

حينذاك... راح أبو طالبٍ يعمل رأيه، فيرى نفسه في أزمةٍ عاتيةٍ، وفي ضيقٍ ومأزقٍ حرجٍ. فعليه أنْ يتَّخذ القرار الحاسم. فنادى إليه رجال بني المطَّلب وهاشم، وأجمعوا على أمرهم أنْ يدخلوا «الشِّعب»(١)، ليكونوا في منجىً، بعد أنْ نفَّذت قريشٌ صحيفتها، الظَّالمة القاطعة. فانحاز المطَّلبيُّون والهاشميُّون لأبي طالبٍ، يأْتمرون بأْمره. فرأيهم لرأيه تبعٌ، وهم لِمَا يريد على انقيادٍ.

ولم يشذَّ عنهم، سوى ذلك الأخ الظَّلوم، الذي رين على قلبه، أبي لهبٍ الضَّالِّ -تبَّت يداه!- الذي راح يُعين قريشاً عليهم(٢).

تمضي الأيام عليهم رتيبةً، لاتنفرج لهم كوَّةٌ، مِنْ نور الرَّجاء، وشعاع الأمل، فهم في ضائقةٍ وضنَكٍ، لايحدُّه الوصف، ولايأْتي على تصويره القول... فالجوع حزَّ في نفوسهم، ورسم خطوطه البشعة في أجسامهم!.

وليست تعدُّ قريشٌ، مَنْ تمتدُّ لهم منه يدٌ بمعونةٍ، غير خائنٍ مجرمٍ، فتثور في وجهه، لِتصدَّه وتُعاقبه... فأصابهمْ الجهد، ونال منهمُ الضَّنى، وأضرَّ بهمُ الجوع، حتى أنَّهم لَيأْكلون «الخَبَط»، وورق الشَّجر(٣).

* *

---

(١) - ذكر ياقوت الحمويُّ -في معجم بلدانه ٥:٢٧٠ [٣:٣٤٧] -الشِّعب (بكسر الشِّين)، باسم «شِعب أبي يوسف»، فقال:

(وهو الشِّعب الذي أوى إليه رسول الله صلَّى الله عليه «وآله» وسلَّم، وبنو هاشمٍ لَمَّا تحالفت قريشٌ على بني هاشم، وكتبوا الصَّحيفة، وكان لعبد المطَّلب...) - الخ.

(٢) - الطَّبريُّ ٢:٧٤، والكامل ٢:٥٩، والسِّيرة الهشاميَّة ٣٧٥، ١:٣٧٦، والنَّبويَّة ١:٢٧٢، والحلبيَّة ١:٣٧٤، والحديديُّ ٣:٣٠٧، والغدير ٧:٣٦٣.

(٣) - كذا ذكر مَنْ عرض لهذه الحادثة. والخَبَط -بفتح أوَّله وثانيه- ورق الشَّجر.

والخبط -بفتح أوَّله، وضمِّه -جمع خَبطةٍ- بفتح أوَّله، وسكون ثانيه- البقيَّة مِنَ الماء واللَّبن، والشيء القليل.

والخبطة: الجرعة مِنَ الماء، والبعض مِنَ الشَّيء، والقطعة منه.

وكان أبو طالبٍ، ذلك الحفيظ المحترس على ابن أخيه، والحارس اليقظان عليه. فيخشى عليه مِنْ مؤامرةٍ تُحاك، أو دسيسةٍ تنال منه شهوتها.

فإذا لفَّهمُ اللَّيل بسحابته الدّكناء، وحان وقت استسلامهم للنَّوم، فرش لابن أخيه فراشاً، يمتدُّ عليه، بمرأىً مِنْ هؤلاء جميعاً، حتى إذا استسلموا لغفوةٍ عميقةٍ – وهو ذلك اليقظان– قام، فأخذ ابن أخيه لفراش ابنه عليٍّ، وأخذ ابنه لفراش ابن أخيه.. حتى لو كان هناك، مَنْ بات على سوء نيَّةٍ، وبَيَّتَ سوء القصد، فإنَّ السوء يقع على ابنه، لِينجو منه رسول السَّماء!. فلْيذهبِ ابنه ضحيَّةً، دون أنْ ينال الرَّسول سوءٌ، وله عينٌ تطرف...!

يا للتَضحية الفذَّة، يُسجِّلها التَّأْريخ بيد الإعجاب، بحروفٍ مشرقةِ السنى، تبقى مثالاً خالداً للفداء، والتضحية، والحب والفناء، والإيمان والعقيدة...!

* *

يصم المغرضون دفاع أبي طالبٍ وجهاده، فينسبون ذلك، إلى: أنه لايقف، إلاَّ لحميَّة النَّسب...فهلِ القرابة، بينه وبين محمَّدٍ –ابن أخيه– أوشج منها، بينه وبين عليٍّ ابنه؟!. فماله يُضحِّي بهذا، فداءً لذاك...؟!

وفاتهم –إلى ذلك– أنَّ حميَّة الدِّين، أقوى مِنْ حميَّة النَّسب!. فلولا حميَّة إيمانه بنبوَّة ابن أخيه، لَمَا حماه للقربى، وفداه بأمسِّ النَّاس إليه...! ولكانت حميَّة دِينه –البريء منه، والذي ينسبه إليه المفترون –تفرض عليه: أنْ يسحق هذه القربى، ويقطع حبل النَّسب...!

ولهذه الحميَّة ذاتها، وقف أبو لهبٍ ومَنْ إليه، موقفهم ذاك، وهم كأبي طالبٍ: منزلةً وقربى، ومساس رحمٍ، بمحمَّدٍ الرَّسول!.

وليس أدلَّ، مِنْ أنَّ حميَّة الدِّين، لاتعترف بحميَّة القربى، إنْ كان بينهما خصامٌ، مِنْ أنَّ بعض المسلمين، قد أراد أنْ يُورد أباه –أو ابنه– حياض الموت، لَّما كان لشركه ذلك العنيد، وللإسلام ذلك العدوَّ الجحود...!(١).

---

(١) – سوف نُدلِّل على هذه النَّاحية، بعرض مايدعمه –مِنْ صفحات التَّأْريخ –في فصلٍ مقبلٍ.

ونعود للطرف الأخير، ممّا وصلنا إليه:

لقد مرَّت ليلةٌ، وقد أخذ أبو طالبٍ، بيد ابنه عليٍّ، لمنام ابن أخيه، قال فيها عليٌّ:

«يا أبتِ! إنّي مقتولٌ!».

وإذا بأبي طالبٍ يدعو ابنه للصَّبر، وأنْ لايرهب الموت -وهو غاية الحياة، ومصير الوجود...! فما الحياة غير طريقٍ للموت، يقطعه هذا الشَّبح، المدعوُّ بـ«الانسان»...

وإنّه قد بذله لهذا الفداء، وقدّمه ضحيَّةً، لهذا الحبيب، الأثير لديه:

اصبِرَنْ -يَا بنيَّ!- فالصَّبرُ أحجى
كلُّ حيٍّ مصيرُهُ لِشَعُوبِ...
قَدْ بذلنَاكَ -والبلاءُ شديدٌ-
لفداءِ الحبيبِ، وابنِ الحبيبِ...!
لِفداءِ الأغرِّ، ذيْ الحسبِ الثَّاقبِ
والباعِ، والكريمِ النَّجيبِ
إنْ تُصبكَ المنونُ، فالنَّبلُ تُبرى
فمصيبٌ منهَا، وغيرُ مصيبِ[1]
كلُّ حيٍّ -وإنْ تملَّى بعمرٍ-
آخذٌ مِنْ مذاقِهَا بنصيبِ!

وأجابه ابنه عليٌّ، وهو الشَّجاع المغوار، الذي لم يرهبِ الموتِ، في لحظةٍ مِنْ حياتِهِ، ولايخشى الألم، وبه انصهرت حياتُه، ويغتبط بفداء رسول الله(ص)، وقد أوقف على ذلك حياتَه:

---

(١) - تُبرى، في روايةٍ تترى، وأُخرى: يرمى.

أتـــأمُرنيْ بالصَّـــبرِ فيْ نصْـــرِ أحمـــدٍ؟
ووا للهِ مَـا قلـتُ الـذيْ قلـتُ جازعَـا!
ولكنِّنِـــيْ أحببـــتُ أنْ تـــرَى نُصرتِـــيْ
وتعلـــمَ أنِّـــيْ لمْ أزلَ لـــكَ طائعـــاَ!
سأســعَى لوجــهِ اللهِ فيْ نصْـــرِ أحمـــدٍ
نــبيٍّ الهــدى المحمــودِ، طفــلاً، ويافعــاَ(١)

* *

صار أبو طـالبٍ -مـدَّة الحصار في «الشِّعب» كـلَّ ماثـارت بـه كوامـن الألم، ورواسب المرارة، نفث شعوره، في شعرٍ ملتهب القوافي:

ألاَ أبلغَـا عنِّـــيْ - علـــى ذاتِ بينِهَـا-
لويًا- وخصًا، مِـنْ لـويٍّ، بـنيْ كعـبِ
ألَمْ تعلمُـــواْ أنَّـــا وجدنَـــا محمَّـــداً
نبيَّاً كموسَى - خـطَّ في أوَّلِ الكتُـبِ(٢)
وأنَّ عليــــهِ فيْ العبـــادِ محبَّـــةً
ولاَحيـفَ في مَـنْ خصَّـهُ اللهُ بـالحبِّ(٣)

(١) - ارجع للحادثة والشِّعر، لكلٍّ مِنَ: النَّهج الحديديِّ ٣:٣١٠، وفيه تحريفٌ مطبعي «بالطَّبع» في البيت الثَّاني والثَّالث مِنْ شعر أبي طالبٍ والمناقب ١:٣٧، والحجَّة ٧٠، والغدير ٣٥٨، ٧، وأعيان الشِّيعة ٣٩:١٢.
وذُكرتِ الحادثة -وحدها- في السِّيرة النَّبويَّة ١:٢٧٦، والحلبيَّة ١:٣٨، وأبو طالبٍ ٧٣، ٧٤.
وذُكرت أبيات أبي طالبٍ في ديوانه ص٩.

(٢)- ذَكر - من القصيدة - هذا البيت، والبيت الثَّاني عشر، في مجمع البيان ٣٦:٧.

(٣)- الشَّطر الأخير - عند «ابن هشام»: [ولاَ خيرَ مِمَّن] -إلخ- وقد تأوَّل له الشَّارح تأويلين، لحمل معناه على الوجه الصحيح. وفي هذه الرِّواية منجاةٌ مِنَ التَّأويل.

وأنَّ الــــذِيْ رقَّشـــــتُمُ فِيْ كتــــابِكُمْ
يكونُ لكُمْ -يومــاً- كراغيــةِ السـغبِ
أفيقُــوا! أفيقُــوا! قبــلَ أنْ تُحفــرَ الزُّبــى
ويُصبحَ مَنْ لمْ يجنِ ذنباً كـذِيْ ذنْــبِ(١)
ولاتتبعُــوا أمــرَ الغــواةِ، وتقطعُــوا
أواصرَنَــــا، بعــدَ المــودَّةِ والقُـــرْبِ
وتســتحلبُوا حربــاً عوانـــاً... وربمـــا
أمــرُّ علــى مَــنْ ذاقَــهُ حلَــبُ الحــربِ
فلســنَا -وبيـــتِ اللهِ!- نُســلِمُ أحمــداً
لعــزَّاءَ مِــنْ عــضٍّ الزَّمـــانِ، ولاكــربِ
ولَّمــا تـــبنْ منَّـــا ومنكُــمْ ســوالفٌ
وأيــدٍ أُتــرَّتْ بــــالمهنَّدةِ الشُّـــهبِ
بمعــتركٍ ضنــكٍ، تــرى كِســرَ القنَـــا
بِــهِ، والضِّبــاعَ العُــرْجَ تعكـفُ كالشــربِ
كــأنَّ مجـــالَ الخيـــلِ فِيْ حُجراتِـــهِ
ومعمعــةِ الأبطـــالِ، معركــةُ الحــــربِ
أليـــسَ أبونَــــا هاشـــمٌ شــدَّ أزرَهُ
وأوصَــى بنيـــهِ، بالطِّعـــانِ، وبــالضَّربِ
ولســنَا نمـلُّ الحــربَ، حتَّــى تملَّنَـــا
ولاَ نشــتكِيْ مِمَّــا ينــوبُ مِــنَ النُّكــبِ

(١)- يُروى: «الثّرى»، بدل «الزُّبى».

ولكنّنَـــا أهــــلُ الحفـــائظِ والنُّهـــى

إذَا طـارَ أرواحُ الكمـاةِ مِـنَ الرُّعـبِ(١)

ويكفينا، مِنَ القصيدة، أبياتها الأُوْلى، لِتنهض: دليلاً نابضاً، وبرهاناً دامغاً، على إيمان قائلها، فهو يرى محمَّداً نبيّاً، كما كان -مِنْ قبله- موسى الكليم، وقد خُطَّت نبوَّته، وبشَّرت بها، كُتب السَّماء التي سبقته.

وكما تنهض دليل إيمانه، فإنّها لَتنهض -مرَّةً أُخرى- كدليلٍ مكرورٍ -أيضاً- على معرفة أبي طالبٍ بالأديان السَّماويَّة، وإيمانه بأنبياء الله، ورُسله، وكتُبه.

فلم يكن - في يومٍ مّا- ذلك المشرك، وهو البعيد الجذور، في الإيمان الثَّابت، والمبدإِ الرَّسيخ الوطيد...

وندع ماتحمله القصيدة -في أبياتها- مِنَ الجوانب الأُخرى الرَّفيعة، التي سيجتليها القارىءُ الكريم...

* * *

ولعلَّ مِنَ الخير أنْ نأتي بهذه القطعة، مِنْ إحدى قصائده -ولعلّها مِمّا قاله في «الشِّعب».

ونحن نقتصر منها، على هذه الأبيات، التي تنضح بالإيمان، وتجلو عن رائع المعتقد، وسافر اليقين:

ألَمْ تعلمُـــوْا أنَّ القطيعـــــةَ مـــأثَمٌ

وأمــرُ بــلاءٍ قـــاتِمٍ، غـــيرُ حـــازمِ؟!

---

(١)- النَّهج الحديديُّ ٣١٣ : ٣، والسِّيرة الهشاميَّة - مع اختلافٍ في بضع كلماتٍ - ٣٧٧ - ١:٣٧٩؛ والحجَّة - بدون البيتين الأخيرين - ٣٩، ٤٠، وأسندها شارحة لعدَّة مصادر، وهشام وأُميَّة ١٧٢، ١٧٣.

وذُكر منها - في إيمان أبي طالب ١٥ - الثّلاثة الأُوْلى.

وذُكر منها في المناقب ١:٣٦.

وذُكرت في شيخ الأبطح ٣٥، ٣٦، والغدير ٣٣٢، ٧:٣٣٣ مسندةً لمصادرها، والأعيان ١٤٠، ٣٩:١٤١.

وأنَّ سـبيلَ الرُّشـدِ، يُعلَـمُ فيْ غـدٍ؟

وأنَّ نعيـمَ الدَّهـرِ، ليـسَ بدائـمِ!

فـلاَ تسـفهَنْ أحلامُكُـمْ فيْ محمَّـدٍ

ولاَ تتبعُـوْا أمـرَ الغُـواةِ الأشـائمِ!

تمنيَّتُـمُ أنْ تقتلُـوْهُ...؟ وإنَّمَـا

أمـانيُّكمْ -هـذِيْ!- كـأحلامِ نـائمِ!

وأنَّكُـمُ -وا للهِ!- لاَ تقتلُوْنَـهُ

ولَمَّا تـرَوْا قطـفَ اللِّحَـى والغلاصـم![1]

* * *

زعمتُـمْ بأنَّـا مسـلِمُوْنَ محمَّـداً...

ولَمَّـا نُقـاذِفْ دونَـهُ ونُزاحِـمِ!

مِـنَ القوم مفضـالٌ، أبـيٌّ علـى العِـدَى

تمكَّـنَ فيْ الفرعـين، مِـنْ آل هاشـم

أمـينٌ، حبيـبٌ، فيْ العبـادِ مسـوَّمٌ

بخـاتم ربٍّ قـاهرٍ، فيْ الخـواتم

يـرى النَّـاسُ برهانـاً عليْـهِ، وهيبـةً

-ومَـا جـاهلٌ فيْ قومِـهِ، مثـلُ عـالم

نـبيٌّ، أتـاهُ الوحـيُ مِـنْ عنـدِ ربِّـهِ

ومَـنْ قـالَ: لاَ... يقـرعْ بهَـا سـنَّ نـادم[2]

---

(١) ـ يُروى "الجماجم" ـ وقد ذكر الأمينيُّ ـ بعد هذا ـ بيتين، لم نذكرهما.

(٢) ـ ذكر هذه القطعة ـ عدا البيتين الأوَّلين ـ الحديديُّ في شرحه٣:٣١٣.

وذُكرت في : الحجَّة ٤٣،٤٤ وشيخ الأبطح ٣٨،٣٩، وهاشم وأميَّة ١٧٣، والغدير ٣٣١،٣٣٢:٧.

وذُكرت خمسةٌ منها في إيمان أبي طالب ١٤.

وذكرتِ الثَّلاثة الأخيرة ـ كشاهدٍ ـ في العبَّاس ٢٢؛ والأعيان ١٤١،١٤٢:٣٩ عدا البيتين الأوَّلين.

نعى على قريشٍ قطيعتها، التي تجلب لها المأثم، فتبوء بالخزي، والبلاء المقيم...
ثم حذّرها مغبّة عملها، وماسوف تجنيه مِنْ ثمرٍ شجيٍّ...

فسبيل الرُّشد، لاحبةٌ معالمه، سوف تُعرف ثماره في يوم الحساب، يوم تقدم كلُّ نفسٍ على ماقدَّمت...

أمَّا نعيم الدُّنيا، فهو على وشك الفناء والتّلاشي... وإنه لصائرٌ إلى هذه النّهاية، مهما امتدَّ به العمر، ولن يُكفل له الخلود والبقاء، إنّه لإلى زوالٍ محتومٍ يسعى إليه، مهما طال الطَّريق، أو قصر.

فعليهم أنْ يُقلعوا عن سفههم في الرَّسول، فلا يسدرون في الغيِّ، يتّبعون هؤلاء الغواة الآثمين...

وبعد أنْ أعلن عن موقفه -وهم له عارفون- وأنّه لن يُسلم إليهم محمَّداً، حتى تُطاح رؤوسٌ، وتسيل دماءٌ، وتُبعثر مجزرةٌ، مِنَ الأناسين...

وبعد أنْ راح يذكر مآتي ابن أخيه، ومحامده... أعلن عن رأيه «الذّاتي» فيه، وفي ماجاء به... فهو: نبيٌّ مرسلٌ، يتنزَّل عليه الوحي مِنَ ربِّه، فيصدع بأمره، ويُؤدِّي رسالته.

أمَّا مَنْ كان لديه -في ذلك- شكٌّ، وخالجته ريبةٌ، وقال: «لا...» فإنه سيقرع بها سنَّ النّدم، يوم يعضُّ الظّالم على أصابعه -ولات حين مندم!.

فهل بعد هذا إقرارٌ...؟ وهل غير هذا... الإيمان، والتّسليم، والاعتراف...؟!

ونعود فنقول: هل مِنْ فرقٍ بين: مَنْ يقول: «محمَّدٌ رسول الله»، أو: «محمَّدٌ نبيٌّ يأتيه الوحي مِنْ ربِّه»، أو ماشابه هذه الكلمة، في ماتحمله مِنْ معناها...؟! ويُقال لذاك: مؤمِنٌ، وهذا: مشركٌ؟!!.

اللّهم! إلاَّ أنّه الجهل، والضلال، والأغراض السُّود...!

* * *

ومِنْ شعره في «الشّعب»: هذه الأبيات، التي نعى فيها على قريشٍ: قطيعتَها، وقطْعَهَا حبل المودَّة، وعُرى الإلفة، وتفريقها الجماعة، لغاياتها السَّافلة، وشهواتها الحمقاء:

جـزى الله عنّـا عبـدَ شمـسٍ، ونوفــلاً،
وتيمــاً، ومخزومــاً: عقوقــاً، ومأثمــاً!
بتفريقِهِــمْ -مِــنْ بعــدِ وُدٍّ وإلفــةٍ-
جماعتَنَــا... كــيْ مَـا ينـالُوْا المحارِمَــا...
كذبتــمْ -وبيــتِ اللهِ!- نـبزى محمَّــداً
ولمَّا تـرَوْا يومـاً -لـدَى الشِّعبِ- قائمـاً(١)

* * *

دار الزّمن، عدَّة دوراتٍ، والنّبيُّ وحاميه، والمطَّلبيُّون والهاشميُّون، في الشِّعب، يُلاقون الأمرَّين، ويتجرَّعون صـاب الألم، وينـالون أنماط الأذى، وألـوان العـذاب، ومرارة الحرمان... وأبو طالبٍ، ينفث بحممٍ مِنْ شعره، كـلَّ ماهـاج -في باطنـه- الألم، وغلى مرجل الحميَّة، وثارت رواسب النّفس، وألمها الكمين.

ومضى على هذه الحياة الرَّتيبة عامان -في قـولٍ- أو ثلاثـةٌ- في قـولٍ آخـر... فكان يومٌ، أوحى الله فيه إلى الرَّسول العظيم(ص)، بما سلَّط على الصَّحيفـة الظَّالمة الجائرة...

فقد أكلتِ «الأرضَة»(٢) جميعَ ماتحمله الصَّحيفة، مِنَ الظُّلم والقطيعـة، ولم تُبـقِ على شيءٍ منها، سوى اسم الله.

وألقى الرَّسول، بهـذا النبإ المشرق الحواشي، إلى عمِّـه، فسـرت فرحــةٌ في جسمه، وبانَ الاطمئنـان في وجهـه، ونـام القلـق والألم، وقـد كـانت لهمـا ثـورةٌ في باطنه، وسأل ابن أخيه، سؤال مَنْ يُريد المزيد مِنَ الطُّمأْنينة:

---

(١) ـ معجم البلدان ٥:٢٧٠ [٣:٣٤٧]، والسِّيرة الهشاميَّة ٢:١١.

وذُكر البيت الأوَّل، على أنـه مستهلُّ قصيـدةٍ لأبي طـالبٍ، في السِّيرة النَّبويَّـة ١:٢٧٣، والحلبيَّة ١:٣٧٥.

وقد ذكرنا ـ في الفصل السابق ـــ البيـت الثـالث، مِنْ هـذه الأبيـات، في قطعـةٍ، نقلناهـا مِـنْ مصادرها، التي تقول: إنَّ أبا طالبٍ، قالها في دعوة أُبي لهبٍ، لِنصرة الرَّسول (ص).

(٢) ـ الأرَضَة ـ محرَّكةً ـ دُويبةٌ تأكل الخشب، وجمعها أرَضٌ ـ بالفتح، أيضاً.

«ياابنَ أخيْ! أربُّك أخبركَ بهذهِ...؟».

ولَمَّا كان جواب الرَّسول إيجابيّاً، أردف شيخ الأبطح:

«والثّواقبِ ماكذَبَتني قطُّ!».

فخرج أبو طالبٍ -مِنَ الشِّعب- تُحيط به بضعةٌ مِنْ بني هاشم والمطَّلب، حتى أتوا إلى المسجد الحرام... فلما رأتهم قريشٌ، ساورها الظَّنُّ بأنّهم جاءوا لِيُسلموا إليها محمَّداً، تحت شدَّة الوطأة. وزحمة الحصار...

وهنا... هَتَف أبو طالبٍ، بمَنْ رأى مِنْ قريشٍ، بصوت الرَّابط الجأش:

«يا معشرَ قريشٍ! جرتْ بيننا وبينكمْ أمورٌ، لم تُذكَر في صحيفتكم، فأْتوا بها، لعلَّه أنْ يكون بيننا وبينكم صلحٌ».

وهو قد سلك هذا المنهج مِنَ القول -كما يقول التّأريخ- لِيُعمِّي على هؤلاء، فلا يُبادههم بالنّتيجة، فيفتحون الصَّحيفة، قبل أنْ يُؤْتى بها، فتضيع الفائدة.

وإذ جاءوا بها، لم يكن يُساورهم شكٌّ، ولايُخالجهم ريبٌ، في أنَّ مخالبهم، قد نشبت في فريستهم، التي نصبوا لاصطيادها شتّى الأحابيل، ومختلفَ الشِّباك.!!

فهاهو ذا أبو طالبٍ، قد جاءهم -بعد الجهد المضني- يُسلِّم لهم محمَّداً، لينالوا منه مايشاءُون، ويقضوا فيه ماهم عليه عازمون...

ولكنهم فُوجئوا بقوله:

«قدْ آنَ لكم أنْ ترجعُوْا، عمَّا أحدثتُمْ علينَا، وعلى أنفسِكُمْ!».

قال هذا، بعد أنْ جاءوا بالصَّحيفة -أوِ المعاهدة- فوضعوها بينهم، وقبل أنْ تُفتح، أخذ أبو طالبٍ في البيان، بلهجة المطمئِن، الوطيد الإيمان، العارف بالنّتيجة، دون أنْ تناله زعزعةٌ، أو خوفٌ...

فهو يقرأُ المستقبل، وينظر إليه بعينٍ، تخترق حجبه الكثيفة، فيقرأُ مابين سطور هذه الصَّحيفة التي بين يديه، فلا يجد فيها غير ماقاله له، ذاك الذي لم يكذبه قطُّ، فيأخذ في القول:

«أتيتكُمْ في أمرٍ، هوَ نصفٌ بيننا وبينكم... إنَّ ابنَ أخي أخبرنِي، ولَمْ يكذبْنِي قطُّ: أنَّ الله قَدْ بَعَثَ على صحيفتِكُمْ دابَّةً، فلمْ تتركْ فيهَا، إلاَّ اسمَ اللهِ فقط، فإنْ كانَ كما يقولُ، فأفيقُوا عمَّا أنتمْ عليهِ، فوا للهِ لاَ نُسلمُهُ حتَّى نموتَ مِنْ عندِ آخرِنَا. وإنْ كان باطلاً، دفعناهُ إليكُمْ، فقتلتُمْ، أوِ استحييتُمْ...!»

وإذ رضوا بذلك... فتحوا الصَّحيفة، فكانت تطالعهم بما أخبرهم به، تدمغهم بالبرهان، وتُؤنِّبهم، وتخزهم في السُّويداء، وتسِمهم بميسم العار... ولكنَّهم أصرُّوا على البغي والعناد، قائلين:

– هذا سحر ابن أخيك...!

فنادى فيهم أبو طالبٍ، وقد كسب الموقف، وصَدَقَ في المقال، فكان له طاقةٌ في القوَّة والإدلال:

– على مَ نُحصرُ، وقَدْ بانَ الأمرُ، وتبيَّنَ أنَّكم أوْلَى بالظُّلمِ والقطيعةِ؟!

وحينذاك... قام هو ومَنْ معه، فأخذ بأستار الكعبة، يسأل الله أنْ يمدَّهم بنصره، وبنبرة المظلوم صاح:

– اللَّهمَّ انصرْنَا على مَنْ ظَلَمَنَا، وقطَعَ أرحامنا، واستحلَّ مَا يحرمُ عليه منَّا...!

وعند ذاك... كانت قد مشت طائفةٌ مِنْ قريشٍ، وقد رأت ظلمها الفظيع، وجورها القاسي، وعنادها البغيض...

مشت في نقض الصَّحيفة، فكان ذلك... ورُفع عن هؤلاء الحصار، وعادت لهم الحياة، في مجراها الطَّبيعيِّ، بعد عامين، أو ثلاثةٍ –كابدوا فيها: الألم، والجوع، والعري...![1]

---

(١) ـ السِّيرة النَّبويَّة ٢٧٦،٢٧٧ :٢، والحلبيَّة ٣٨١،٣٨٢:١، والهشاميَّة ١٦٠:٢، والكامل لابن الأثير ٧١:٢، والحجَّة ٤١، والغدير ٣٦٤:٧.

وذُكر الجانب للمهمُّ منها في البحار ٤٢٥،٥٢٣:٦ وعلى هامش السِّيرة ٩٧:٣، وأعيان الشِّيعة ١٣٠،١٣٢:٩.

وإنّنا لَنجد في كلِّ كلمةٍ، مِنْ كلمات أبي طالبٍ -هنا- صوراً زاهيةَ الألوان، بارزةَ التّقاطيع، صارخةً بما تحمله مِنَ الإيمان العميق، والإطمئنان الرّاسخ...!

يخبره الرّسول، عمَّا فعلته الأَرَضة بصحيفة قريشٍ الظّالمة، فيسأله عن علمه هذا، فهل أوحى إليه ربُّه بذلك...؟

وماكان سؤاله عن أصل علمه، إلاّ ليكون إيمانه إيمان الباحث الخبير، والمنقّب الحاذق، لاإيمان المستسلم الغرِّ.... وهو مِنْ نوع الإيمان، الذي ذكره الله، في القرآن العظيم:

«أوَلَمْ تؤْمِنْ؟ قالَ: بلَى! ولَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِيْ»(1)

لذلك لم يكدِ الرّسول(ص)، يُنهي لعمِّه الجواب، وإذا به يُجيب جواب المطمئن المصدِّق، فهو الذي لم يأخذ عليه قولةً، تنحرف عن مسلك الصِّدق، ومهيع اليقين...

وبهذا الإيمان المكين، والاطمئنان الثّابت، اندفع أبو طالبٍ لقريشٍ، يتحدّاهم، ويُباهلهم بثباتٍ واطمئنانٍ ويقينٍ، لايعتوره الشّكُّ، ولايُخالجه الرَّيب...!

وإلاّ لولا هذا... فهل كان يجزم أبو طالبٍ أنْ يدع لهمُ الخيار، بين اثنتين:

إنْ كان صادقاً، في ماأخبره ابن أخيه، فهو له كما كان...

وإن يكن كاذباً، فعليه أنْ يُسلمه إليهم، يفعلون به مايشاؤون...؟!

وهل بعد هذا إيمانٌ، ومعتقدٌ صلبٌ...؟

ثم إنَّه بعد أنْ ركز بين اثنتين... وبَانَ له صدق ماقال ابن أخيه، ووجده صادقاً، في كلِّ قوله -ولم يكن قد جرَّب فيه غير المقال الصَّادق...

ثم إنه بعد هذا... لو فرضنا -ونستغفر الله!- عدم إيمانه مِنْ قبل، وتركنا كلَّ مايدلُّ على ذلك، وتركنا مقدِّمات مقاله:

«أربُّك أخبرك بهذا...»

و«ماكذبتنِيْ قطُّ».

---

(1) - البقرة ٢٦٠.

لو تركنا كلَّ ذلك... فهل يصدر لعاقلٍ، وقد شاهد صدْق مقال إنسانٍ، في خبرٍ بالغيب، عنِ ا لله تعالى أنْ لايُؤْمن، ولايتّبع دعوة هذا الصَّادق في القول، الشَّريف في العمل...؟

ولكنّنا -في الواقع- نلمس الإيمان العميق، في كلِّ كلمةٍ، قالها أبو طالبٍ.

ونرى في هذه الحادثة أبرز برهانٍ، وأثبت دليلٍ عليه، ولاسيَّما بعد أنْ دفعه الإطمئنان والإيمان، على «المباهلة»- وهي غاية الإيمان...!

فليس يجزم -على ذلك- شيخ الأبطح، لو لم يكن بالنّتيجة على علمٍ ويقينٍ، لايتطرَّق إليه الشَّكُّ، ولايُساوره الخوف...

فإنْ كان ابن أخيه صادقاً، فهو -كمايعلم- رسول ا لله...فتجب عليه النُّصرة والفداء، حتى آخر أنفاس حياته.

وإنْ كان كاذباً -وهذا مالايكون- فهو مسلّمه إليهم، بعد أنْ كذب على ا لله...وليس جزاء المفتري على ا لله، إلاَّ القتل، وخنْق الحياة فيه.

ولو لم تكن نصرته للدِّين وحده، والرِّسالة ليس إلاَّ... لَمَا دعاهم لهذه «المباهلة»، مادامت نصرته للرَّحم فحسب -كما يقول المغرضون- فهو لن ينسلخ مِنْ لحمته، إنْ كان كاذب المقال... ولن يزداد منه مساس رحمٍ، إن كان صَادق القول...

ولكن... لَمَّا كانت نصرته للرِّسالة، ولربِّ السماء فإنَّ للكذب والصدق. أمسَّ العلاقات بموقفه...

لذلك... ركز لهم بين الإثنتين، وهو العارف بما حبلت به الأيام، وسيتمخّض به المستقبل...!

* *

وإذ خرجوا مِنَ «الشّعب» ورُفع عنهم نطاق الحصار المضروب، فإنَّ أبا طالبٍ لاتفوته هذه المناسبة -وقد كان الظفر فيها مِنْ نصيبهم، حيث أسفر الحقُّ فيها عن وجهه، وبَانَ مقدار صدقهم، وظلْم الجانب الآخر لهم...

لاتفوته أنْ يتناولها بالذّكر مِنْ شعره، وهي مادّةٌ ثرّةٌ، وأرضٌ خصبةٌ، تأتي بالثّمر النّضيج، والزّهر الفوّاح:

وقدْ كانَ في أمرِ الصحيفةِ عِبرةٌ
متى يُخبَّرْ غائبُ القومِ يعجبِ
محَا اللهُ -منهَا- كفرَهُمْ وعقوقَهُمْ
ومَا نقمُوا مِنْ ناطقِ الحقِّ معربِ!
فأصبحَ مَا قالُوا مِنَ الأمرِ باطلاً
ومَنْ يختلِقْ مَا ليسَ بالحقِّ يكذبِ(١)

وهذه الأبيات الثّلاثة -مِنْ قصيدةٍ له- خطوطٌ متمّمةٌ للصُّورة، التي تناولناها ببعضٍ مِنَ العرض، في الصّفحات التي سلفت...

فهو -هنا- يعتبر ماجرى على الصحيفة: عِبرةً، ونُذُراً إلهيَّةً، تبعث في النُّفوس العجب، وتدعوهم للإيمان بالدّعوة، والكفِّ عنِ الظُّلم والعدوان، والكفر والعقوق... بل وتفرض عليهمُ الإيمان، إذا تجرّدوا مِنَ العصبيَّة الهوجاء.

ونجد -في البيت الثّاني- كيف ينسب محوَ الكفر والعقوق لله -وهو مايدعو للعِبرة، ويبعث العجب، ويستثير الخوف والرّثاء...

وهو يقول: إنَّ مانقموه، مِنْ ناطق الحقِّ، وظاهر اليقين، الذي جاء به الرّسول، لن يستتر، فهو: معرَبٌ -أيْ: ظاهرٌ، مِنْ أعرب الشيء: أبانه.

---

(١) - قال ابن الأثير - في كامله ٢:٦٢،٦١ - مانصُّه:
[وقال أبو طالبٍ في :امر الصحيفة، وأكْل الأرَضَة مافيها مِنْ ظلمٍ، وقطيعة رحمٍ، أبياتاً؛ منها].
- وذكر هذه الثلاثة.
وذكرها صاحب الحجَّة ٤٦،٤٥، في ١٢ بيتاً؛ قبل هذه الثّلاثة بيتان، وبعدها:
(فأمسى ابنُ عبدِاللهِ - فينَا - مصدَّقاً
على سخطٍ مِنْ قومنا، غيرِ متعبِ. إلخ)
وذُكرت منها ثمانية أبياتٍ في:البحار ٦:٥٢٣، والأعيان ٣٩:١٤٦ و٧ أبيات في إيمان أبي طالبٍ ١٦،١٥، وقسْمُها الأخير في المناقب ١:٣٧، والثّلاثة فقط في الغدير ٧:٣٦٩.
وذُكر البيتان الأوّلان والبيت الذي في الهامش: [فأمسى..] في مجمع البيان ٧:٣٧.

ولّما كانوا لم ينقموا سوى الحقّ، فإنّ كلّ ماأتوا به باطلٌ -ومابعد الحقّ إلاّ الضّلال- ومَنْ يختلقِ الباطل، ويجُانفِ الحقّ، فإنّه -لامحالة- كاذبٌ، وسوف يفتضح، وتُعرف اسوداد طويَّته، وسوء دخلته...

* *

وله -في الموضوع- قصيدةٌ، غير هذه، ذكر فيها، صنع ا لله بالصَّحيفة، ثم ذكر فيها ماضيهم التّليد، وحاضرهم المشرق، بهذا الرَّسول العظيم(ص).

ونحن نجتزىءُ منها بأبياتٍ، قد لاتكون منسَّقة في ترتيبها الأصيل:

ألا هلْ أتى بحريَّنا صنْعُ ربِّنا
على نأيهِمْ؟ وا للهُ بالنّاسِ أرودُ(١)

فيُخبرهُمْ أنَّ الصَّحيفةَ مُزِّقتْ
وأن كلُّ مَا لَمْ يرضَهُ ا للهُ مفسدُ

تَراوحَها، إفْكٌ وسحْرٌ مجمَّعٌ
ولم يُلفَ سحرٌ -آخرَ الدهرِ- يصعدُ

تداعى لَها مَنْ ليسَ فيهَا بقرقرٍ
فطائرُهَا -فيْ رأسِهَا- يتردَّدُ(٢)

* *

فَمَنْ ينشَ مِنْ حضَّارِ مكَّةَ عزُّهُ
فعزَّتُنا فيْ بطنِ مكَّةَ أتلدُ(٣)

---

(١) ـ البحريُّ: نسبة للبحر. ويُراد به ـ هنا ـ مهاجروا المسلمين للحبشة. الأرود: ليِّن المعاملة.

(٢) ـ القرقر: اللّيِّن السَّهل، الضّحوك بترجيعٍ وعلوٍّ واستغراب.

فيجوز أنْ يكون المراد: ليس بذليلٍ ـ على معنى الكلمة الأول ـ أو ليس بهازلٍ، ضدَّ الجاد ـ على المعنى الثاني.

ويُراد مِنَ "الطَّائر" ـ هنا ـ الحظُّ مِنَ الشَّرِّ والشُّؤْم، وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ ـ الإسراء:١٣.

(٣) ـ ينشَ: ينشأ، فحذف منها الهمزة. التَّليد: القديم، والأتلد: الأقدم.

نشــأْنَا بهَــا، والنَّـــاسُ فيهَــا قلائـــلٌ
فلــمْ ننفــكَّ، نــزدادُ خــيراً، ونُحمَــدُ
ونُطعِــمُ، حتَّــى يــتركَ النَّـــاسُ فضلَهُـــمْ
إذَا جعلــتْ أيــدِيْ المفيضــينَ ترعَــدُ(١)

* *

ألا إنَّ خــيرَ النــاسِ نفســـاً، ووالـــداً
-إذَا عُــدَّ ســـاداتُ البريَّـــةِ- أحمَـــدُ
نـــبيُّ الإلـــهِ، والكريـــمُ بأصلِـــهِ
وأخلاقِـــهِ، وهـــوَ الرَّشـــيدُ المؤيَّـــدُ
جــريءٌ علَــى جلّــى الخطــوبِ كأنَّــهُ
شـــهابٌ، بكفَّـــيْ قـــابسٍ يتوقَّـــدُ
مِــنَ الأكرمــينَ، مِــنْ لــويٍّ بــنِ غــالبِ
إذَا سِــيمَ خســـفاً، وجهُـــهُ يـــتربَّدُ(٢)
طويــلُ النَّجــادِ، خــارجٌ نصــفُ ســاقِهِ
علــى وجهِــه يُســقَى الغمــامُ ويسـعدُ(٣)
عظيــمُ الرَّمــادِ... ســيِّدٌ وابـــنُ ســيِّدٍ،
يحضُّ على مقــرى الضيــوفِ ويحشــدُ(٤)

---

(١) ـ علّق الأمينيُّ على هذا البيت بقوله:
[المفيضين: الضَّاربون بقُداح الميسر. يُريد سلام الله عليه: أنَّهم يُطعمون، إذا بخل النَّاس].
(٢) ـ سام: كلّف. سامه خسفاً: أذلّه. تربَّد اللون: تغيَّر. وهو يُريد: أنَّه ليس يرضى الذُّل.
(٣)ـ النَّجاد: حمائل السَّيف. وطويل النَّجاد. كنايةٌ عن طول القامة.
(٤) ـ عظيم الرَّماد: تعبيرٌ رمزيٌّ، يُراد منه الرَّجل المضياف، ذو الجود الفيَّاض، واليد النَّديانـة، وعُبِّر عنه بذلك، لكثرة مايطهي مِنَ الطَّعام، لضيوفه.
وهذا التَّعبير دليلٌ يُدعِّم رأياً نرتأيه، وهو:وجود الأدب الرَّمزيِّ، في أدبنا العربيِّ القديم.

ويبـــنيْ لأبنـــاءِ العشـــيرةِ صالحـــاً،

إذَا نحـنُ طفنَـا فيْ البـــلادِ ويمهـــدُ.الخ(١)

هل رأيتَ: بماذا يُطري أبو طالبٍ ابنَ أخيه؟ وفي أيِّ منزلةٍ، يراه فيها، بين النّاس...؟

فهو: خيرهم: «ذاتاً ونسـباً»...! ولـه القيمـة الفضلـى، والرُّجحـان في مـيزان القيم، إذا قيس بسادات الإنسانيَّة، ورجاها...

وهو -إلى ذلك- «نبيُّ الإله» العظيـم، و«الكريـم بأصلـه» ومحتـده، و«أخلاقـه»، ومآتيه...

وهو «الرشيد المؤيَّد»، بنصر ا الله العظيم...

وهو «الجـريءُ» الشَّـديد، الـذي لايهـين ولايستكين، ولاتلـين قناتـه، لشـديد الخطب، وهول النّازلة...

فهو «كالشّهاب»، الذي لاتنطفـىء منـه اللّهبـة، ولايتلاشـى منـه الشُّـعاع، في العواصف المعربدة، والأعاصير المجتاحة، يُنير سبُلَ الطّريق، ويدلُّ السُّراة، إلى حيـث المهيع الأبلج، والمنهج الأقوم...

إلى آخر ماتحمله القصيدة، مِنَ النُّعوت والصِّفات، التي يذكرها أبو طالبٍ، ممّـا لابـن أخيـه، مِـنْ محـامدَ فضلـى، وخصـالٍ رفيعـةٍ... مِـنْ: إبـاءٍ، وكـرمٍ، وخلُـقٍ، وشجاعةٍ، وطيبِ منبتٍ، وعملٍ للصَّالح العامِّ، وطلاقةِ وجهٍ، يُستسقى به الغمام...

وهذا المدح والإطراء، لايصدر، مِنْ عمٍّ، وشـيخٍ كبـيرٍ، وزعيـمٍ مبجَّـلٍ -لـولا الإيمان بالدَّعوة- في مدح ربيبٍ، وابن أخٍ، هو بمنزلة ولده...

إنه لايصدر، إلاَّ مِنْ نصيرٍ للرِّسالة، لانصيرٍ للرَّحم والقربى...

لايصدر إلا مِنْ نصيرٍ للرَّسول محمد(ص)، لامِنْ نصـيرٍ لمحمَّـدٍ بـن عبـدا لله، أخ أبي طالبٍ...!

---

(١) ـ السِّيرة الهشاميَّة، ١٧،١٩: ٢.

وذكرت بعض أبياتها في الاستيعاب ٩٢: ٢، وفي نسب قريش ٤٣١.

وذكرت كاملةً مسندةً، في الغدير ٣٦٥،٣٦٦: ٧ وديوان أبي طالب ٦،٧.

وذُكرت الثّلاثة الأُولى في أعيان الشِّيعة ١٣٤: ٣٩.

عند الاحتضار

إنَّ تلك الشَّجرة الفارعة، التي أظلَّت الإسلام، وأقالت نبيَّ الإسلام عن حرِّ الهاجرة... قدِ امتدَّت لها يد الذُّبول، فهصَّرت منها الأغصان، وقطعت عنها نبع الحياة الدَّافق، فاصفرَّت منها الوريقات سراعاً، وسرت صفرة الموت في أجزائها جمعاء...

لقد آن لذلك الشَّيخ المجهَد، الذي بذل طاقته، وأفرغ وُسعه، وأدَّى جهده: أنْ يُريح جسمه المتعَب، وروحَه المنهوكة، وأعصابه المكدودة، ونفسه الحزينة الضَّاحكة...

الحزينة، لِمَا ينال هذا الدِّين وأتباعه، مِنْ أذى هؤلاء السُّفهاء...

والضَّاحكة، لأنه امتدَّ به العمر، فقام بهذه الخدمات الفضلى، وقام بالواجب المفروض -ولم ينثنِ، ولم يستخذِ- وآمَنَ بالدِّين الذي بشَّر به أبوه، وأوصاه باتِّباعه ونصرته، عند الإحتضار...

لقد آن له -الآن- أنْ يستلذَّ بحلاوة ثمر جهوده، وينال جزاء عمله الأوفى...

ولكنأبا طالبٍ -حتى عند الإحتضار- لاينسى أنْ يُوصي بابن أخيه، هذه الهالة التي تحوط به، مِنْ بنيه وأهليه، فيُلقي على عواتقهمُ المهمَّة، التي قام بها وحده...

-وبهذه السواعد المفتولة، ستقرُّ عينه، فلن تتخاذل، أمام قوى الشِّرك المظلم... ستقوم بالمهمَّة، وإنْ كانت ثقيلة الحمل، عظيمة الجهد...

وإنَّ بين هؤلاء ابنه عليّاً، المؤمِنَ الأوَّل، والنَّصير الأوحد.! فلسوف يُتمُّ الرِّسالة، التي قام بها أبوه، سيُضحِّي بأغلى مافي الحياة، في سبيل نصرة رسول السَّماء...

* *

هاهو ذا أبو طالبٍ، يُدير عينيه، وقد أخذت جذوة الحياة منهما، في الخمود...

ثم يَنْبُر بصوتٍ خاشعٍ، تُجلّلُه هيبة الموت، وخشوع الشّيخوخة الواهنة، لِيُلقي عليهم هذه الوصيَّة الفذّة، التي شاء أنْ يُشرك فيها وجهاء قريشٍ –مِمَّنْ دعا إليه منهم– لعلَّ الله يهدي لدِينه مَنْ يشاء:

[يا معشرَ قريشٍ! أنتُمْ صفوةُ الله مِنْ خلقِهِ، وقلبُ العربِ.

فيكُمُ السَّيِّد المطاعُ، وفيكُمُ المِقدامُ الشّجاعُ، الواسعُ الباعُ، واعلموا:

أنّكُمْ لمْ تتركُوْا للعربِ، فيْ المآثرِ، نصيباً، إلاّ أحرزتُمُوهُ... ولاشرفاً، إلاّ أدركتُمُوهُ...

فلكُمْ –بذلكَ– على النّاسِ، الفضيلةُ، وهُمْ بهِ اليكُمْ الوسيلةُ، والنّاسُ لكمْ حربٌ، وعلى حربِكُمْ إلبٌ...

وإنّي أُوصيكُمْ بتعظيمِ هذهِ البُنيةِ(١)، فإنَّ فيهَا: مرضاةً للرَّبِّ، وقواماً للمعاشِ، وثباتاً للوطأةِ...

صِلُوْا أرحامَكُمْ، ولاَتقطعُوْهَا، فإنَّ صلةَ الرَّحمِ: منسأةٌ فيْ الأجلِ، وزيادةٌ فيْ العددِ.

واتركُوْا البغيَ والعقوقَ، ففيهِمَا هلكتِ القرونُ، قبلَكُمْ.

أجيبُوْا الدّاعيَ، وأعطُوْا السَّائلَ، فإنَّ فيهمَا: شرفَ الحياةِ والمماتِ.

وعليكُمْ بصدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانةِ، فإنَّ فيهمَا: محبَّةٌ فيْ الخاصِّ، ومكرمةٌ فيْ العامِّ.

وإنّيْ أُوصيكُمْ بمحمَّدٍ خيراً...! فإنّه الأمينُ فيْ قريشٍ، والصِّديقُ فيْ العربِ، وهوَ الجامعُ لكلِّ ماأوصيتُكُمْ بهِ... وقدْ جاءَنَا بأمرٍ، قَبِلَه الجنانُ، وأنكرَهُ اللّسانُ، مخافةَ الشّنآنِ...

---

(١) – يعني الكعبة.

وأيمُ اللهِ! كأنّيْ أنظرُ إلى: صعاليكِ العربِ، وأهلِ الأطرافِ، والمستضعفينَ مِنَ النّاسِ، وقدْ أجابُوْا دعوتَهُ، وصدَّقُوْا كلمَتهُ، وعظّمُوْا أمرَهُ...

فخ نَ بهِمْ غمراتِ الموتِ.... وصارَتْ رؤساءُ قريشٍ وصناديدُها أذناباً، ودورُهَا خراباً، وضعفاؤُهَا أرباباً...! وإذَا أعظمُهُمْ عليهِ أحوجُهُمْ إليهِ! وأبعدُهُمْ منْهُ أحظاهُمْ عندَهُ!، قَدْ محضتْهُ العربُ ودادهَا، وأصفتْ لهُ فؤادَهَا، وأعطتْه قيادَهَا...

دونَكُمْ -يا معشرَ قريشٍ!- ابنَ أبيكُمْ...

كونُوْا لهُ ولاةً، ولحزبِهِ حماةً...

وا للهِ لايسلكُ أحدٌ سبيلَه، إلاّ رشُدَ، ولاَ يأخذُ أحدٌ بهديِهِ، إلاّ سعُدَ...

ولوْ كانَ لنفسِيْ مدَّةٌ، وفي أجَلِيْ تأخيرٌ، لكففتُ عنْهُ الهزاهزَ، ولدافعتُ عنهُ الدَّواهِيْ...](١)

* *

(١) ـ السِّيرة النَّبويَّة٨٦،٨٧ :١، والحلبيَّة ٣٩٠،٣٩١ :١، وثمرات الأوراق ١٤،١٥ :٢.
وذُكرت ـ مسندةً لعدَّة مصادر ـ في شيخ الأبطح ٣٩ ـ ٤١; وقد ذُكر: أنَّ في أحد المصادر، زيادة هذه الجملة:

[غيرَ أنّيْ أشهدُ بشهادتِهِ، وأعظِّمُ مقالَتَه].

وقد جاءت هذ الجملة ـ أيضاً، مع كامل الوصيَّة في أعيان الشِّيعة،١٦٤،١٦٥ :٣٩.
وذُكرت في الغدير، بمصادرها العديدة، ٣٦٧،٣٦٨ :٧.
وذُكر بعضٌ منها ـ حسب حاجة المؤلِّف ـ في العبَّاس ٢١، وأُسندت لبعض مصادرها الوفيرة.
كما ذُكر قسمها الأخير في الإمام عليٍّ صوت العدالة ص ٣٦ [٥٩،٦٠ :١] وفي آخرها زيادةٌ عمّا ذكرنا، ماسيأتي:

[إنَّ محمَّداً هوَ الصَّادقُ الأمينُ، فأجيبُوْا دعوتَهُ، واجتمعُوْا على نصرتِهِ، وارمُوْا عدوَّهُ مِنْ وراءِ حوزتِهِ، فإنَّهُ الشَّرفُ الباقِيْ لكُمْ على الدَّهرِ].

يا لروعة الإيمان، يحوطه جلال المغيب!.

لو لم يكن لأبي طالبٍ، غير هذه الوصيَّة مِنْ دلائل إيمانه، السَّافرة الوجه، لكانت تفرض علينا هذه الوصيَّة: الاعتقادَ بإيمان قائلها، وتُبين لنا عن مذهبه ودِينه، وكلُّ كلمةٍ نقرؤُها منها، نجدها: صارخةً بالإيمان السَّافر، تدلُّ على المعتقد الرَّسيخ.

إنها قطعةٌ فذَّةٌ، مِنَ الإيمان، لاتقبل الشَّكَّ ولاالرَّيب، وتُجهز على كلِّ فريةٍ، يرتعش بها لسان المغرضين الأفَّاكين، وتفضح سوء دخلتهم، والتواء طريقهم، وسود أغراضهم...!

راح يُوصيهم بوصاياً، لاتصدر إلاَّ عن مؤْمنٍ عميقٍ، له إحاطةٌ بباطن التَّشريع، وظاهره، ومعرفةٌ بأسراره، وله عينٌ تخترق حجب المستقبل، وسُدُمه الكثيفة، لِتنظر ماسيقع، وتنقل منه صوراً، جليَّة التَّقاطيع...

أوصاهم بالكعبة -وهي بيت ا لله وحرمه- وتعظيمها، لأنَّها مِنْ شعائر ا لله... ففي ذلك مرضاةٌ للرب... إذ أنَّ تعظيمها دليلٌ على: أنَّ الإيمان يغمر قلب هذا المعظِّم، فيقوم باداء مافرضه ا لله عليه...

وإنهم -بتعظيمِ هذه البنيَّة- سيجنون جنيَّ الثَّمر ونضيره...

فالدِّين يُعطيهم طاقةً، لقوام المعاش، والثَّبات أمام الزعازع النَّكباء، وتحت الوطأة البهيضة الثِّقل...

ويأمرهم بصلة الأرحام، لأنَّ فيها: منسأةً في الأجل، وامتداداً في فسحة العمر، ورقعة الحياة، وزيادةً في العدد...

وينهاهم عن قطعها -ففيه: ضدُّ مافي صلتها...

ونجد -بعد ذلك- التَّشريع الإسلاميَّ، يُطابق ماجاء على لسان نصير الرَّسول(ص)، فيحضُّ على صلة الرَّحم، «ولو بالسَّلام»، ويُعلِّل ذلك بمثل هذا التَّعليل...

وينهاهم عنِ البغي والعقوق، فهما: معولا هـدمٍ في المجتمـع، يأتيـان علـى قيـم الإنسانيَّة، ويمحوان منها الأثـر، وهـمُ العـبرة في مَـنْ هلـك -قبلهـم- مِـنَ القـرون الكثار...

وأمرهم بإجابة دعـوة الدَّاعي، وإعطـاء السَّائل، فهمـا يضمنـان لهـم شـرف الحياتين: الدُّنيا والآخرة...

ففي الأُوْلى: الإسم الباقي، والذِّكر العطر، والثَّناء الخالد، والقدوة الفضلى.

وفي الأُخرى: الجزاءُ الأوفى، والكفَّة الرَّاجحة، في ميزان الأعمال...

وأمرهم بصـدْق الحديـث، وأداء الأمانـة، فهمـا ميزتـان إنسـانيَّتان، وصفتـان خيِّرتان... بهما تكمل خصائص الإنسان ومزاياه، فهما دليلان على رفعـة النَّفـس، وارتفاعها عن وهدة الانحطاط والدَّناءة، وعلى طهارة الضَّمير، فخلجـة الحيـاة فيـه دافقةٌ، ونبعها ثرٌ رويٌّ...

وكلُّ هذه قوانينُ إنسانيةٌ، وفروضٌ إسلاميَّةٌ، جاء بها دِيـن الله، الـذي اختـار لأدائه ابنَ أخيه وربيبَه... فهو دليلٌ على: أنَّ أبا طـالبٍ قـدِ اسـتقى مِـنْ نبْـع هـذه التَّعاليم، وانتهج هذه القوانين، على أنَّها دِين الله...

وقد شاء أنْ يُوصي بها وجهاء قريشٍ -وهم يحوطون به، في لحظاتـه الأخـيرة، مِنَ الحياة- لِيكون إيمانهم، خطوةً أُوْلى، للتَّصديق بمحمَّدٍ(ص).

... فهذه هي التَّعاليم، التي جاء بهـا... وهـي -كمـا رأوا- تعـاليمُ إنسـانيَّةٌ، وقوانينُ رفيعةٌ، لاينالها النَّقد...

لذلك... لم يكد يصل عند هذا الحدِّ -وقد شاء أنْ يقف عنده...

لم يكد يصل عند هـذا الحـدِّ، مِنْ عرضـه للتَّعاليم الإسـلاميَّة، حتى أخـذت وصيَّته منهجاً آخر، غير الأوَّل، فقصـر وصيَّتـه بمحمَّـدٍ ابـن أخيـه، «الجـامع لكـلِّ ماأوصاهم به»، والحامل للرِّسالة العظمى، والتي هذه مِنْ أهدافها.

* *

وهنا -في هذه السُّطور- النُّقطة الحسَّاسة، مِنْ إيمانه السَّافر الصَّريح...

فهو يقول: إن محمَّداً هو الأمين في قريشٍ -وليس الأمين «بالطَّبع» مَـنْ يخون الله...!

وهو الصِّديق في العرب - وليس الصِّديق، بالذي يقول الكذب على الله...

وإنَّ اعترافه له بالصِّدق والأمانة: اعترافٌ له بالنُّبوَّة والرِّسالة...(١)

ومحمَّدٌ -إلى هذا كلِّه- هو الجامع لكلِّ الخصال، التي أوصاهم بها، وحضَّهـم على انتهاجها، فهو المعظِّم لبيت الله، والوصول لـلرَّحم، التَّارك للبغي والعقوق، المجيب لدعوة الدَّاعي، والمِعطاء للسَّائل، الصِّدِّيق في العرب والأمين في قريشٍ...

ولم يقف مِنِ اعترافه بنبوَّة ابن أخيه، عند هذا الحدِّ فحسب!، بل أعقب ذلـك باعترافٍ، أشدَّ وضوحاً، يبيّن عن موقفه مِنْ دِين ابن أخيه، في هذه اللَّحظة الحرجة، وهي خاتمة الأعمال...

فهل -ثمَّة- غير إيمانٍ وإسلامٍ مكينٍ، بعد هذه القولة:

«وقـدْ جاءَنَـا بـأمرٍ، قَبِلَـه الجَنَـانُ، وأنكَـرهُ اللِّسَـــان، مخافَة الشَّنآن»؟.

يقول: إنَّ محمَّداً قد جاء بأمرٍ -ويُريد «الرِّسالة»- قَبِلَه الجَنان، فآمن به، وأقرَّ به...

---

(١) ـ هذه نتيجةٌ حتميَّةٌ، لأنه شهد لمحمَّدٍ بالصِّدق والأمانة المطلقتـين، ومـادام هـذا الصَّادق الأمين، يقول:"إنَّه رسول الله لخلقه"، فإنَّ هذا الشَّاهد له بالأمانة والصِّدق، مصدِّقٌ له في مـايقول، تصديقاً مطلقاً...

ومِنْ هنا.. نرى أنَّ المشركين، الذيـن لم يؤمنـوا لمحمَّـدٍ بالرِّسـالة، والذيـن كـانوا ـ سـابقاً ـ يصفونه بهاتين الصِّفتين، توقَّفوا عن ذلك، منذ صدع بالرِّسالة، وراحوا يصفونه بضدِّها.

فهو ـ لديهم، لعنهمُ الله ـ ساحرٌ وكذَّابٌ، لأنهم لو لم يسلبوه ماكانوا يُضفون عليه ـ سابقاً ـ لكانوا، بذلك وحده، معترفين له بالرِّسالة.

فإن كذَّبوه فيها، كذَّبوا أنفسهم، وهم يرونه الصَّادق الأمين.

لذلك.. لو لم يكن لأبي طالبٍ، سوى اعترافه بصدق وأمانة ابن أخيه ـ بعد صدوعه بالرِّسـالة ـ لكان هذا كافياً، للدَّلالة على إيمان ابن عبد المطَّلب!.

وأنكره اللسان، فلم يجهر بإقراره ذاك، لغايةٍ تفرض عليه هذا الموقف، لِيؤدِّي رسالته، ويُؤدِّي واجبه، وينصر الرِّسالة، النَّصر المؤزَّر...

فقد أنكره مخافة الشَّنآن -والشَّنآن هو: البغض، مع العداوة، وسوء الخلق- ليستطيع أنْ يُؤدي رسالته، ويحوط رسول الإسلام برعايته.

ثم ينظر -مِنْ وراء ستر الغيب- لِيقرأ منه سطراً، نصيع الحرف، فيرى: كيف تمتدُّ دعوة ابن أخيه...وكيف تقرُّ في القلوب، حتى تخضع لها صاغرةً... وكيف تنال هذه الطُّغاة جزاء عنتها وجبروتها، فتذلُّ منها الهامات، وتكون هذه الرؤُوس العاتية، كالأذناب الذَّليلة...وكيف يقوى المستضعفون مِنَ المسلمين... وكيف... وكيف...

ثم يعود، لِيحضَّهم على اتِّباع منهجه، وسلوك لاحب طريقه، فيبذلوا له النُّصرة، ويكونوا له أُولئك الأولياء الخلصان، ولأتباعه أُولئك الحماة الحفظة...

فإنهم إن سلكوا مسلكه، وانتهجوا نهجه، كان الرُّشد إلى جانبهم... وإنْ أخذوا بهديه، واقتبسوا مِنْ نوره، كانوا أولئك السُّعداء...

ثم يأْسف، فيطلب المزيد مِنْ شرف نصرته وحياطته، لِيكفَّ عنه الهزاهز، ويقيه الإعصار، ويردَّ عنه الدَّواهي، ويحميه مِنَ العتاة، ويردَّ عنه الأذى والمكروه.

إنَّها -أي: الوصية- نموذجٌ فذٌّ، للإيمان العميق، والتَّفاني في سبيل المبدإ والمعتقد، لايتنكَّر له، ولايتأخَّر عنِ الدَّعوة إليه، حتى في أدقِّ السَّاعات، وأحرج الظُّروف...!

وقد شاء أنْ يُعلن رأْيه، ويُدلي باعترافه، لِيُسجِّله التَّأْريخ، سلاحاً ماضيَ الشَّفرة، يُجهز على كلِّ فريةٍ، يفتريها الجهلة المغرضون، وتأْتي على أُسس بنائهمُ المنهار...!

* *

هذه الوصيَّة، شاء منها أبو طالبٍ، أنْ تكون عامَّةً لقريشٍ، لِيعلم مَنْ كان يظنُّ منهم، بأنَّه على دِينهم، أنَّه قدِ اهتدى بهدي الإسلام، واستجاب لدعوة رسول ا لله«ص»!.

ثم شاء أنْ يخصَّ بني عبدالمطَّلب، وبني هاشم، بنصحه، لِيتَّبعوا محمَّداً، فينالوا الخير والرُّشد.

[لنْ تزالُوْا بخيرٍ، ماسمعتمْ مِنْ محمَّدٍ، ومَا اتَّبعتُمْ أمرَهُ، فاتَّبعُوْهُ، وأعينُوْهُ ترشدُوْا].

«يا معشرَ بنيْ هاشمٍ! أطيعُوْا محمَّداً، وصدِّقُوْهُ، تفلحُوْا وترشدُوْا»(١)

ثم خصَّ مِنْ بني هاشمٍ أربعةً منهم، لِيبذلوا النُّصرة والفداء، في حياطة الرَّسول«ص»:

أُوصِي بنصْرِ نبيِّ الخيرِ أربعةً:
ابنِيْ عليّاً، وعمَّ الخيرِ عبَّاسا...
وحمزةَ، الأسدَ المخشيّ صولتُهُ
وجعفراً – أنْ تذودُوا دونَهُ النَّاسَا
كونُوْا –فداءً لكُمْ أُمِّي، ومَا ولدَتْ–
فيْ نصْرِ أحمدَ، دونَ النَّاسِ، أتراسا
بكلِّ أبيضَ مصقولٍ عوارضُهُ
تخالُهُ فيْ سوادِ اللَّيلِ مقياسا(٢)

---

(١) ـ السِّيرة النَّبويَّة ٨٦و١:٢٨١ والحلبيَّة ٣٨٨و١:٣٩١، وأبو طالبٍ ٩١، والغدير ـ مسندةً لمصادر عدَّة ـ ٧:٣٦٨.

(٢) ـ الغدير"مسندةً" ٣٤٢و٧:٤٠١.

وذُكر البيتان الأوَّلان في إيمان أبي طالب ١٧، وذكرت الثَّلاثة في الحجَّة ٩٧،٩٨ وارجعها الشَّارح لبعض المصادر.

وذُكرت في :المناقب ١:٣٥، والأعيان ١٢٠،٢:١٢١،و٣٥:١٤٥، ومجمع البيان ٧:٣٧ ،

ليس مِنَ العقل: أنَّ الذي يدعو لإتّباع دعوة محمَّدٍ، وتصديقه، وإعانته، لأنَّ دعوته مصدر: فلاحٍ، ورشْدٍ، وخيرٍ...

ليس مِنَ العقل، في شيءٍ: أنْ يدعو للرُّشد والفلاح، والخير... والتّصديق بدعوة مَنْ جاء بها... مَنْ لم يكن ذلك المتّبِع المؤْمن...!

ليس مِنَ العقل: أنَّ الذي يعترف لدعوةٍ بالرُّشد، والفلاح، والخير، يكون كافراً بها، ولايأخذ بهديها... بل يعمَه -والعياذ با لله!- في الضَّلال... ويسدر - وأستغفر ا لله!- في الغيِّ...!

* *

بتلك السُّطور النيِّرة، الملتهبة الإيمان، والمضمَّخة بطيب المعتقد، والسَّافرة عنِالمبدأ -اختتم أبو طالبٍ، صفحة حياته المشرقة، النّصيعة البياض...

اختتم صفحة حياته، المليئة بالجهاد والتّضحية، في سبيل الدِّين الحنيف، بكلماتٍ، يغمرها الإيمان السَّافر، والدَّعوة الطيِّبة، والوصايا المكرورة، لنصرة الرَّسول، وحياطته...

فأيُّ رجلٍ مؤْمنٍ هذا...؟!

وأيُّ نصيرٍ فذّ، ورداعٍ أمينٍ...؟!

الجزء الثاني

في ذمَّة التَّأريخ

بعد الموت

ماكان الرسول«ص» -وهو مثال: الوفاء، والعدالة، والإنصاف- بالجحود، الذي يُنكر فضل ذي فضلٍ، أو يتناسى معروف ذي معروفٍ...

لذلك... كان أثر موت أبي طالبٍ، في نفسه عميقاً، انعكس على صفحة وجهه... فجمد أمام شدَّة الأمر الواقع، وأحسَّ بالفراغ، الذي سيخلّفه عمُّه، بعد حياته...!

فلم يكد يُلقي عليه الإمام عليٌّ، نبأ الفاجعة -كما حدَّث عن عليٍّ: عبيد الله ابن أبي رافع- حتى انهمرت عيناه بالدُّموع الغزار...

وبعد أنْ كفكف الدُّموع، نَبَرَ بصوتٍ خاشعٍ، ورنَّةٍ حزينةٍ، يأمر عليّاً:

«اذهبْ، فاغسلْهُ، وكفّنْهُ، وواره - غفرَ الله لَهُ ورحمَهُ...!»(1)

وهذا دليلٌ -إلى جانب دلائل ودلائل، تأبى الحصر- على إيمان هذا الشَّيخ الكريم.

فالرَّسول يأمر عليّاً -ولانظنُّ أحداً، يُخالجه الشَّكُّ في إسلام عليٍّ «؟!»- بأنْ يغسل أباه. وليس الإسلام، بالذي يُجيز للمسلم: أنْ يغسل كافراً...

والرَّسول يستغفر الله لعمِّه، ويدعو له بالرَّحمة والغفران- والنَّبيُّ شديدٌ على الكافرين، بالمؤْمنين -وحدهم- رؤوفٌ رحيمٌ...!

وإذ ذهب عليٌّ، وأنجز غسْل أبيه، وحُملتْ جنازة نصير الإسلام، على أعناق الرِّجال، عاد عليٌّ، لِيُنهي للرَّسول الخبر... فقام الرَّسول، واعترض الجنازة، لِيشيِّع عمَّه بآيات المدح والإطراء، ويفي له بحقِّه على الرِّسالة الإسلاميَّة:

---

(1) - ذُكر ذلك في السِّيرة النَّبويَّة 1:84 - مرويّاً عن: أبي داوُود: والنَّسائي، وابن الجارود، وابن خزيمة - والغدير 3:99، و 7:373 - عن طبقات ابن سعد، والواقديِّ، وابن عساكر، والبيهقيِّ، وسبط ابن الجوزيِّ، والبرزنجيِّ، وغيرهم - وشيخ الأبطح44، عن مصادره، والحجَّة 67، ومعجم القبور 1:204، وتذكرة الخواصِّ 10، وإيمان أبي طالبٍ 10، وفي أعيان الشيعة 39:161:

[امضِ فتولَّ غسلهُ، فإذا رفعتَهُ على سريرِهِ، فأعلمنيْ].

«وصلتْكَ رحمٌ –يا عمُّ!– وجُزيتَ خيراً!، فَلَقَدْ ربَّيتَ، وكفلتَ صغيراً، ونصرتَ وآزرتَ كبيراً»[1].

وسار مع الجنازة، حتى إذا أُلحد، وقف عليه، فقال:

«أمَا وا للهِ! لأستغفرنَّ لكَ، ولأشفعنَّ فيكَ، شفاعةً، يعجبُ لَهَا الثّقلانِ»[2].

فالرَّسول(ص): يذكر مآثر عمه، وحسن عمله، فيدعو له بجزاء الخير... ثمَّ يستغفر ا لله له، ويعدِه بشفاعةٍ يعجب لها الثّقلان...!

وماعسى أنْ تكون هذه الشّفاعة، التي تُعجب الثّقلين...؟!

لِنفرض –وفرض المحال، ليس بالمحال– أنّ أبا طالبٍ [وأستغفر ا لله، والحقّ، والضّمير الواعي، والوجدان!]، لم يكن مؤْمناً، ولم يُحطِ الرّسول بنصره ومؤازرته، فشفع له الرَّسول، وأدخله الجنّة... فإنَّ هذه الشّفاعة، ليست بالتي تُعجب الثّقلين... على أنَّ الرَّسول ليس بالذي يشفع في كافر!.

أمّا أنَّ الجنة، هي جزاءٌ –باستحقاقٍ– لعمله الطّيِّب... فإنَّ شفاعة الرّسول إليه، هي فوق دخوله الجنّة –وهو مِنْ أهلها– وهي التي تُعجب الثّقلين...!

وقد شاء الرَّسول، بقولته هذه –فوق وفائه لحقِّ عمِّه، وقيامه بواجبه– أنْ يُزيل الظّنَّ الآثم، مِمَّنْ لم يكن بإيمان أبي طالبٍ على معرفةٍ، نتيجةً لِتستُّره، بإيمانه، في بعض الأحايين، حين مالا تسمح بالجهر به الظُّروف السُّود، والمحن الصِّلاب، لِيُؤدي بهذا الكتمان، مايعود على صاحب الدَّعوة، بالخير العميم...

* *

---

(1) ـ النَّهج الحديديُّ ١٤ ٣:٣١، والبحار٤٤٥،٥٢٣،٥٢٩ :٦، وشيخ الأبطح "مسنداً: ٤٣، والغدير ٣٧٤و ٧:٣٨٧ "مسنداً" والحجَّة ٦٧، وأبو طالبٍ ٨٩، ومعجم القبور ١٩١و٢٠٤ :١، وتفسير عليٍّ بن إبراهيم ٣٥٥، وتذكرة الخواصِّ ١٠، وإيمان أبي طالبٍ ١٠، والأعيان ١٣٩ و١٦١ :٣٩.

(2) ـ المصادر الخمسة الأُوْلى، ومعجم القبور ١:٢٠٤، وإيمان أبي طالبٍ ١٠ ـ وقد أسنده الشّارحُ للإصابة وغيره ـ والأعيان ٣٩:١٦١.

ويُتبع الرَّسول قولته التَّأبينيَّة -تلك- بهذه النّدبة الحزينة:

[وَأبتاه! وأبا طالباه! واحزناه عليكَ، يا عمَّاه!.
كيفَ أسلو عنْكَ، يامَنْ ربَّيتَنِي صغيراً، وأجبتنِيْ كبيراً،
وكنتُ عندَك بمنزلةِ العينِ مِنَ الحدقةِ، والرُّوحِ مِنَ
الجسدِ](1).

وهذه النّدبة -هي الأُخرى- شهادةٌ صريحةٌ مِنَ الرَّسول، بإيمان أبي طالبٍ:

«وأجبتَنِيْ كبيراً».

ولْنتصوَّر هذا التَّعبير الدَّقيق... فهو يقول:

إنَّه كانَ عند عمِّه -ومكانه مِنْ نفسه- بمنزلة العين، وهي: مصدر النُّور، والعدسة الباصرة، التي تعكس ماترى، وبفقدها، يفقد الإنسانُ النُّور، فلا يُبصر الضِّياء، بل يغمره الظَّلام الأفحم... وأيَّة قيمةٍ للحدقة، بعد فقْد النُّور...؟!

وهو -أيضاً- بمنزلةَ الرُّوح مِنَ الجسد... الرُّوح التي تخفق بالحياة، وبدونها يكون الجسم خشبةً باليةً، لاتسمع، ولاتعي...! بل تفقد قيمتها الإنسانيَّة، وتتحوَّل عن قيمها المعنويَّة...

وليس للجسم -بعد ماتُبارحه الرَّوح- سوى أعماق القبر، يُوارى منه: الأثر الكريه، واللَّون الحائل، والمنظر البشع، والرَّائحة الخانقة...!

إنه تصويرٌ دقيقٌ، يُعطينا مدى حبِّ أبي طالبٍ للرَّسول، بشهادة الرَّسول ذاته...!

ولن تكون مكانة الرَّسول -في قلب امرىءٍ- بهذه المكانة، وذلك القلب، لايستجيب لدعوته، ولايُصدِّق رسالته... فإنَّ ذلك أبعد وقوعاً مِنَ المحال!، إنْ كان بعد المحال، ماهو أبعد منه!.

* *

---

(1) ـ شيخ الأبطح ٤٤، مسنداًعنِ المجلسيِّ، عنِ المفيد؛ وعنِ ابن حجر في إصابته ٧:١١٢ مِنْ طبعة مصر عام ١٣٢٥، وقال :"بتصرُّفٍ واختصارٍ".

أمّا -الآن- وقدِ انهدَّ الحصن، الذي يقي الرَّسول غواشي قريشٍ...

أمَّا وقدِ افترش الأسد الهصور رغام القبر، وأطبق على جسمه اللَّحد الضَّنك... فإنَّ الوحوش -مِنْ قريشٍ- تجد الطَّريق خالياً، وقد تلاشى زئير الأسد، مِنْ حصنه المنّع، لِتنال مِنَ الرَّسول، مالم تنلْه في حياة عمِّه، وقد كان له المانع القويّ... فتناله بألوان الأذى، ومختلف العذاب، وآلم السُّخرية، ولاذع الإهانة والتّنكيل...

لذلك... لم تكن صورةأبي طالبٍ، لِتُزايل خيال الرَّسول، أو تتلاشى مِنْ بين عينيه، وهو يُحسُّ مسيس حاجته إليه...

* *

يدخل -مرَّةً- داره، وقد حثا بعضُ السُّفهاء الترابَ، على رأسه، فتقوم ابنته محزونة القلب، دامعة العين، لِتزيل التُّراب.... فيُصبِّرها الرَّسول، بقوله:

«لاَ تَبكِيْ -يا بنيَّةُ!- فإنَّ ا لله مانعٌ أباكِ».

ويُعقِّب -وقد عاد للماضي، مِنْ حياة عمِّه... وكيف كان ينال مثل هذا السَّفيه، لو كانت باصرة عمِّه، تلتقط ماحدث له اليوم، لِيأخذ بحقِّه، ويردَّ كيد هذا المعتدي الأثيم:

«مَا نالتْ منِّيْ قريشٌ شيئاً أكرهُهُ، حتّى ماتَ أبو طالبٍ!»(١)

وفي كلِّ مناسبةٍ، كانت تندُّ مِنْ شفتيه، مثل هذه القولة، التي تُعبِّر عن حنينه لعمِّه، وتُصوِّر حاجته إليه، وتعرض ماضيه الحميد:

«يا عمِّ! مَا أسرعَ مَا وجدتُ فقْدَكَ...!»(٢)

* *

(١) و (٢) - السِّيرة النَّبويَّة ٨٨و٢٨١ :١ والحلبيَّة ١:٢٩١، والهشاميَّة ٢:٥٨، والطبريُّ ٢:٨٠، وابن الأثير ٢:٦٣، والمناقب ١:٣٨، والبحار ٤٣٠ و٥٢٨ :٦، وشيخ الأبطح ٥١، ومعجم القبور ١:٢٠٢، وأبو طالبٍ ٩١، والغدير - في عدَّة مصادر - ٧:٣٧٧ .

- وذُكرت الكلمة الأُولى في الإمام عليٍّ صوت العدالة ٣٦ - [١:٦٠] والثّانية في الأعيان ٣٩:١٢٧.

لقد شاء الله: أنْ يبتلي رسوله، فقدَّر عليه أنْ: يُواجه محنتين، وتنصبَّ عليه مصيبتان... الواحدة منها تهدُّ الجلَد، وتأتي على القوى... فيفتقد -في أيَّامٍ متقاربةٍ- سندين، طالما شدَّا أزره...

فأبو طالبٍ: بحدبه ورعايته، وحياطته ومنعته... فلا تصل إليه قريشٌ بمكروهٍ، ولايعترضه، دون أداء رسالته، مايصدُّه عنها... فلا يصل إليه الأذى...

وخديجة: بمالها وحنانها، وإخلاصها وتفانيها... فتُساعده على احتمال الشَّدائد، وتُهوِّن عليه الآلام، وتأسو منه الجراح، التي يُدميها الألم القتَّال لصدِّ قريشٍ عنه، وأعمالها القباح معه...

وهاهو ذا يفتقدهما، في وقتٍ عصيبٍ... فيضيق عليه رحيب الفضاء، وتسودُّ في وجهه رقعة الوجود، لولا فيض الله عليه، وثقته به، واتّكاله عليه...

لقدِ افتقدهما، بعد تلك السِّنين الصِّلاب القاسية، التي قضوها في الشِّعب... وكان عمُّه، نيَّف على الثَّمانين مِنْ سنيه، فكانت مليئةً بالعمل الجسيم، مثمرةً بالثِّمار النَّضرة، مخلِّفةً الأثر الحميد، والذِّكر الباقي، والأثر الجميل... قد آتت أكلها، وضاعفت ثمارها...(١)

* *

في ساعة، مِنْ ساعات ألمه، وقد ثار منه الدَّفين، تنبعث مِنْ حنجرته هذه الكلمات المثقَلة بالحزن، والمغمورة بالثِّقة بالله، والأمل في رضاه، والصَّبر على قضائه... والصَّارخة بالشَّكوى لربِّه في ماناله، مِنْ الأذى، والهوان، والآلام.

[اللّهمَّ إليكَ أشكُوْ ضعْفَ قوَّتِيْ، وقلَّةَ حيلتِيْ،

وهوانِيْ على النَّاسِ...

---

(١) ـ اختُلف في: الشَّهر، الذي تُوفي فيه سيِّد البطحاء، بين: رجب، ورمضان، وشوَّال، وذي القعدة.

وفي العام، بين: العاشر، والحادي عشر ـ للمبعث النَّبويِّ..

وفي أيِّهما مات، قبل الآخر: أبو طالبٍ، وخديجة.

وفي عدد الأيام، التي فصلت، بين افتقاد هذا، وهذه..

اللّهمَّ! -يَا أرحمَ الرَّاحمينَ!- أنتَ ربُّ المستضعفينَ،
وأنتَ ربِّيْ، إلَى مَنْ تكلُنِي...؟ إلى بعيدٍ يتجَّهمُنِيْ...؟!
أوْ عدوٍّ ملّكتَهُ أمرِيْ...؟!
إنْ لمْ يكنْ بكَ عليَّ غضبٌ، فلا أبالِيْ...! ولكنْ عافيتُكَ
هيَ أوسعُ لِيْ...
إنِّي أعوذُ بنورِ وجهكَ، الّذي أشرقتُ بهِ الظُّلماتُ،
وصلحَ عليهِ أمرُ الدُّنيَا والآخرةِ، مِنْ أنْ ينزلَ بِيْ
غضبُكَ، أوْ يحلَّ عليَّ سخطُكَ...
لكَ العتبَى، حتّى ترضى...
لاحولَ، ولاقوَّةَ، إلاَّ بكَ...](١)

* *

لم يبقَ له -بعد أبي طالبٍ- مأوىً في مكّة، وقدِ انهدَّ منه الحصن، الذي يقيه الزَّعازع، والكهف الذي يدرأ عنه المكروه، والنَّصير الذي يسخو عليه بالنَّفس والنَّفيس...

وفي غمرةٍ مِنْ غمرات الحزن والألم، يُلقي عليه الملاك، هذا الأمر الصَّادع:

[اخرجْ منهَا -أيْ: مكّةَ- فَقَدْ ماتَ ناصرُكَ].(٢)

---

(١) - الطَّبريُّ ٢:٨١، وابن الأثير٤:٦٤، والحديديُّ ٣:٣٢٢، والحلبيَّة ١:٣٥٣، والنَّبويَّة ١:٢٨٦، والهشاميَّة ٢:٦٢،٦١ والمناقب ١: ٣٨، والبحار ٦:٥٢٩، وشيخ الأبطح ٥٢، وعلى هامش السِّيرة ٣:١٥٠،١٤٩، ومحمَّد النَّبيُّ العربيُّ ٦٦،٦٥ .

وقد ذكره بعض هؤلاء في صورته هذه وآخرون اقتصروا على بعضه.

(٢) - النَّهج ١:١٠، والحجَّة ١٧و٦٤و١٠٣، والبحار ٦:٥٤٣، وشيخ الأبطح ٥١، ومعجم القبور ١:١٩٧، وأعيان الشِّيعة ٣:٧ ق ١، و٣٩:١٢٧ .

ذكرٌ عطرٌ

على لسان الرسول (ص)

لم تكن مواقف أبي طالبٍ، بالتي تُزايل ذاكرة الرَّسول(ص)، ولاصورتـهُ، بـالتي تبرح باصرتَه...

لذلك لم يكد ينساه، ولايزال يذكره الذّكر العطر، ويُثني عليه الثّناء الموفور، ويشكر لـه أعماله الباقية، ومآتيه الخيِّرة، ومواقفه المشرِّفة... لِيفي له، ويحفظ اليد، التي أسداها إليه...

وماكان الرَّسول، بالذي يغضُّ الطَّرف، عن معروفٍ يُسدى... بـل إنـه لَيذكـر ذلك، مكافأةً للجميل -مِنْ ناحيةٍ- وتشجيعاً للعمل، مِنْ جانب الآخرين، لِيحتذوا هذا المنهج الحميد، والمسلك الأبلج -مِنْ ناحيةٍ أُخرى.

* *

أتى الرَّسول أعرابيٌّ، وعليه خطوطٌ مِنَ الأسى، ويُخالطه بريقٌ نفَّاذٌ، مِنْ عينـه، يحملِ الرَّجاء الحلو، والأمل الخضل...! فوقف بين يدي رسول الله(ص)، ليقول له:

[يا رسولَ الله! لقد أتيناك، ومالَنا بعيرٌ يئطُّ، ولاصبيٌّ يصطبح].

وأعقب قوله، فأنشد أبياتاً، يُصوِّر فيها حالتهم المرَّة، تصويراً دقيقاً:

أتينـــاكَ، والعـــذراءُ يدمَـــى لَبانُهَـــا
وقـدْ شُـغلتْ أُمُّ الصَّـبيِّ عـنِ الطِّفـلِ[1]
وألقـــى بكفيَّـــهِ الصَّـــبيُّ، اســـتكانةً
مِنَ الجـوعِ، ضعفــاً، مَـا يمـرُّ ولاَ يحلِـيْ

(١) ـ العذراء: البِكر. اللَّبان ـ بفتح اللّام ـ الصَّدر; أو مابين الثّديين. وهـو تصويـر للمجاعـة، التي اجتاحتهم، فأدمت حتى صدر العذراء!.

ولاَ شـيءَ مِمَّـــا يـــأكلُ النَّـــاسَ عندنَـــا

سوى الحنظلِ العـاميِّ، والعِلهـز الفَسْلِ(١)

وليـــسَ لنَـــا، إلاَّ إليـــكَ، فرارُنَـــا

وأيـــنَ فـــرارُ النَّـــاسِ إلاَّ إلى الرُّســـلِ؟!

فقام الرَّسول الرَّحيم -وقد أثَّرت فيه هذه الصُّورة الباكية- حتى وصل، وهو يجرُّ رداءه، إلى المنبر، فانفجرت شفتاه، عن دعواتٍ رقاقٍ، بعد حمْده لله تعالى، وثنائه عليه:

[اللّهمَّ! اسقنَا غيثاً مغيثاً، سحَّاً طبقاً غيرَ رايثٍ، تُنبتُ بهِ الزَّرعَ، وتملأُ بهِ الضَّرعُ، وتُحيِيْ بهِ الأرضَ بعدَ موتِهَا - وكذلكَ تُخرجُوْنَ].

ولم يُشارف منَ الدُّعاء النِّهاية، إلاَّ والسَّماء تلتمع بالبرق، والأرض تُغسل بالمطر الفيَّاض، فجاء إلى الرَّسول مَنْ يصيح:

«يا رسولَ الله!. الغرقَ...! الغرقَ...!»

فترتفع كفَّان، لايردُّ الله طلبتهما، وتنبس شفتان، لايُخيِّب الله رجاءهما:

«حوالَينَا ولاَ علينَا».

فتنجاب السُّحب عنِ المدينة، بعد تلك الزَّحمة المتراكمة، لِتستدير حولها، وتنعقد كالإكليل...

---

(١) ـ الحنظل، نباتٌ يمتدُّ على الأرض، كالبطِّيخ، وثمره يشبهه، لولا أنه أصغر منه بكثيرٍ، وهو مضرب المثل للمرارة.

العاميُّ: لعلَّه صفةٌ مِنْ صفات الحنظل، أو هو الطَّويل منه.

والعلهز ـ كما في الحجَّة ـ بكسر العين وسكون ثانية وكسر هائه: طعامٌ مِنَ: الدَّم، والوبر، كان يُتَّخذ في المجاعة.

والفسل ـ بفتح فائه ـ الرديء.

ويُروى: [والطهَل الفتل].

وعلى كلتا الرِّوايتين، فهو: تصويرٌ للمجاعة، التي حلَّت بهم، حتى اضطرتهم لأكل مَا لاَيُؤكل..!

وتبلغ مِنَ الرَّسول الفرحة: أنْ تنفرج شفتاه، عن ضحكةٍ ناعمةٍ، تبدو فيها نواجده...

ثم تختلج شفتاه بنبرةٍ، فيها عبير الماضي الحنون:

[للهِ درُّ أبيْ طالبٍ!. لوْ كانَ حيًّا لقرَّتْ عيناهُ. مَنِ الّـذِي يُنشدُنَا شعرَه..؟]

فيقف على قدميه: ذاك الذي حفظ أباه في ابن عمِّه -الإمام عليٌّ «عليه السَّلام»- لِيقول:

يَا رسولَ الله!. لعلَّكَ أردتَ قولَهُ:

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهِهِ
ثِمالُ اليتامى، عصمةٌ للأراملِ

وإذ كان جواب الرَّسول: «أجل!»، راح عليٌّ يُنشده أبياتاً، مِنْ رائعة أبي طالبٍ هذه، والرَّسول -وهو على المِنبر- يُتابع استغفاره لعمِّه الوفيِّ...!

وحينذاك... قام رجلٌ، مِنْ كنانة، لِيُنشد:

لكَ الحمدُ، والحمدُ مِمَّنْ شكرْ
سُقينَا بوجهِ النَّبيِّ المطرْ

دعَا الله -خالقَهُ- دعوةً
إليهِ، وأشخصَ منهُ البصرْ

فلمْ يكُ، إلاَّ كإلقا الرِّدَا،
وأسرعَ، حتَّى رأيْنَا الدُّرَرْ

دفاقُ العزاليِّ جمُّ البُعاقِ
أغاثَ بهِ الله عليَا مُضَرْ

فكانَ -كمَا قالَهُ عمُّهُ
أبوْ طالبٍ: أبيضٌ، ذوْ غرَرْ

بـــهِ ا للهُ يســـقيْهِ صـــوبَ الغمـــامِ

وهـــذا العيـــانُ لـــذاكَ الخـــبَرْ...(١)

* *

وهـل لنـا أنْ نقـف –هنا– عنـد (استغفار الرَّسول(ص) لعمِّـه، وقـد واراه الموت)؟!.

وليس ذكْرُه له، عند كلِّ مناسبةٍ تمرُّ، إلاّ لأنّه يشغل منه البـال، وهـذه أعمالـه الحسان، تُجدِّد ذكرَه عند الرَّسول...؟

« للهِ درُّ أبيْ طالبٍ...!–الخ»(٢):

كلماتُ عطرةٌ، يُضمِّخها طيب الاعتراف والإطراء... فالرَّسول يعـرف أنَّ أبـا طالبٍ، لَتقرُّ منه العين، لو شهد هذه المأْثرة للرَّسول...

«و لله درُّه!» دعاءٌ وإطراءٌ له، مـنِ ابـن أخيـه –والرَّسـول لايُطـري مَـنْ ليـس أهلاً، ولايذكر مَنْ لايستحقُّ الذِّكر...

وهو يُلاحق الإستغفار لعمِّه، في الوقت الذي ينشده عليٌّ شعر أبيه –والرَّسـول لايدعو ا لله بالمغفرة، لِمَنْ لم يعمرِ الإيمانُ قلبَه...

* * *

إنَّ الرَّسول –وقد رعى لأبي طالبٍ يده– لَيحفظها له في ولده، وهو يقول:

«يُحفظُ المرءُ فيْ ولدِهِ»...

ومَنْ أولى مِنَ الرَّسول، مِنْ تطبيق أقواله، على أفعاله؟!.

---

(١) – الحديديُّ ٣١٦ :٣ والحجَّة ٨٨ – ٩٠، والبحـار ٦:٣٨٨، وشيـخ الأبطـح ٤٥،٤٦، الغدير ٣٧٥،٣٧٦ :٧ ـ مسندةً لمصادر عدَّةٍ ـ ٣،٤:٢ ، والأعيان ١٥١، ١٥٢ :٣٩.

وذُكـرتِ الحادثـة ـ بإيجازٍ، وبـدون ذكـر الشِّعـر ـ في: السِّيرة الهشـاميَّة ١:٣٠٠، والنَّبويَّـة ١:١٨١، وأبو طالبٍ ٩٣ .

(٢) – للبرزنجيِّ كلمةٌ قيِّمةٌ ـ جديرةٌ بالإلتفات ـ تتَّصـل بهـذا الموضـوع، موجـودةٌ في الغدير ٧:٣٧٦ .

مرَّةً، يقول لعليٍّ «عليه السَّلام»:

[ليسَ أحدٌ أحقَّ منكَ بمقامِيْ... لِقِدمِكَ فيْ الإسلام، وقربِكَ منّيْ، وصهرِكَ ليْ، عندَكَ فاطمةُ سيِّدةُ نساءِ المؤْمنينَ.

وقبلَ ذلكَ، مَا كانَ مِنْ حمايةِ أبيكَ _أبيْ طالبٍ- وبلائِهِ عنديْ، حينَ نزَلَ القرآنُ، وأنَا حريصٌ أنْ أرعَى ذلكَ، فيْ ولدِهِ، بعدَهُ!](١).

أرأيت كيف كانت منزلة أبي طالبٍ -لدى الرَّسول- إذ يعدُّ بلاء أبي طالبٍ، لديه، حين نزول القرآن، مِنَ الميزات التي تميِّزُ عليّاً، وتفرض عليه: أنْ يراه أحقَّ إنسانٍ بمقامه -وهو مقام النُّبوَّة- ويعدُّها ضمن ميزاته الأُخرى، مِنْ: قديم سابقته، وقرابته منه، ومصاهرته له...

ويُبدي إليه حرصَه على أنْ يرعى يد أبي طالبٍ، في ولده، بعده، لِيفي إليه بحقّه وفضله، ويُجازيه على عمله الأسمى...

فليس غير عليٍّ، خليفةً للرَّسول...

وليس مَنْ هو أحقُّ منه، بعد كلِّ هذه المميزات...!

* *

ومرَّةً أُخرى، يقول لعقيلٍ:

[ياأبَا يزيدَ! إنّيْ أُحبُّكَ حبَّينِ: حبّاً لقرابتكَ منّيْ، وحبّاً لِمَا كنتُ أعلمُ مِنْ حبِّ عمِّيْ إيّاكَ](٢).

ماهذا الحبُّ الطّاغي مِنَ الرَّسول، لعمِّه...؟!

---

(١) ـ ينابيع المودَّة ٢٦٣ [٢:١٤١]، وغاية المرام ٤٩٧ ـ مسنداً فيها عن أبي إسحاق الثّعلبّي، في تفسير القرآن ـ والغدير ٣٧٨و٣٨٨ :٧، مسنداً للحافظ الكنجيِّ في الكفاية ص ٦٨، مِنْ طريق الحافظ ابن فنجويه، عن ابن عبَّاسٍ، مرفوعاً.

(٢) ـ الاستيعاب ٣:١٥٧، والحديديُّ ٣:٣١٢، والحجَّة ٣٤، وتذكرة الخواصِّ ١٥،ومعجم القبور ١:٢٠٢، والغدير ٣٧٧ و٣٨٧ :٧ مسنداً لعدَّة مصادر.

فهو : يُحبُّ عقيلاً، لمساس رحمه به –هذا حبٌّ...

ويُحبُّه –وهو الحبُّ الآخر– لأنهُ يعلم بالغ حبِّ عمِّه إليه...

فهو يرى: أنَّ حبَّ عمِّه لشخصٍ، يفرض عليه هو أنْ يُحبَّه... فمحبوب عمِّه، محبوبٌ لديه، والقريب منه، قريبٌ إليه...

وإنَّها لشهادةٌ صادقةٌ، تدلُّنا على بالغ حبِّ الرَّسول لعمِّه... وايُّ حبٍّ، أرفع درجةً، مِنْ هذا الحبِّ، الرَّفيع الذُّرى...؟!

* *

وفي يوم بدرٍ، والمعركة الفاصلة في هياجها، بين: الحقِّ والباطل، بين: التَّوحيد، والشِّرك –خرج أبو عبيدة بن الحرث بن المطَّلب، لِيلقى المشركين، منافحاً عن عقيدته، مجاهداً عن دِينه، فقطع رجلَهُ عتبةُ بن ربيعة –وقيل: شيبة– فانقضَّ عليه سيفان مصلتان، مِنْ سيوف ا لله– هما:عليٌّ، والحمزة– فاستنقذا صاحبهما، وخبطا عدوَّهما، بصارميهما الحديدين، واحتملا صاحبهما إلى العريش، حيث هناك الرَّسول(ص)...

وإنَّ مخَّ ساق أبي عبيدة –وهو يسيل– لم يشغله عن أنْ يفتح عينين، قد ذوت منهما لهبة الحياة، ليقول بصوتٍ مرتعشٍ:

– يا رسولَ ا لله! لو كان أبو طالبٍ حيّاً، لَعلم: أنَّه قد صَدَقَ في قوله:

كذبتُمْ –وبيتِ ا للهِ!– نُخليْ محمَّداً
ولَّما نُطاعنْ دونَه ونُناضلِ!
وننصرَهُ، حتّى نُصرَّعَ حولَهُ
ونذهلَ عنْ أبنائِنَا والحلائلِ

فهاجت برسول ا لله ذكرى عمِّه، وتفتَّحت نفسه المشرقة، لِذكره، وراح لسانه يلهج بالاستغفار له، ولأبي عبيدة معاً(١).

* * *

---

(١) ـ الحديديُّ ٣١٦و٣٣٤ :٣، و ٣٠٥، ١:٣٠٦ والحجَّة ٨٤،وشيخ الأبطح ٤٧،٤٨، والأعيان ٣٩:١٥١ .

وذُكرت في البحار ٦:٥٩٥، بصورةٍ تختلف عن هذه.

ثم تحين -ذلك اليوم- مِنْ رسول الله نظرةٌ، بعدما دارتِ الدَّائرة على قريشٍ، وتكشَّف الموقف عن هزيمتها النُّكراء...

تحين مِنَ الرَّسول هذه النَّظرة، الهادئة الرَّزينة، وهي تنتقل بين هذه الجثث الهامدة، التي خمدت فيها جذوة الحياة، وكانت تحرق الأرَّم، وتُضرم وقيد النَّار، وتُسعر أُوار الحرب على الرَّسول...

تحين هذه النَّظرة منه(ص)، فيرى إلى جانبه أبا بكرٍ، ليقول له:

«لوْ أنَّ أبا طالبٍ حيٌّ، لَعلِمَ أنَّ أسيافَنَا قَدْ أخذَتْ بالأماثلِ»(١).

يُشير إلى بيت أبي طالبٍ، مِنْ رائعته اللاَّمية:

كذبتُمْ -وبيتِ اللهِ!- إنْ جدَّ مَا أرَى
لَتلتبسَنْ أسيافُنَا بالأماثلِ

* *

وهذا العبَّاس، يسأل الرَّسول:

- يا رسولَ الله! أترجُوْ لأبيْ طالبٍ؟.

فيكون جواب الرَّسول بهذه اللَّهجة المطمئنة:

-كلَّ الخيرِ أرجُوْ مِنْ ربِّيْ(٢).

* *

وقد صحَّح الرُّواة حديثاً، ندَّت به شفتا الرَّسول (ص)، وهو

---

(١) - الأغاني ١٧:٢٨، والغدير ١:٣٧٨، و٢:٤، عن الأغاني، وطلبة الطَّالب ٤٨. وأُشير إليها في الشَّرح الحديديِّ ٣:٣٠٩ .

(٢) - الحديديُّ ٣:٣١١، والحجَّة ١٥، وتذكرة الخواصِّ ١٠، ومعجم القبور ١:١٨٩، والغدير ٣٧٤و٣٨٧ :٧ - عن طبقات ابن سعدٍ، بسندٍ صحيحٍ، وعن مصادر عدَّةٍ غيره - والأعيان ٣٩:١٣٦ .

[إذا كانَ يومُ القيامةِ، شفعتُ لأبِيْ، وأمِّيْ، وعمِّيْ -أبيْ طالبٍ- وأخٍ لِيْ كانَ فِيْ الجاهليَّةِ].

وقد وَرَدَ هذا الحديث، في صورٍ مختلفةٍ، لكنه ينتهي إلى غايةٍ واحدةٍ، ولايختلف في مفاده(١).

* *

إنَّ هذه الأحاديث، لَتفرض علينا أنْ نُقرَّ بإيمان نصير الرَّسول«ص»، وهذا هو الرَّسول لايذكره، إلاَّ بعاطر الثناء، ولايُجازيه، إلاَّ بخير الجزاء، فيدعو له ربَّه أحرَّ الدُّعاء...! والرَّسول لاينساق مع عاطفةٍ، ولايذكر فرداً، إلاَّ بعمله، إنْ خيراً، أو شرّاً.

ولو كان ذكْر الرَّسول واستغفاره لعمِّه، وهو لم يكن مسلماً -وهذا مالايجوز على الرَّسول، بالطَّبع- لكان قد وقع الرَّسول«ص»- (وأستغفر الله) في مانهاه الله عنه، في عدَّة آياتٍ:

١- ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمَاً يُؤمِنُونَ باللهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، يُوادُّوْنَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوْا آباءَهُمْ، أوْ إخْوانَهُمْ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ- أُوْلئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإيمَانَ﴾- الخ(٢)..

فالقرآن الكريم، نفى وجود قومٍ، يُؤمِنون با لله واليوم الآخر، وتكون في قلوبهم ذرَّة مِنْ حبٍّ، لِمَنْ يُعادي الله ورسوله، حتى ولو كانت بين هذا المؤمن، وذاك الجاحد، روابط النَّسب واشجةً، وتشدُّهما أواصر القربى...

لقد جعل ذلك، مِنْ باب «النقيضين» اللَّذين لايجتمعان في حالٍ...

---

(١) - النَّهج ٣:٣١١، وتفسير عليٍّ بن إبراهيم ٣٥٥و٤٩٠، والحجَّة مِنْ ص ٣ إلى ٥ - وهي الصحيفة التي رُصدت "٩" في الكتاب، غلطاً، وعليها بُني ترقيم الكتاب - والغدير ٣٧٩ و٣٨٦ :٧، مسنداً لمصادر عدَّةٍ.

(٢) - المجادلة ٢٢ .

فلا يقع الإيمان، وحبُّ الجاحدين، في قلبٍ... وليس يتّسع، إلاّ لأحدهما فحسب.

ولعلَّ مِنَ المناسب: أنْ نأتي على مافسَّر به الزَّمخشريُّ، هذه الآية الكريمة:

(خُيِّل أنَّ مِنَ الممتنع المحال: أنْ تجد قوماً مؤمنين يُوالون المشركين. والغرض به: أنَّه لاينبغي أنْ يكون ذلك.. وحقُّه أنْ يمتنع، ولايُوجد بحالٍ، مبالغةً في النَّهي عنه، والزَّجر عن ملابسته، والتَّوصية بالتَّصلُّب في مجانبة أعداء الله، ومباعدتهم، والاحتراس مِنْ مخالطتهم ومعاشرتهم.

وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله:

﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾.

وبقوله:

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾.

وبمقابلة قوله:

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾.

بقوله:

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ﴾.

فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص، مِنْ موالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه، بل هو الإخلاص بعينه)– الخ[1].

وقد ذكر بعد ذلك حديثاً، عنِ الرَّسول، هذا نصُّه:

(اللّهمَّ لاتجعلْ لفاجرٍ ولاَ لفاسقٍ عنديْ نعمةً...! فإنِّي وجدتُ فيْ ماأُوحيَ إليَّ: لاَتَجِدُ قَوْماً)[2].

وفي مجمع البيان: (والمعنى: لاتجتمع موالاة الكفّار مع الإيمان)[3].

* *

---

(١) و (٢) ـ الكشّاف ٤٤٤: ٢ (٣٩٦: ٤) وتجد الحديث في تفسير ابن كثير ٣٣٠: ٤ .

(٣) ـ ١٩ : ٢٨ .

ب- ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ، تُلقُونَ إليْهِمْ بِالْمَودَّةِ﴾(١).

لقد نهى الله -في هذه الآية- المؤمنين: أنْ يتّخذ الكفّار أصدقاء لهم، أو يُوالوهم، ويخفق قلبهم بالحبِّ وتنطوي منهم الجوانح منهم على المودَّة لهم، أو يستنصرونهم وينصرونهم.

* *

ج- ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: لاتَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإخْوانَكُمْ أَوْلِيَاءَ، إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيْمَانِ. ومَنْ يَتَولَّهُمْ مِنْكُمْ، فَأُولئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ. قُلْ: إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُوْلِهِ وَجِهَادٍ فِيْ سَبِيْلِهِ، فَتَربَّصُوْا حتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، وَاللهُ لايَهْدِيْ الْقَوْمَ الفَاسِقِيْنَ﴾(٢).

ففي الآية الأُولَى، نهى المؤْمنين أنْ يتّخذوا آباءهم وإخوانهم -وهمُ المرتبة الأُولى التصاقاً وقرباً للمرء- أولياء، إذا كان هؤلاء، مِمَّنْ يفصل بينهمُ الكفر...

فإنَّ الإيمان يقطع حبل المودَّة، بين: المؤْمن والكافر، حتى لو كان هذا الكافر أباً للمؤْمن، الذي هو خالقه الثّاني، وله على ابنه فضل الإيجاد والرِّعاية- بعد الموجد الأوَّل.

ثم قال: إنَّ موالاتهم وحبهم، يُخرجهم مِنْ حظيرة الإيمان، لِيُضيفهم إلى عداد الظّالمين.

وفي الآية الثّانية جعل فيها حدّاً فاصلاً... فإمَّا أنْ يرغبوا إلى الله ويدَعوا هؤلاء... وإلاّ فلْيتربَّصوا، حتى ينالوا الجزاء، ويروا أمر الله فماهم سوى قومٍ فاسقين!.

---

(١) -الممتحنة: ١ .

(٢) - التوبة: ٢٣، ٢٤ .

وقد ذكر الزّمخشريُّ، بعد تفسير هذه الآية، أنَّ النّبيَّ«ص»، قال:

[لايطعمُ أحدُكُمْ طعْمَ الإيمـان، حتّى يُحبَّ فيْ ا للهِ، ويُبغِضَ فيْ ا للهِ، حتى يُحبَّ في ا لله أبعدَ النّاسِ، ويُبغضَ فيْ ا للهِ أقربَ النّاس إليهِ](١).

[وهذه هي آيةٌ شديدةٌ، لاترى أشدَّ منها، كأنها تنعى على النّاس ماهم عليه، مِنْ رخاوة عقْد الدِّين، واضطراب حبل اليقين...

فلْيُنصف أورع النّاس وأتقاهم مِنْ نفسه، هل يجد عنده مِنَ التّصلُّب في ذات ا لله، والثّبات على دِين ا لله، مايستحبُّ له دِينه على الآباء والأبناء...؟]الخ(٢).

وفي مجمع البيان:

[إنَّ أمر الدِّين مقدَّمٌ على النّسب. وإذا وجب قطع قرابة الأبوين فالأجنبيُّ أوْلى] – [قال الحسن: مَنْ تولّى المشرك، فهو مشركٌ](٣).

* * *

د-هـ- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِيْ اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ – أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ﴾(٤)

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، مَا اتَّخَذُوْهُمْ أَوْلِيَاءَ. وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُوْنَ﴾(٥).

ففي تلك الآية: جعل مِنْ شروط الإيمان: هذا التّذلُّل والمحبّة –بينهم– والتّآلف والتّقارب، ليكونوا يداً واحدةً، كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضه بعضاً...

---

(١) و (٢) ـ الكشاف ٥٤٨ «٢٠٢، ٢٠١:٢».

(٣) ـ ٣٤: ١٠ .

(٤) ـ المائدة: ٥٤ .

(٥) ـ المائدة: ٨١ .

وهذه العزّة والقوّة والبطش، على الكفّار المشركين، لئلاّ يعيثوا في هذا البنيان، المشتدّ الصّليب، ويفتّوا هذه الوحدة المتماسكة...

وفي المجمع: [رحماءُ على المؤمنين، غلاظٌ شدادٌ على الكافرين، وهو مِنَ الذّلّ، الذي هو اللّين، لامِنَ الذُّلِ، الذي هو الهوان.

قال ابن عبّاس: تراهم للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيّده، وهم في الغلظة على الكافرين كالسَّبع على فريسته](١).

وفي الآية الثّانية: نفى عن أُولئكَ الإيمانَ، لِموالاتهمُ الكفار، واتّخاذهم إيّاهم أولياء، فاستحقّوا بذلك غضب الله، وسخطه عليهم، فخلّدهم في العذاب المهين - كما في آيةٍ مرَّت، ممّا ذكرنا- وأنَّ الأكثرية مِنْ هؤلاء لَفسقاء...

وإنَّ [موالاة المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم، وإنَّ إيمانهم ليس بإيمانٍ، ولكنهم متمرِّدون في كفرهم ونفاقهم](٢).

وقد علَّل [وصفهم بالفسق - وإنْ كان الكفر أبلغ في باب الذّمّ- لأمرين:

أحدهما: أنّهم خارجون عن أمر الله، وهذا المعنى لايظهر بأنْ يصفهم بالكفر.

والآخر: أنَّ الفاسق في كفره هو المتمرِّد فيه. والكلام يدلُّ على: أنّهم فاسقون في كفرهم، أيْ: خارجون إلى التّمرُّد فيه](٣).

* * *

و= ﴿مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ، والَّذِينَ مَعَهُ: أشِدَّاءَ عَلَى الكُفَّار، رُحَماءَ بَيْنَهُمْ﴾(٤).

وذكر المفّسرون -بعد هذه الآية- قولةً، عن الحسن:

---

(١) - ١٢٢: ٦ .

(٢) - الكشّاف ٤٣٠: ١ [٥٢٠: ١].

(٣) - المجمع ١٧١: ٦ .

(٤) - الفتح - ٢٩ .

[بلغ مِنْ تشدُّدهم على الكفّار: أنّهم كانوا يتحرَّزون مِنْ ثياب المشركين، حتى لاتلزق بثيابهم، ومِنْ أبدانهم، حتى لاتمسَّ أبدانهم](١).

وبعد أقوالٍ ذكرها الزَّمخشريُّ، يقول:

[ومِنْ حقِّ المسلمين في كلِّ زمانٍ، أنْ يُراعوا هذا التَّشدُّد، وهذا التَّعطُّف، فيتشدَّدوا على مَنْ ليس على ملّتهم ودِينهم، ويتحاموه(٢)، ويُعاشروا إخوتهم في الإسلام، متعطّفين بالبرِّ والصِّلة، وكفِّ الأذى، والمعونة، والاحتمال، والأخلاق السَّجيحة](٣).

ولكن... فَيَا لِتَعس حظِّ المسلمين!، وهاهم أُولاء يعملون على عكس هذه القولة، وقدِ انقلبت -لديهم- الآية، فكانوا رحماء بغيرهم، أشدَّاء على أنفسهم...!

وإنَّ بعضهم لَيُقدِّم البعض، ضحيَّةً للعدوِّ...! وينال بعضُهُمُ البعضَ، مالا يناله الجاهل، في نفسه، أو في عدوِّه...!

---

(١) ـ المجمع ٨٠: ٢٦، والكشَّاف ١١٥: ٣ [٣٧٥: ٤].

(٢) ـ ليس يفرض الإسلام هذا التَّشدُّد ـ الذي يُظنُّ منه: المقاطعة، أو المحاربة ـ على كلِّ مَنْ ليس مسلماً، حيث جعل لأهل الذِّمَّة حقوقاً، كحقوق المسلمين، في حفظ: أموالهم، وأنفسهم،وأعراضهم..!وقنَّنَ لذلك القوانين الرَّفيعة المثلى، وهو الدِّين السَّامي، الرَّفيع الذُّرى..

ولكنَّ هذا التَّشدّد يفرضه على كلِّ مَنْ لم يقم بالحفاظ على تلك القوانين، ولم يقم مِنْ جانبه بما يجب عليه..

فهنا... يجب مكافحته، وهو العدوُّ الصَّريح، أو العدوُّ المتستِّر، المبطِّن بالغشِّ والنِّفاق.

على أنه فرقٌ بعيدٌ، بين أهل الذِّمَّة ـ وهم مِنْ أهل الكتاب، موحِّدون للخالق ـ وبين المشركين، الذين يُشركون في العبادة، غيرَ الله سبحانه، أو الكفَّار، الَّذين وصل بهم الجهل إلى رواسبه، فأنكروا الخالق العظيم..!

فهؤلاء ليس يُمكن ـ بحالٍ مِنَ الأحوال ـ سوى التَّشدُّد معهم، والتَّحامي عنهم..!

وهؤلاء همُ المعنيُّون ـ بصورةٍ أخصَّ ـ بهذه الآيات الزَّاجرة النَّاهية.

وأبو طالبٍ ـ في رأي المغرضين المفترين ـ ليس مِنْ أهل الكتاب. وإنَّما هو مِنْ هؤلاء الكفَّار، أو المشركين ـ وعفوَ الحقِّ والعدل! ـ فهو داخلٌ ـ على رأيهمُ التَّفيه ـ في نطاق المنهيِّ عن: موالاتهم، وقربهم، وودِّهم..!

(٣) ـ الكشَّاف ١١٥: ٣ [٢٧٥: ٤].

في حين أنه يمحض عدوَّه في الدِّين، أوِ الوطن -سواءَ كـان شـرقيّاً، أو غربيّـاً- خالصَ الودِّ، ويبـذل مِنْ أجلـه ماتتطلَّبـه المصلحـة العميلـة، مِـنْ تفـانٍ في الإجـرام والخيانة، فيُضحي ببني قومه، ويُقدِّم وطنه لقمةً سائغةً، لفم العدوِّ المستعمر البغيض، في ثوبه الأحمر الدَّامي، أو ثوبه الأسود المظلم...

وهو -في النِّهاية- لاينال سوى سيِّء الجزاء- وهـو مِـنْ جنـس عملـه- حتـى مِمَّنْ كان له ذلك الذَّنب العميل الحقير، وما لِلذَّنب مِنْ قيمـةٍ، متـى استُغني عنـه، فلا يبقى له سوى البتر...!

وبذلك... انفصمت العرى، وفُتِّتِ الوحدة، وسرت نـار الخلْـف، كمـا ينـدلـع اللَّهب، في الهشيم اليبيس...!

* *

ولْنَعُد إلى موضوعنا، فنُعِد نظـرةً فاحصـةً، في هـذه الآيـات، وفي آيـاتٍ أُخـر، تدور حول هذا الموضوع، وتلمس هذه النَّاحية -شئنا أنْ لا نتقصَّاهـا، فتطـول بنـا الخطى، ويتشعَّب بنا الطَّريق...

نُعيد هذه النَّظرة، لنرى ماتعنيه هذه الآيات الكريمة... ثم نتساءل:

هل يجوز على نبيِّ الإسلام، أو لـه -وهـذه تعاليمـه- أنْ يكـون ذلـك الرَّحيـم بمشركٍ، أو كافرٍ -والعياذ با لله!- لأنه قريبه، فحسب... ويضرب، عرض الجدار، بهذه التَّعاليم التي جاء بها الوحي الصَّادع المجلجل...؟!

وهل يجوز أنْ يتقبَّل دفاع رجلٍ -عنه، وعن دِينه- مِمَّنْ لم يعمر قلبَـه الإيمـانُ، ولم يطمئنَّ للدَّعوة، وهو الذي رُوي عنه:

«اللّهمَّ لاتَجعلْ لفاجرٍ ولاَ لفاسقٍ عندِيْ نعمةً»...؟!

وتعليل ذلك: أنَّ مَنْ أسدى إليه يد المعروف، ومدَّ إليه يد النُّصـرة، كـانت لـه عليه النعمة الفضلى... وحينذاك وجب عليـه الشُّكران والمكافأة، وكـانت لـه في قلبه، منزلةٌ سامقةٌ، ومحبَّةٌ عميقةٌ...

وهذا كلّه يتخالف، وماجاءت به الآيات، التي فيها شدّةٌ، وفيها إنذارٌ، وفيها نفيٌ، وفيها زجرٌ، وفيها وعيدٌ...

اللّهمَّ! إلاّ أنْ نقول: إنّ الرَّسول، لايتمشّى ونصوص دستور ربِّه، ومايتنزّل عليه مِنْ وحي السَّماء...!، فيُخالف حرفيَّة القرآن، وماجاء فيه -وأستغفر ا لله!- لِيتسنّى لنا- حينذاك- القول بكفر مؤْمن قريشٍ، بعدما ثبتت لنا فعاله ونصرته، ومواقفه الصّلاب، في حياطة الرَّسول، ونصرة الدَّعوة، وحفْظ كيانها الوطيد...!!!

وإذ ليس -ثمَّة- مَنْ يقول هذا... فهو على الإعتراف بإيمان أبي طالبٍ لمجبرٌ... وقد سُدَّت عليه السُّبل، بعد أنْ ثبتَ عنِ الرَّسول -هذا الإستغفار، وهذا الذّكر المتجدِّد، والثّناء العطر، والتّمجيد المستمرُّ، والتّعظيم الرَّفيع...

وكلُّ هذا... مع إغضاء النَّظر عنِالعمل، الذي قام به أبو طالبٍ، والاعتراف الذي سجَّله على صفحة الوجود، وشنَّف به مسمع الدهر، يتألّق بنور الإيمان، ويشعُّ بلألاء اليقين...!

على لسان الإمام علي (ع):

إذا ـ انتقلنا إلى الإمام عليٍّ «عليه السَّلام»، لِنجد مايذكر به أباه، فإنّنـا لَنجـد في أقواله ماينضح بـالدَّليل، علـى إيمـان أبيـه، ويُبـدِّد بـألق اليقـين عتمـةَ الشَّـكِّ... ويقضي على المزاعم والتَّقوُّل...

أغمض أبوه عينيه، فجاء للرَّسول، وأنهى إليه خبر فقْدِه، فـألقى إليـه الرَّسـول تعاليمـه، فـائتمر بمـا ألقـى إليـه النَّـبيُّ مِـنْ قـول... فغسَّـل أبـاه، وحنَّطـه، وكفَّنـه، وشيَّعه...

وهل يكون هذا لغير المسلم...؟! أنا لاأدري...!!!

ثم رأى الرَّسول(ص)، وهو يعترض جنازة أبيه، ويُتحفه زكيَّ القـول، وتنهمـر مِنْ عينيه دموع الأسى، وزفير الألم...

ثم تمضي الأيَّام –تباعاً– فيرى الرَّسول في ضائقـةٍ، قـدِ اشـتدَّت عليـه الأُمـور، وتأزَّم به الحال... فلا يلبث أنْ يبثَّ الشَّكوى والألم، لفقد عمِّه الحنون...

وتطوف بعليٍّ صورة أبيه، وتمرُّ بـه مواقفـه مِـنَ الدِّيـن، وذبُّـه عنـه، وحياطتـه للرَّسول، ومنعتـه بـه، فتثـور فيـه كوامـن الوجـد الدَّفـين، وتخزُ جنبـه شـوكةُ الألم المستفحل، فتسيل منه الدُّموع، في انسكابٍ وهو يُتمتم بهذه الأبيات، التي تعكـس لُهبة ألمه الكمين:

أبَـــا طـــالبٍ! عصمـــةَ المســـتجيرِ!
وغيـــثَ المحـــولِ! ونـــورَ الظُّلَـــمْ!
لقـــدْ هَـــدَّ فقـــدُكَ أهـــلَ الحفـــاظِ،
فصلَّـــى عليـــكَ وليُّ النِّعَـــمْ!

ولقّـــاكَ ربُّــــكَ رضوانَـــــهُ

فقـدْ كنـتَ للمصطفَـى خـيرَ ءِ ـمْ(١)

* *

وهكذا تمضي السُّنون... فتعمل أُميَّة عملها السَّيِّء، وتضع الأحـاديث الـزُّور، فيُشاهد منها الإمام عليٌّ شررَ قدْحها، ويمرُّ به شيءٌ مِنْ لهبهـا المحرق -وهـي فاتحة عمرها المسودِّ...

ففي يومٍ كان الإمام عليٌّ، في الرُّحبة، والنّاس حوله، إذ قـام إليـه رجـلٌ، مِمَّـنْ وصل إلى سمعه سوء القالة، وزور الحديث، فَلَبِّسَ عليـه الحـقَّ، بالبـاطل المفـترى... وقال له:

[يا أمير المؤْمنين! إنّك بالمكان الذي أنزلك ا لله، وأبوك معذّبٌ في النّار...؟!]

فتنطبـع صفحـة وجـه الإمـام بـالغضب، وتثـور نفسـه أنْ ترجـف أُميَّـة، هـــذا الإرجاف الدَّنيء، فتنسى كلَّ واجبات الإنسانيَّة، فلا تحفظ ميتاً، قد حاطـه المـوت، وصانه الخلود... وأصبح لايُزاحمها في الحياة، حتى بظلّـه -اللّهـمَّ إلاَّ بـاقي الذّكـر، ورفيع العمل - فلاتكتفي بأنْ تتناسى عمله البـاقي، وفعلـه الحميـد، ومقاومتـه لهـا على شركها ورجسـها، حتـى تضـع في حقّـه، مـايُدنّس صفحـة الصِّـدق، النّصيعـة البياض...!

ويُجيبه الإمام بجوابٍ، يكشف له فيه، عن كذب هذه القولة:

[مَهْ! فضَّ ا للهُ فاكَ!.

والّـذِيْ بَعَـثَ محمَّـداً بـالحقِّ نبيّـاً! لـوْ شَـفَعَ أبـيْ فِيْ كـلِّ مذنبٍ، على وجهِ الأرضِ، لَشَفَّعَهُ ا للهُ...!

أأبيْ معذّبٌ فِيْ النّار، وابنهُ قسيمُ الجنّةِ والنّارِ...؟!

---

(١) ـ الحجَّة ٢٤، وتذكرة الخـواصِّ ١٢، وشيخ الأبطح ٥٠ ـ بـدون الثّـالث ـ ومعجـم القبـور ٢٠٦: ١ ـ بدون الثّاني ـ والغدير ٩٩: ٣ و٣٧٩ و٣٨٩: ٧ ـ مسندةً ـ والأعيان ١٤٠: ٣٩ .

إنَّ نورَ أبيْ طالبِ -يومَ القيامةِ- لَيُطفيءُ أنوارَ الخلائـقِ، إلاَّ خمسةَ أنوارِ...] -الخ(١).

فَمَنْ كان بهذه المنزلة الفضلى، والدَّرجة السَّامقة، حتى أنَّه لَهـو «قسيم الجنَّـة والنَّار»(٢)، لايكون مِنَ الفضل، إلاَّ على اكتمالٍ... وإنه لايليق لذلك، إلاَّ مَنْ كان مِنَ الإيمان ذلك العريق الجذور... لم يُدنَّس بأدناس الشِّرك، ولابأوضار الدَّناءة...

وإنَّه لَمِمَّا ينقصه: أنْ لايكون أبوه مؤْمِنَ القلب، أو أنْ يكون مدنَّس الصَّفحة بالشِّرك... فإنَّه ليعلق به منه، مايُلملم مِنْ فضله، ويُلاشي مِـنْ قيمتـه، ويخـدش مِـنْ منزلته.

* *

ومرَّةً أخرى يقول:

- وا للهِ! مَا عَبَدَ أبيْ، ولاَ جدِّيْ عبدُ المطَّلبِ، ولاَهاشمٌ، ولاعبدُ منافٍ، صنماً، قطُّ!.

- فما كانوا يعبدون؟.

- كانُوْا يُصلُّـونَ إلى البيـتِ، علـى ديـنِ إبراهيـم «عليـهِ السَّلامُ»، متمسِّكين بهِ(٣).

وحدَّث أبو الطُّفيل -عامر بن واثلة- عن عليٍّ «عليه السلام»:

[إنَّ أبْـي حـينَ حضـرَهُ المـوتُ، شـهدَهُ رسـولُ ا للهُ(ص)، فأخبرنِي عنهُ بشيءٍ، خيرٌ لِيْ مِنَ الدُّنيا، ومَا فيهَا](٤).

---

(١) ـ الحجَّة ١٥، وتذكرة الخواصِّ ١١، وشيخ الأبطح ٣٢، والغدير ٣٨٨: ٧، مسنداً لعـدَّة مصادر، ومروياً عنِ الإمام الحسين السِّبط «عليه السلام».

(٢) ـ حديثٌ صحيحٌ متكثِّرُ الرُّواة. وقد أُسند لأبـي بكـرٍ، في الرِّيـاض النَّضـرة ١٧٧و٢٤٤: ٢.

(٣) ـ الغدير ٣٨٨: ٧ ـ مسنداً ـ والعبَّاس ١٨ ـ مسنداً لمرآة العقـول ٣٦٢: ١ ـ ومعجـم القبـور ٢٠٠: ١.

(٤) ـ الحجَّة ٢٣، والغدير ٣٨٨: ٧ .

ومرَّةً أُخرى يقول -ويُوضح السِّرَّ في كتمْ أبي طالبٍ إيمانه:

[كانَ -وا للهِ!- أبُوْ طالبٍ عبدُ منافِ بنُ عبدِ المطّلبِ مؤْمناً مسلماً، يكتمُ إيمانَهُ مخافةً على بنيْ هاشمٍ، أنْ تُنابذَهَا قريشٌ](١).

ومرَّةً يقول:

[مَا ماتَ أبُوْ طالبٍ، حتّى أعطَى رسولَ ا للهِ(ص) -مِنْ نفسِهِ- الرِّضَا](٢).

هذه الأقوال مِنَ الإمام عليٍّ «عليه السَّلام»، في حقِّ أبيه، وهذه الشَّهادة السَّافرة، والتي تصدر عن قصدٍ، بعد أنْ يسمع سوء القالة، وأراجيف التُّهم - ماعسى أنْ يكون باعثها...؟

وماالذي يدعوه إلى نشرها...؟

وماالذي يدفعهإلى الحديث، عن أبيه...؟!

فهل نعزوها إلى العاطفة الأُبويَّة، وحميَّة الرَّحم، دون أنْ يكون لها مساسٌ بالواقع، وصلةٌ بالحقِّ...؟!

لاأظنُّ واحداً -مِمَّنْ قرَّ في قلبه الإسلام -بقادم على سلوك هذا الطَّريق المنئاد... وهو مِنَ الوعورة، بحيث يُخرج سالكه عن حصن الإسلام وحظيرته، لأنَّه تسوُّرٌ على مقام إمام المسلمين، وحامي الإسلام ونصيره... وخلافٌ سافرٌ، لِمَا نصَّ به الرَّسول(ص)...!

فعليٌّ ليس بالذي يميل عنِ الحقِّ -وهو معه- كما نصَّ الحديث، المتَّفق عليه، بين المسلمين أجمع:

«عليٌّ معَ الحقِّ، والحقُّ معَ عليٍّ، يدورُ معهُ حيثُ مَادارَ».

---

(١) - الحجَّة ٢٤، والغدير ٣٨٩: ٧، ومعجم القبور ٢٠٠: ١ .

(٢) - الغدير ٣٧٠ و٣٨٩: ٧ . وفي الحجَّة ٢٣ مروياً عنِ الصَّادق «عليه السلام». والأعيان ١٣٦: ٣٩ .

ولسنا بحاجةٍ لأنْ نسرد كـلَّ مـاندَّت بـه شـفتا الرَّسـول الأعظـم(ص) في حـقِّ وصيِّه -وهي التي تُضارع نور الشَّمس: ظهوراً، وشهرةً...

وإنْ كان -ثمّة- مَنْ يُحمِّل أقوال الإمـام، شـيئاً مِـنْ عاطفـةٍ، فإنّـه لَيطعن نـبيَّ الإسلام، حيث أشاد بفضل رجل، تتغلّب عاطفته على دِينـه، ويُفضِّـل رحمـه على مبدئه... فينساق مع شهوةٍ، لِيُغيِّر حقّاً، ويُحقَّ باطلاً...

إذ أنَّ واجبه المقدَّس، يفرض عليه: أنْ ينفض يده مِنْ أبيـه -علـى فـرض موتـه على الشِّرك- ويبرأ منه، وهو العدوُّ لله، ولايسدل على سـوأته سـتراً... فمـا حـقُّ الأب بأعلى مِنْ حقِّ ا لله عليه...

وله بسيرة أبيه إبراهيم الخليل، خير نبراسٍ، في ماقصَّ ا لله عنه:

«فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ»(١).

فليس له: أنْ يُوالي عـدوّاً لله، إذا شـاء أنْ يُخلص العبـادة لله وحـده، ويُوثِّـق الصِّلة بينه، وبين الخلاَّق العظيم، وهو وليُّ النِّعم...!

وليس بين المسلمين مَنْ يُداني -بله يرجح- عليّاً: إيمانـاً، وإسـلاماً، وطاعـةً لله ورسوله...

وإنّنا لَنرى بينهم: مَنْ ضرب المثل الرَّائع، في: رسوخ المعتقد، ووطادة الإيمـان، والفناء في جنب ا لله، وتقديم الواجب الدِّيـنيِّ على العاطفـة النَّسـبيَّة - فمـا حبـل النَّسب، بالذي لاينبتُّ، إذا تعارض وقوَّة الدِّين، الرَّسيخ في القلب...

وليس شيءٌ، مهما كانت له القوَّة والمنعة، ومهما اشتدَّ وصلـب، بـالذي يقـف أمام قوَّة الدِّين الجارفة المشتدَّة، وهي كالنّوء الغاضب، يأتي على كلِّ شيءٍ يعـترض دربه، ويصدُّه عن وجهته، التي يُريد...

* *

---

(١) - براءة ١١٤ .

وإنَّ التَّأريخ لَيقصُّ علينا: موقف عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول[1]، مِنْ أبيه، حيث فاه أبوه بكلمات النِّفاق، في غزوة بني المصطلق، فأحدث في صفوف المسلمين الفساد...

فلا يسمع بذلك ابنه عبد الله -وهو أقرب النَّاس إليه- حتى يذهب للرَّسول(ص) ليقول له:

[يَا رسولَ الله! بلغنيْ أنَّك تُريد قتْل أبي، فإنْ كنت فاعلاً فمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه. وأخشى أنْ تأمر غيري بقتله، فلاتدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي، يمشي في النَّاس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافرٍ، فأدخل النَّار][2].

إنَّه لَيرجو الرَّسول أنْ لايُطيح مِنْ أبيه رأسه الشَّموخ، أحدٌ سواه...!

ولماذا...؟

---

(١) - يقول الزَّمخشريُّ: إنَّ اسم عبد الله هذا، هو: حباب بن عبد الله بن أُبي، ولكن الرَّسول غيَّر اسمه لعبد الله، وقال: إنَّ حباباً اسم شيطان..!

(٢) - في رواية الزَّمخشريِّ: إنَّ عبد الله بن أُبي، لَمَّا أراد أنْ يدخل المدينة، اعترضه ابنه هذا، وقال:

وراءك!; والله لاتدخلها، حتَّى تقول: رسول الله الأعزُّ، وأنا الأذلَّ..!

فلم يزل حبيساً في يده، حتى أمر الرَّسول بتخليته.

وقيل إنَّه قال له:

لئن لم تقرَّ لله ولرسوله بالعزَّة، لأضربنَّ عنقك.!

فقال: ويحك! أفاعلٌ أنت؟!

قال: نعم!.

فلما رأى منه الجدَّ: قال:

أشهد أنَّ العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

فقال رسول الله لابنه:

جزاك الله عنْ رسولِهِ، وعن المؤْمنينَ خيراً!.

لأنّه يخشى أنْ يقوم بهذه المهمّة غيره، فتنبت في قلبه بذرة الحقد، لهذا القاتل، ويقع منه مالايحمد لنفسه، ويُعرِّض نفسه لِمَا لايرضاه لها، مِنْ عاقبة سوءٍ...

فإنّ نفسه قد لاترضى منه: أنْ يصفح عن قاتل أبيه، فتمتدّ إليه منه يدٌ بمكروهٍ، فينال بذلك جزاء السوء...!

ولكنه إذا قام هو بالمهمّة، فلْتأكل قلبَه نيرانُ الألم، ويتلوّى على مذبح الوجد، دون أنْ تُدنّس منه صفحة الإيمان، ونقاوة المعتقد...

ولكنّ الرسول الصّفوح الرّحيم، يُريحه مِنَ الإثنين، فيعفو عن ذاك المنافق، مِنْ أجل ابنه المؤْمِنِ(١).

* *

وهذه حادثةٌ أُخرى، تدلُّنا على مدى طغيان العاطفة الدِّينيَّة، وتغلُّبها على عاطفة الرَّحم...

فقد مرَّ عديٌّ بن حاتم، ومعه ابنه زيدٌ -بعد المعركة الدَّامية بين: الحق والباطل، في صفّين -فوجدا رجلاً، مِنْ بين قتلى جيش معاوية الباغي الضَّالِّ، وكان هذا القتيل خال زيدِ بن عديٍّ، فراح يُصوِّت، يسأل عن قاتل خاله، فوافاه رجلٌ طوال، وهو يقول: أنا قتلتُه...

وإذْ أجابه القاتل على سؤاله، عن صفة القتل، وَثَبَ عليه زيدٌ برمحه، فطعنه به وأرداه قتيلاً...

وحينذاك... حمل عديٌّ على ابنه، يكيل له السُّباب، ويزفُّ الشَّتم لأُمِّه، ويقول له:

[ياابنَ المائقةِ! لستُ على دِين محمَّدٍ، إنْ لَمْ أدفعْكَ إليهِمْ].

---

(١) - ذكر الحادثة، كلُّ مَنْ عرض لغزوة بني المصطلق، كالكامل ١٣١، ١٣٢: ٢، والطَّبريٍّ ٢٦٠ -٢٦٣: ٢، والكشّاف ٤٦١، ٤٦٢: ٢ [٤٢٣ -٤٢٤: ٤]، وتفسير عليٍّ بن إبراهيم ٦٨٠ -٦٨٢; وأُشير إليها -بصورةٍ أُخرى- في مجمع البيان ٨٥ -٨٧: ٢٨.

لولا أنَّ زيداً قد هَرَبَ مِنْ وجه أبيه، ونجّاه منه -كما نجّى معاوية- «سابحٌ ذوْ علالةٍ»(١)، فلحق بمعاوية، فنال مِنْ معاوية ضروب الإكرام، فرفع عديٌّ يديه، داعياً عليه:

[اللّهمَّ! إنَّ زيداً قدْ فارقَ المسلمينَ، ولحقَ بالملحدينَ...(٢) اللّهمَّ! فارمِهِ بسهمٍ مِنْ سهامِكَ لاَيلتوِيْ...(٣)

لاَ وا للهِ! لأُكلّمُهُ مِنْ رأْسِيْ كلمةً، أبداً... ولاَ يُظلُّنِيْ وإيَّاهُ سقفٌ أبداً](٤).

وعاطفة الأُبوَّة، أشدُّ قوَّةً وأمضى، مِنْ عاطفة البنوّة، فأنت تجد عدياً، قد أراد أنْ يُورد ابنه حياض الموت، لولا فراره منه...! فلم يبقَ له، سوى الدُّعاء الحارِّ، وقد أفلت مِنْ يده، ولحق بالحزب الملحد الباغي...!

* *

وليست هذه الحادثة -في وقعة صفّين- بالولد البِكر، فقد سجّلت حادثةً أخرى، هي صورةٌ ثانيةٌ لهذه، نرى عرضها هنا:

---

(١) - إشارةٌ لقول النّجاشيِّ - أيّام صفّين:

ونجّى ابنَ حربٍ سابحٌ ذُوْ علالةٍ أجشُّ هزيمٌ، والرِّماحُ دوانِيْ
إذا قلتُ: أطرافُ الرِّماحِ تنوشُهُ مرتْهُ لهُ السَّاقانِ والقدمانِ.

(٢) - في وقعة صفّين: بالمحلّين.

(٣) - في الوقعة: لايشوي - أو: لأيخطئُ - وبعدها: فإنَّ رميتَكَ لاتنمي - وأشوى: رمى فأصاب الشّوى، أيِ: الأطراف - دون المقتل.

(٤) - كنّا قدِ استقينا خطوط الحادثة - فيما نتصوَّر - مِن الغدير، وفاتنا أنْ نضع الصَّفحة والجزء، فلم نعثر عليها فيه، رغم إعادة البحث، ولا ندري فقد تكون مِنْ مصدرٍ آخر.

وقد ذُكرت في وقعة صفّين ٥٩٩، ٦٠٠ .

وأُشير لها في كامل ابن الأثير ١٦٥: ٣ - وذكر أنَّ القتيل مع معاوية، هو: حابس بن سعدٍ الطّائيُّ، خال زيدٍ.

خرج مِنَ الفئة الباغيةَ مَنْ يطلب البراز، ولم يكد يسمع النّداء حزب الحقِّ. حتى يخرج على الصوت مَنْ يُجيبه، ويقتتل الرَّجلان، ممثّلاً فيهما: الباطل المفضوح، والحقُّ الأبلج، ويشتدُّ بينهما الصِّراع، بين الصَّفَّين، حتى اعتنق الرَّجل المحقُّ - العراقيُّ- ذلك المبطلَ -الشّاميَّ- فيقعا تحت قوائم فرسيهما، ويجلس هذا على صدرالشّاميِّ، ويكشف المِغفَر عن وجهه، لِيُجهز على رمق الحياة فيه، وإذا به يكشف عن وجه أخيه، لأبيه وأمه...! ولكنه يسمع أصواتاً، تتعالى مِنْ حزبه، وتدعوه:

«أجهزْ على الرَّجل!».

ولكنه يتأنّى ويُجيب: «إنه أخي».

فيسمع جواب قوله: «فاتركه!».

وقد كان له في ذلك مخرجٌ ومنجاةٌ، ولكنه لايقنع بذلك حتى يتلقّى مايُبرِّر مقامه وساحته، فما هو بالذي يُقدِّم عاطفة الدَّم على واجب الدِّين وخدمة المبدإ، فيُجيب بعنادٍ وإصرارٍ:

[لاَ! حتّى يأْذَن لِيْ أميرُ المؤْمنينَ].

فيُخبر عليٌّ «عليه السَّلام» بذلك، فيضع الحدَّ الفاصل:

«دعْهُ!»(١)

ولو لم يتلقَّ الأمر مِنْ قائده البارِّ، لَمَا دعاه يفلت مِنْ سيفه، ولأورده حياض الموت...

وليس هؤلاء بأشدَّ مخشنةً في جنب الله، وتفانياً في سبيل المبدإ، مِمَّنْ قام الإسلام، على ساعديه: قويّاً ناشطاً، ومِمَّنْ أطاح بسيفه المرهف، رؤوساً مشركةً شامخةً، وهدَّ حصوناً مِنَ الشِّرك، على منعةٍ، ودعاماتٍ على قوَّةٍ ومتانةٍ...

وماهو بالذي يخرج عنِ الحقِّ، أو يفترق عنه طرفة عينٍ، كي ينفلت منه للّسان، بغير حقِّ المقال، ويذكر أباه بغير الواقع الصَّادق!.

---

(١) - وقعة صفين ٣٠٨ .

فلو لم يكن عليٌّ بإيمان أبيه ذلك العليم، لما نفى عنه سوء القالة، وذكره بعاطر الثَّناء... ولكان إلى جانب الثَّالبين، لايهدُّ مِنْ تهمهم واهيَ الأُسس...!

فإنَّه أولى بأنْ يقول الحقَّ، ولو على أبيه، أو نفسه، وله مِنْ إيمانه، وملازمة الحقِّ إيَّاه، مالاتزلُّ به القَدَم...

وهو الأوْلى -بعد الرَّسول(ص)- بأنْ يتمسَّك بما جاء في القرآن العظيم، وينتهي عمَّا ينهى عنه...

وقد مرَّت بنا تلك الآيات الكريمة، التي تحمل الوعيد الزَّاجر، والنَّهي الرَّاعد، لِمَنْ يتوالى مَنْ لم ينتهل قلبه، مِنْ نبع الإيمان الرَّويِّ...

وماعليٌّ، بالذي يُخالف القرآن، في: نهيٍ، أو أمرٍ -وهو الحقُّ مجسَّداً!.

* *

ومناسبٌ جدّاً أنْ نضع -أمام القارىء- هذه الفقرة، مِنْ قولةٍ، ألقاها الإمام، في أحد أيام صفين، أمام العدوِّ، والصَّديق:

[ولقدْ كنَّا معَ رسول الله(ص)، نقتلُ آباءنا، وأبناءَنا،
وإخوانَنا، وأعمامَنَا، ومَا يزيدُنَا ذلكَ إلاَّ إيماناً وتسليماً،
ومضيَّاً على أمضِّ الألمِ، وجدّاً على جهادِ العدوِّ،
والاستقلالَ بمبارزةِ الأقرانِ]- الخ[1].

وإنَّها لصورةٌ رائعةٌ، تكشف لنا عمَّا كان عليه المسلمون، مِنْ شدَّةٍ، وقوَّةٍ، وصلابةٍ في إحقاق الحقِّ، وإزهاق الباطل، حتى لو كان ضحيَّة ذلك الآباءُ والأبناءُ -كما وصفهم لنا القرآن الكريم، وكما أمر به دستوره الخالد...

---

(١) - وقعة صفين ٥٩٧ .

على لسان أهل البيت:

إذا ماتتّبعنا سيرة أهل البيت الأطهار، وجدنا كلَّ واحدٍ منهم، يهدُّ حصون التُّهم، التي شيدت حول إيمان بيضة البلد، ويكشف السِّتر المسدل الذي أُريد منه أنْ يحجب السَّنى، مِنْ إيمان شيخ الأبطح، ويسعى ليردَّ للحقِّ رواءه، ويهدَّ مِنَ الباطل دعائمه الواهية البناء... لِيجأر بكلمة الحقِّ -وهي الصَّافية النَّبرة- في مجتمعٍ، قد أصمَّ آذانه صراخُ الباطل...

وكلَّ ماازدادت هذه الأصوات، والجلبة الكاذبة، وجدنا مثل هذه الكلمة الحقَّة، يمتدُّ منها النَّفَس، وتطول المقاطع، وتتردَّد مِنَ الحناجر...

وكلَّ مااشتدَّت زحمة الظُّلمة، واحلولكت مِنَ الوجود رقعته، كانت الإشعاعة أشدَّ لمعاناً، وأطول بقاءً، لِتفري شيئاً مِنْ هذه الظُّلمة المتلبِّدة، ولِتأْخذ بيد مَنْ ضلَّ الطَّريق، مِنْ زحمة الظَّلام، عن غير قصدٍ، وراح يبحث عنِ الضَّوء، لِيسير على سناه، ويعود إلى المنهج الأقوم...

١

سأل الإمام السَّجَّاد -عليَّ بن الحسين «عليهما السَّلام» -واحدٌ مِنْ هؤلاء، الذين وصلت إلى سمعهم ضوضاء الباطل، مِنَ السُّحب، التي أُثيرت حول إيمان أبي طالبٍ... فكان جواب الإمام:

نَعَمْ!.

وأعاد السَّائلُ القولَ، لِيقف على مصدر هذه التُّهم، ويعرف مدى الواقعِ منها...

-إنَّ هنا قوماً، يزعمون أنَّه كافرٌ!.

فتنفلت مِنْ صدر الإمام أنَّةُ جريحٍ، وصرخةُ مهتضَمٍ مظلومٍ، مفترىً عليه:

[واعجباً كلَّ العجبِ!.

أيطعنون على أبيْ طالبٍ...؟

أو على رسولِ اللهِ(ص)، وقَدْ نهاهُ الله تعالى أنْ يقرَّ مؤْمنةً معَ كافرٍ، فيْ غيرِ آيةٍ مِنَ القرآن؟!

ولاَ يشكُّ أحدٌ أنَّ فاطمةَ بنتَ أسدٍ «رضيَ الله عنهَا» مِنَ المؤْمناتِ السَّابقاتِ.

فإنَّهَا لَمْ تزلْ تحتَ أبيْ طالبٍ، حتَّى ماتَ أبوْ طالبٍ «رضيَ اللهُ عنهُ»](١).

* *

إنَّ قولة الإمام السَّجَّاد -هذه- تعني: أنَّ القول بشرك أبي طالبٍ، ليس غير طعنٍ على الرَّسول(ص)، الذي تهاون في إنفاذ ماسنَّه الله في كتابه، فقد جاءت فيه غير آيةٍ، تنهى: أنْ يُظلَّ امرأةً، قرَّ في قلبها الإيمان: جناحُ رجلٍ، لم يهتدِ بسنى الدِّين...

ولم يكن -ثمَّة- مِنْ شكٍّ، في إيمان فاطمة بنت أسدٍ -أمِّ عليٍّ، وزوج أبي طالبٍ- التي لم تنل مِنْ إيمانها الدِّعاياتُ، ولم تُحَكْ حولها الدَّسائسُ.

وليس -ثمَّة، أيضاً- مَنْ يقول: إنَّ الرَّسول قطَع حبل الزَّوجيَّة بينهما، والذي بتَّه القرآن، لو لم يكن أبو طالبٍ مؤْمناً...!

وإذ بقيت فاطمة -وهي المسلِّم بإيمانها- تحت جناح أبي طالبٍ، فإنَّ القائل بشرك أبي طالبٍ، بين:

---

(١) ـ الحجَّة ٢٤، والنَّهج الحديديُّ ٣١٢: ٣، وشيخ الأبطح ٧٦، والغدير ٣٨١و٣٩٠، ٣٩١: ٧، مسنداً للمصدرين الأولين،وللدَّرجات الرَّفيعة، وضياء العالمين، الذي قال عنه قيل: إنَّها متواترة عندنا - والأعيان ١٣٦،١٣٧: ٣٩، بصورةٍ مختصرةٍ.

طاعنٍ على أبي طالبٍ، إذ افترى عليه ماهو منه بريءٌ، وناله بالظُّلم، حين ينسبه إلى الشِّرك، وهو المؤْمن...

وطاعنٍ على الرَّسول، إذ لو ثبت شرك أبي طالبٍ -وذلك مالايجوز- فإنَّ الطعن يتوجَّه للرَّسول ذاته، إذْ كان ذلك المتهاون، في مايتلقّاه مِنْ وحي السَّماء، بعد أنْ نهاه ا لله: أنْ يقرَّ مؤْمنةً مع كافرٍ، فلا يُنفِّذ ذلك، ويقطع هذا الحبل الممتدَّ بين: فاطمة، وعمِّه...

إذن... فالقول بشرك أبي طالبٍ، يتطلَّب جرأةً فذَّةً، وصلابةً وقحةً، لأنَّه طعنةٌ تُوجَّه إلى صميم الدِّين الإسلاميِّ الحنيف... إلى صميم رسوله الأقدس... إذْ لم يكن ذلك الصُّلب في جنب ا لله، والشَّديد في ذاتِهِ، والعامل بما يتنزَّل عليه، مِنْ وحيٍ مقدَّسٍ...

٢

وهذا ابن السَّجَّاد -الإمام الباقر «عليهما السَّلام» -يُسأل عن فريةٍ، مِنْ تلك المفتريات الشَّائنة، وهي: ذلك الحديث المختلق المكذوب، الذي تلهج به ألسنةٌ، مِنْ مراض القلوب، وهو: أنَّ أبا طالبٍ في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ:

[لوْ وُضعَ إيمانُ أبيْ طالبٍ، في كفَّةِ ميزانٍ، وإيمانُ هذا الخلقِ، فيْ الكفَّةِ الأُخرى، لَرَجَحَ إيمانُهُ].

ثم يقول:

[ألْمْ تعلمُوْا: أنَّ أميرَ المؤْمنينَ عليّاً «عليه السَّلام» كانَ يأْمرُ: أنْ يُحَجَّ عنْ: عبدِ اللهِ، وآمنةَ، وأبيْ طالبٍ، فيْ حياتِهِ -أيْ: عليٍّ]- ثمَّ أوصى، فيْ وصيَّتِهِ، بالحجِّ عنهُمْ][(١)].

---

(١) - النَّهج ٣١١: ٣ - وتجدر الإشارة، إلى غلطةٍ مطبعيَّةٍ، في النَّهج، عند ذكر هذا الحديث، فقد جاء فيه: [وقد روي عن عليٍّ بن محمَّدٍ]. والصحيح: [محمَّد بن عليٍّ]. ومعجم القبور ١٨٩:١، والحجَّة ١٨، وشيخ الأبطح ٣٢و٧٦، والغدير ٣٨١و٣٩١: ٧ — مرجعاً لعدَّة مصادر والأعيان ١٣٦: ٣٩ .

إنّه يقول: إنَّ لإيمان أبي طالبٍ رجحاناً ذاتيّاً، على إيمان الخلق... فهو إيمان عارفٍ، لامقلّدٍ... إيمان نصيرٍ مكافحٍ..

فإيمانٌ، يصدر مِنْ زعيم قبيلةٍ -هي لُباب العرب- وبلدةٍ يؤُمُّها العرب أجمع... وتحوطها بالتّقديس والإجلال قلوبٌ، على وفرة عددٍ... فلا يلبث هذا الزّعيم المتبوع أنْ يتخلّى عن زعامته، ويكون تابعاً ليتيمٍ، نشأ في حضانته، وتحت رعايته...

إنَّ ذلك لإيمانٌ رجيحٌ، له قيمته الفضلى، وقمّته السّامقة، ولاسيّما أنَّ هذا الإيمان، يحطُّ مِنْ رفيع قيمة هذا المؤْمن، وسامق منزلته... يحطُّ ذلك منه، في أعين قومه...!

ثم راح يستدلُّ على ذلك، بعملٍ، كان يقوم به إمام المسلمين عليٌّ «عليه السّلام»:

فقد كان يأْمر أنْ يُحجَّ عن أبي طالبٍ، ولم يقتصر على ذلك في حياته... فأوصى به، بعد موته...

والحجُّ ركنٌ مِنْ أركان الدِّين الإسلاميِّ... فليس يجوز على عليٍّ: أنْ يأْمر به عمَّنْ لم يضمَّه الإسلام إليه...

٣

أمّا الإمام الصّادق -«عليه السّلام»- فإنّنا نقف على ثروةٍ، ممّا قاله في حقِّ جدِّه، ودحْض التُّهم الملصقة به...

ذلك أنَّ عصر الصّادق -«عليه السّلام»- وقد كان بعد انحطاط دولةٍ غاشمةٍ، سقتِ الأُمة كأْساً مصبَّرةً... وقيام دولةٍ، اتّخذت لها شارة العلويّة...وحدّدت لها هدف ردِّ الحقِّ إلى اهله، لتجعلهما سلاحاً، وحجر الزّاوية في تأْسيس دعامة الدّولة الجديدة...

وكان مِنْ ثمار هذا أنْ ترفع السَّيف –لحدٍّ ما، ولوقتٍ محدودٍ– عنِ الرِّقاب العلويَّة... وترفع الكمامات عنِ الأفواه، لوقتٍ معلومٍ... على أنْ تعود لذلك كلّه، متى استقرَّ بها الحال، فتستوفي مافات، والصَّاع صاعين...

ذلك أنَّ هذا كان سبباً فعَّالاً، لِيُجلجل صوت جعفرِ بن محمدٍ، بكلمة الحقِّ، ويُؤثر عنه فيضٌ مِنْ سنى نوره، ورفعة تعاليمه... وكان –مِنْ بين هذا– شيءٌ، له قيمته في حقِّ نصير الرَّسول...

فمرَّةً يجيب سائلاً، قال له:

[إنَّ النَّاس يزعمون: أنَّ أبا طالبٍ، في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ].

فيقول الإمام:

[كذبُوْا!. مَا بهذَا نَزَلَ جبرئيلُ!].

ثم قال:

[إنَّ مثَلَ أبي طالبٍ مثَلُ أصحابِ الكهفِ: أسرُّوْا الإيمانَ، وأظهرُوْا الشِّركَ، فآتاهُمُ اللهُ أجرَهُمْ –مرَّتينِ–
وإنَّ أبا طالبٍ أسرَّ الإيمانَ، وأظهرَ الشِّرك، فآتاه اللهُ أجرهُ –مرَّتين...
وما خرَجَ مِنَ الدُّنيا، حتّى أتتْهُ البشارةُ مِنَ اللهِ تعَالى بالجنَّةِ].

ثم قال:

[كيفَ يصفونَهُ بهذَا؟! وقَدْ نَزَلَ جبرئيلُ، ليلةَ ماتَ أبُوْ طالبٍ، فقال:
يا محمَّدُ! اخرجْ مِنْ مكَّةَ، فمَا لكَ بهَا مِنْ ناصرٍ، بعدَ أبيْ طالبٍ][1].

* *

(١) ـ الحجَّة ١٧و١١٥، والنَّهج ٣١٢: ٣، والغدير ٣٨١ و٣٩١: ٧ ـ مسنداً ـ ومعجم القبور ١٩١: ١، وجاء شطرٌ منها في الأعيان ١٣٦: ٣٩ .

إنَّ الإمام يقول: إنَّ الله قد آتى أبا طالبٍ، ضعفي المثوبة والأجر، إذِ استطاع أنْ يكتم إيمانه، لمّا رأى الكتمان هو الأصلح... فله أجر الإيمان، وأجر الكتم هذا...

فما كلُّ مؤمنٍ، بقادرٍ على أنْ يكتم مايُؤْمِنُ به، وإنْ كان ذلك في صالح الدَّعوة...

وإنه لَيقول ذلك، بعد أنْ مثّله بأهل الكهف، الذين حكى قصَّتَهُمْ القرآنُ الكريم.

فما مضاعفة الأجر بكثيرٍ، على مَنْ بلغ به الإيمان، هذه الذّروة الرَّفيـ ة...

وما الكتم -إذا فرضته المصلحة- ببدعٍ على أبي طالبٍ، أو بممتنع الوجود، بعد أنْ نجده في أهل الكهف!.

... وبعد أنْ يقول: إنَّ الله بشّره بالجنَّة، قبل أنْ يبرح هذه الدَّار الفانية...

وليس في هذا كبير أمرٍ، بعد أنْ ذكروا أنَّ النّبي«ص»، بشَّر بالجنَّة أُناساً بالذّات...

ولعلَّ فيهم مَنْ لايُقاسُ بأبي طالبٍ: نصرةً للإسلام، وذبّاً عنه...

بعد أنْ يقول ذلك... يُدعِّم قولَه بإيمانه، بدليلٍ رسيخٍ، وحجَّةٍ لاتُدحض...

فَمَنْ كان موته يهدُّ ركن الرَّسول، فلا يبقى له بمكّة قرارٍ... بل ينزل عليه الوحي صادعاً، يأمره بالخروج، بعد فقدان النّاصر...

مَنْ كان كهذا.... فهل مِنَ الجائز أنْ يكون كافراً، أو تمسَّ النّار شعرةً مِنْ جسده...؟!

إذن... فلْيتساوَ المؤْمِنُ والملحد، والمسلم والمشرك...!

* *

ويدور مع الإمام الصَّادق، ويونس بن نباتة - حديثٌ، يسأل فيه الإمام:

- يا يونُس! مَا يقولُ النّاسُ في أبيْ طالبٍ؟

- هو في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ، يغلي منها أمُّ رأسه!.

- كَذَبَ أعداءُ الله! إنَّ أبا طالبٍ مِنْ رفقاء النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ، والشُّهداءِ والصَّالحينَ، وحسُنَ أُولئك رفيقاً(١).

* *

ومرَّةً يقول له سائلٌ: إنَّهم يزعمون أنَّ أبا طالبٍ، كان كافراً.

فقال:

كَذَبُوا!. كيفَ وهوَ يقولُ:

ألَمْ تعلمُوا أنَّا وجدنَا محمَّداً
نبيّاً -كموسَى- خُطَّ فيْ أوَّلِ الكتبِ(٢)

* *

ومرَّةً أُخرى يقول:

كيفَ يكونُ أبو طالبٍ كافراً، وهوَ يقولُ:

لَقَدْ عَلمُوا أنَّ ابنَنَا لاَ مكذَّبٌ
لدينَا، ولاَ يعبَأ بقولِ الأباطلِ

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهِهِ
ثِمالُ اليتامَى عصمةٌ للأراملِ(٣)

يقول الإمام: كيف يكون كافراً، مَنْ يعترف للرَّسول، بالنُّبوَّة والصِّدق، وأنَّه نبعةُ السَّماء والمعتصَم للأرامل، المبارَك الوجه، الميمون الطَّلعة...؟!

* *

ويُحدِّث الإمام الصَّادق:

---

(١) - الحجَّة ١٧، وشيخ الأبطح ٣٢و ٧٥، والغدير ٣٩٤: ٧ - مسنداً لكنز الفوائد، وضياء العالمين.

(٢) و (٣) - الغدير ٣٩٢: ٧ لمصادر عدَّةٍ.

[كانَ أميرُ المؤْمنينَ «عليه السَّلامُ» يُعجبه أنْ يُروى شعرُ أبيْ طالبٍ «عليه السَّلامُ»، وأنْ يُدوَّنَ. وقال: تعلّمُوْهُ وعلّمُوْهُ أولادَكُمْ، فإنّهُ كانَ على دِينِ اللهِ، وفيهِ علمٌ كثيرٌ](١).

وهذا الحديث – بالإضافة إلى الشّهادة السَّافرة، مِنْ عليٍّ بإيمان أبيه– يكشف لنا، عن قيمة أبي طالبٍ، ومنزلته السَّامية... فإنَّ الإمام عليّاً، لَيُثير إعجابه أنْ يُروى شعر أبي طالبٍ...!

ولذلك... فإنَّه يأمر بتعلُّمه وتعليمه، فهو يحفل بالعلم الكثير، وهو على دِين الله، وله إحاطةٌ ومعرفةٌ بأديان الله...

*** ٤ ***

وهذا درْست بن أبي منصورٍ، يسأل الإمام الكاظم موسى «عليه السَّلام»، عن أبي طالبٍ،

وهذا السَّائل لايسأله عن إيمانه –وهو به ذلك العليم، ولديه ذلك الثّابت– وإنّما يسأله عن شيءٍ، فوق الإيمان:

– أكان رسول الله«ص» محجوجاً بأبي طالبٍ؟.

– لاَ! ولكنَّهُ كانَ مستودعاً للوصايَا، فَدفَعهَا إليهِ.

– فدفع إليه الوصايا، على أنَّه محجوجٌ بهِ؟.

– لوْ كانَ محجوجاً بهِ، مَا دَفعَ إليهِ الوصيَّةَ!.

– فما كان حال أبي طالبٍ...؟

– أقرَّ بالنَّبيِّ، وبمَا جاءَ بهِ، ودَفعَ إليه الوصايَا(٢).

* *

(١) ـ الحجَّة ٢٥ ـ مسنداً عن أبي الفرج الأصفهاني ـ والغدير٣٩٥: ٧، مسنداً لعدَّة مصادر.

(٢) ـ العباس ١٨، والغدير ٣٩٥: ٧ ـ مسنداً.

وهذا الحديث، هو إحدى الدّعامات، التي تسند ماقلناه، حين تحدَّثنا عن «شخصيَّة» أبي طالبٍ -مِنْ هذا الكتاب...

فإنَّ مثله ضروريُّ الوجود، لِيصل الأشعاعة، المنبثقة مِنَ الدَّعوة الحنيفيَّة- التي نادى بها إبراهيم الخليل- بهذا القبس المشعِّ، الذي رفعته المحمَّديَّة البيضاء!.

وسير الحديث، يدلُّنا على أنَّ السَّائل، كان مطمئنّاً لإيمان أبي طالبٍ، ومعتقداً بأنّه مستودعٌ للوصايا، لِيُسلّمها لخاتم النّبيين.

وليس يُستودع هذا الإرث الإلهيُّ، مَن أغلق قلبه ظلام الشّرك..!

وليس السُّؤال، إلاَّ عن شيءٍ، هو فوق الإيمان... وإلا فلهجة السُّؤال، تدلُّ على الإيمان والوصايا...

وإنّما ظنَّ السَّائل -مِنْ عظيم معرفته بمنزلة أبي طالبٍ- أنَّ الرَّسول كان، قبل البعثة، محجوجاً بهذا الوصيِّ... فدفع هذا الوهمَ مِنَ السائل: جوابُ الإمام الصَّريح...

وأكّد الإمام ذلك، في جوابه على السؤال الثّاني، مِنَ السَّائل، الذي شاء الإحاطة والتّقصّي...

وبعد أنْ انقلعت مِنْ نفسه، سحب الوهم، خصَّ بالسُّؤال حال أبي طالبٍ، بعدما دفع لابن أخيه: مااستُودِع مِنَ الميراث النّبويِّ... فأجابه الإمام:

بأنّه أقرَّ بالنُّبوَّة، وآمن با لله... ومادفعُه الوصايا، سوى الإقرار العمليِّ...!

ه

وكتب أبان بن محمود، إلى الإمام عليٍّ الرِّضا «عليه السَّلام»، وقد كادت قولة الزُّور، تُزعزع منه الإيمان:

«جعلتُ فداك!. إنّي قد شككتُ في إسلام أبي طالبٍ».

فما كان مِنَ الإمام إلاَّ أنْ كَتَبَ إليه:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسولَ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبيلِ المُؤْمِنِينَ ، نُولِّهِ مَا تَوَلَّ، ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ، وسَاءَتْ مَصيرا﴾.[1]

- وبعدها:

إنَّكَ إنْ لَمْ تُقرَّ -بإيمانِ أبيْ طالبٍ، كانَ مصيرُكَ إلى النّارِ](2).

* * *

إنَّ جواب الإمام الرِّضا، يدلُّ على أنَّ الشَّكَ في إيمان أبي طالبٍ، شيءٌ يتنافى والإيمان بالرَّسول...

فإنَّ إيمان أبي طالبٍ، مِنَ الوضوح والثُّبوت، بحيث لايتسرَّب إليه شكٌّ...

ومَنْ كان منه على شكٍّ، فإنَّه مِنَ الإيمان على زعزعةٍ، لأنّه مشاقَّةٌ للرَّسول، وتعامٍ عنِ الهدى، بعد معرفةٍ منه به...

ومَنْ يتعامى عنِ الهدى، ويتّبع غير سبيل المؤمنين، فإنه قد خَرَجَ مِنْ دائرة الإيمان، وزلّت به القدم، عن منهج الحقِّ الألحب، وصراطه الأقوم... وبذلك يكون مصيره إلى النّار، بعدما سلك الطَّريق، التي تذهب بسالكها، إلى حَمَم الجحيم...!

على أنَّ هذا إيذاءٌ للرَّسول الأعظم(ص)...!

وإيذاء الرَّسول -هو الأخر- ذنبٌ، يستوجب النّار، لقوله تعالى:

﴿إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، لعَنَهُمُ فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾[3]

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

---

(١) ـ النِّساء: ١١٥ .

(٢) ـ النّهج ٣١١: ٣، والحجّة ١٦، والغدير ٣٨١ و٣٩٦: ٧ ـ مسنداً لمصادر عدّةٍ ـ ومعجم القبور ١٨٩: ١، والأعيان ١٣٦: ٣٩ ـ بدون مابعد الآية.

(٣) ـ الأحزاب ٥٧.

(٤) ـ التوبة ٦١ .

وفي حديثٍ، رُوي عنه:

«مَنْ آذى شعرةً منّيْ، فَقَدْ آذانِـيْ... ومَنْ آذانِـيْ، فَقَـدْ آذَى اللهَ»(١).

٦

وهذا الإمام العسكريُّ –الحسن بن عليٍّ «عليهما السَّـلام» يقـول، في حديـثٍ طويلٍ، يُسنده لآبائه الأطهار:

[إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى، أوحى إلى رسولِهِ(ص):

إنّـيْ قَـدْ أيَّدتُـكَ بشـيعتيْنِ: شـيعةٍ تنصـرُكَ سـرّاً، وشـيعةٍ تنصرُكَ علانيةً.

فأمَّـا الَّتـي تنصُـرك سـرّاً، فسيِّدُهُمْ وأفضلُهُـمْ: عمُّـكَ أبُـوْ طالبٍ.

وأمَّا الَّتيْ تنصرُك علانيةً، فسيِّدُهُمْ وأفضلُهُمْ ابنُـهُ علـيٌّ بـن أبيْ طالبٍ عليهِ السَّلامُ].

ثم قال:

[وإنَّ أبَا طالبٍ كمؤْمِنِ آلِ فرعونَ، يكتمُ إيمانَهُ](٢).

يقول: إنَّ اللهَ نَصَرَ الرَّسول بشيعتين...

وإنَّ إحداهما: لاتقوم بالمهمَّة إلاَّ في الخفاء، مادام الجهر يتعذّر عليها، ولاتستطيع القيـام بها، إلاَّ في السِّرِّ، لأُمورٍ تحتم ذلك... كنُصرة الملائكة، في ماقصَّه القرآن الكريم:

﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾(٣).

---

(١) ـ الصَّواعق ١١١ .

(٢) ـ الحجَّة ١١٥ والغدير ٣٦٨: ٧ مسنداً.

(٣) ـ التَّوبة ٢٦ .

﴿وأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾[1].

﴿أنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾[2].

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوَّمِينَ﴾[3].

﴿إنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[4].

إلى آخر ماهنالك مِنْ آياتٍ تتعلّق بهذا الموضوع.

... وكنصرة أبي طالبٍ الفعَّالة، وكانت في حكم السِّرِّ، مادام يكتم إيمانه. فإنَّ النُّصرة لم تكن لِتتأتى له، لولا هذا الكتمان...

وإنَّ مثله، كمثل مؤْمِنِ آل فرعون، الذي نقرأ قصَّته في مانتلوه مِنَ القرآن العظيم[5].... فإنه لولا كتمانه الإيمانَ، لكان قد نفَّذتِ الفراعنة مااعتزمته مِنْ قتل الكليم موسى... ولكنّه وقف موقفه الفعَّال ذاك، وقومه لايعرفون منه: مؤْمناً... وإنَّما يظنُّونه مثلهم... ولم يُلقِ إليهم بهذه النَّصائح، إلاَّ لأنَّه متَّفِقٌ معهم على المبدإ.

وكذلك كان موقف أبي طالبٍ، مِنْ دعوة الرَّسول(ص).

وإلى هذا يُشير الإمام، في ماقصَّه مِنْ حديثٍ، أسنده –عن آبائه الأطهار– إلى جدِّه الرَّسول(ص).

* *

وليس مَنْ يستطيع: أنْ يظنَّ بأقوال العترة النَّبويَّة، شيئاً غير الحقِّ، فيحمله على حميَّة النَّسب، ورابطة الرَّحم، بعدما جاء القرآن بطهارتهم:

---

(١) ـ التَّوبة ٤٠ .

(٢) و (٣) ـ آل عمران ١٢٤ و١٢٥ .

(٤) ـ الأنفال ٩ .

(٥) ـ افتتحنا الكتاب، بهذه الآيات الكريمة، لشبهها وسناسها بالموضوع.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ -أَهْلَ الْبَيْتِ- وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(١).

وهي آيةٌ تُفصح لنا عن عصمة العترة الطّاهرة، رغم المواقف المخزية، والتّحذلق البغيض، في تفسيرها، مِنْ بعض المنحرفين، عن أهل البيت، «عليهمُ السَّلام».

وأهل البيت: عدل القرآن -المعجزة الخالدة- وحبلٌ ممدودٌ، بين: الأرض والسَّماء... مَنْ أخذ به، فإنه مرتفعٌ إلى القمَّة مِنَ الخلود... ومَنْ لم يكن له منه نصيبٌ، فهو في السَّفح، لن يرتفع مِنَ الوهدة، وقد أحاط به الهلاك والدَّمار:

[إنّيْ مخلّفٌ فيكُمُ الثقلين... مَا إنْ تَمسَّكتُمْ بهمَا لَنْ تضلُّوا: كتابُ الله، وعترتيْ أهلَ البيتِ، لنْ يفترقَا حتّى يردا عليَّ الحوضَ].

وهذا الحديث -المجمَع عليه بين المسلمين- شاهدٌ آخر على عصمتهم.

فَمَنْ نال منهم بنقدٍ أو ذمٍّ، فإنه قَدْ نالَ القرآن -وهم عِدله- ومَنْ تخلَّف عنهما، فَمِنَ الهلاك، وإليه...

هذا إلى أحاديث وأحاديث... وآياتٍ وآياتٍ... ليس مِنْ موضوعنا عرضها، بله تقصِّيها، وكلُّها شاهد صدقٍ على طهارة أهل البيت.

فليس يجوز أنْ يُجانب الحقَّ: مَنْ نِيطت بالتمسُّك به، نجاة العباد... وليس يقول غير الحقِّ: مَنْ كان عدلاً للقرآن - وهو: الدَّستور الإلهيُّ، والمعجزة الباقية.

وهم أوْلى النّاس بأنْ لايُخالفوا القرآن، في ماسنّه مِنْ دستورٍ، وفي ما جاء به، مِنْ: نهيٍ، وأمرٍ...

وقد وقفنا عند تلك الآيات، النّاهية الزّاجرة، عنِ اتّخاذ أعداء الله أولياء، وهو الذي يُنافي الإيمان - فكيف بهم «عليهمُ السَّلام»، يندحون لسببٍ، أو

---

(١) ـ الأحزاب ٣٣ .

نسبٍ... ويقولون في شخصٍ -ولو كان أباهم- غير الحقِّ، وينسبون إليه، مالم يصحَّ منه، أو يُبرِّئونه مِمّا هو به ألصق...؟!

وإنّ القائل فيهم، «عليهمُ السَّلام»، مثل هذا القول: متسوِّر على مقامهم، الذي هو مقام رسول الله(ص)... ونائلٌ مِنْ قدس الرِّسالة المحمَّديَّة، وقداسة رسولها الكريم...!

على لسان الصحابة وآخرين:

إنّنا لَنجد، بين الصَّحابة – مِمَّنْ لم تعْمِ عينيه الشَّهوات، ولم تنحرف بـه الأغـراض، عن سويِّ الطَّريق – مَنْ يشهد لأبي طالبٍ بالإيمان، ويذكره خيِّر الذكر...

ولسنا نُريـد أنْ نتقصَّى جميع ماقالتـه الصَّحابـة، فنُطيـل البحـث والعرض... ولكنّنا نُشير إلى قولاتٍ لبعضهم، كدليلٍ على وجود ذلك بينهم، ليس إلاَّ...

* ١ و ٢ *

فهذا الخليفة أبو بكرٍ، يقول:

[إنَّ أبا طالبٍ، ماماتَ، حتّى قال: لاإله إلاَّ ا لله، محمَّدٌ رسول ا لله](١).

وكذلك قال العباس، بمثل ماقال أبو بكرٍ(٢).

* ٣ *

وهذا عبدا لله بن العبَّاس، يسأله رجلٌ:

ياابنَ عمِّ رسول ا لله! أخبرني عن أبي طالبٍ، هل كان مسلماً؟.

فيُجيبه:

وكيف لم يكن مسلماً، وهو القائل:

---

(١) - النَّهج ٣١٢: ٣، وشيخ الأبطح ٧١، والغدير ٣٧٠ و٤٠١: ٧، والأعيان ١٣٦: ٣٩.

(٢) - شيخ الأبطح ٧١ و٧٣، والغدير ٣٩٩: ٧ مرويّاً عنِ ابن عبَّاسٍ، عن أبيه - وص ٤٠١: ٧، والأعيان ١٣٦: ٣٩ .

وقــــدْ علمِـــوا أنَّ ابنَنَـــا لاَ مكــــذَّبٌ

لدينَـــا، ولاَ يعبَـــأُ بقـــولِ الأبـــاطلِ...؟!

إنَّ أبا طالبٍ، كان مَثله كمثل أصحاب الكهف، حين أسرُّوا الإيمان، وأظهروا الشِّرك، فآتاهمُ ا لله أجرهم مرَّتين(١).

* ٤ *

وهذا أبو ذرٍّ -وهو الصَّحابيُّ الجليـل، الـذي لم يغْمِ عينيـه بريـق الذَّهـب، ولم يُرهبه بطش معاوية! - يقول:

[وا لله الذي لاَ إله إلاَّ هو!. ماماتَ أبو طالبٍ -رضيَ ا لله عنه- حتَّى أسلم]- الخ(٢).

* ٥ *

وفي أبياتِ لحسَّان بن ثابتٍ:

فـــــإذاَ ندبتُـــــمْ هالكـــــاً

فـــابكُوْا الـــوفيَّ أخَـــا الـــوفيِّ

قال سبط بن الجوزيِّ: «يعني: حمزة، وأبا طالبٍ»(٣).

* ٦ *

ماكانت هذه الشَّهادات، لِتختصَّ بعصرٍ دون عصرٍ، أو طبقةٍ دون غيرها...

فإنَّ كلَّ مَنْ لم تفـرض عليـه الأغـراض، أنْ يقـول ماتشـاءُ - ولـو حـول هـذا الموضوع، بخاصَّة - نجد لديه بصيصاً مِنْ نورٍ، ينبعث في زحمة الظَّلام، لِيُنير الطَّريـق السَّويّ...

---

(١) ـ الحجَّة ٩٤ و١١٥، والغدير ٣٩٧: ٧ .

(٢) ـ الغدير ٣٩٩: ٧ .

(٣) ـ تذكرة الخواصِّ ٣١.

وهذه كلمة حقٌ، تنبعث مِنْ حنجرة الملك العبَّاسيِّ عبدا لله المأمون – وهو هو... ولكنها كلمة حقٌ، لابُدَّ وأنْ تنفلت مِنْ صدره، حتى ولو شاء أنْ يطول لها الحبس... فقد كان يقول:

أسلم أبو طالبٍ – وا لله!– بقوله:

نصرتُ الرَّسولَ رسولَ المليكِ
ببيضٍ تَلالَأ، كلمعِ البُروقْ
أذبُّ وأحمي رسولَ الإلهِ
حمايةَ حامٍ، عليهِ شفيقْ
ومَا إنْ أدبُّ لأعدائهِ
دبيبَ البِكارِ، حذارَ الفنيقْ(١)
ولكنْ أزيرُ هُمْ سامياً
كمَا زارَ ليثٌ بغيلٍ مضيقْ(٢)

* ٧ *

وهذا أبو جعفرٍ الإسكافيُّ، يذكر أبا طالبٍ –عَرَضاً– وهو في سبيل «نقض العثمانيَّة» الرِّسالة التي يردُّ فيها، على رسالة الجاحظ: «العثمانيَّة» – فلا يسعه، حينئذٍ، إلاَّ أنْ يُتحفه بالثَّناء مِمَّا يستحقُّ... فإنَّه لَيقول:

[وكان أبو طالبٍ أباه – يعني: الرَّسول– في الحقيقة، وكافلَه، وناصرَه والمحامي عنه، ومَنْ لولاه لم تقم له قائمةٌ. ومع ذلك لم يُسلم – في أغلب الرِّوايات](٣)

ونحن نستغرب، بل لانظنُّ أنْ أبا جعفرٍ قد قال هذا الذَّيل، الذي ينقض مقدِّمة كلامه، مضافاً إلى أنَّ أبا جعفرٍ، مِنَ القائلين بإسلام أبي طالبٍ– كما سنُشير إليه في الفصل الأخير.

---

(١) ـ البِكار، جمع بِكر: الفتيُّ مِنَ الإبل. الفنيق: الفحل المكرَّم، لايُؤذى ولاَ يُركب، لكرامته.

(٢) ـ النهج الحديدي ٣١٤: ٣، والغدير ٣٣٧: ٧، والحجة ٥٤، وديوان أبي طالب ١٠.

(٣) ـ رسائل الجاحظ ٣٢ .

ومِمَّا يُضاعف الشَّكَّ عندنا هو: أنَّ مصدرنا في هذا، هو خلاصة رسالته، لارسالته بالذَّات، وجامعها هو: حسن السَّندوبيُّ، الذي وقفنا معه في مقدِّمة الكتاب: «على العتبة».

ثم لو ثبت هذا الذَّيل له، فهو لم يُوضح رأيه الذَّاتيَّ، في الموضوع... وإنَّما أشار إلى أنَّ مِنَ الرِّوايات، ماتميل إلى عدم إسلامه...

وفي موضعٍ آخر، حيث عرض لِمَنْ أسلم بحسن دعاء أبي طالبٍ، وإقباله على الرسول الأعظم(ص)، يقول حول ذلك:

(ولأجله -يعني: أبا طالبٍ- صَبَرَ بنو هاشمٍ على نصرة رسول الله- صلّى الله عليه «وآله» وسلّم - بمكّة، مِنْ بني مخزوم، وبني سهم، وبني جمح.

ولأجله صَبَرَ بنو هاشمٍ على الحصار في الشِّعب... وبدعائه وإقباله على محمَّدٍ -صلّى الله عليه «وآله» وسلّم- أسلمتِ امرأته فاطمة بنت أسد، فهو أحسن رفقاً، وأيمن نقيبةً مِنْ أبي بكرٍ، وغيره.

ومامنَعه عنِ الإسلام - إنْ ثبت أنَّه لم يُسلم- إلاَّ تقيَّةً)(١).

وهذا الذَّيل - أو هذه الجملة الإعتراضية الدَّخيلة، إنْ ثبتت منه، كما قلنا، ليست تعني قوله بعدم إسلامه، بعد أنْ نقف على قوله بإسلامه، كما يُصرِّح بذلك تلميذه ابن أبي الحديد.

وقد تكون هذه القولة -إنْ كانت له- قبل جزْمه بإسلامه، حيث يجوز أنَّه كان في شكٍّ منه، ثم بانت له الحقيقة، بعد فحصها، والبحث عنها، فَنَطَقَ - بعدئذٍ- بما بان له.

على أنَّ كلمته هذه، إنْ نفت شيئاً، فإنَّما تنفي إعلانه بإسلامه، حيث تقضي التَّقيَّة بالكتمان.

---

(١) - المصدر ص ٥١ .

* ٨ *

وإنّ الجاحظ -على موقفه المخزي والجاهل، في رسالته: «العثمانيّة» -- لم يستطع، وقد ذَكَرَ أبا طالبٍ، لِيحطّ مِنْ قيمة سبْق عليّ للإسلام، إلاّ أنْ يقول:

[أوَلستَ تعلم أنّ قريشاً خاصَّةً، وأهل مكّة عامَّةً، لم يقدروا على أذى النّبيّ - صلّى الله عليه «وآله» وسلّم- ماكان أبو طالبٍ حيّاً؟!](١).

* ٩ *

وفي تذكرة الخواص، بعد عرضٍ بالحديث لأبي طالبٍ، في ثنايا الكلام عنِ الإمام عليّ «عليه السَّلام»، وبعد ذكر شيءٍ مِنْ: فعْل أبي طالبِ الحميد، وقوله السَّافر عنِ المعتقد، وذكْر الرَّسول(ص) له، وترحُّمه عليه...

إنّ فيها مثل هذه القولة:

[أقول: كون أبي طالبٍ مِنْ أهل الجنَّة مالاينبغي التَّأمُّل فيه. وإنّ شواهده أكثر مِنْ أنْ تُذكر:

«اهتمامه» بكفالة النبيّ المختار، ونصرته له.

«واهتمامه» بدفْع أذى الأشرار والكفَّار عنه، وجزَع النّبيّ(ص) عليه عند موته، وتسمية عامه بعام الحزن، لموته وموت خديجة، وترحُّمه «واستغفاره له»، خصوصاً في طول أيامٍ.

ولايُرتاب في استجابة دعائه، لاسيَّما مع الإصرار](٢).

ثم نجد -في حديثٍ طويلٍ- الاستدلال على ذلك، بذكر الأئمة الأطهار له، وأقواله هو في الرَّسول، وفي دِينه...

---

(١) ـ المصدر ص ٥ .

(٢) ـ تذكرة الخواصّ ص ١٠، ١١ .

ومِنَ الخير: أنْ نأتي بهذا المقطع منه:

[وأيضاً لم يُؤرِّخ أحدٌ مِنْ أعداه: استياء ولده بأنَّ أباك مِنَ الكفّار.

هذا معاوية، أعدى «أعدائه» ومنازعيه، وهذا عمرو بن العاص، وهذا عبدا لله بن الزبير، وهذا مروان، وغيرهم، مع قدحهم فيه، عليه السَّلام، وإسنادهم ورميهم إليه ما هو بريءٌ منه –وماعابوه، وماشنّعوا عليه بذلك(١)... وهو، عليه السَّلام، يذكرهم بكفر الآباء والأُمَّهات، ورذالة النَّسب، وماقابلوه بالمثل...!

بل هذا أقوى شاهدٍ على إسلامه، وعلى شدَّة تعصُّب مَنْ أسند الكفر إليه مِنَ العامَّة.

فانظر –أيها المنصف!– إلى سوء سريرة أشباه الخفافيش، في عداوتهم لشمس الإسلام ونوره...!](٢).

وإنَّه لَبرهانٌ نصيعٌ، وحجَّةٌ دامغةٌ: هذا القول المنطقيُّ، المستمدُّ مِنَ الواقع...!

فلو كان هؤلاء –وهم مِنْ أعداء الإمام– لايعرفون مِنْ أبي طالبٍ: ذلك المؤمِنَ –بل لو يشكُّون فيه، فحسب– لَمَا تركوا تنقُّصَ الإمام مِنْ هذا الجانب، وهم الذين يرمونه بما هو منه بريءٌ، ويُلصقون به ماهو منه بعيدٌ...

وليس مِنْ: إيمانٍ، أو إنسانيَّةٍ، أو ضميرٍ، يحدُّ مِنْ غلواء بغض هؤلاء، ولكن السبيل عليهم مقطوعٌ...

* ١٠ *

ولابُدَّ لنا في هذا الفصل –مِنْ أنْ نأتي على هذه القولة الصَّريحة المجلجلة، تنطلق مِنْ فم مسيحيٍّ، عرف الحقَّ، فنصره... ورأى النُّور، فدلَّ عليه...

ونحن نأتي بها هنا، ولانرى أن نُعلّق عليها بحرفٍ واحدٍ، فتكفي الحقائق التي ضمَّتها هذه السُّطور، عن: تعليقٍ، أو توضيحٍ...!

---

(١) - يعني: لم يعيبوا ولم يُشنِّعوا على عليٍّ: أنَّ أباه كافرٌ.

(٢) - تذكرة الخواصِّ ص ١١ .

يقول الكاتب المؤرِّخ عبدالمسيح الأنطاكيُّ:

[وقدِ اختلف المؤرِّخون في إسلام أبي طالبٍ، أو بقائه على الشِّرك.

ولكلٍّ فريقٍ أدلَّةٌ، يرتكنون إليها، وأحاديثُ نبويَّةٌ يستشهدون بها.

وليس لمثلي أنْ يبتَّ في مثل هذا الأمر الخطير.

وإنَّما الاستدلال مِنْ واقع الحال، يُرجِّح قول الذين يقولون بإيمانه، لأنَّ الإنسان مهما تعالى في صلة رحمه، وفي حبِّه لابنه، أوِ ابن أخيه، أو نسيبه، لايسعه أنْ يغضَّ الطَّرف عن ذاك المنتسب إليه، المحبوب منه، إذا رآه يتعدَّى على دِينه، ويُحاول أنْ يدكَّ أركانه، ويقيم في موضعه دِيناً آخر، إنْ لم يكن هو -أيضاً- معه في الاعتقاد، لِمَا تعلم مِنْ تمسُّك الناس بأديانهم، ومبالغتهم بتقديسها، وتفضيلهم لها على كلِّ اعتبارٍ آخر، حتى أنَّ المؤْمنَ لَيقتل ابنه، أو أباه، إذا رآه يحقر دِينه، ويستهين بمعبوده(١).

وإذا صَدَقَ هذا على عامَّة الناس، فبالأوْلى: أنْ يصدق على خاصَّتهم، مثل أبي طالبٍ، الذي كانت له المكانة العليا في قريشٍ، فهو ملزَمٌ مِنْ جهة نفسه، وجهة مركزه، أنْ يُدافع عنِ الدِّين الذي يدين به، هو وقومه، كي لاتسقط مكانته مِنْ عيونهم، وكي لايُعرِّض نفسه لغضب معبوداته، فيخسر آخرته.

وعلى هذا فأبو طالبٍ، لابُدَّ وأنْ يكون قد آمَنَ برسالة ابن أخيه -عليه «وآله» الصَّلاة والسَّلام- في قلبه، ولكنه لم يجهر بها، لاعتباراتٍ تقتضيها الحكمة، وتدعو إليها السِّياسة.

فإنَّه لو جهر بإيمانه، في بدء البعثة، وفجر الدَّعوة، لانقلبت عليه قريشٌ بجملتها، وأسقطته مِنْ حالق مجده، وعبثت بحرمته...

وحينئذٍ يعجز عن ردِّ الأذى عن ابن أخيه، وهو لايزال ضعيفاً...

وهذا الذي جعله يكتم مافي نفسه مِنَ الإيمان...

---

(١) ـ دلَّلنا على ذلك ـ مِنْ صفحات التأْريخ ـ في إحدى حلقات هذا الفصل.

وظاهر أعماله وقصائده وخطبه، تُظهره بأجلى بيانٍ، إذْ رأيناه يُدافع عنِ المصطفى بنفوذه وجاهه، ويمدحه بقصائده وخطبه، حتى آخر لحظةٍ مِنْ حياته، على مارأيتَ مِنْ وصيَّته.

وعلى هذا فيكون أبو طالبٍ مِنْ خير الصَّحابة والأنصار، بغير جدالٍ.

وحبَّذا لو وفَّق ا لله الإسلام -في عصر النَّاس هذا- إلى مَنْ يحمون ذماره، ويُعلون كلمته، كما فعل أبو طالبٍ، في فجر البعثة، إذن لظلَّ الإسلام في خيرٍ.

هذا هو أبو طالبٍ كفيل المصطفى وعمُّه، وحبيبه، ونصيره، ووالد سيِّدنا أمير المؤْمنين، يعسوب الدِّين، أسد ا لله الغالب، عليٍّ بن أبي طالبٍ...! بل هذا هو الرَّجل العظيم، الذي ربَّى هذين النَّيِّرين، فأضاءا في سماء الدُّنيا والدِّين](١).

ولانرى حاجةً لتعليقٍ، على هذه القولة الواضحة، النَّاصعة الحجَّة، والدَّامغة البرهان...!

وإنَّ مِنْ صفحات التَّأْريخ -كما عرضنا نماذج منها، في الحلقة الثَّانية، مِنْ هذا الفصل- مايُؤيِّد ذلك، ويدعمه في قوله: إنَّ العاطفة الدِّينيَّة أقوى وأمضى مِنَ العاطفة الدَّمويَّة... فإنْ هما كانتا في حلبة صراعٍ، كانتِ الغلبة المحتومة للأُولى، والخذلان للثَّانية...

* ١١ *

ويقول الدَّكتور طه حسين:

[فعطف أبي طالبٍ على النَّبيِّ معروفٌ، وقيامه دونه يحميه، ويحمي دِينه مِنْ قريشٍ، مستفيضٌ](٢).

---

(١) ـ معجم القبور ١٩٤،١٩٥: ١، عن هامش شرح القصيدة العلويَّة ص ٥٨ .

(٢) ـ الفتنة الكبرى: عثمان ص ١٥١ .

* ١٢ *

وقد وضع الأُستاذ المنصف عبدالعزيز سيِّد الأهل كتاباً، عن أبي طالبٍ(١).

وقد لاحظ عليه بعض القرّاء: أنّه لم يقل بإسلام أبي طالبٍ...

وأنا على النّقيض منه، فإنّي أرى الأُستاذ قدِ اعترف، أصرح مايكون الإعتراف، وأوضح وأجلى مايكون الإيضاح: أنَّ أبا طالبٍ مِنَ المؤْمنين الأُوَل، والمسلمين السُّبَّق، فله الفضل على الإسلام.

ولو لم يكن فيه، سوى بضعةٍ، مِنَ السُّطور النّاصعة، في مقدِّمته -لكانت خير دليلٍ، وخير برهنةٍ، على مايراه ويكنُّه، تجاه شيخ بني هاشمٍ...

ويجدر عرض بعضٍ، مِنْ سطور هذه الصَّفحات النّواصع:

[وليس مِنَ المحمود للنّاس، في سبيل رجلٍ رعى النّبي وحماه، أكثر مِنْ أربعين عاماً: أنْ تُقتضب أخباره، كما اقتُضبتْ، وأنْ تُنثر، وتُبعثر، كما نُثرت وبُعثرت، وأنْ يقلَّ رواتها، ويضَّطربوا، كما قلُّوا، واضَّطربوا...

ثم يُنسى فضله كلُّه، ويقف التّأْريخ منه، في ساعة موته، موقفاً واهناً عجيباً، يتحدَّث عنِ الرَّجل الذي حمى النُّبوَّة، ونافح عنها بقوَّةٍ وتضحيةٍ وإيمانٍ، وكأنما يتحدَّث بلسانٍ خُلق مِنَ الهوى، عن رجلٍ دخيلٍ، أو عن وافدٍ غريبٍ...!!!

أنفذَ الرَّجل حياته كلَّها في نصرة النَّبِّي، وألزم أهله باتّباعه، وأنفق عليه جهده وحبه وماله، وخاصم أعداءه وضربهم وقهرهم. وأعدَّ مِنْ نفسه عزمةً صادقةً، تخفُّ إلى المستغيث بها، في طريق الهموم.

وكان وجود أبي طالبٍ لنصرة رسول الله ضرورةً مِنْ ضرورات الخِلقة، وسنداً لابُدَّ منه لظهور البعثة، وانتشار الدَّعوة – كما يقول ابن خلدون في نظريته(٢)...

---

(١) ـ هناك العديد مِنَ الكُتب، التي وُضعت في حقِّ شيخ الأبطح، مِنَ: الشِّيعة، وأهل السُّنة.

(٢) ـ كنّا نتمنّى لو أسند قولة ابن خلدون هذه!.

وتلك مشيئة الله، فليس ينتصر رجلٌ، ولامبدأ، ولادِينٌ، مالم يستند إلى مايشدُّ أزره، وينصره مِنَ العصبيَّة المهيبة، كما ينتصر بالأتباع والأنصار، إلاَّ أنَّ ذلك هو أوَّلٌ، ولابُدَّ منه، ولولاه ماكان الأتباع والأنصار](١).

[وأبو طالبٍ لم يفُتْه أنْ يعرف الواجب الذي نِيط به، ولم يُثقله العبء الذي أُلقي عليه، فنصر النَّبيَّ وأيَّده، وخاصم النَّاس جميعاً فيه، ولم تأخذه العزَّة بالإثم، كما أخذت غيره مِنَ الكبراء، الذي أضلُّوا النَّاسَ السَّبيلَ.

وقد كان أبو طالبٍ –غير مدافعٍ– سيِّد قريشٍ جميعاً](٢).

[وبكى رسول الله لنعيْ عمِّه، ومَنِ الذي يبكي رقَّةً ورحمةً ووفاءً، إذا لم يبكِ محمَّدٌ –وقد أحسن ربُّه تأديبَه– عمّاً، كفله وربَّاه ونصره، وتقصّى عذره في التّحمُّل، فكان له أباً، حين فَقَدَ الأب، وكان له عضداً، حين احتاج إلى النَّصير، وكان له حزباً، حين احتاج إلى حقٍّ قويٍّ، يقهر الباطل، ويمحق الطُّغيان!](٣).

لقد حاولنا أنْ لانُكثر مِنْ هذه الكلمات، المبثوثة في الكتاب... إلاَّ أننا –رغم هذه المحاولة– لم نستطع إلاَّ أنْ نأتي بما أتينا به... وأن نسأل مثل ذلك القارىء الكريم:

هل يجوز القول: بأنَّنا لم نجدِ الكاتبَ قد قال ياسلام شيخ بني هاشمٍ، بعد كلِّ مابثَّه في كتابه –وماهذه سوى «عيِّنة» له– مِنْ: قول واضحٍ صريحٍ، وشهادةٍ، هي أرفع وأحقُّ ماتكون الشَّهادة الصَّادقة..؟!

* ١٣ *

ونجد الأستاذ جورج جرداق –في كتابه الفذّ «الإمام عليٌّ صوت العدالة الإنسانيَّة» – يُتحف أبا طالبٍ بباقاتٍ، مِنْ معطار الثَّناء، وعبارات الإجلال والتَّعظيم.

---

(١) ـ أبو طالبٍ شيخ بني هاشم ص ٥،٦ .

(٢) ـ نفس المصدر – ص ٧ .

(٣) ـ نفس المصدر – ص ٨٩ .

ومِنَ المناسب جدّاً: أنْ نقتطف شيئاً، مِنْ هذا الذّكر العطر:

[ولّما تُوفّي جدُّه -يعني: عبدالمطّلب، جدَّ الرّسول- كفلـه عمُّـه أبـو طـالبٍ - والد عليٍّ- فاستمرَّ الغلام يحيا في جوِّ الحنان، والدَّعة، وحسن التَّربية، الذي خلّفـه الأب الرَّاحل للأبن المقيم](١).

وبعد أنْ ذكر استخلاف عبدالمطّلب أبـا طـالبٍ، لرعايـة حفيـده، عَقّـبَ ذلـك بقوله:

[وهو مااختار أبا طالبٍ إلاّ استئناساً بما يعرف مِنْ أمره وما يُدرك.

فإنَّ الحنان والعطف، وإنْ كان لأكثر ولد عبدالمطّلب منهما نصيبٌ، لم يبلغا في قلوبهم -مِنْ القوَّة، والبُعد- مابلغا في قلب أبي طالبٍ.

وأثر الحنان والعطف، في حسن الكفالة والرعاية، أَظهر مِنْ أثر المال.

لذلك كلّه اختار أبا طالبٍ أبوه لرعاية محمَّدٍ.

أضف إلى هذا: أنَّ أبا طالبٍ كان يُضمر مِنَ العطف علـى ابـن أخيـه: مايدفعه دفعاً إلى رعايته، وإنْ لم يكلّفه ذلك أبوه!.

فكيف إذا اجتمع هذا العطف. وهذا التكليف...؟!

ومِمّا لامراء فيه أنَّ أبا طالبٍ شخصيَّةٌ جميلةٌ ومحبّبةٌ.

شخصيةٌ جميلةٌ، تُطالعنا بحكمة الشَّيخ الطَّيِّب الأمين المجـرِّب، الـذي يضـع كـلَّ مأأوتي مِنْ: طيبةٍ، وأمانةٍ، وتجربةٍ، موضع العمل والتّنفيد، في كلِّ حالٍ](٢).

ولنرهفِ السَّمع لهذه الكلمة الرَّائعة:

[حتى لكأنَّ الله لّما اختار رسوله مِنْ بني عبدالمطّلـب اختـار لتنشـئته هـذا العـمَّ الكريم!.

(١) - ص ٣٤ (١٥٤: ١).

(٢) - ص ٥٤،٥٥: ١ .

وكأنَّ قوَّة الوجود الشَّاملة، هيَّأت لأبـي طـالبٍ: آنْ يعلـم مِـنْ أمـر ابـن أخيـه مالايعلمه سواه](١).

وكلمةٌ أُخرى، لاتقلُّ عـن هـذه روعـةً، ووضـوحَ أداءٍ في ماتحمله مِـنْ تحليـل شخصيَّة أبي طالبٍ، وماتحمله مِنَ المعاني الخيِّرة:

[فإذا مابنفس أبي طالبٍ مِنْ معاني الطَّبيعـة، يشـفُّ في نفس محمَّـدٍ، فـإذا هـي جزءٌ مِنْ ذاته، يتكوَّن وينمو تحت نظرة العمِّ المحبِّ](٢).

[وكان أبو طالبٍ أوَّل مَنْ قال شعراً في الإسلام، يفيـض بـالحبِّ لمحمَّـدٍ ويدعـو إلى نصرته.

وكان يكثر عليه كلُّ عملٍ، أو قولٍ، فيه بعض الأذى لابن أخيه](٣).

[ولم ينسَ أبو طالبٍ دقيقةً واحدةً، في حياته، أنَّ محمَّداً إنما هو استمرار عبقريَّـة الخُلُق، التي يتميَّز بها بصورةٍ عفويَّةٍ: هو، وأخوه عبدا لله، وأبوهما عبدالمطَّلب](٤).

[ولَمَّا تُوفِّي أبو طالبٍ، شعر النَّبيُّ بأنَّه فَقَدَ أعظم ركنٍ، يستند إليه، ويدفـع عنـه أذى قريشٍ.

وماكان هذا الشُّعور إلاَّ تدليلاً على تجاذب أسـباب الخير بـين: محمـدٍ، وعمِّـه ربِّ البيت، الذي نشأ فيه وسما خُلُقه!.

وإذا كان مِنْ أسباب هذا الشُّعور بخسارة أبي طالبٍ: أنَّ محمَّداً فَقَدَ به نصـيراً، يفديه بدمه، ويدفع عنه الأذى، وملجأً حصيناً ضدَّ قريـشٍ، والمسـتبدِّين الغـلاة مِـنْ بنيها، حتى أنَّه قال:

«مَا نالنِيْ مِنْ قومِيْ سوءٌ، حتَّى ماتَ عمِّي أبو طالبٍ».

فما تعليل هذا الحزن العميق، الذي غزا قلب محمَّدٍ بموت عمه؟.

---

(١) - ص ٥٥: ١ .

(٢) - ص ٣٤ (٥٦: ١).

(٣) - ص ٣٥ (٥٨: ١).

(٤) - ص ٣٦ (٥٩: ١).

وماعلّة هذه الكآبة، وماكان محمَّـدٌ إلاّ صبـوراً، حازمـاً، واثقـاً بنصـر رسـالته، مهما كثر العدوُّ، وقلَّ الصَّديق، ومهما كان مِنْ شأن الأخيار والأشرار؟!.

أجل! ماعلّة هذه الكآبة، إنْ لم تكن الكارثـة، الـتي حلَّـت بمحمَّـدٍ، هـي كارثـة الإنسان بأعزِّ مَنْ يعطف عليه ويحميه؟.

وما تكون هذه الدُّموع الغـزار، إنْ لم تكـن شـاهداً علـى أنَّ النَّبيَّ -كرجـلٍ- أحسَّ بأنه فَقَدَ شيئاً مِنْ ذاته، مِنْ حاضره، وماضيه؟!](1).

ثم يعود في فصلٍ آخـر، يعـرض للصِّلات، الـتي تتماسـك في الأعمـاق، علـى اتّحاد الودِّ بين: محمَّدٍ، وعليٍّ، كما كان بين: أبي طالبٍ، ومحمَّدٍ، وكيف أثمـر هـذا الاتّحاد الثّمار الطَّيِّبة:

(وتستمرُّ صلات المودَّة والإخاء بين: محمَّدٍ، وعليٍّ.

ويستمرُّ بينهما تعاطي الخير على إنجاح الرِّسالة،، هذا التَّعاطي، الذي يتماسـك في أعماقه، ويتّحد منذ أنْ عَرَفَ محمَّدٌ أبا طالبٍ، ومنذ أنْ عرف عليٌّ محمَّداً، ومنـذ أنِ اجتمع الثّلاثة في بيتٍ واحدٍ، قام على مزايا الشَّهامة!.

وماكانت خصائص البيت الطَّالبيِّ إلاّ حافزاً لأبي طالبٍ، وابنه عليٍّ، على فهْـم عبقريَّة محمَّدٍ، فهماً يتمثّل لدى الأوَّل: شعوراً وتضحيةً، ولدى الثّاني: فكراً جبَّاراً، وشعوراً عميقاً شاملاً، وتضحيةٍ أشبه بصنع المعجزات!)(2).

* *

وقد يقول قارئٌ: أنْ ليس -في مـاأتحف بـه الكـاتب الكبـيرُ شـيخَ البطحـاء- شيءٌ، يُنبيءُ عن قوله بإسلامه، إذ ليس فيـه سـوى الإشـادة بمزايـا وخصـائص أبـي طالبٍ، وتفانيه في حبٍّ وخدمة الرَّسول، والدعاية لدعوته ونصرته...

---

(1) - ص ٣٦، ٣٧ (٦٠: ١).

(2) - ص ٤٦ (٧١: ١).

ونحن نكتفي بهذا... فإنَّ مفكّراً -كجرداق- لانحتاج منه لأنْ يقول لنا عنِ النُّور: إنّي ألمحه...! فإذا ماوَصَفَ الضَّوءَ، وعَرَضَ لمزاياه، ودلَّ عليه... فإنَّ هذا يُشعرنا بأنَّ هذا المفكّر، يسير في دربه على هذا النُّور، الذي يُطري ويُشيد...

لذلك... فإنّنا لانحتاج لأنْ ندلَّ القارىء، ونأْخذ بيده، فنضع النُّقط على الحروف -وهي موضوعةٌ وضعاً فنيّاً- لِنُشير له عمَّا تزخر به هذه الكلمات القيِّمة- والتي شئنا أنْ نقتصر على أقلَّ ممَّا أتينا به، فلم نستطع، إذ أسرتنا بعلوِّ ماتهدف إليه، مِنْ حقٍّ صريحٍ...

... هذه الكلمات التي تزخر، بما شُحنت به، مِنْ صريح الإعتراف الواضح، بإسلام أبي طالبٍ...

ولكننا نُشير إلى ماأوضحه، مِنْ ضرورة وجود أبي طالبٍ، حيث هيَّأته قوَّة الوجود الشَّاملة، لاكتشاف أمر ابن أخيه...

وكيف يكون محمَّدٌ استمراراً لعبقريَّة الخُلُق الرَّفيع المتميِّز بها - بصورةٍ عفويَّةٍ - كلٌّ مِنْ: أبي طالبٍ، وأخيه عبدالله، وأبيهما عبدالمطَّلب... كيف يكون محمَّدٌ استمراراً لهؤلاء، إذا كانوا مشركين - ومعاذ الحقِّ؟!!!.

ثم ماهذه النَّفس الجبَّارة، التي تشفُّ في نفس محمَّدٍ، لِتنصهر، وتمتزج النَّفسان، لِتكونا جزئين لشيءٍ واحدٍ، ويكون أبو طالبٍ، ومحمَّدٌ، وعليٌّ، كلاًّ لايتجزَّأ...؟!

إنَّ خصائص البيت الطَّالبيِّ، تكون الحافز القويَّ، الذي يدفع الأب والولد، على فهم عبقريَّة الرَّسول: فهماً عميقاً، حتّى أنَّه ليتمثَّل شعوراً وتضحيةً، فيتماسك تعاطي الخير، مِنْ أجل إنجاح هذه الرِّسالة- بكل مايتطلَّبه هذا الإنجاح، مِنَ: الشُّعور العميق الشَّامل، والفكر الجبَّار، والتَّضحية الشَّبيهة بصنع المعجزات!.

وإنَّ هذا الشُّعور السَّامي، لَيتَّحد بين: الرَّسول، وعمِّه، وابن عمِّه، منذ عرف محمَّدٌ عمَّه، ثم عرفه ابنُ عمِّه، ويجتمع ذلك في وحدةٍ متماسكةٍ متراصَّةٍ، لافصْل بينها، ولاتفرقة، منذ اجتمع الثَّلاثة في بيتٍ، ابتُني على مزايا الشَّهامة، وتدعَّم بخصائص الفضيلة والسُّموِّ...!

فما هو هذا الخير، الذي يتجاذب أسبابَه محمَّدٌ، وعمُّه، وعليٌّ...؟

فهل يتجاذب محمَّدٌ أسباب خيرٍ، يكون فيه المشركُ: الطَّرفَ الثَّاني، في تجاذب أسبابه...؟!

وهل يُرجى خيرٌ مِنْ مشركٍ عنيدٍ...؟!

بل هل يمكن أنْ يكون فيه أدنى خيرٍ، لأنْ يكون شريكاً، في تجاذب أسبابه، لحامل رسالة التَّوحيد...؟!

إذن... فطبيعيٌّ -أنْ يشعر النَّبيُّ، بفقده عمَّه: أنَّه افتقد أعظم ركنٍ، يستند إليه، ويشدُّ أزره، ويحمي دعوته... وهو ربُّ البيت، الذي نشأ فيه الرَّسول، وسما خُلُقه...

وطبيعيٌّ -أيضاً- أنْ يغزو الحزنُ العميقُ قلب محمَّدٍ(ص) ويطفح أثره على وجهه، بالرَّغم مِمَّا تحفل به شخصيَّته مِنَ: الصَّبر، والحزم... وبالرَّغم مِنِ امتلاء قلبه: ثقةً بربِّه، المتكفِّل بنصْر رسالته، وإنْ تضاءلت أسباب النَّصر الظَّاهريَّة، بكثرة العدوِّ، وقلَّة الصَّديق، أوِ ازداد عدد الأشرار، وتضاءل عدد الخيِّرين...

ولكنه الحزن، الذي تُبقيه كارثة الإنسان، بأعزِّ مَنْ يعطف عليه ويحميه، حيث افتقد شيئاً، هو جزءٌ مِنْ ذاته، يمتدُّ مِنْ حاضره لماضيه...!

* *

إنْ كان ولابُدَّ أنْ نقف عند حدٍّ، مِنْ هذا الذِّكر العطر -بعد أنْ قدَّمنا منه باقاتٍ، تحفل بكلِّ مايضمُّه الزَّهر، مِنْ: فوّاح الأريج، ونضارة اللَّون، وفنِّ التَّنضيد...

إن كان ذلك... فعلينا أنْ نقف عند هذا الحدِّ، ونكتفي بما قدَّمنا، بعد أنْ طفنا بعديد العصور والأزمان، وقدَّمنا شهادات العديد مِنَ الشَّخصيَّات، التي قد تختلف في كثيرٍ مِنْ أسباب الاختلاف، سواءً كانت: قيميَّةً، ودينيَّةً، أو زمنيَّةً، أو في: الهوى، والمشرب...

ولكنّها تجتمع عند نقطةٍ واحدةٍ، تربط بينها كلّ الرّبط،وتُوثقها بكلّ الصّلة، هي: نصرة الحقّ المهتضَم، والكشف عنِ الحقيقة المستورة، والجأر بالقول الصّريح، في الوسط المملوء بالجلبة الصّاخبة الكاذبة، والزُّعاق النّابح البغيض، والفحيح مِنْ أنيابٍ زاعفة بالسُّمّ القتّال...

ولكنه الحقُّ الأبلج، والحقيقة النّاصعة...!

ولابدَّ أنْ يُقيِّض ا لله لهما مَنْ ينصرهما، ويدلُّ عليهما، ويُعلي مِنْ قيمتهما، لئلا تتساوى الفضيلة والرّذيلة، أو ينتصر الباطل المزخرف، على الحقّ الصّريح الواضح...!

وقفةٌ مع الحديديِّ

ذاك.. حديثٌ، يطول بنا مداه، وتتشعَّب منه الطُّرق والمسالك، لو شئنا أنْ نتقصَّى كلَّ كلمةٍ، قيلت في الموضوع، أو إشارةٍ أومأت نحوه...

ولابدَّ -كما قلنا- أنْ نقف منه، عند هذا الحدِّ، بعد أنْ أتينا على وفرٍ، مِنَ الشَّهادات الصَّادقة الصَّادعة، مِمَّنْ لايشكُّ في صدْق حديثهم مسلمٌ، أقرَّ بالشَّهادتين -وهم: الرَّسول، وعترته الطَّاهرة، بنصِّ الكتاب المبين- وأقوال أُناسٍ لمحوا النُّور، فدلُّوا عليه، وعرفوا الحقَّ، فسلكوا منه لاحب الطَّريق.

ولكن لابدَّ لنا -وقد تناولنا، مِنْ هذا الموضوع، طرفاً على اتِّساع مدىً- أنْ نأْتي على قولاتٍ لابن أبي الحديد، عثرنا عليها عند التَّنقيب، في شرحه لنهج البلاغة، لِنقف منه موقف المحاسب، على قولةٍ له -أيضاً- حول الموضوع.

* *

يقول، وقد عَرَضَ للأمَّة، التي بُعث فيها الرَّسول«ص»، وقسَّمها إلى أقسامٍ... فمنها: «المعطِّلة» وغير المعطِّلة -ومِنَ المعطِّلة: مَنْ أنكر الخالق، ومَنْ يدين بالتَّناسخ، وأرباب الهامة، وعبدة الأصنام الخ... حتى قال:

[فأمَّا الَّذين ليسوا بمعطِّلةٍ مِنَ العرب، فالقليل منهم، وهم المتألِّهون، أصحاب الورع والتحرُّج عنِ القبائح، كعبدا لله، وعبدالمطَّلب، وابنه أبي طالب](١).

فأنت تراه -هنا- يقول: إنَّ أبا طالبٍ كان مِنَ المتألِّهين- أيِ: الَّذينَ يقرُّون بوحدانية ا لله، ويؤمنون بوجود خالق الوجود- وذلك بعد أنْ عَرَضَ لِمَنْ يُنكر وجود الخالق والبعث، ومَنْ يعبد الأصنام، وغيرهم -وأنَّ أبا طالبٍ، كان مِنْ أصحاب الورع، ومِمَّنْ يتحرَّج عنِ القبائح...

وليس أقبح مِنْ أن يرى هدْيَ الرَّسول، فلايسلك لاحب منهجه...!

* *

---

(١) ـ النَّهج ٣٩: ١ - وقد أتينا على هذه الجملة، في حديثنا عن عبد المطَّلب؛ ولكن الحاجة دعتنا، لنُعيدها.

ويقول: في تعداده لميزات الإمام عليّ «عليه السَّلام»، وعرْضه لبعض خصائصه وفضائله:

[وماأقول في رجلٍ، أبوه أبو طالبٍ، سيِّد البطحاء، وشيخ قريشٍ، ورئيس مكّة؟!].

إلى أنْ يقول:

[وأبو طالبٍ، هو الذي كفل رسول الله«ص» صغيراً، وحماه وحاطه كبيراً، ومنعه مِنْ مشركي قريشٍ، ولقي لأجْله عنتاً عظيماً، وقاسى بلاءً شديداً، وصَبَرَ على نصره، والقيام بأمره... وجاء في الخبر:

أنّه لمّا تُوفّي أبو طالبٍ، أُوحي إليه، عليه «وآله» السَّلام، وقيل له:

[أخرجْ منها، فَقَدْ ماتَ ناصرُكَ(١)].

فالحديديُّ يعدُّ الانتساب لأبي طالبٍ شرفاً... وأنَّ ذلك إحدى الميزات، التي يمتاز بها الإمام الأعظم.

أي: إنّه يقول: إنَّ للإمام مِنَ الشَّرفِ العظاميِّ ثروةً ثرّةً، وميراثاً ضخماً...

فَمَنْ كان أبو طالبٍ أباه، فإنّه لضاربُ الجذر، في الشَّرف العظاميّ، نائلٌ منه بكلتا يديه!.

ثم ذكر ميزاتٍ فضلى، لأبي طالبٍ، وهي: كفالته: وحمايته، وحياطته للرَّسول، ومنعه له مِنْ أذى قريشٍ، حتى أنَّ ذلك عرَّضه لأنْ يلقى العنت العظيم، ويُقاسي البلاء الشَّديد، فَصَبَرَ على ذلك، وقام مقامه المحمود، مع شدَّة الحال، وتأزُّم الأمر...

وحتى أنه لم تقرَّ بالرَّسول أرض مكّة، بعد مافتقد مِنْ وجهها ظلَّ عمِّه، الحاني الظّليل، فجاءه الأمر صادعاً بالخروج، مِنْ أرضٍ، افتقد فيها: الحصن الواقي، والجُنّة المنيعة!.

---

(١) - النَّهج ص ٩، ١٠: ١ .

وقد أشار لهذه النقطة -أيِ: الأمر للرَّسول بالخروج- مرَّةً أُخرى، بقوله:

(لَمَّا مات أبو طالبٍ بمكَّة، طمعت قريشٌ في رسـول ا لله«ص» ونـالت منـه مـالم تكن تناله، في حياة أبي طالبٍ، فَخَـرَجَ مِـنْ مكّـة، خائفاً على نفسـه، مهـاجراً إلى ربّه)(١).

وممّا يتناول هذه النُّقطة -أيضاً- هذه القولة:

[واعلم: أنَّ عليّاً «عليه السَّلام»، كان يدَّعي التقدُّم على الكلِّ، والشَّرفَ على الكلِّ، والنِّعمةَ على الكـلِّ، بـابن عمِّـه«ص»، وبنفسـه، وبأبيـه أبـي طـالبٍ «عليـه السَّلام»... فإنَّ مَنْ قرأ علوم السِّير، عرف أنَّ الإسـلام، لـولا أبـو طـالبٍ، لم يكـن شيئاً مذكوراً...!

وليس لقائلٍ: أنْ يقول: كيف يُقال هذا... في دِينٍ تكفَّـلَ ا للهُ تعـالى بإظهـاره، سواءً كان أبو طالبٍ موجوداً، أو معدوماً...

لأنّا نقول: فينبغي على هذا أنْ لايُمدح رسول ا لله«ص»، ولايُقال: إنّـه هـدى النَّاس مِنَ الضَّلالة، وأنقذهم مِنَ الجهالة، وأنَّ له حقّاً على المسلمين، وأنّه لولاه لَمَا عُبد ا لله تعالى في الأرض...].

إلى أنْ يقول:

[فإن قلتم في كلِّ ذلك: إنَّ هـؤلاء يُحسـدون، ويُثنـى عليهـم، لأنَّ ا لله تعـالى، أجرى هذه الأُمور على أيديهم، ووفَّقهم لها، والفاعل بذلك بالحقيقة هو ا لله تعالى، وهؤلاء آلـةٌ مسـتعملةٌ، ووسـائط تجري الأفعـال علـى أيديهـم، فحمْدهـم والثَّنـاء عليهم، والاعتراف لهـم، إنَّمـا هـو باعتبـار ذلـك -قيـل لكـم في شـأن أبـي طـالبٍ مثله...!](٢).

---

(١) ـ المصدر نفسه ص ٣٢٢: ٣ .

(٢) ـ المصدر ٤٧: ١ .

ولعل مِنَ الخير: أنْ نُشير إلى: أنَّ قولة ابـن أبـي الحديـد –هـذه– جـاءت عنـد شرحه، لخطبةِ للإمام عليٍّ «عليه السَّــلام»، بعـد انصرافـه مِـنْ صفّـين، وبعـد هـذه الفقرات منها، بخاصَّة:

(لايُقـاس بـآل محمَّــدٍ«ص»، مِـنْ هــذهِ الأُمَّــة، أحــدٌ،
ولايُسوَّى بهمْ مَنْ جَرَتْ نعمتُهُ عليهِ أبداً.
همْ: أساسُ الدِّين، وعمادُ اليقين.
إليهمْ يفيءُ الغاليْ، وبهمْ يلحق التَّاليْ.
ولهمْ خصائصُ حق الولايةِ، وفيهمُ الوصيَّةُ والوراثةُ).

ثم هل لنا أنْ نقف، عند هذه النّقـاط، الـتي جـاءت في قولـة ابـن أبـي الحديـد تلك...؟

هل لنا: أنْ نضع النُّقط على الحـروف، عنـد قولـه: إنَّ عليـاً «عليـه السَّـلام»، كان يدَّعي التَّقدُّم والشَّـرفَ والنِّعمـة علـى الكـلِّ، بأبيـه أبـي طـالب كمـا يدَّعيـه بنفسه، وكما يدَّعيه بسيِّد الخلق الرَّسول الأعظم«ص»...!

ولكنّنا نكتفي باسترعاء إنتباه القارىء الكريم، لِيُعيد الفكر فاحصاً، في ماتحمله هذه الفقرة، وماتُشير إليه مِنَ الوحدة، التي تجمع بين الثّلاثة، في التّقدُّم، والشّـرف، والنعمة على الكلِّ...!

ولاننتقصَّى، فنُشير إلى قولة ابن أبي الحديد: «عليه السَّـلام»، بعـد ذكـره اسـم أبي طالبٍ...

فإنَّ «السَّلام» على شخصٍ، يدلُّ على رأي القائل في هـذا الشَّـخص، ومنزلتـه الرَّفيعة، التي لاتكون، إلاّ لِمَنْ هو في درجة: الرِّسـالة، أو الإمامـة، أوِ الوصايـة، أو مَنْ هو في عدادهم، أو يتدنّى مِـنْ درجتهـم، فـإنَّ كثيراً مِنَ الصحابـة، لاتُقـال في حقِّهم هذه الكلمة...!

ولم يقل ابن أبي الحديد، لأبي طالبٍ: «عليه السَّلام»، إلاَّ لأنَّه هو العمد الوطيد، في توطيد دعامة الإسلام، وأنَّ الإسلام، لولاه -كما يقول- لم يكن شيئاً مذكوراً[1]...!

وصَوَّرَ: أنَّ هناك مَنْ سيعترض على هذا القول، فردَّ على هذا الاعتراض، وهدَّ منه بواقي البناء... إذ لو قُدِّر: أنْ لافضْل لأبي طالبٍ، في نصرته للرَّسول -كما يقول هذا المعترض- لَمَا كان للرَّسول ذاته، فضلٌ في ذلك، وهو مبلِّغ الرِّسالة، ورافع مشعل الهداية والنُّور...

وليس لنا: أنْ نُطيل التَّعليق على هذه الفقرات، مِنْ قولة الحديديِّ، وهي مِنَ الجلاء والوضوح -في ماتُشير إليه وتعنيه- بمكانٍ، لايخلو معه قولٌ، أو تعليقٌ...!

* *

وإنِّي لم آتِ على هذه الفقرات المتفرِّقة، مِنْ أقوال ابن أبي الحديد -في حقِّ شيخ الأبطح- إلاَّ لأقف معه، في ماوقع فيه، مِنِ اضطرابٍ متلجلجٍ، وتناقضٍ مفضوحٍ، في ختام حديثه الطويل، عن أبي طالبٍ[2]، وقد أتى فيه على بضعٍ، مِنَ المفتريات البغيضة، في حقِّ أبي طالبٍ: «الكافل والمحامي» - كما يقول الحديديُّ[3].

وهذه الفريات الواهية النَّسيج، لاتتجاوز أحد عشر سطراً[4]، مِنْ هذه الصَّفحات الطِّوال، التي تنضح كلُّ سطورها بالحجج الدَّامغة، والبراهين السَّاطعة، التي تدلُّ على إيمانه، وتُبرهن عن صحيح معتقده، مِنْ: فعلٍ حسيدٍ، وأقوالٍ سافرة الوجه، عن إيمان قائلها، وشهاداتٍ مِمَّنْ لاتنالهمُ الظُّنون، ولايعلو إليهم شكٌّ، أو ريبٌ...

---

(١) ـ أمانة التَّحقيق، دعت "محمَّد أبو الفضل إبراهيم"، إلى حذْف هذه الكلمة مِنَ الأصل! ـ راجع ص ١٤٢ ج ١، مِنْ تحقيقه لشرح النَّهج.

(٢)ـ النَّهج ٣٠٥ ـ٣١٨: ٣ .

(٣) - ٣١٠: ٣ .

(٤) - ٣١٠، ٣١١: ٣ .

ولكنه شاء أنْ يختتم هذا الحديث، بهذه القولة المتداعية المتهافتة...!

ونودُّ أنْ نتناول منها: فقراتٍ، فقراتٍ، لِنقف وإيَّاه موقف المحاسبة، ونُشير إلى النّقاط المتداعية منها...

* *

يقول، بعد ذلك الحديث الطّويل، وقد أتى فيه على دامغ الحجج، وسافر البراهين، على إيمان أبي طالبٍ «عليه السَّلام»...

يقول بعد هذا:

[قلتُ: فأمَّا أنا فإنَّ الحال ملتبسةٌ عندي، والأخبار متعارضةٌ، وا لله أعلم بحقيقة حاله، كيف كانت...!

ويقف في صدري رسالة النّفس الزَّكيَّة، إلى المنصور، وقوله فيها:

فأنا ابن خير الأخيار، وأنا ابن شرِّ الأشرار، وأنا ابن سيِّد أهل الجنّة، وأنا ابن سيِّد أهل النّار.

فإنَّ هذه شهادةٌ منه على أبي طالبٍ بالكفر، وهو ابنه، غير متّهمٍ عليه، وعهده قريبٌ مِنْ عهد النَّبيِّ«ص» لم يطل الزَّمان فيكون الخبر مفتعلاً](١).

يقول: إنَّ الحال ملتبسةٌ عنده لتعارض الأخبار– ويُريد بتعارض الأخبار: الأخبار التي أتى بوفرٍ منها، وكلُّها تشهد على إيمان أبي طالبٍ، عن مصادر لايتطرَّق إليها الرَّيب، فهي عنِ: الرَّسول، وعترته الطَّاهرين ممّا قَدْ أتينا على الوفر منها... ومِنْ: أقوال أبي طالبٍ، وأفعاله، نفسه، التي هي شاهد صدْقٍ، على ذلك، أيضاً.

ولكنّه يُريد أنَّ هذه الأخبار الثّابتة، قد عارضتها تلك الأخبار المفتعلة المكذوبة: والتي اشتراها معاوية، ورواها المغيرة، ومَنْ إلى هذه السُّلسلة النّتنة...

وسوف نهدُّ منها واهي البناء في فصلٍ مختصٍّ –إنْ شاء ا لله!.

---

(١) - النّهج ٣١٧: ٣ .

والتّعارض بين حديثٍ وحديثٍ، لايكون إلاّ إذا حصل بينهما تكافؤٌ، بأنْ تكون رواة الحديثين ثقاةً، لايسقط واحدٌ، مِنَ السَّندين، في ميزان الرِّجال، بل ولاترجح كفّة جانبٍ على أخرى، بأيٍّ وجهٍ مِنْ أوجه الترجيح، لأنّه إنْ رجحت إحداهما، عُوِّل على الرَّاجحة...

وهذا شيءٌ لايحصل في موضوعنا، بحالٍ مِنَ الأحوال...!

فهل يتساوى حديثٌ، ترويه العترة المطهَّرة، عنِ الرَّسول الأعظم(ص)، مع حديثٍ يرويه المغيرة، ومَنْ إليه...؟!

وإذ ليس ثمّة مِنْ تكافؤٍ، فإنّ التّعارض معدومٌ...!

* *

ثم راح يتشبَّث برسالة: النّفس الزّكيّة –وهو محمَّدٌ بن عبدا لله، بن الحسن، بن الإمام السِّبط الحسن، «عليه السَّلام» – إلى المنصور الدَّوانيقيّ.

وقد رجعنا لهذه الرِّسالة، في مواطنها، مِنْ كُتُب التّأريخ، فوجدنا فيها ممّا نقله الحديديُّ، هذا المقطع:

[فما زال ا لله يختار ليَ الآباءَ والأمَّهات، في الجاهليَّة والإسلام، حتى اختار لي في «النّار».

فأنا أرفع النّاس درجةً في الجنّة، وأهونهم عذاباً في النّار.

وأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنّة، وابن خير أهل النّار]– الخ(١).

وقد قمنا بالبحث عن رواتها، فلم نجد لهم – في «كامل ابن الأثير»– ذكراً.

---

(١) ـ الطّبري ١٩٦: ٦ ـ وتجدها في كامل ابن الأثير ٥: ٥، وفيه بدل "النّار" ـ الأولى المقوسّة ـ "الأشرار". وليس فيه: "وأنا ابن خير ـ إلخ".

وتجدها في "محاضرات تأريخ الأمم ـ الدّولة العبّاسيّة" ٦٥ ـ وتختلف عن هذه الصُّورة.

أمّاالمبرد، فلم يأْتِ بشيءٍ مّا، مِنْ هذا المقطع، عندما أتى على هذه الرِّسالة، في كامله ص ١٢٧٤، ١٢٧٥: ٣ .

ولكن صاحب «شيخ الأبطح» ذَكَرَ أنَّ راويها هو: عثمان بن سعيد، بن سعد، المدنيُّ. وقال:

[وهذا سعيدٌ مِنْ مجاهيل الرُّواة](١).

وأمَّا الطَّبريُّ، فقد ذَكَرَ لها إسناداً مبتوراً.

ونحن نأتي به، لِنرى موضع هؤلاء الرُّواة، المبتوري النَّسب:

[قال: وحدَّثني محمَّدٌ بن يحيى، قال: نسختُ هذه الرَّسائل، مِنْ محمَّدِ بن بشيرٍ، وكان يُصحِّحها، وحدَّثنيها أبو عبدالرحمن، مِنْ كتاب أهل العراق، والحكم بن صدقة بن نزار، وسمعتُ ابن أبي حربٍ يُصحِّحها](٢).

وهذا الإسناد -كما تراه- مبتور الصِّلة، لايستطيع إنسانٌ أنْ يُعوِّل عليه:

نجد في السَّند:

١- محمَّد بن يحيى. ولانعلم مَنْ جدُّه؟.

ولكنَّنا إذا رجعنا إلى «ميزان الإعتدال»، وبحثنا في مَنْ جاء على هذا الاسم، فإنَّنا لانقف على واحدٍ منهم -وقد بلغوا سبعة عشر رجلاً، على هذا الاسم، وعلى كنىً مختلفةٍ...

لانقف مِنْ بين هؤلاء، إلاَّ على متروكٍ ضعيفٍ، وذي حديثٍ منكرٍ، وأحاديث مظلمةٍ منكرةٍ، وضعيفٍ لايجوز الاحتجاج بخبره، ودجَّالٍ يضع الحديث(٣)، وذي أحاديث مفردةٍ، ومَنْ لايُدرى مَنْ يروي عنه، وراوي مناكيرَ، وأحاديثَ موضوعةٍ، ومَنْ ليس بثقةٍ، ومَنْ يروي عنِ الضُّعفاء، ومَنْ ليس بالمرضيِّ، ومَنْ يُحدِّث بما لم يسمع، ومَنْ يُزوِّر(٤).

---

(١) - شيخ الأبطح ٨١ .

(٢) - الطَّبريُّ ١٩٥: ٦ .

(٣) - في الغدير - ٣٢٩: ٥ - في "سلسلة الكذَّابين والوضَّاعين". محمَّد بن يحيى بن رزين المصيصيُّ: دجَّال يضع الحديث. وكذا جاء في ميزان الاعتدال ١٤٧: ٣ .

(٤) - ميزان الاعتدال ١٤٦ -١٤٨: ٣ .

٢– ويوافينا، بعد هذا: محمَّدٌ بن بشيرٍ، ونجد شخصين على هذا الاسم:

آ– محمَّدٌ بن بشيرٍ بن مروان الكنديُّ الواعظ. وهو ليس بثقةٍ. وقال الدَّارقطنيُّ: ليس بالقويِّ في حديثه.

ب– محمَّدٌ بن بشيرٌ بن عبدا لله القاصُّ، وهو –كما يقول ابن معينٍ– ليس بثقةٍ(١).

٣– ولسنا ندري مَنْ هو ذا «أبو عبدالرحمن»، ولامَنْ هو «ابن أبي حربٍ».

٤– ولم نجد، في الميزان، ذكراً، للحكم بن صدقة هذا.

* *

وندع السَّند المبتور، ولانقتل الوقت بحثاً عن حلقاته المتفكّكة، وأجزائه المتباعدة، لِنعود فنبحث في ذات الكلمة، الواقعة في صدر الحديديِّ، مِنْ رسالة النَّفس الزَّكيَّة.

ولسنا نقف عند هذا الاختلاف المعنويِّ، في ماوقع مِنْ تغييرٍ، بين: رواية ابن أبي الحديد ورواية: الطبري، وابن الأثير، والخضري.(٢).

ولكّننا نقف مشدوهين، عند هذا الفخر!، بأنْ ينتسب ـ مفتخراً! ـ لشرِّ الأشرار، أو لخير الأشرار ـ وهل في الشَّر خيرٌ، وبين الأشرار خيِّرٌ؟! ولِسيِّد أهل النَّار ـ وهل بين النَّار خيِّرٌ؟!

أمَّا أنْ يكون ابن سيِّد أهل النَّار... فإنْ كانت في النَّار سيادة لواحدٍ، فلن يحوزها، إلا مَنْ كان شرَّ الأشرار، ومَنْ كان أشدَّهم عذاباً..

وهذا ممَّا يتنافى، والفرية المكذوبة على الرَّسول(ص)، مِنْ أنَّ أبا طالبٍ، أخفُّ أهل النَّار عذاباً..

وهذا لديهم ـ هو: ثمرة شفاعة الرسول لعمّه..!

---

(١) ـ الميزان ٣١: ٣ .

(٢) ـ ذكر الحديديُّ: "وأنا ابن الأشرار". وذكر غيره: "وابن خير الأشرار".

ويالعظمة هذه الشّفاعة، التي يخجل منها أبخل وألأم النّاس! ـ فكيف بِمَنْ بُعث لِيُتمِّمَ مكارم الأخلاق؟!.

وهل يصدر، إلاّ من غير عاقلٍ، مثل هذا الفخر، الذي ليس هو غير اعترافٍ بالمنزلة المنحطّة، التي لاتتّفق وموقف النّفس الزّكيّة، مِنْ هذا الفخر، وهو يطلب الخلافة، ويُقاوم الملكَ المتربّع على العرش، فهو ـ بهذه الرِّسالة ـ يخصم نفسه..!

لذلك.. نجد، في ماذكروا مِنْ جواب المنصور، على هذه الرِّسالة، قوله حول هذه النُّقطة:

(وزعمتَ: أنّكَ ابن أخفِّ أهل النّار عذاباً، وابن خير الأشرار..

وليس في الكفر با لله صغيرٌ، ولافي عذاب ا لله خفيفٌ، ولايسيرٌ، وليس في الشَّرِّ خيارٌ، ولاينبغي لمؤْمنٍ يُؤْمِنُ با لله أنْ يفخر بالنّار; وسترد فتعلم...

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا أيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُوْنَ﴾(١).

وهذا الجواب ينطبق ـ أتمَّ الإنطباق ـ على تلك الفقرة، المنسوبة للنّفس الزّكيّة، وهو الجواب الحتميُّ، والدّامغ لها، سواءً كان الأصل والجواب، قد قاله مَنْ نُسب إليهما، أو وُضع على لسانهما..!

* * *

أمّا قول النّفس الزّكيّة:"وأنا ابن شرِّ الأشرار" ـ على رواية ابن أبي الحديد، الذي اضطرنا أنْ نقف وإيّاه، في نقاشٍ! ـ فهذا مالاينطبق، بأيِّ حالٍ، على أبي طالبٍ..!

لأنَّ مفاد معنى هذه القولة: أنْ ليس أشرَّ مِنْ أبي طالبٍ، في قومهِ وفي عصره ـ على الأقلِّ..! وإلاّ فالمعنى يُفيد الاستمرار.. أيْ: إنه ابن أشرِّ مَنْ ينتسب للشَّرِّ..!!!

(١) ـ الطّبري ١٩٧: ٦، والكامل ٦: ٥، ومحاضرات الأُمم ـ العباسية ٦٦، والكامل في اللغة ١٢٧٧، ٣ ـ في صورةٍ غير هذه.

وحتى لو خصصناه بأنّه ابن أشرٌ أهل عصره وقومه ـ فهل هذا المعنيُّ، هو أبو طالبٍ..؟!

لم نجد واحداً مِنَ الكاذبين، والوضّاعين، والمفترين، مَنْ وَصَلَ إلى هذه الوهدة، مِنَ الانحطاط..!

فلم يقل واحدٌ منهم: إن أبا طالبٍ كان مِنَ الأشرار ــ بله أشرَّهم! ــ وخيره يقطر بالنّعماء، ويفيض بالنّماء، ويُؤتي خير الثّمار..!

وهل يكون ابن شرِّ الأشرار: ابن مَنْ كان العمد لبناء الإسلام، ولولاه لَمَا كان الإسلام شيئاً مذكوراً ـ كما نقلناه عنِ الحديديِّ-؟!

وهل يجوز أنْ تكون يدٌ لرجلٍ، عند الرَّسول(ص)، وهو في هذه الدَّرجة مِنَ الشَّرِّ ـ والرَّسول هو القائل:

(اللّهمَّ لا تجعلْ لِفاجرٍ ولاَ لفاسقٍ عندِيْ نعمةً).

في الحديث الذي أتينا عليه، في ماسَبَقَ، عنِ الزَّمخشَّريِّ؟!.وهل يكون أبو طالبٍ أشرَّ من: أبي لهبٍ، وأبي الجهل[1] ـ وهما اللّذان ملأ الوجود شرّاً وفساداً، وأنزلا بالرَّسول أنواع الأذى، وأنماط الهوان؟! اللهمَّ! إلاّ أنْ تكون نصرة الرَّسول وحياطته شرّاً، وأشرَّ مِنَ: النَّيل منه، وأذاه..!!!

إذن.. فكيف يجوز للنّفس الزَّكيَّة: أنْ يفخر بمثل هذا الذمِّ المنتقص، والعيب المخزي، وهو في هذا الموقف الحرج الدَّقيق؟!.

ولْنَتنزَّل.. فنُسلم صدور هذه الرِّسالة مِنَ النَّفس، فنتساءل عنِ الدَّليل، الذي دعى ابن أبي الحديد،لإنْ يخصَّ بـ "شر الأشرار:" أبا طالبٍ؟!.

أليس ذلك، سوى الظّنِّ والتّخمين، إذا شئنا أنْ لانجهر بالقول الحقِّ الصُّراحُ..؟ وإلاّ فليس ذلك، سوى الغاية والغرض..!

---

(١)ـ هذا السؤال، ليس سوى تنزُّلٍ.. وإلاّ فليس بين أبي طالبٍ، وهذين مشاركةٌ في الشَّرِّ، حتى يصحَّ التّساؤل عن أيِّهم أشرُّ؟.

ولِماَذا لايكون المعنيُّ به: طلحةَ بن عبيـد ا لله ـ وهـو: والـد أمِّ إسـحاق، الـتي هي: جدَّة النَّفس ـ أو عبد العزَّى، وهو: جدُّه لأُمِّه..؟فأُمُّ النَّفس الزَّكيَّة، هي: هنـد بنت أبي عبيدة، بن عبد ا لله، بن زمعة، بن الأسود، بن المطَّلب، بن أسد، بـن عبـد العزَّى[1] ـ وعبد العزَّى، هذا، كان علَماً بين كفرة قريش!.

ونحن لانقول إنَّ أحد هذين هو المعنيُّ، مِنْ قولة النَّفس، ليـس إلاَّ..فمـا هـو سـوى الظَّنِّ والتَّخمين، الَّلذين دفعا ابن أبي الحديد، لأنْ يخصَّ بها أبا طالبٍ، وحده!.

ونمضي في التَّنزُّل..ونُسلِّم بأنَّ النَّفس الزَّكيَّة، لم يعنِ بشرِّ الأشرار، سـوى أبي طالبٍ..! فلِمَاذا تقف هذه القولة ـ وهي هي.. في مجانبتها للحقِّ، في جميع نواحيها ـ في صدر الحديديِّ، ولايقف في صدره شيء، مِنْ أقوال الإمام الصَّادق، وقـد عـاش هو والنَّفس الزَّكيَّة، في رقعةٍ مِنَ الزَّمَنِ واحدةٍ، وقد وقف الحديديُّ على الكثير مِـنْ أقواله..؟!

وأين النَّفس مِنَ الصَّادق، في أيِّ منزلـةٍ مِـنَ العلـم، أوِ المعرفـة، او الا... الصِّدق، أو ملازمة الحقِّ والجهر به!.

وهل بينهما مايجيز النَّظر، في المقارنة، أوِ التَّفضيل لأيِّهما؟!

ليس بينهما شيءٌ مِنْ هذا.. والحديديُّ يعلم بذلك، ولايجهله..!

ولكن ـ مع هذا ـ وقفت في نفسه، هذه الرِّسالة..

تقف في حلقه شعرةٌ مِنْ بعيرِ، ويبتلع الأباعر بأخفافها، متى شاء..!

فحلقه مطَّاطٌ، يتَّسع عند الحاجة، فيبتلع مايشاء، ويضيق ـ عند الحاجة ـ حتـى عنِ الشَّعرة..!

ثم لِماذا لاتقف في صدره، شـهادات ابنـه الصُّلبيِّ الإمـام عليٍّ، "عليـه السـلام"، وولدِه مِنْ بعده، مِنَ الأئمَّة المعصومين وهم هم.. مَنْ لاينفرد عنهم، مَنْ وقفت رسالته في نفسه، في فضيلةٍ.. وقد انفردوا عنه بفضائل، وتميَّزوا بميزاتٍ، لاتقع تحت الحصر!.

---

(١) ـ نسب قريش ٥٣و٢٢٧ وشيخ الأبطح ٨٢ .

وإذا كان النّفس الزّكيَّة، ابناً لأبي طالب، "غير متّهمٍ عليه".. فهل شهادات الإمام الأعظم، وولده مِنَ الأئمَّة، تكون مغرضَةً، لأنّهم متّهمون لأجله، لِيُضيفوه إلى عداد المسلمين، وهو في قائمة الكفّار..؟؟!

فهل النّفس أكثر ورعاً، وأصدق حديثاً، مِنْ: عليٍّ والأئمَّة، حتى يقول هذا: مالا تتّهمه عليه، ويقول أولئك: مالايمتُّ للحقِّ بصلةٍ..؟!

أمَّا أنا فلا أعتقد أنَّ النّفس، قد قال تلك المقالة، بعد ما ألمنا بالكثير مِنَ البراهين، التي تمنع أنْ يقول مثل هذا، حتى المعتوه والمجنون..(١)

وإنْ قالها، فما كان بالذي يعني بها: "الكافل والحامي"..

وإنْ عناه بها، فما نحن بالّذين نتمسَّك بها، لِنضرب صفحاً بأقوالِ مسلّمةٍ، مِمَّنْ لا يُظَنُّ فيهم مجانبة الحقِّ، في فعلٍ، أو قولٍ..

* * *

ويقول: إنَّ "عهده قريبٌ مِنْ عهد النّبيِّ(ص)، لم يطلِ الزّمان، فيكون الخبر مفتعلاً".

فالحديديُّ، يأخذ بقولة شخصٍ، بعد مضيٍّ مايقارب قرناً ونصفاً، على وفاة مَنْ قيلت فيه ـ كما حملها ـ ولايأخذ بقولة إمامٍ، يُلازم الحقَّ، وقد عاش في كنفِ مَنْ شهد له، وشاهد ظلَّه، واستظلَّ بوريف ظِلاله.

ولايحمل الخبر على الافتعال، حيث لم يطلِ الزّمَنْ!، ولكنه يروي الوفر، مِنْ مختلَق الحديث، ومزوَّر القول، على عهد معاوية، وهو الذي ولد في عهد الرَّسول(ص)..

فلو كان السبب هو: امتداد العهد وقصره، لَمَا كنّا نُشاهد ذلك الزُّور في عهد معاوية!.

ولا أدري على مَ أحمل قولة الحديديِّ هذه؟

وما السَّبب الذي دفعه لِتبنّي هذا الرّأْي؟

---

(١) ـ الواقع يُشير إلى: أنَّ الرِّسالة مفتعلةٌ، أو على الأقلِّ مدسوسٌ فيها، مثل هذه الفقرات، التي هي للتنقّص، لاللفخر...

وليس داساً عليها، سوى السِّياسة الغاشمة.. فهي مِنْ أنصار الملك العبَّاسيِّ قربانٌ وزلفى!.

وما الذي دعاه لأنْ تقف هذه القولة ـ دون غيرها ـ في صدره، دون غيره؟

ولكنّا لانُسيء الظّنَّ به! مادامت "إساءة الظّنِّ بالمسلم حرامٌ"، و"حرمته أعظم مِنْ حرمة الكعبة" كما يقول الغزاليُّ، في مانقلناه عنه، عند حديثنا "على العتبة"، مِنْ هذا الكتاب!.

* * *

وبعد سيرٍ في طريقٍ رجراجٍ، سار عليه الحديديُّ خطواتٍ هزيلةً، عاد فناقضه بقوله:

[وصَنَّفَ بعض الطّالبين، في هذا العصر، كتباً في إسلام أبي طالبٍ(١)، وبعثه إليَّ وسألني أنْ أكتب عليه بخطّي، نظماً، أو نثراً، أشهد فيه بصحّة ذلك، وبوثاقة الأدلّة عليه، فتحرَّجت أنْ أحكم بذلك، حكماً قاطعاً، لِمَا عندي مِنَ التّوقُّف فيه..

ولم أستجزْ أنْ أقعد عن تعظيم أبي طالبٍ، فإنّي أعلم أنّه لولاه لَمَا قامت للإسلام دعامةٌ، وأعلم أنَّ حقّه واجبٌ على كلِّ مسلمٍ، في الدُّنيا، إلى أنْ تقوم السَّاعة.. فكتبتُ على ظهر المجلّد:

ولولاَ أبوْ طالبٍ وابنُهُ
لَمَا مُثّلَ الدِّينُ شخصا، فقاماَ
فذاكَ بمكّةَ: آوى وحامَى
وهذَابيثربَ جسَّ الحِماماَ
تكفّل عبدُ منافٍ بأمرٍ
وأودى، فكانَ عليٌّ تمامَا
فقلْ: في ثبيرٍ مضى، بعدَ مَا
قضى مَاقضاهُ... وأبقى شمَامَا

(١) ـ هو: كتاب "الحجّة على الذّاهب إلى تكفير أبي طالبٍ"، للسّيّد شمس الدين، وهو أحد مراجعنا، لهذا الكتاب.

فللـــــــهِ ذَا فاتحــــاً للهــــــدي..

و للهِ ذَا للمعـــــــاليْ ختامَـــــا..

ومـــا ضـــرَّ مجْـــدَ أبـــي طـــالبٍ

جهـــولٌ لَغَـــا، أوْ بصـــيرٌ تعـــامَى!

كمَـــا لا يضـــرُّ آيـــاتِ الصَّبـــاحِ

مَـــنْ ظـــنَّ ضـــوءَ النَّهـــارِ الظّلامـــا!

فوفَّيْته حقَّه، مِنَ: التَّعظيم، والإجلال، ولم أجزم بأمرٍ عندي فيه وقفةٌ(١).

* *

وإنّنا لَنجد التّناقض صريحاً، في الفقرة التي قبل أبياته!.فهو يقول:

إنّه تحرَّج عنِ الحكم بإسلام أبي طالبٍ، لتلك الوقفة في نفسه.. ولكنه لم يستجزِ القعودِ عن تعظيم مَنْ كان السّناد لبناء صرح الإسلام الشّموخ؛ ومَنْ لولاه لَمَا كانت للإسلام دعامة قائمةٌ.. وحقُّه واجبٌ على كلِّ مسلمٍ، في الدُّنيا، وُجِد، أو كان في عالم الإيجاد، حتى فناء الدُّنيا، وقيام يوم الدِّين..!

فهذان ضدّان لايجتمعان: أبو طالبٍ كافرٌ!، ولكنّه لو لم يكن، لَمَا كان للإسلام دعامةٌ! وبذلك له الحقُّ المفروض، في عنق كلِّ مَنْ يمتُّ للإسلام بسببٍ.

فأيُّ كافرٍ هذا..؟

ومِنْ أين له هذا الحقُّ الرَّجيح؟! هل كان مِنْ كفره؟ وكيف كان العضد والدَّعامة، في بناء الإسلام، ذلك الكافر؟؟!

ولكنَّه ـ بعد ذلك كلّه ـ كَتَبَ على الكتاب، تلك الأبيات، التي نَطَقَ الحقُّ فيها..

فراح يعرِض لِمَا قام به أبو طالبٍ، وابنه الإمام، مِنْ رفيع العمل، وفذّ النُّصرة، وهم دعامتا الإسلام، الّلتان لولاهما، لَمَا مثل الدِّين، وقامت له قائمةٌ.

فالأب: بدأ العمل الرَّفيع، وأسَّس دعامة البناء.

---

(١) ـ النّهج ٣١٧، ٣١٨: ٣ .

والولد: أتمَّ العمل، وزاد في البناء.

الأب: حاط الرَسول، ونَصَرَه.

والولد: لاقى الحِمام، حتى جسَّ منه الملمس، في سبيله.

فالمهمَّة الفضلى، التي تكفَّل بها الأب الكريم، وأودى، بعد أنْ لم تصلِ الغاية.. كان لها الإبن العظيم، ذلك المتمِّم، فكان تماماً للجهد، الذي قام به الأب.

فأبو طالبٍ، هو الفاتح للهدى.

وابنه: كان الختام للمعالي.

ماتقول في هذا: "فلِلَّهِ ذَا فاتحاً للهدى"؟.

وما الهدى هذا؟.

أليس يعني هدى الإسلام؟.

فهلِ الفاتح لهدى الإسلام، يكون ذلك الكافر الجاحد؟! ـ أستغفر ا لله!.

ولكنّه، وقد وفّاه حقّه مِنَ التّعظيم والإجلال ـ كما يقول ـ لم يجزم بإسلامه، وقد وَقَفَ في حلقه ما وَقَفَ..

ولعله قد "شرق بالماء"، أو قد امتلأ به فوه، فلم يستطعِ النُطق..!

ولكنّنا نقف عند قوله:

ومَـا ضَـرَّ مجـدَ أبـيْ طـالبٍ
جهـولٌ لَغَـا، أو "بصـيرٌ تعـامى"؟
كمَـا لاَيضـرُّ آيـاتِ الصَّبـاحِ،
مَـنْ ظـنَّ ضـوءَ النّهـارِ الظّلامـا!

فأيُّ ضررٍ على مجد أبي طالبٍ الأثيل، وإيمانه الرَّسيخ، وإسلامه الثّابت: أنْ يتعامى عنه ابن أبي الحديد ـ وهو به ذلك البصير ـ لأشياء.. قد تكون فرضتْ عليه: أنْ يسلك هذا الطّريق المنتاد، ويتجَّنب المهيع الأبلج..؟!

افتراءٌ وتزويرٌ

اشرنا ـ في حديثنا "على العتبة" ـ إلى السُّوق السَّوداء، التي أقامها معاوية ، وأنفق عليها، مِنْ مال المسلمين، إنفاق مَنْ لايُحسُّ بالمسؤوليَّة، ولا يخشى سوء مغبَّة العمل; فكثر فيها زور الحديث، وتأويل الآيات، وتحريفها عمَّا أنزل ا لله..

ومضت هذه السُّوق ـ وقد احتشدت فيها البضائع الزَّائفة ـ تسجِّل على جبين الدَّهر، ماتسودُّ منه الصَّفحات، بحروفها القاتمة، حتى مسختِ الحقائق، وشوَّهت وجه التَّأْريخ.

وقد كان لأبي طالبٍ ـ وهو أبو عليٍّ البطل ـ نصيبٌ مِنْ ذلك الظُّلم الشَّنيع، هو مِنْ طراز "جزاء سنمَّار"..!

فوُضعت في حقّه الأراجيف، لِتنال مِنْ وضيء إيمانه،وتُطفيء مِنْ لألآء معتقده، وتتناسى صلابة جهاده.. بل إنها تُريد أنْ تنتقم منه.. مِنْ صلابة هذا الجهاد، الذي حال بينها، وبين خنْق الرِّسالة في مهدها، يوم جاء بها ابن أخيه.. فراحت تختلق في حقّه الأراجيف، مِنَ الأحاديث المزوَّرة، وتحريف الآيات، عمَّا أنزل ا لله.

فعلينا أنْ نطوف ـ في هذا الفصل ـ بهذا الزُّور مِنَ التُّهم، التي حيكت حول أبي طالبٍ، والأغراض التي افترت عليه ماهو منه براءٌ، وما هو منه نقيُّ الصَّفحة، نصيع البياض، طاهر الذَّيل.

علينا أنْ نطوف بهذا الزُّور المفتعل، والتَّأويل المختلَق، فنُلقي عليه النَّظرة الفاحصة، ونضعه على مطرقة النَّقد، وتحت مجهر التَّحليل، لِنرى ماذا هناك..

الآية الأُولى:

﴿ومِنْهُمْ: مِنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ، وجعَلْنَا علَى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوْهُ وَفِيْ آذَانِهِمْ وَقْراً. وَإنْ يَّرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يؤْمِنُوْا بِهَا، حَتَّى إذَا جَاؤُوْكَ يُجَادِلونَكَ، يَقولُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا: إنْ هَذَا إلاَّ أسَاطِيْرُ الأوَّلِيْن * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ، وَيَنْأوْنَ عَنْهُ، وَإنْ يُهْلِكُونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ. ولَوْ تَرَى إذْوُقِفُوْا عَلَى النَّارِ، فَقَالُوْا: يَالَيْتَنَا نُرَدُّ، ولاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا ونَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾(١).

**

أنت تجد: أنَّ هذه الآيات الثَّلاث ـ في سياقها المتَّصل ـ تعرض لنا عمل بعض المشركين الَّذين يستمعون للرَّسول، في ما هو يتلو الوحي، الذي يتنزَّل عليه بالقرآن الكريم، ولكنَّهم لايفقهون شيئاً ممَّا يتلو، وقَدْ جَعَلَ الله الأكنَّة على قلوبهم أنْ تعي، والوقرَ في آذانهم أنْ تسمع، فلا يُؤْمنون بهذه الآيات، التي يرونها، مِنَ الرَّسول (ص)..! وهم ـ بعد ذلك ـ يُجادلون الرَّسول، في هذه الآيات الوفيرة.. ويقولون مِنْ صلابة عنادهم: أنَّ هذه الآيات، ليست سوى أساطير الأوَّلين.

---

(١) ـ الأنعام ٢٥ ـ٢٧ .

فما هي سوى خرافاتٍ باطلة، وأكاذيبَ مفتعلةٍ ـ فهي: غاية الكفر والضَّلال(١). وليس يقف عنادهم، عند هذا الحدِّ..! بل يُوغلون في عملهمْ المنكر، فينهون النَّاس: أنْ يستمعوا للقرآن الكريم، لأنَّهم يخشون أنْ يُسيطر عليهم بجلاله وهيبته، ويستحوذ منهم على القلوب، بعظمته وسلاسته.. أو ينهون عنِ الرَّسول، فلا يتبعه أحد مِنَ المشركين، فيُؤمِنُ بما يحمل مِنْ رسالةٍ ساميةٍ، فيحولون بين هؤلاء وبين الإيمان.. وينأون عنه ـ والنَّأي هو: ـ البعد ـ فهم يتباعدون عنِ الرَّسول. وليسوا يبعدون إلاَّ عن مصدر النور، فيُضلُّون غيرهم بنهيهم، ويُضلُّون أنفسهم بنأيهم.. وما ذلك سوى الهلاك؛ ولكنهم مِنَ الشُّعور على فقدان...! ولكنَّ لهم وقفةً على النَّار، يعضُّون فيها الأنامل، مِنَ الغيظ والألم، ويندمون على ما فرط منهم، مِنْ تكذيب الآيات الباهرة، فيرجون عودةً، لِيكونوا فيها مِنَ المؤْمنين، حتى ينجوا مِنْ أليم العذاب..

* *

وأنت ترى مِنْ سياق الآيات الثَّلاث: أنها متَّحدة الغرضَ، تعني موضوعاً واحداً، وتتناول عرْض عمل بعض المشركين.

ولكنْ محرِّفي الكلِم عن مواضعه، جاؤا، فتأوَّلوا الآية الوسطى ـ مِنَ الثَّلاث ـ وحرَّفوها عَّما أنزل الله.

فقد أخرج الطَّبريُّ وغيره، مِنْ طريق سفيان الثَّوريِّ، عن حبيب بن أبي ثابتٍ: عمَّن سمع ابن عباسٍ، أنه قال:

---

(١) ـ يقول الزَّمخشريُّ ـ في كشَّافة: ٤٤٧: ١ (١٠: ٢) ـ عند حديثه على هذه الآيات:

[رُوي: أنه اجتمع أبو سفيان، والوليد، والنَّضر، وعتبة، وشيبة، وأبو جهلٍ، وأضرابهم، يستمعون تلاوة رسول الله، صلى الله عليه "وآله" وسلَّم، فقالوا للنَّضر:

يا أبا قتيلة! مايقول محمَّد؟

فقال: والذي جعلها بيته ـ يعني: الكعبة ـ ما أدري مايقول!، إلاَّ أنهُ يُحرِّك لسانه، ويقول أساطير الأوَّلين].

إلى أنْ قال الزَّمخشريُّ:"فنزلت".

وقد ذكرها البيضاوي، أيضاً، في تفسيره ـ ١٨٤: ٢ ـ وذُكرت في مجمع البيان ٣٣: ٧ .

إنها نزلت في أبي طالبٍ، ينهى عن أذى رسول الله صلّى الله عليه، وآله، وسلم أنْ يُؤذى، وينأى أنْ يدخل في الإسلام(١).

ونُجمل ملاحظاتنا عليه في مايلي:

أ ـ نجد في هذه السّلسلة: سفيان الثّوريَّ. وقد كان يُدلّس عنِ الضُّعفاء، ويكتب عنِ الكذّابين(٢)، ويروي عنِ الضُّعفاء(٣).

قال ابن مبارك: حدَّث سفيانٌ بحديثٍ، فجئته وهو يُدلّسه، فلمَّا رآني استحيى، وقال: نرويه عنك(٤).

وقال ابن معين: مرسلات سفيان، شبه الرِّيح(٥).

ونقل عنِ الذّهبيِّ في تذكرة الحفّاظ: أنَّ الفرياني، قال: سمعتُ سفيان يقول: لو أردنا أنْ نُحدّثكم بالحديث، كما سمعناه، ما حدَّثناكم بحديثٍ واحدٍ(٦).

وسفيان هذا، يحدِّث عنِ الصَّلت بن دينار الأزديِّ، والصَّلت هذا، مِمَّنْ ينال عليًّا وينتقصه، وهو مِمَّنْ طعن فيه أرباب الجرح والتّعديل.

ومع هذا كلّه، فسفيان يروي عنه، ويقول إذا حدَّث عنه: حدَّثنا أبو شعيبٍ، ولايُسمِّيه، حتى قال شعبةٌ: إذا حدَّثكم سفيان عن رجلٍ لاتعرفونه، فلا تقبلوا منه، فإنّما يُحدِّثكم عن مثل أبي شعيبٍ المجنون(٧).

وهناك مَنْ جعل سفيان هذا، مِنْ عداد الشّيعة.

ونجدنا بين نقيضين: نسبته للتّشيُع; وصحَّة رواية هذا الحديث عنه..!

---

(١) ـ تفسير ابن كثيرٍ ١٢٧: ٢، والغدير ٣: ٨، مسنداً له، ولغيره.

(٢) ـ ميزان الاعتدال ٣٩٨: ١، ودلائل الصِّدق ٣٤: ١ .

(٣) ـ إسعاف المبطأ، ص ٢، ودلائل الصِّدق ٣٤: ١ .

(٤) ـ دلائل الصِّدق ٣٤: ١، وأعيان الشّيعة ١٣٨: ٣٥ .

(٥) و (٦) ـ المصدر الأوّل ـ الدّلائل.

(٧) ـ دلائل الصِّدق ص ٣٨: ١ ـ وقد جاء ذلك، في ميزان الاعتدال ص ٤٦٨: ١، في ترجمة الصّلت.

فهما ضدّان لايجتمعان: التّشيُّع؛ وتكفير أبي طالب؛ حيث أنّ أهل البيت "عليهمُ السّلام" ـ وتتبعهم شيعتهم ـ مجمعون على إيمان أبي طالبِ الثّابت؛ ومثلهم كلُّ عاقلٍ منصفٍ، والخروج عن هذا الإجماع خروج عنِ التّشيُّع.. فإنْ تثبت شيعيَّته، تنتفي بذلك هذه الرِّواية عنه..

وقد ترجم له الإمام الأمين ـ في أعيانه(١) ـ وَذَكَرَ فيه: التّجريح، والتّعديل؛ إلاّ أني أميل إلى التّجريح، لِتعدُّد جوانبه، ولاسيّما أنّ فيه كثيراً مِنَ الاعتراض، على إمام المذهب الشّيعيِّ: جعفرِ بن محمّدِ الصّادق عليه السّلام(٢).

وهناك قول بتشيُّعه، وعُدوله عن ذلك(٣)؛ وقول آخر، بزيديَّته(٤).

ب ـ إرسال الحديث، بما بين: حبيبٍ، وابن عبّاسٍ،! وقطع الصِّلة بين الاثنين، يكشف لنا السِّرَّ الكمين، ويفضح اللُّغز الخفيَّ.

ج ـ يقول الأمينيُّ: إنّ هذا الحديث، ممّا انفرد به حبيبٌ، ولم يُشاركه أحدٌ في ماروى؛ وقد قال عنه ابن حبّان، وابن خزيمة: إنّه كان مدلّساً. وقال العقيليُّ: غمزه ابن عونٍ، وله عن عطاء أحاديث، لايُتابع عليها.

وقال القطّان: له غير حديثٍ عن عطاء، لايُتابع عليه، وليست بمحفوظةٍ.

وقال الآجريُّ، عن أبي داوُد: ليس لحبيبٍ، عن عاصم بن ضمرة، شيءٌ يصحُّ(٥).

وقال ابن جعفر النّحّاس: كان يقول: إذا حدَّثني رجلٌ عنك بحديثٍ، ثمَّ حدَّثتُ به عنك، كنتُ صادقاً(٦).

أرأيت تساهل الرَّجل، في روايته؟! وهزءَه في حديثه؟!

---

(١) ـ ص ١٣٧ ـ ١٤٨: ٣٥ .

(٢) ص ١٤٢ ـ ١٤٨: ٣٥ .

(٣) ـ ص ١٤١: ٣٥ .

(٤) ـ ص ١٣٩ ـ١٤١: ٣٥، كما ذُكر ضمن الزّيديَّة، في الفهرست ٢٥٣ .

(٥) ـ الغدير ٤: ٨، عن تهذيب التّهذيب ١٧٩: ٢ .

(٦) ـ دلائل الصِّدق ٢٦: ١ .

د ـ إنَّ القرطبيَّ قال: معنى الآية عامٌّ في جميع الكفّار ـ أيْ:ينهون عنِ اتّباع محمَّدٍ، وينأون عنه ـ عنْ: ابن عبَّاسٍ، والحسن(١).

وفي مانقله الأمينيُّ، عن الطَّبريِّ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردوية، مِنْ طريق عليٍّ بن أبي طلحة، والعوفيِّ: إنَّ الثَّابت عنِ ابن عبَّاسٍ ـ عن هذه الطُّرق العديدة ـ يراها أنَّها في المشركين، الذين كانوا ينهون النَّاس عن محمَّدٍ، أنْ يُؤمنوا به، وينأون عنه(٢).

ونقله الأمينيُّ أيضاً – مخرجاً، عن عديد الطُّرق، وكلّهم يرون في تفسير الآية: ينهون عنِ القرآن، وعنِ النَّبيِّ، وينأون عنه: يتباعدون عنه(٣).

هـ ـ ليس بين هؤلاء مَنْ فسَّرها على مانقله سفيان الثَّوريُّ، بعدما نقل عنِ ابن عبَّاسٍ ـ مِنْ عديد الطُّرق مايُخالف ما رواه الثَّوريُّ عنه، في تفسير هذه الآية بالذَّات، وفي رأيه حول عمِّه أبي طالبٍ، ولاسيِّما بعد صريح مانقلناه مِنْ رأيه في عمِّه، في الفصل السَّابق(٤).

و ـ إنَّ ما نجده مِنْ سياق الآيات الثَّلاث، واتّحادها في ماترمي إليه، يقف مانعاً، أمام مَنْ يُريد: أنْ يُحرِّف مِنْ بينها الآية الثَّانية، وهي متصلةٌ بما سَبَقَ، وما لَحَقَ.

ز ـ إنَّ تحريف معنى الآية الوسطى ـ في ذاتها ـ عن معناها، يتنافى ووضوح ماترمي إليه مِنْ معنى..

فبينما سياق الآية ـ كما فسَّرها بذلك المفّسرون ـ ينهون عنِ استماع القرآن، والإصغاء للرَّسول، ويتباعدون عنه.. وإذا بالنَّهي يخصُّون به الحياطة، ونصرة الرَّسول ـ أيْ: ينهون عن أذاه!.

فمِنْ أين نحصل على هذا المعنى، مِنْ هذه الآية الكريمة؟!.

---

(١) ـ الغدير ٣: ٨ .

(٢)ـ الغدير ٣: ٨ . وذُكر ذلك عنِ ابن عبَّاسٍ، في المجمع ٣٥: ٧ .

(٣) ـ الغدير ٣: ٨ .

(٤)ـ تحت عنوان على "لسان الصَّحابة وآخرين".

ح ـ وليس أكذب مِنْ هذا التّأويل، إلاّ مَنْ خصَّ به أبا طالبٍ، وحده! كما قيل.
هو خاصٌّ بأبي طالبٍ، ينهى الكفّار عن أذى الرّسول، ويتباعدون عنِ الإيمان به(١).

فإنَّ الضمير في الآية ـ ضمير الجمع، وهو: "ينهون، وينأون".. ولو كان مختصاً بأبي طالبٍ، لَكنّا نجد الخطاب، خطاب المفرد، لا الجمع..!

ثم كيف يصحُّ انطباق معنى "ينأون عنه" على أبي طالبٍ، وهو الذي لم ينأَ عنه طرفة عينٍ؟!.

فمتى كان هذا :لنّأي؟!

أفي نصرته، وحياطته، والقرب منه، والدّعاية له ولدِينه، والدِّفاع عنه، وعنِ اتّباعِ وأتباعِ دينه..؟!

فكيف تجتمع هذه الأعمال منه، مع نأيه عنه.؟!

ط ـ لعلَّ مِنَ الخير: أنْ نأتي ـ هنا ـ على أقوال بعض المفسّرين، في ما قالوه حول هذا الموضوع.

ونحن نأتي على هذا، نقلاً عنِ الأمينيِّ ـ وهو الثّقة الأمين ـ لتعذُّر بعض المصادر، التي أخذ منها:

[وَذَكَرَ الرَّازيُّ في تفسيره ٤: ٢٨ قولين: نزولها في المشركين، الذين كانوا ينهون النّاس عنِ اتّباعِ النّبيِّ ، والإقرار برسالته، ونزولها في أبي طالبٍ خاصَّةً، فقال: والقول الأوَّل أشبه، لوجهين:

الأوَّل: إنَّ جميع الآيات المتقدِّمة على هذه الآية، تقتضي ذمَّ طريقتهم، فكذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، ينبغي أنْ يكون محمولاً على أمرٍ مذمومٍ، فلوْ حملناه على أنَّ أبا طالبٍ، كان ينهى عن إيذائه، لَمَا حَصَلَ هذا النّظم.

والثّاني: إنّه تعالى قال بعد ذلك: ﴿وإنْ يُهْلِكُونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ﴾ يعني به ماتقدَّم ذكْره، ولايليق ذلك بأنْ يكون المراد مِنْ قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ـ النّهي عن أذيَّته، لأنَّ ذلك حسنٌ، ولايُوجب الهلاك.

---

(١) ـ الغدير ٣: ٨ .

فإنْ قيـل: إنَّ قولـه: ﴿وإنْ يُهْلِكُـونَ إلاَّ أنفُسَـهُمْ﴾ يرجـع إلى قولـه: ﴿ويَنْأونَ عَنْهُ﴾، لا إلى قوله: ﴿يَنْهَونَ عَنْهُ﴾، لأنَّ المراد بذلك: أنَّهم يبعـدون عنه بمفارقة دِينه، وترْك الموافقة له، وذلك ذمٌ، فلا يصحُّ ما رجَّحتم به هذا القول.

قلنا إنَّ ظاهر قوله: ﴿وإنْ يُهْلِكونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ﴾، يرجع إلى كلِّ مـا تقدَّم ذكره، لأنَّه بمنزلة أنْ يُقال: إنَّ فلاناً يبعد عنِ الشَّيء الفلانيِّ، وينفر عنـه، ولايضـرُّ بذلك إلاَّ نفسَه، فلا يكون هذا الضَّرر، متعلِّقاً بأحد الأمرين، دون الآخر –اهـ.

وَذَكَرَ ابن كثيرٍ في تفسـيره ٢: ١٢٧: القـول الأوَّل نقـلاً عـن: ابـن الحنفيَّـة وقتادة، ومجاهد، والضَّحاك،وغير واحدٍ، فقال: وهذا القـول أظهـر –وا لله أعلـم– وهو اختيار ابن جرير(١).

وَذَكَرَ النَّسفيُّ في تفسيره بهامش تفسير الخازن ــ ٢: ١ ـ القـول الأوَّل. ثـم قال: وقيل: عُني به أبو طالبٍ ـ والأوَّل أشبه.

وَذَكَرَ الزَّمخشريُّ في الكشَّاف ١: ٤٤٨(٢)، والشَّوكانيُّ في تفسيره ٢: ١٠٣ وغيرهما: القول الأوَّل،وعـزَوُا القـول الثَّاني إلى القيـل. وجـاء الآلوسـيُّ، وفصَّـل القول الأوَّل، ثم ذكر الثَّاني،وأردفـه بقولـه: وردَّه الإمـام. ثـم ذكـر محصَّـل قـول الرَّازيِّ](٣).

وهناك مَـنْ عمَّـم هـذه الآيـة، فرآهـا: نازلـةً في عمومـة النَّـبيِّ(ص)، [وكـانوا عشرةً، فكانوا أشدَّ النَّاس معه في العلانية وأشدَّ النَّاس عليه في السرِّ](٤).

وليس خفيٌّ أنَّ مِنْ بين أعمام النَّبيِّ(ص): حمزة سيِّد الشُّهداء، والعبَّاس.!

(١) ـكذلك وجدناه، عند رجوعنا إليه، في تفسير ابن كثـير. وذَكَـرَ هـذا القـول ـ في المجمع ٣٦: ٧ ـ عنِ: ابن عبَّاسٍ، ومحمَّد بن الحنفيَّة، والحسن، والسَّدِّيِّ، وقتادة، ومجاهد، واختاره الجبائيُّ.

(٢) ـ ص ١٠: ٢ .

(٣) ـ الغدير ٧، ٨: ٨.

(٤) ـ أسباب النُّزول ٩٨ مخرَجاً عنِ أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال. وتفسير ابن كثير ١٢: ٢، مخرَجاً عنهما.

ولك ـ بعد ذلك ـ أنْ تحكم، في ما إذا كان هذان مِمَّنْ يقفون على النّار، فيقولون ماحكاه ا لله سبحانه،عنهم، في هذه الآية، مِنْ إبداء النّدم، حيث لانَفْع فيه!.

أم ماذا يتأوَّل المهوّسون المغرضون؟!.

أمَّا أنا فلا أستبعد وجود مَنْ يقول ذلـك، بعـد أنْ عرضنـا نمـاذج، في الفصـل الأوَّل ـ "على العتبة" ـ مِنْ هذا الكتاب...!

ومنها:ماحدَّث به عروة، مِنْ أنَّ العبَّاس وعليّاً، مِنْ أهل النار!.

وما الحمزة بالذي يُداني عليّاً في فضله، وقد قيل فيه ما قيل!!!.

ي ـ مِنْ هذا كلّه... ينكشف لنا السّتر المسدَل، وتنفضح الغايات الـدُّون، مِـن تحريف الآية، وتحويلها مِنْ المشركين، إلى أبي طالبٍ، المؤمِنِ العميق...

مِنْ حيث السند، فهو واهٍ متهالكٌ...

ومِنْ حيث المعنى، فهو متّصلٌ متماسكٌ، لايفصل بينه شيءٌ..

ومِنْ حيث آراء المفسِّرين، الذين عرضنا البعض مِنْ آرائهم..

ومِنْ حيث الثَّابت، مِنْ سيرة أبي طالبٍ ـ قولاً،وعملاً ـ وشـهادات الرَّسـول وآله، ممَّا عرضنا...

كلُّ هذه.. تفـرض علينـا أن نصفـع بذلـك التَّـأويل المحرَّف، عـرْض الجـدار، ولانلتفت للافتئات المغرضة... والذي نال بعضه، في مانـال، سـيِّد الشُّـهداء حمـزة، وأبا الفضل العبَّاس!.

الآية الثّانية والثّالثة:

١ ـ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنْ يَسْتَغْفِرُوْا لِلْمُشْرِكِيْنَ، وَ لَوْ كَانُوْا أُولِيْ قُرْبَى، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ﴾(١).

٢ ـ ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَاءُ وهوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدِيْنَ﴾(٢).

* *

نودُّ هنا ـ حول حديثنا عن تأْويل هاتين الآيتين الكريمتين،وتحريفهما عمَّا أنزل ا لله، إلى النَّيل مِنْ أبي طالبٍ ـ أنْ نأتي، أوْلاً، بالأقوال، التي حرَّفتهما، وصرفتهما إليه، لنناقش السَّند، ونفضح الرواة، واحداً بعد آخر.

* *

١ ـ [عن إسحاق بن إبراهيم، حدَّثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مُعمَّر، عن الزُّهريِّ،عن سعيدِ بن المسيَّب، عن أبيه، قال:

لَّما حضرت أبا طالبٍ الوفاة، دَخَلَ عليه النَّبيُّ صلّى ا لله عليه "وآله" وسلَّم، وعنده أبو جهلٍ، وعبد ا لله بن أبي أميَّة، فقال النَّبيُّ صلّى ا لله عليه "وآله" وسلم:

أيْ عمِّ! قلْ: لاَ إلهَ إلاَّ ا لله، أحاجَّ لكَ بهَا عندَ ا للهِ!.

فقال أبو جهل، وعبد ا لله بن أبي أُميَّة: يا أبا طالبٍ أترغب عن ملَّة عبد المطَّلب؟

فقال النَّبيُّ صلّى ا لله عليه "وآله" وسلَّم:

---

(١) ـ التَّوبة ١١٣.

(٢) ـ القصص ٥٦ .

«لأستغفرنّ لكَ مَا لَمْ أُنْهَ عنكَ» فنزلت:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبيِّ والَّذِيْنَ آمَنُوْا ﴾ـ الآية][1].

* *

٢ ـ وعن أبي اليمان، أخبرنا شعيبٌ، عنِ الزُّهريِّ، قال: أخبرني سعيد بن المسيَّب، عن أبيه قال:

لمّا حضرت أبا طالبٍ الوفاةُ، جاءه رسول الله صلّى الله عليه "وآله" وسلّم، فوجد عنده: أبا جهلٍ، وعبد الله بن أبي أميَّة بن المغيرة، فقال:

«أيْ عمِّ! قلْ: لاَ إلهَ إلاَّ الله، كلمةٌ أحاجُّ لك بهَا عندَ اللهِ».

فقال أبو جهلٍ، وعبد الله بن أبي أميَّة: أترغب عن ملّة عبد المطَّلب؟

فلم يزلِ الرَّسول صلّى الله عليه «وآله» وسلَّم يعرضها عليه، ويُعيدان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالبٍ آخر ما كلّمهم: على ملّة عبد المطَّلب، وأبى أنْ يقول: لا إله إلاّ الله. قال: فقال رسول الله صلّى الله عليه «وآله» وسلّم:

«والله لأستغفرنَّ لكَ، مالَم أنهَ عنكَ»، فأنزلَ اللهُ:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبيِّ وَالذيْنَ آمَنُوْا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلمُشْرِكِيْنَ﴾.

وأنزل الله في أبي طالبٍ، فقال لرسول الله صلّى الله عليه «وآله» وسلّم:

﴿إنَّكَ لاتَهْدِيْ مَنْ أحْبَبْتَ؛ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ﴾[2].

* *

(١) ـ البخاري ٢٠١: ٢، و ٨٧: ٣ .

(٢) ـ المصدر ١٠٧: ٣ .

٣ ـ [وعن حرملة بن يحيى التجيبي، أخبرنا عبد الله بن وهب، قال: أخبرني يونس، عنِ ابن شهاب، قال: أخبرني سعيدُ بن المسيَّب، عن أبيه، قال: لَمَّا حضرت أبا طالبٍ الوفاةُ، جاء رسول الله ـ صلى الله عليه "وآله" وسلَّم ـ إلخ](١).

* *

٤ ـ [عن محمَّدِ بن عبَّاد، وابن أبي عمر، قالا: حدَّثنا مروان، عن يزيد ــ وهو ابن كيسان ـ عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه «وآله» وسلّم لعمِّه عند الموت:

قلْ: :لاَ إلهَ إلاّ اللهُ، أشهَدُ لكَ بهَا يومَ القيامةِ.

فأبى. فأنزل الله:

﴿إنَّكَ لا تَهْدِيْ مَنْ أحْبَبْتَ﴾(٢).

* * *

٥ ـ [عن محمَّد بن حاتم بن ميمونٍ، حدَّثنا يحيى بن سعيدٍ، حدَّثنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازمٍ الأشجعيِّ، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعمِّه:

قل: لاَ إلهَ إلاّ اللهُ أشهدُ لكَ بهَا يومَ القيامةِ.

قال: لولا أنْ تُعيِّرني قريشٌ، يقولون: إنّما حمله على ذلك الجزع مِنَ الموت، لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله:

﴿إنَّكَ لا تَهدِيْ ـ الآيَةَ﴾(٣).

* * *

---

(١) ـ صحيح مسلم ٤٠: ١ .

(٢) و (٣) – المصدر ٤١: ١ .

رواة الأحاديث الثَّلاثة الأوْلى

نبدأُ النَّظر في سلسلة الأحاديث، بالثَّلاثة الأوْلى،وهو مِنْ جوانب:

ـ١ـ

نجد في الحديث الأوَّل، مِنْ بين رواته:

أ ـ إسحاق بن إبراهيم: مبتور الاسم.

ولانعلم به هل هو الضَّعيف؟!. أو مَنْ شيخه ساقط؟ أو مَنْ ليس بثقةٍ؟

أو مَنْ لا يعرفه الذَّهبيُّ، وضعَّفه الدَّارقطنيُّ؟

أو مَنْ كذَّبه ابن عديٍّ والأزديُّ، لوضعه الحديث؟

او مَنْ قال عنه الحاكم: ليس بالقويِّ؛ ومَرَّةً أُخرى: ضعيفٌ؛ وقال الدَّارقطنيُّ: ليس بالقويِّ؟

أو مَنْ قال عنه النَّسائيُّ: ليس بثقةٍ؛ وأبو داؤُود: ليس بشيءٍ؛ وكذَّبه محدِّث حِمص: محمد بن عوف الطائي؟

أو مَنْ روى الأحاديث المنكرة؟ أو مَنْ تُرِكَ الأخذ عنه؟[1].

ولكن فلعلَّه إسحاق بن إبراهيم الدبري، صاحب عبد الرزَّاق، الذي قال عنه الذَّهبيُّ: "ماكان الرجل صاحب حديثٍ" إلى قوله:"لكن روى عن عبد الرزَّاق أحاديثَ منكرةً، فوقع التَّردُّد فيها: هل هي منه، فانفرد بها؟ أو هي معروفةٌ ممَّا تفرَّد به عبد الرزَّاق؟"[2].

---

(١) ـ الميزان ٨٤ ـ ٨٦: ١ .

(٢) ـ المصدر ٨٥: ١ .

ولكن صاحب شيخ الأبطح ـ وقد عَرَضَ لهذا الحديث ـ يقول: إنه إسحاق بن إبراهيم، بن راهويه(١).

وهذا قد ذكره الذّهبيُّ، فقال عنه:

[وقال أبو عبيد الآجريُّ: سمعت أبا داؤُود يقول: إسحاق بن راهويه، تغيَّر قبل أنْ يموت، بخمسة أشهرٍ، وسمعتُ منه في تلك الأيام، فرميت به] ـ حتى يقول: [وذُكر لشيخنا أبي الحجَّاج حديثٌ، فقال: قيل: إسحاق اختلط في آخر عمره].

ثم أورد عنه، ما رآه مِنْ مناكير حديثه(٢).

غير أنّا نُقرِّبهُ بالدبري، صاحب عبد الرزَّاق. ودليلنا على ذلك إسناده الحديث لعبد الرزَّاق.

ب ـ ونجد، بعدئذٍ، عبد الرزَّاق.

ومَنْ عبد الرزاق هذا؟

هل هو عبد الرزَّاق بن عمر الثّقفيُّ، الذي قيل عنه: ضعيف، ليس بثقةٍ، منكر الحديث؛ وقال عنه الدَّارقطنيُّ: هو ضعيفٌ مِنْ قِبَل أنَّ كتابه ضاع. وقال أبو مسهر: ضاع كتابه عنِ الزُّهريِّ، فكان يتبعه بعد أنْ ذَهَبَ، فيأخذ عنه ماسواه؟(٣).

ولكن فلعلّه هو الذي قال عنه الذّهبيُّ، في حديثه عن إسحاق بن إبراهيم، وهو مانقلناه:"لكن روى عن عبد الرزَّاق أحاديثَ منكرةً" ـ إلخ.

وهو الرَّاوي عشرة آلاف حديثٍ،عن معمر بن راشد!(٤).

ج ـ وكذلك نجد ماذُكر، مِنِ اسم معمرٍ. فليس غير الكذّاب المجهول، راوي المناكير(٥).

---

(١) ـ الميزان – ٧٠ .

(٢) ـ الميزان ٨٦: ١ .

(٣) ـ الميزان ١٢٦: ٢ .

(٤) ـ الميزان ٣:١٨٨. وعبد الرزاق، هذا، كان ينال مِنْ عثمان ـ كما في الغدير ٢٥٢: ٥ .

(٥) ـ الميزان ٣:١٨٨.

وفي ما نظنُّ أنَّ معمراً هذا، وهو معمرٌ بن راشد(١). وقد قال عنه الذّهبيُّ: "وله أوهامٌ معروفةٌ، احتُملت له. وقال أبو حاتم: وما حدَّث به ـ بالبصرة ـ ففيه أغاليط"(٢).

وقد قال عبد الرزّاق عنه ـ وهو أحد حلقات السَّند، الذي روى عنه إسحاق منكرَ الحديث، الذي نحن بصدد رجاله الكذبة:"إنه كَتَبَ عن معمرٍ عشرة آلاف حديثٍ".(٣).

أرأيت هذه الكثرة؟! ربِّ زدْ وبارك!.

وهل رأيتَ مافي هذه الحلقات المفرغة مِنَ: الكذب، والإفتراء..؟! فما في حلقات سلسلة الحديث، إلاّ عرىً متفصِّمةٌ(٤).

ـ ٢ ـ

ويُوافينا ـ في الحديث الثّاني ـ هذا السَّند:

أ ـ وهكذا لاتنتهي سلسلة الأسماء البتراء!.

فَمَنْ أبو اليمان هذا؟.

فإنّنا لانجد، سوى اسمٍ واحدٍ، أرسل حديثاً(٥).

ب ـ والثّاني فيهما، هو: شعيب.

ونجد ـ على هذا الاسم ـ سلسلةً، ليس فيها غير الوضّاع ، الكذوب، الضَّعيف، والرّاوي للمناكير، والمجهول، إلى آخر السلسلة(٦).

---

(١) ـ إلى هذا ذهب شرف الدِّين، في شيخ الأبطح ص ٧٠ .

(٢) ـ الميزان ١٨٨: ٣ .

(٣) ـ الميزان ١٨٨: ٣ .

(٤) ـ تفصَّم: تصدَّع.

(٥) ـ الميزان ٢٨٨: ٣.

(٦) ـ المصدر ٤٤٧، ٤٤٨: ١ . وفي الغدير ٢٠٤: ٥ : [شعيب بن عمرو الطَّحَّان. وقال الأزديُّ: كذّابٌ].

- ٣ -

وهنا... تلتقي سلسلة الحديثين بالزُّهريِّ. وإنَّها لَعروةٌ مفكَّكةُ الأجزاء!.

ولاندري، فهل يُؤخذ حديثٌ عن الزُّهريِّ،وهو الرَّاوي ذلك الحديث المفتعل، عن: عليٍّ، والعبّاس ـ في مانقلناه، في حديثنا "على العتبة" وهو حديث:

إنَّ عليّاً والعبَّاس، مِنْ أهل النَّار، وأنهما يموتان على غير ملَّة الرَّسول(١).

فهل يُؤخذ حديثٌ في أبي طالبٍ، يرويه هذا الطَّاعن في عليٍّ، القائل الزُّورَ والإفكَ، بكلِّ قحَّةٍ، وصلافة وجهٍ وتقلُّص إيمان؟!.

إنَّ الباعث بارز، أوضح مِنَ الشَمس... وإنَّه لَهو المنتظر منه...

فما عسانا ننتظر منه أنْ يقول عن أبي طالبٍ، غير ما قال، بعد أنْ قال في عليٍّ،مثل هذا القول، النَّابي، والتُّهمة الفاحشة...؟!

أليس يكفي أنْ يكون أبو طالبٍ أباً لعليٍّ، ليقول فيه أشدَّ مِمَّا قال..؟! ولسنا ـ بعد هذا ـ في حاجةٍ لأنْ نقول: إنَّه كان مِنَ المدلسِّين(٢).

فيكفينا عنه هذان الحديثان ـ في عليٍّ والعبَّاس ـ لِيسقط، عندنا، مِنْ ميزان الرِّجال..!

ومِنَ الخير أنْ نُشير إلى أنَّ الحديث الأوَّل، الذي أتينا عليه، والمفتَعل في حقِّ أبي طالبٍ، والذي رواه عبد الرزَّاق، عن معمرٍ، عنِ الزُّهريِّ...

مِنَ الخير أنْ نُشير إلى أنَّ عبد الرزَّاق ومعمراً ـ هذين اللذين اجتمعا مع الزُّهريِّ، وشاركاه في نسْج خيوط ذلك الحديث الكذوب ـ لم يستطيعا أنْ يُسايرا الزُّهريَّ في بهتانه، إلى الشَّوط الأخير... فإنَّ النَّفَس قد قصر منهما، أنْ يمتدَّ حتى نهاية الشَّوط...

---

(١) ـ ذكرنا الحديثين ـ في حديثنا "على العتبة" ـ عنِ النَّهج ٣٥٨: ١ .

(٢) ـ الميزان ١٢٦: ٣ .

لذلك... روى عبد الرزّاق، عن معمرٍ، فقال: كان عند الزُّهريِّ حديثان، عن عروة، عن عائشة، في عليٍّ، "عليه السَّلام" فسألتُه عنهما يوماً، فال:

ماتصنع بهما وبحديثهما؟. ا لله أعلم بهما...! إنّي لأتّهمهما في بني هاشمٍ(١).

يعني بذلك الزُّهري، وعروة. ويعني بالحديثين مااختلق في حقّ عليٍّ والعبَّاس: بأنّهما مِنْ أهل النَّار. يموتان على غير الدِّين الإسلاميِّ الحنيف.

ولعلَّ مِنَ الخير أيضاً ـ أنْ نعرض عنِ الزُّهريِّ، هذه الحادثة:

شهد شاهدٌ مسجد المدينة، فإذا الزُّهريُّ، وعروة بن الزُّبير، جالسان يذكران علياً، "عليه السَّلام"، فنالا منه، فبلغ ذلك عليَّ بن الحسين، "عليهما السَّلام"، فجاء حتّى وقف عليهما، فقال:

أمَّا أنتَ ـ يا عروةُ! ـ فإنَّ أبيْ حاكَمَ أباكَ، فحُكِمَ لأبيْ على أبيكَ...!

وأمَّا أنتَ يا زهريُّ ! ـ فلوْ كنتُ بمكَّةَ، لأريتُكَ بيتَ أبيكَ!(٢).

ـ ٤ ـ

وفي سلسلة الحديث الثَّالث، نجد بينهما هذه الأسماء:

أ ـ حرملة بن يحيى التّجيبيُّ ـ أو التّحيبيُّ ـ انفرد بغرائب.

قال أبو حاتمٍ: لايُحتجُّ به. وضعَّفه عبد ا لله بن محمَّد الفرهاذان، في ما نَقَلَ عنه ابن عديٍّ.

واشتهر عن حرملة أنّ "لديه ألف حديثٍ، كلُّها عنِ ابن وهبٍ" ـ وهذا الحديث، الذي نحن بصدده، رواه حرملة، عنِ ابن وهبٍ ـ فَقَدْ أخذ حرملة هذا، حديث ابن وهبٍ كلّه، ماعدا حديثين(٣).

---

(١) ـ النّهج ٣٥٨: ١ .

(٢) ـ النّهج ٣٧١: ١

(٣) ـ الميزان ٢١٩: ١ .

ب ـ وهنا... نقع في البلبلة، إذا قرأنا ماقيل، عن عبد الله بن وهبٍ ـ وهو الثّاني في سلسلة الحديث المكذوب ـ فإنّه قيل عنه: إنّه صنّف مئة ألفٍ، وعشرين ألف حديثٍ، وحديثُه كلُّه عند حرملة، سوى حديثين(١).

وسأل الإمامَ أحمد بن حنبل سائلٌ عنه: أليس يُسيءُ الأخذ؟ قال: بلى!(٢).

أليس يكفي ـ لو قُدر صحَّة توثيق مَنْ وثّقه! ـ أنْ يكون سيِّئ الأخذ وأنْ ينفرد برواية مئةٍ وعشرين ألف حديثٍ؟!.

فما هذه الوفرة الهائلة، والكثرة المتّضخّمة، مِنْ هذه الأحاديث؟!.

فما عليه، إلاّ أنْ يقول: حدَّثني، وأخبرني، وروى لي، وقال لي، حتى تتمَّ هذه الوفرة، وتتضاعف هذه الرِّوايات!.

ج ـ ولسنا نعرف يونس هذا.

فإنَّ بين هذا الاسم، سلسلةً، فيها: الكذوب، والسَّيء الحفظ، والمنكَر الحديث... وحتى أنَّ فيهم مَنْ لُقّب بـ "الكذوب"(٣).

د ـ وأما ابن شهابٍ، فهو أكثر غموضاً، وأعرق في الخفاء، مِنْ أنْ نستطيع معرفة شيءٍ عنه!.

ـ ٥ ـ

وهكذا تتّصل سلسلة الأحاديث الثّلاثة: بسعيدِ بن المسيِّب، عن أبيه.

أ ـ ونحن لانستطيع أنْ نأخذ بهذا الحديث، بعدما وجدنا فيه، ما وجدنا...

ولانستطيع أنْ نأخذ به، وإنْ كان عن سعيدِ بن المسَّيب؛ حيث أنّه قدِ اختُلف في سعيدٍ هذا، اختلافاً كبيراً جدّاً، بين: التّعديل، والتّجريح؛...

---

(١) – إذا أردنا الجمع بين القولين، في ماقيل عن حرملة، وفي ماقيل عنِ ابن وهبٍ، فإنَّ الظّاهر سقوط جملة "مئة ألف حديثٍ وعشرين"، عند الكلام عن حرملة.

(٢) ـ الميزان ٨٦: ٢ .

(٣) ـ الميزان ٣٣٦ ـ ٣٤٠: ٣ .

فِيمَنْ بين القادحينَ فيه ابن أبي الحديد، حيث سلكه في عداد المنحرفين عن عليٍّ، "عليه السَّلام" وأنَّ في قلبه شيئاً منه(١)، وأنَّه مِنَ القالِين له، القائلين فيه، المبغضين إيَّاه...

ومتى ثَبتَ بغضه لعليٍّ، لايُمكن ـ بأيِّ حالٍ ـ أخْذ حديثٍ منه، فكيف بحديثٍ في أبي طالبٍ ـ والد عليٍّ ـ لأنَّ عليّاً هو محكُّ الإيمان والنِّفاق، إذ لايُحبُّه منافقٌ، ولايُبغضه مؤمنٌ... كما جاء في المستفيض مِنَ الأحاديث النّبويَّة.

وعلينا أنْ نعرض الحوادث، والكلمات، التي وقفنا عليها عنه...!

ونبدأُ بتسجيل هذه المحاورة، بينه، وبين عمر بن عليٍّ ـ كما سجَّلها ابن أبي الحديد:

[وَجَبَهَهُ عمر بن عليٍّ عليه السَّلام، في وجهه، بكلامٍ شديدٍ.

روى عبد الرحمن بن الأسود، عن أبي داوُد الهمدانيِّ، قال:

شهدتُ سعيد بن المسيَّب، وأقبل عمر بن عليٍّ ابن أبي طالبٍ، عليه السَّلام، فقال له سعيد:

يا ابنَ أخي! ما أراكَ تُكثر غشيان مسجد رسول الله(ص)، كما يفعل إخوتك، وبنو أعمامك؟!.

فقال عمر: يا ابنَ المسيَّب! أكلَّما دخلتُ المسجد، أجيءُ فأُشهدكَ؟!.

فقال سعيدٌ: ما أحبُّ أنْ تغضب! سمعت أباك يقول:

إنَّ ليْ مقاماً، لَهُوَ خيرٌ لبنيْ عبدِ المطَّلبِ، ممَّا على الأرضِ مِنْ شيءٍ.

فقال: وأنَا سمعتُ أبي يقول:

مَا كلمةُ حكمةٍ، فيْ قلبِ منافقٍ، فيخرجُ مِنَ الدُّنياَ، إلاَّ يتكلَّمُ بهَا.

---

(١) ـ كان سعيدٌ مِنَ المنحرفين عنِ الإمام، "عليه السَّلام" ـ كما في النَّهج- ٣٧٠: ١، والغدير ٩و ٥٦: ٨ .

فقال سعيد: يا ابن أخي؟ جعلتني منافقاً؟!

فقال هو ما أقول لك!.

ثم انصرف](1).

وهكذا... خرجتْ هذه الكلمة الحقّة، مِنْ قلب ابـن المسيَّب ، قبـل أنْ يلفـظ منه النَّفَسَ الأخير...

وهذه الشِّدَّة في المقابلة، والمخشنة في الحديث ــ مِـنْ عمـر بـن علـيٍّ، مـع ابـن المسيَّب، قد تدل على موقف ابن المسـيَّب، مِـنْ عليٍّ، وانحرافـه عنـه، وبغضـه لـه، والوقيعة فيه...!

وهـذه حادثـةٌ، هـي الأخـرى تـدُّل علـى انحرافٍ، عـن أهـل البيـت، "عليهـمُ السَّلام":

فقد مرَّ سـعيدٌ بـن المسيَّب هـذا، بجنـازة الإمـام السَّجَّاد، علـيٍّ بـن الحسـين، "عليهما السلام"، ولم يصلِّ عليها، فجاء إليه، مَنِ استنكر منه هذا العمل، قائلاً له:

ـ ألا تُصلِّي على هذا الرَّجل الصَّالح، مِنْ أهل البيت الصَّالحين؟!. فكان جوابـه إليه، هو هذا:

ـ صلاة ركعتين، أحبُّ إليَّ مِنَ الصَّلاة، على الرَّجل الصَّالح!(2).

كيف بنا نستطيع أنْ نأخذ حديثاً، ضدَّ عليٍّ، مِـنْ شـخصٍ متَّهـمٍ عليـه؟!. وإذا عرفنا أنَّ سعيداً، هو القائل:

[مَنْ مات محبَّاً لأبـي بكـرٍ، وعمـر، وعثمـان، وعلـيٍّ، وشـهد للعشـرة بالجنَّـة، وترحَّم على معاوية "؟!" كان حقّاً على الله أنْ لايُناقشه الحساب](3).

ـ فحينئذٍ نعرف، بعد ما أوضـح موقفـه مِـنْ معاويـة، أيَّ قيمـةٍ لهـذا الحديـث، يُوضع في حقِّ شيخ الأبطح...

---

(1) ـ النَّهج 370: 1، والغدير 9: 8، وأعيان الشِّيعة 78، 79: 35 .

(2) ـ شيخ الأبطح 66 والغدير 9: 8 ، والأعيان 72، 73: 35 .

(3) ـ الغدير 138: 10 ، عن تأْريخ ابن كثير 8: 139، 140 .

وليس موقف ابن المسيَّب مِنْ معاوية، بمحلٍّ نكرانٍ، بعد أنْ قال عن معاوية، أيضاً:

[لقد رغب إلى مَنْ لامرغوب إلاّ إليه؛ وإني لأرجو أنْ لا يُعذّبه ا لله](١).

وهل تعرف ما الذي دفعه لهذه القولة، الجانية على الحقّ، ودعته لتناسي الدِّماء المهراقة، والحقوق المغتصَبة والمُضاعة، وتجاهل كلّ الأعمال الشّائنة و الأفعال القباح، التي يقوم بها معاوية...؟!

إنه لَيتعلّل بقولةٍ، قالها معاوية، عند احتضاره، حين ما رأى أجنحة الموت تُخيِّم عليه، والمقامع مسددةً له، ففاه بهذه القولة المائنة:

[اللهمَّ أقلِ العثرة، واعفُ عنِ الزَّلّة، وعُدْ بحلمك على مَنْ لم يرجُ غيرك، ولم يثقْ إلاّ بك، فإنّك واسع المغفرة، وليس لذي خطيئةٍ مهربٌ إلاّ إليك](٢).

ولعلَّ قولة معاوية هذه، هي حجر الأساس، في بدعة المرجِئة. ومنها عُدَّ مِنْ أوّل المرجِّئين.

والتّرجيئ يُشيد مِنْ هذا البناء الظّلوم ـ الذي أقامه معاوية ـ المبيحِ لاقتراف الجرائم والآثام، وتقوية الرَّذيلة، وإشاعة الظُّلم...

ثم ما على هذا الظّلوم، إلاّ لقلقةٌ باللّسان ـ عند الاحتضار ـ يُتمتم بها، دون أنْ يُقرَّها قلبه، ولم يعرفها عمله المباين لها... لِيجيء مِنْ بعده، مَنْ يرجو: أنْ لايُعذب ا لله هذا السّفاحَ الإباحيَّ، والوصوليَّ المتاجرَ... ويُحاول أنْ ينسى ا لله ـ وأستغفره! ـ مانسيه هذا. أو ذاك، مِنْ أعمال هذا الظّلوم...!

ولعلَّ مِنَ الخير ـ أيضاً ـ أنْ نقف مِنْ سعيدِ بن المسيَّب، على مدى تقديره لمعاوية، ومَنْ هو مِنْ سنخه، مِن البيت الأُمويِّ اللّئيم، حيث قيل له:

مَنْ أبلغ الناس؟.

فقال: رسول ا لله(ص)...

---

(١) ـ أعيان الشِّيعة ٨٠: ٣٥ .

(٢) ـ أعيان الشِّيعة ٨٠: ٣٥ .

فقيل له: ليس عن هذا نسألك!.

عندئذٍ لم يرَ غير معاوية، وابنه يزيد، وسعيد بن العاص، وابنه عمرو الأشدق(١).

ونحن ـ بهذا ـ نعرف فيه انحرافاً عن عليٍّ وأهل بيته...

إذ ما بلاغة هؤلاء؟!.

وَما هي ـ لو كانت ـ غير نقطةٍ متلاشيةٍ، إلى بحرٍ ثجَّاجٍ. اللهمَّ! إلاَّ أنْ يُعتذر عنه بأنَّ السَّائل لم يسألْه عن هؤلاء، حيث دلَّ على رسول الله(ص)، بجوابه الأوَّل، فعدل السَّائل؛ لأنَّ الرَّسول خارجٌ مِنَ السُّؤال بالدَّليل ـ كما يقولون ـ وهو، وعليٌّ: نفسٌ واحدةٌ.

ولكن هذا يأتي، لو كان الجواب، مِنْ غير مَنِ اتُّهم بالانحراف!.

وقدِ اختُلف في سعيدٍ اختلافاً كبيراً، وتضاربتِ الآراء فيه ـ كما أشرنا... فمنهم مَنْ يعدُّه شيعيّاً، ومِنْ حواريِّ عليِّ بن الحسين، "عليهما السلام".

وهذا لايكون مِنْ عدَّة نواحٍ: لانحاول بسطها، هنا...

وتكفينا هذه الرِّوايات، في حقِّ أهل البيت، وحقِّ أبيهمُ العظيم شيخ الأبطح، حيث يتناقض قول سعيدٍ، مع أقوالهم، في حقِّ أبي طالبٍ،ومع قولة السَّجَّاد نفسه، التي مرَّت في فصلٍ سابقٍ، والذي عُدَّ هذا مِنْ حواريه؟!.

فإنْ ثبتت شيعيَّته، انتفت هذه الرِّواية عنه.

ومنهم ـ كالمفيد ـ مَنْ يعدُّه، مِمَّنْ لايُدفع نُصْبُهُ.

ومنهم ـ كمالكٍ ـ مَنْ يعدُّه مِنَ الخوارج الأباضيَّة(٢).

وعلى كلٍّ فإنْ تغلَّب جانب التَّعديل على التَّجريح ـ في هذا الرَّجل، وهو مانودُّ ـ فإنَّ هذه الرِّواية منتفيةً عنه، قطعاً...

---

(١) ـ البيان والتَّبين ٣٠٢: ١ .

(٢) ـ أعيان الشِّيعة ٨٠: ٣٥ .

ثم يكفي مافي هذه السّلسلة، مِنْ عرىً مفصَّمةٍ، هي التي وضعت الحديث. على لسان سعيدٍ ـ إنْ كان مقطوعاً بصلاحه...!

ب ـ أمَّا والد سعيدٍ، وهو المسيَّب بن حزَن، هذا الاسم الذي ورث ولدُه منه "حزونةَ وسوءَ خُلُقٍ[1]" فما هو إلاَّ مِنْ "مسلمة الفتح"[2]...!

فَمِنْ أين شهد احتضار أبي طالبٍ؟!.

وإنْ شهده، فكيف يُؤْخذ قوله، وهو يُريد أنْ يُكثِّر المشركين، الذين يجتمعون معه في الرَّأْي، تبريراً لموقفه المشرك...؟!

على أنّنا لم نقف عنه على توثيقٍ له. فأقلُّ ما يُقال عن حديثه هذا: إنَّ فيه انقطاعاً، بالإضافة إلى تفصُّم السِّلسلة، ومعارضة الحديث بالأقوى.

---

(١) ـ نسب قريشٍ ٣٤٥ .

(٢) ـ الإصابة ١ : ٤٠١ : ٣ ، عن مصعب الزُّبيريِّ.

رواة الحديثين الأخيرين

نخلص - الآن - للنَّظر في سلسلة رواة كلٍّ مِنَ: الحديث الرَّابع والخامس.

- ١ -

ننظر في سلسلة الحديث الرَّابع، لنرى الأقوال فيها:

أ - محمَّد بن عبَّادٍ - هذا - مَنْ هو؟.

فليس بين هذا الاسم، غير المجهول الـذي لايُعرف، وغير مَـنْ لم يكـنِ البصـير بالحديث،ومَنْ لم يُحمد عليه، وفي أمره نظرٌ، ومَنْ ضعَّفه الدَّارقطنيُّ(١).

ب - ابن أبي عمر، مَنْ هو هذا...؟ فلندعه في غمار المجهولين.

ج - ثم مَنْ مروان هذا؟.

فلدينا حفنةٌ مِنْ هذا الاسم، فيهمُ: الكذوب، والمجهول، والضَّعيف،وذو المنكـر مِنَ الحديث، والرَّاوي عمَّنْ هبَّ ودبَّ، ومَنْ لايُوثَق بحديثه، ومَنْ لايُحتَجُّ به(٢).

- ٢ -

ننظر في سلسلة الحديث الخامس، فما عسانا أنْ نرى فيها؟!.

أ - محمَّد بن حاتم بن ميمون، القطيعيُّ - المعـروف بالسَّـمين ــ قـال ابـن معـينٍ، وابن المدينيِّ: كذَّاب. وقال الفلاَّس: ليس بشيءٍ(٣).

ب - يحيى بن سعيد، قـال عنـه البخـاريُّ وأبـو حـاتمٍ: منكَـر الحديـث. وقـال النسائيُّ: يروي عنِ الزُّهريِّ أحاديثَ موضوعةً.

---

(١) - الميزان ٧٧: ٣ .

(٢) - الميزان ١٥٩ - ١٦١: ٣ .

(٣) - الميزان ٣٧: ٣، ودلائل الصِّدق ٥٩: ١ .

وقال ابن عديٍّ وغيره: يروي عن الثّقاة البواطيلَ.

وقال ابن حبَّان: كان مِمَّنْ يُخطيءُ كثيراً[1].

وقال يحيى بن سعيدِ القطَّان: يُدلّس. وقال الدُّمياطيُّ: يُقال: إنهُ يُدَلّس[2].

ويحيى بن سعيدٍ، هو الذي يقول: إنَّ في نفسه شيئاً مِنْ جعفرِ الصَّادق[3].

- ٣ -

وهنا تتّصل سلسلة الحديثين، بيزيد بن كيسان، عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرة:

أ - أمَّا يزيد بن كيسان، فقد ذكر الذَّهبيُّ - على هذا الاسم شخصين - فالأوَّل منهما، هو مايُعنينا أمره، حيث أشار إلى أنّه يروي عن أبي حازمِ الأشجعيِّ وغيره، ويروي عنه يحيى القطَّان. ثم قال:

[وقال أبو حاتمٍ: لايُحتجُّ به. وقال يحيى بن سعيدِ القطَّان، وهو صالحٌ وسَطٌ - ليس مِمَّنْ يُعتمد عليه][4].

ولاندري هل يعني الذَّهبيُّ بيحيى القطَّان، الذي يروي عن يزيد: يحيى بن سعيدِ - الطَّاعن فيه - أم غيره؟.

ب - لم نعرفِ اسم أبي حازمِ الأشجعيِّ، فلم نستطع أنْ نقف عنه، على قولٍ.

ج - أمَّا أبو هريرة، فهذا الذي اختُلف في اسمه، واسم أبيه، ونسبه، حتى تكاد تظنُّ هذا اللّقب، لعديدِ مِنَ الشَّخصيَّات...)[5].

---

(١) - الميزان ٢٨٩: ٢ .

(٢) - دلائل الصِّدق ٦٨: ١ .

(٣) - الغدير ٢٥٢: ٥ .

(٤) - الميزان ٣١٨: ٣ .

(٥) - ارجع لذلك لترجمته، في كلٍّ مِنَ: الإصابة والإستيعاب - ص ٢٠٠: ٤ - فإنك تجد فيهما أكثر مِنْ صفحتين، في اختلاف اسمه ونسبه.

وكذلك في ترجمته في سير أعلام النُّبلاء ٤١٧: ٢ .

هذا المكثر مِنَ الحديث، الذي أُجمع على أنه أكثر الرُّواة حديثاً[1]، فَقَدْ وُجد له في مسندٍ واحدٍ ـ هو مسند تقيٍّ بن مخلَّدٍ ـ ماينيف على خمسة آلافٍ، وثلاثمائة حديثٍ[2].

هذا هو الذي كان يضع رداءه ـ في ما حدَّث هو بذلك ـ ويبسطه، لِيملأه مِنَ الأحاديث، فيضمَّه إليه[3].

ولاندري ماعسى أنْ تكون هذه الأحاديث، التي يمتلئُ بها الرِّداء؟!.

ولاندري ماذا عساه أنْ ينطوي عليه الرداء... في ماهو يضمُّ إليه رداءه هذا المليئ!.

ولست أظنُّ، إلاَّ أنَّ هذا الحديث ـ المسنَد إليه ـ مِنْ بين تلك الأحاديث، التي علقت بهذا الرِّداء...! فرواه على أنه حديثٌ، ولم يدرِ عنه: أنه ممَّا علق بالرِّداء...!!!

ونحن لانقبل هذا الحديث منه، لأمورٍ عديدةٍ...

فأبو هريرة ـ كما عرضنا لذلك، في حديثنا "على العتبة" ـ كان مِنْ بين مَنِ استأجرهم معاوية، لوضع الحديث في عليٍّ، "عليه السَّلام".

ونحن نأتي على النَّصِّ الكامل، الذي نقلَه الحديديُّ، عن أبي جعفرٍ الإسكافيٍّ:

[إنَّ معاوية وَضَعَ قوماً مِنَ الصَّحابة، وقوماً مِنَ التَّابعين، على رواية أخبارٍ قبيحةٍ في عليٍّ، عليه السَّلام، تقتضي الطَّعن فيه، والبراءة منه، وجعَل على ذلك جُعْلاً يُرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه.

منهم: أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة؛ ومِنَ التَّابعين: عروة بن الزُّبير][4].

---

(١) ـ الإصابة ٢٠٢: ٤ .

(٢) ـ المصدر، والغدير ١١٥: ٧، سير أعلام النُّبلاء ٤٥٣: ٢ .

(٣) ـ الإصابة ٢٠٥: ٤ .

(٤) ـ النَّهج ٣٥٨: ١ .

فأنت ترى أبا هريرة،مِمَّنِ استأجره معاوية، لِينال مِنْ عليٍّ، ويضع فيه الأخبار القبيحة، التي تحمل بين حروفها: الطَّعن في عليٍّ، والبراءة منه!.

وكذلك وجدناه...!

فقد وَضَعَ ذلك الحديث، الذي عرضنا له ـ أيضاً ـ في حديثنا "على العتبة"، مِنْ أنَّه "يشهد با لله! أنَّ عليّاً أحدث"، بعد الرسول، حدَثاً... فاستوجب عليٌّ ـ بذلك، على رأي أبي هريرة ـ لعنة ا لله، والملائكة، والنَّاس أجمعين(١).

وهو لم يُساير معاوية، إلاَّ طمعاً في مالٍ، فقد كان [إذا أعطاه معاوية سَكَتَ، فإذا أمسك عنه تكلَّم](٢).

ونودُّ قبل أنْ نعرض ـ هنا ـ بعض الأقوال عنه، أنْ نُشير لِمَا حدَّث به هو نفسه، عنِ الرَّسول(ص)، حيث قال:

قال لِيَ النَّبيُ صلَّى ا لله عليه «وآله» وسلَّم:

مِمَّنْ أنتَ؟.

قلت مِنْ دوسٍ. قال:

ماكنتُ أرى أنَّ فيْ دوسٍ أحداً فيهِ خيرٌ(٣).

وهو لم يستثنِ أحداً... فأبو هريرة مِمَّنْ يشملهم هذا الحكم العامُّ الشَّامل...!

وهذه طائفةٌ مِنَ الأقوال حوله:

قال أبو جعفرِ الإسكافيُّ:

[وأبو هريرة مدخولٌ عند شيوخنا، غير مرضيِّ الرِّواية، ضربه عمرٌ بالدرَّة، وقال: قد أكثرتَ الرِّواية! وأحرِ بك أنْ تكون كاذباً على رسول ا لله(ص)!](٤).

ومرَّةً أُخرى يقول له عمرٌ، أيضاً:

---

(١) ـ المصدر ٣٥٩: ١ ـ وقد نقلنا الحديث كاملاً، عند حديثنا "على العتبة".

(٢) ـ سِير أعلام النُّبلاء ٤٤٢: ٢ .

(٣) ـ سِير أعلام النُّبلاء ٤٢٥: ٢ .

(٤) ـ النَّهج ٣٦٠: ١ .

[لَتترُكنَّ الحديث عن رسول الله، أو لألحقنَّك بأرض دَوسٍ][(١)]. ـ وهي، مِنَ اليمن، وطنه في جاهليَّته.

فماذا نقول في عمر؟.

فهل هو له ظالمٌ، حين ضربه، أو هدَّده بالنَّفي؟!.

أمَّا أنا فأستغفر الله أنْ أظنَّ بالخليفة شيئاً مِنْ هذا النَّوع...!

ولكنه ـ وهو الصَّليب الشَّديد ـ لم يرضَ ضميره: أنْ يجد هذه الكثرة مِنَ الأحاديث، عند أبي هريرةٍ، عنِ الرَّسول، وقد عرِف فيها ماهو المنحول!، فأدمى ظهره بدرَّته ـ مرَّةً ـ وهدَّده بالنَّفي ـ أخرى ـ لعلَّه يُقلع عنِ الخلْق!.

وما هذه هي المرَّة الأُولى، التي يُدمي فيها الفاروقُ، ظهرَ أبي هريرة، بدرَّته...!.

فقد أتى به مِنَ البحرين[(٢)] وكان قد ولاَّه عليها، فقال له ـ كما حدَّث بذلك أبو هريرة ذاته:

يا عدوَّ الله وعدوَّ كتابه!. سرقتَ مال الله؟! ـ إلى آخر الحادثة[(٣)].

هذا ... ونحن نجده قد أكثر، وهو على عهد الخليفة عمر، وعمر هو الشَّديد الذي لاتأخذه ـ في موضوعٍ كهذا ـ هوادةٌ أو لينٌ... ويعرف منه ذلك أبو هريرة، فهو يهابه ويخشاه...

لذلك... نجده ـ بعد عهد عمر ـ يُجيب أبا سلمة، وقد قال: أكنت تُحدِّث في زمن عمر هكذا؟، فقال:

---

(١) ـ سِير أعلام النُّبلاء ٤٣٤: ٢، والغدير ٢٩٥: ٦ .

(٢) ـ البحرين ـ في معناها القديم ـ تعني: السَّاحل، الممتدَّ مِنَ البصرة؛ إلى عمان. ويضمُّ ـ حينذاك، في ما يضمُّ ـ القطيفَ، التي اختصَّت بالخَطِّ ـ بفتحٍ وكسر الخاء؛ وأُوالَ، التي اختصَّت بالبحرين، والأحساءَ، التي اختصَّت بهَجَر، وكلٌّ منها تضم مدناً وقرىً كثيرةً.

كما أنَّ الخطَّ، وهَجَرَ، كانتا تعنيان، في القديم، أيضاً، ماتعنيه كلمة البحرين.

فهي أسماءٌ ثلاثةٌ، لمسمّىً واحدٍ، قبل أنْ تختصَّ كلٌّ ـ بعدئذٍ ـ باسمٍ مِنَ الثَّلاثة الأسماء.

(٣) ـ ارجع للحادثة إلى: النَّهج ١٠٤: ٣، وفتوح البلدان ١١٢ ـ ١١٤، وسِير أعلام النُّبلاء ٤٤٠: ٢، وإلى "أبو هريرة" ـ ص ١٥ ـ مسندةً لمصادرها، والغدير ٢٧١: ٦ .

(لو كنتُ أحدِّث في زمان عمر، مثل ما أحدِّثكم، لَضربني بمخفقته)(١).

ويقول:

[لقدْ حدَّثتكم بأحاديث، لو حدَّثتُ بها زمن عمر بن الخطّاب، لَضربني عمر بالدرَّة](٢).

ولكن هذا كلّه، لم يعصمه عنِ الخلْق والإكثار، مِنَ الحديث حتى استراب منه عمر، فنالت منه درَّته، ونال ظهره منها ما أدماه!.

فكيف به على عهد معاوية، وقد استماله إليه، وأعطاه "جُعْلاً" يُرغب في مثله، وليس إلاَّ مِنْ أجل الخلْق والوضع...؟!

* *

وعن إبراهيم التَّميميِّ، قال:

[كانوا لا يأْخذون عن أبي هريرة، إلاَّ ما كان مِنْ ذكْر جنَّةٍ، أو نارٍ](٣).

وهذا الحديث ـ والحمد لله! ـ ليس مِنْ هذا، ولا ذاك...

على أنَّ الذي لايُؤخذ منه شيءٌ في ناحيةٍ ـ لانعدام الثِّقة منه! ـ كيف يُطمأنُّ إليه، في ناحيةٍ ثانيةٍ، لم يُعرف نصيبها منه...؟!(٤).

---

(١) ـ الغدير ٢٩٥: ٦ .

وفي سير أعلام النُّبلاء ٤٣٣، ٤٣٤: ٢ : مايُماثله.

(٢) ـ الغدير ٢٩٥: ٦ .

وفي سِير أعلام النُّبلاء ٤٣٣، ٤٣٤: ٢ : ما يماثله.

(٣) ـ النَّهج ٣٦٠: ١ ، وسِير أعلام النبلاء ٤٣٨: ٢ .

(٤) ـ أمَّا أحاديثه، التي مِنْ غير ذاك النَّوع، فنحن نضـرب منهـا مثـلاً، لِنصل منه إلى دخلة الرَّجل، فقد حدَّث ـ كما قال الشَّافعيُّ، في ما رواه الطَّبريُّ:

[رأيتُ هنداً بمكَّة، كأنَّ وجهها فلقة قمرٍ، وخلْفها مِنْ عجيزتها مثل الرَّجل الجالسِ، ومعها صبيٌّ يلعب] ـ إلخ ـ معاوية في الميزان ص١٥٩.

فماذا دَفَعَ به، لِيصف لنا بهاء وجهها وجماله، وكِبرَ عجيزتها الضَّخمة العالية، وهو في معرض الحديث عن مستقبل معاوية، وماكانوا يرون فيه، مِنْ أنه سيسود قومه، فتقول أمُّه هند: إنْ لم يسُد إلاَّ قومه، فأماته الله؟!

ـ أنا لا أدري؟!!!

وقال شعبة: كان أبو هريرة يُدلّس(١).

وليس يهمُّنا ما حاول أنْ يعلّق به الذّهبيُّ ـ بعد هذا ـ حتى جاء بفرية "عدالة الصَّحابة" أجمعين، أكتعين، أبصعين...!!!

وعن الأعمش، قال:

[كانَ إبراهيم صحيح الحديث؛ فكنتُ إذا سمعتُ الحديث، أتيتهُ، فعرضتُه عليه، فأتيتُه يوماً بأحاديث منْ حديث أبي صالحٍ، عن أبي هريرة، فقال:

دعني مِنْ أبي هريرة!؛ إنّهم يتركون كثيراً مِنْ حديثه](٢)

* *

ورُوي عن الإمام عليٍّ، "عليه السَّلام"، أنه قال: ألاَ إنَّ أكذب النّاس ـ أو قال: أكذب الأحياء ـ على رسول ا لله(ص): أبو هريرة الدَّوسيُّ(٣).

فما عسى أنْ تقول؟.

فقولة الإمام هذه، هي: المدية التي تُجهز على كلِّ فريةٍ، يفتريها الرَّجل، أو افتئاتٍ ينتحله!.

فهل نُكذّب الإمام في قوله، لِنُصدِّق أبا هريرة؟، أم نُصدِّق الإمام، في ما قال، وفيه القضاء على ما يفتئت أبو هريرة؟!.

* *

وَرَوَى أبو يوسف، قال:

قلتُ لأبي حنيفة: الخبر يجيء عن رسول ا لله(ص)، يُخالف قياسنا، ما نصنع به؟

قال: إذا جاءت به الرُّواة الثّقاة، عملنا به، وتركنا الرَّأي.

وطال بهما الحديث، حتى قال أبو حنيفة: والصَّحابة كلُّهم عدولٌ!، ما عدا رجالاً ـ ثم عدَّ منهم: أبا هريرة، وغيره(٤).

* *

---

(١) ـ سِير أعلام النُّبلاء ٤٣٧: ٢ .

(٢) ـ النَّهج ٣٦٠: ١ . وفي سِير أعلام النُّبلاء ٤٣٨: ٢، مثله.

(٣) ـ النَّهج ٣٦٠: ١ .

(٤) ـ النَّهج ٣٦٠: ١ .

وذكروا أنَّ أبا هريرة، وَقَدْ قَدِمَ الكوفة، في ركاب معاوية، كان يجلس بالعشيَّات، بباب كندة، ويجلس النَّاس إليه: فجاءه شابٌ مِنَ الكوفة ـ قيل: إنه الأُصبغ بن نباتة(١) ـ وَجَلَسَ في مَنْ جَلَسَ إليه، فقال له:

ـ يا أبا هريرة! أنشدك ا لله! أسمعت منْ رسول ا لله"ص"، يقول لعليّ بن أبي طالب:

اللّهُمّ وَالِ مَنْ والاهُ، وعَادِ مَنْ عاداهُ؟.

فقال: اللّهمَّ نعم!.

قال: فأشهد با لله! لَقَدْ واليتَ عدوَّه، وعاديتَ وليَّه!.

ثم انصرف عنه(٢).

* *

ودخل أبو الأُصبغ بن نباتة التَّميميُّ، وهو يحمل كتاباً مِنَ الإمام عليٍّ "عليه السلام"، إلى معاوية. وإذ دَخَلَ، وهو محاطٌ برجال السُّوء، وفيهم: عمرو بن العاص، وذو الكلاع، وحوشَب، وابن عامر، والوليد بن عقبة، وشرحبيل، وأبو هريرة، وأبو الدرداء، وغيرهم.

إذ دَخَلَ... ودار الحديث، بين: أبي الأُصبغ،ومعاوية، وأخشن لمعاوية في القول... التفت لأبي هريرة، وهو يقول له:

أنت صاحب رسول ا لله(ص): أقسم عليك با لله، الذي لاَ إله إلا هو، وبحق رسوله! هل سمعتَ رسول ا لله(ص)، يقول يوم غَدير خمٍّ، في حقِّ أمير المؤْمنين:

مَنْ كنتُ مولاهُ، فعليٌّ مولاه؟.

فأجابه: إيْ وا لله! لَقَدْ سمعتُه يقول ذلك!.

فقال له أبو الأُصبغ: فإذن أنتَ ـ يا أبا هريرة! ـ واليتَ عدوَّه، وعاديت وليَّه!.

---

(١) ـ أبو هريرة ٣٩ .

(٢) ـ النَّهج ٣٦٠: ١، وأبو هريرة ٣٩، والغدير ٢٠٤: ١ .

ولم يزدْ أبو هريرة؛ على أنْ تَنَفّسَ، وقال:

إنّا للهِ، وإنّا إليه راجعون!(١).

* *

وهذا جارية بن قُدامة السَّعديُّ، يدخل المدينة، بعد أعمال بسر الشَّنيعة فيها، بأمر معاوية الطّاغية، وقَدْ قام بالصلاة فيها أبو هريرة، فَهَرَبَ هذا خوفاً وفَرَقاً، حين ما وصل لسمعه قدوم جارية، في جيشٍ موفَدٍ، مِنْ قِبَلِ الإمام عليٍّ "عليه السلام"، فقال جارية:

وا للهِ لو أخذت أبا سنّور، لضربتُ عنقَه!(٢).

* *

وقالوا: إنَّ أبا هريرة كان يُسبِّح، كلَّ يومٍ، اثني عشر ألف تسبيحةٍ، يقول: أُسبِّح بقدَر ذنبي(٣).

ونحن لانُريد نقاش صحَّة هذا، أو معقولّيته!، وكيف يتّسع وقته للإكثارِ مِنَ التّسبيح ـ الذي يُعادل الذّنب الكثير ـ والإكثارِ مِنَ الحديث، مع فقره وجوعه ـ في بدء حياته الإسلاميَّة ـ وانشغاله بمسايرة معاوية، ومَنْ إليه ـ في ختامها...

إنّنا ندع هذا، ولانُعلّق عليه.

وإنّنا نُشير إلى قوله: بأنَّ تسبيحه بقدر ذنوبه...! فيا هول هذه الذُّنوب...!! وترك الذّنب خيرٌ مِنَ الاستغفار!.

وهناك مَنْ جاء ـ أخيراً ـ يدعو للذّنب، بصورةٍ مستورةٍ، إلاّ أنها شوهاء، تستند على حديثٍ مكذوبٍ منكرٍ... ومَنْ يدري، فلعلَّ واضعه هذا المسبِّح بقدَر ذنبه!.

[والذي نفسي بيدِهِ!، لو لم تُذنبوا لَذَهَبَ الله بكُمْ، وجاءَ بقومٍ يُذنبونَ، فيستغفرونَ، فيُغفرُ لهمْ].

---

(١) ـ تذكرة الخواص ٩١ و٩٢، والغدير ٢٠٢، ٢٠٣: ١ عنِ الأُصبغ، في بعض الاختلاف.

(٢) ـ الطّبريُّ ١٠٧: ٤ ، والكامل في التّأريخ ١٩٣: ٣ .

(٣) ـ سِير أعلام النّبلاء ٤٣٩: ٢ .

ونُشير إلى أنَّ في طليعة هـؤلاءِ المدافعين عـن صحَّة مثل هـذا الحديث: مثـل الأُستاذ خالد محمَّد خالد، في بعض كُتبه.

ولسنا في صدد نقاشه فيها، إلاَّ أنَّها إشارةٌ مِنَ الشَّاطيء، دعا إليها الموضوع.

* *

وكان أبو هريرة ضنك التَّفكير، ضحل العقل فَقَدِ استخفَّته الدَّرجـة، الـتي نالها عند معاوية... فرأى نفسه ظاهراً بعد خفاء؛ معروفاً بعدمـا كـان مغمـوراً؛ مقرَّبـاً بعـد أنْ كـانت تنـال منـه الـدرَّة العمريَّـة، متـى رأى فيـه الخليفـة عمـر اعوجاجاً، يحتاج إلى تقويمٍ..!

لذلك نجده ـ تارةً ـ يُؤاكل الصبيان، ويلعب معهم(١).

ولاندري! فلعلَّه يأتي لهم، بأحاديث عـنِ الرَّسـول. في لعبهـم هـذا، لِيُـبرِّر بهـا موقفه منهم!. ولاسيَّما بعد أنْ كثرت أحاديث الدِّعاية التِّجاريَّة، علـى لسـان تجَّـار الحديث الزَّائف، كحديث:

[مِنْ أكلَ مِنْ بصل عكَّةَ، فكأنَّما قَدْ زار مكَّة]!.

ـ إلى آخر ما هنالِك مِنْ مثل هذه الأحاديث...

ومــرَّةً أُخــرى: يخطــب في المدينــةَ بعــد أنْ ولاَّه إيَّاهــا معاويــة(٢)،

---

(١) ـ النَّهج ٣٦٠: ١ .

(٢) ـ ليست توليته المدينة هذه، بأوَّل مرَّة.

فَقَدْ سَبَقَ أنْ أمَّره عليها بسر بن أرطاة، يوم بعثه معاوية، لِيشنَّ الغارات، في خلافة الإمام عليٍّ "عليه السلام".

فكان للمدينة منه: يومٌ مسودُّ الجبين، سالت فيه الدِّماء، وأُهدرتِ الكرامات، وانحطَّتِ القِيم.

وفي هذا اليوم الفاحم، غُرست بذرةٌ مرَّةُ المـذاق، كـان مِـنْ ثمارهـا "يـوم الحـرَّة". ويزيـد مِـنْ معاوية: ثمرةٌ شجيَّة الطَّعم، مِنْ ثمار معاوية الخبيثة.

وبعد فعْل بسر الشَّنيع، قال لهم: (وَقَدِ استخلفتُ عليكم أبا هريرة، فإيَّاكم وخلافه).

أنظر شرح النَّهج ١١٨: ١، وأبو هريرة ٢٥، والغدير ٢٤: ١١.

وإليها أُشير في :تأريخ الطَّبريِّ ١٠٧: ٤،والكامل ١٩٣: ٣، في أحداث سنة ٤٠

جزاءً لِمَا شهِد به على عليٍّ، بما أحدث بعد الرّسول، مّما يستوجب لعنه، مِنَ: الله والملائكة، والنّاس أجمعين!!!.

عفوك! يا ربٍّ!.

أقول: إنه كان يخطب في المدينة، فكان يقول:

الحمدُ لله الذي جعل الدِّين قياماً، وأبا هريرة إماماً ـ

يُضحك بذلك الناس[1]، بدلاً مِنْ أنْ تتناول خطبته شتّى النّواحي، التي تعود على المجتمع بالخير، والأمَّة بالنّفع، بما أنه أميرهمُ الكريم، وخطيبهمُ المصقع!.

وثالثةً: ـ يمشي وهو الأمير أيضا؟ ـ في السُّوق، حتى إذا انتهى إلى رجلٍ، يمشي أمامه، ضرب برجليه الأرض، وقال:

الطّريقَ! الطّريقَ! قَدْ جاء الأمير![2].

* *

ويقول ابن أبي الحديد ـ بعد عرضه لهذه النُّقاط، مِنْ حياة أبي هريرة:

(قَدْ ذَكَرَ ابن قتيبة هذا كلّه، في كتاب المعارف، في ترجمة أبي هريرة. وقوله فيه حجَّةٌ، لأنه غير متّهمٍ عليه)[3].

* *

وأبو هريرة ـ هذا ـ كانَ قَدِ انحاز إلى معاوية، منذ عَرَفَ: أنَّ عند معاوية مايُشبع نهمه الصيَّاح. فكان لمعاوية ذلك الظّلّ الملازم، ينحني إذا انحنى، ويعوجُّ إذا اعوجَّ...!

(١) ـ النَّهج ٣٦٠: ١، وسِير أعلام النُّبلاء ٤٤٠: ٢ .

(٢) و (٣) ـ النهج ٣٦٠: ١ .

حمّل معاويةُ النّعمانَ بن بشيرٍ: رسالةً إلى عليٍّ - أشرك فيها أبا هريرة[1] - لِيُسلّم عليٌّ لمعاوية: قتلَةَ عثمان - ومعاوية بموقف عليٍّ، مِنْ هذه الطلبة الكاذبة، ذلك العليم... وما هي سوى الواسطة، لِمَا يُبيِّت مِنْ سوء النِّيَّة، فاختار هذين، لِيحملا رسالته، ويعودا، وهما لعليٍّ لائمان، وله عاذران، فينالا مِنْ عليٍّ أمام الطغام الشّاميِّين...!

وإذ وَصَلَ الرّسولان لعليٍّ: بدأ الكلامَ أبو هريرة، فقال قولته... وثنّى به النُّعمان بن بشير...

---

(١) - بعض المصادر تُشير إلى: أنَّ رفيق أبي هريرة، كان أبا الدَّرداء. ولعلَّ هذه الحادثة قَدْ تكرَّرت، فصحب أبو هريرة النُّعمان - مرَّةً - وأبا الدَّرداء - أخرى.

وتقول بعض المصادر: إنَّ الصَّحابي الفقيه عبد الرَّحمن بن غنم، عاتب أبا هريرة وأبا الدَّرداء، بِحِمص، بعد منصرفهما مِنْ عليٍّ "عليه السلام"، رسولين له مِنْ معاوية، فكان مِنْ قوله لهما:

[عجباً منكما! كيف جاز عليكما ما جئتما به، تدعوان عليّاً إلى: أنْ يجعلها شورى!، وَقَدْ علمتما أنّه قَدْ بايعه المهاجرون والأنصار، وأهل الحجاز والعراق، وأنَّ مَنْ رضيَه خيرٌ مِمَّنْ كرهه، ومَنْ بايعه خيرٌ مِمَّن لم يبايعه؟!.

وأيُّ مدخلٍ لمعاوية في الشُّورى: وهو مِنَ الطُّلقاء، الذين لاتجوز لهمُ الخلافة، وهو وأبوه مِنْ رؤوس الأحزاب].

فندما على مسيرهما،وتابا منه، بين يديه.

الاستيعاب ٤١٧: ٢ ، والغدير ٣١ و٣٣١: ١٠ مسنداً للاستيعاب وأُسد الغابة ٣١٨ : ٣.

ونحن لانُريد أنْ نُناقش في هذه التّوبة: أصحيحٌ وقوعها؟ أم وهمٌ وخيالٌ خلاقٌ؟!.

ولكن نتساءل عمَّا وَقَعَ بين: التَّوبةَ والحوبة، مِنْ اخطاء وآثام، أقلُّها الإنسياق في ركاب معاوية، وتسخيره له ــ والمقصود هنا: أبو هريرة ــ وطاعة هذا له، في جميع رغائبه وشهواته الجامحة...

إنَّ أقلَّ إرضاء لهذه الشّهوات، هي: هذه الرَّحلات المتتابعة، يقوم بها أبو هريرة، طالباً مِنْ عليٍّ هذا الطَّلبَ الأثيم المخزي: تسليم قتلة عثمان، كمقدِّمةٍ للنّتيجة، التي هي: زحزحته عن منصبه الإلهيِّ: الخلافة...

وهي: هذه الأحاديث المختلقة، يتنقّص بها عليّاً؛ ومِنْ تمامها: تنقُّص ابيه!.

أمَّا أبو الدَّرداء، فَمَا لَنَا وَلَهُ - هنا - مِنْ مجال الحديث، إلاّ أنَّنا نتذكَّر قولته:

[إني لأستجمُّ نفسي بالشَّيء مِنَ الباطل، لِيَكون أقوى لها على الحق].

الكامل للمبرد ٦٦٨: ٢ .

فاعرض الإمام عن أبي هريرة، ووجَّه الحديثَ للنُّعمان، فَنَصَحَهُ في دِينـه، دون أنْ يتناول كلام الإمام: ردّاً، أو تعريضاً لتلك النّاحية، التي قال عنها أبو هريرة، مـا قال...

وقنع النعمان ـ ظاهراً ـ بالبقاء مع الإمام، وَقَدْ بطن الغدرة، لِيعود لصاحبه...!

أمّا أبو هريرة، فكان أصرح مِـنَ النُّعمـان ـ في هـذه الحادثـة ـ فَقَدْ استحثّته الغاية، وما للبقاء مِنْ حاجةٍ ، والغاية التي جاء مِنْ أجلها، لاتتمُّ، حتى يعود لمعاويـة، ويُخبر أهل الشام، بما رأى، وماسمع...(١).

وإنِ احتاج للزيادة، فلديه ـ مِنْ "أجربته الخمسة" ـ مايكفي، ويأْتي بالغاية...!

ونحن لم نزد عليه، بقولنا: "أجربته الخمسة"؛ فَقَدْ حَدَّثَ هو نفسه:

[حفظتُ مِنْ رسول الله خمسة جُربٍ، فأخرجتُ منهـا جُرابـين؛ ولـو أخرجـتُ الثّالث، لَرجمتموني بالحجارة](٢).

ولعلّه لِمَا أخرج مِنْ هذين الجرابين، قال:[كُذّبتُ، حتى رُميتُ بالقشع] ـ أيْ: كناسة الحمّام(٣).

ولو أخرج الثالث، لرُجم بالحجارة. ولو حدَّثتكم بكلِّ ما في كيسي لَرميتموني بالبعر(٤).

---

(١) ـ النّهج ٢١٣: ١، وأبو هريرة ٢٢، ٢٣ ـ فَلْيرجع لها مَنْ ارادها بالتّفصيل. غير أنّنا ننقل قولة مؤلّف "أبو هريرة"، سماحة الإمام، تعليقاً على الحادثة:

[وإنما أعرض أمير المؤمنين عن أبي هريرة، فلم يُكلّمه، لكونه لم يَره أهلاً...! لتزلّفـه بدِينـه إلى معاوية. وعلم أمير المؤمنين ما اراده معاوية، مِنْ المكائد؛ إذ أرسلهما إليه، يطلبان قتلَـة عثمـان، فلـم يُجبهما بشيءٍ... سلباً ولا إيجاباً، بل أعرض عن طلبهما، وتكلّـم مـع النُّعمـان، في موضـوعٍ آخـر. وهذا مِنْ قوّته في سياستهِ عليه السّلام].

(٢) ـ أبو هريرة ٤٨، مسنداً لحلية أبي نعيم ص ٣٨١ . وفي سِير أعـلام النُّبلاء ٤٢٩، ٤٣٠ و ٤٤٢: ٢ صورٌ مِنْ هذه.

(٣) ـ الكامل للمبرد ١٢٤١: ٣ .

(٤) ـ سِير أعلام النُّبلاء ٤٤٢: ٢ .

فكيف به لو أخرج الرَّابع والخامس..؟!

ولعلّه أشار لذلك بقوله:

[خفظتُ مِنْ رسول ا لله صلّى ا لله عليه "وآله" وسلّم وعاءين: فأمَّا أحدهما فبثثه؛ وأمَّا الآخر، فلو بثثته لَقُطِع هذا البلعوم](١).

وَقَدْ تَفَنّنَ في عرضه لهذه النُّقطة، التي تجعل مِنَ الأحاديث، شيئاً مادياً، تُوضع في: الجرب، والأوعية، والرِّداء، والنّمِرة(٢)، حين يفرشها، والقمل يدبُّ عليها، فيملؤُها حديثاً، ويضُّمها إليه، مع ما كان يدبُّ عليها مِنَ القمل(٣)...!

ولانرى حاجةً للمضيِّ، في عرض ذلك، فنُضاعف السَّير، ونُضخّم الصَّفحات(٤).

* *

ونحن لانُريد أنْ نُطيل هذا العرض، عن أبي هريرة، مِنْ جميع نواحيه، فَقَدْ قام بذلك سماحة الإمام الموسويِّ، في كتابه الفذّ "أبو هريرة"، بحيث لم يبقَ للقوس منزعٌ ـ كما يقولون.

فهناك عَرَضَ لنواحي حياته، وَتَنَاوَلَ بالتّحليل أكثر جوانبها...وَخَصَّ بالنّقاش أربعين حديثاً، كانت مفضوحة الإفتراء، تنال الخالقَ العظيمَ مِنْ ناحيةٍ ـ ورُسلَه الذين اصطفى ـ في الجانب الآخر ـ والنيلَ مِنْ أولياء ا لله إلخ.

وكان مِنْ بين هذه الأربعين المكذوبة: هذا الحديث، الذين عرضنا له.

إذن.. فنحن لانقبل هذا الحديث، مِنْ أبي هريرة، مِنْ نواحٍ وفيرةِ العدد ـ كما قلتُ.

فأبو هريرة، ليس مِمَّنْ يُرتضى في حديثٍ، بعدما رأيتَ مِنْ أقوال أهل الحديث، ومِنْ كثرة أحاديثه، ونُكرها...

---

(١) ـ سِير أعلام النُّبلاء ٤٣٠: ٢ .

(٢) ـ النَّمِرة: شملةٌ، فيها: خطوطٌ بيضٌ وسودٌ.

(٣) ـ سِير أعلام النُّبلاء ٤٢٩: ٢ .

(٤) ـ ارجع لـ "أبو هريرة" ولِسير أعلام النبلاء.

ولانرضى منه هذا الحديث ـ بخاصَّةٍ ـ مادام هو ذلك المنحرف عن إمام المتّقين عليٍّ "عليه السَّلام"... يضع في حقّه الأراجيف، وينال مِنْ قداسته، السَّامقة الذُّرى...

فكيف يرعوي مَنْ يقول: إنَّ علياً، أحدث بعد الرَّسول ـ مايستوجب به اللّعن ـ أنْ يضع في أبيه، مثل هذا الحديث المكذوب...؟!

* *

وأنت ترى صيغة الحديث، الذي أتى به أبو هريرة، يدلُّ على أنه شاهَدَ احتضارَ أبي طالبٍ...فهو يُحدِّث بحديثٍ، شهدته عيناه، فكأنه حضر أبا طالبٍ، والرَّسول عنده، فَعَرَضَ عليه الرَّسولُ الشَّهادةَ، فأباها شيخ البطحاء، ونزلت الآية في حقّه...!

ألا ترى الحديث: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله لعمِّه: قلْ لا إله إلاَّ الله... قال: لولا أنْ تعيِّرني قريشٌ ـ إلخ؟!

ولكن أبا هريرة كان ـ يوم اختار الله لأبي طالبٍ، دارَه الباقية ـ كان حينذاك، في اليمن، وهي مسقط رأسه، وبعدُ لم تقع عينه على شبح الرَّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم، ولم تتفتَّح عينه ـ ولا أقول: قلبه ـ على ضوء الرِّسالة الهادي...

فكيف جاز له: أنْ يُحدِّث بحديثٍ، لو قُدِّر له الوقوع، لكان قبل ثلاثة أعوام، مِنْ هِجرة الرَّسول(ص)... في حين أنَّ أبا هريرة، لم تطأ له قدمٌ، بأرض الإسلام، إلاَّ والرسول في خيبر(١) ـ أيْ: في العام السَّابع الهِجريِّ..؟!

فمقدمه بعد عشر سنين ـ على أقلِّ تقديرٍ ـ مَضَتْ على وفاة أبي طالبٍ...!

فَمِنْ أين حضر وفاة أبي طالبٍ، لِيُحدِّث بذلك الحديث...؟!

اللّهمَّ! إلاَّ أنْ يكون في عالَم الحلُم والخيال ـ وهو عالَمٌ غير محدودٍ ـ لا في عالم الواقع الرَّهين...!

---

(١) ـ الإصابة ٢٠٣: ٤، وسِيَر أعلام النُّبلاء ٦٤ و٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٣٦: ٢ .

نظرةٌ في آية ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾

أمَّا وَقَدْ عرضنا لمواضع الأخذ، في السَّند، ووضعنا النُّقَطَ على الحروف، عند النُّقاط المتداعية، وجوانب الضَّعف مِنَ السِّلسلة الكاذبة، وكشفنا عنها الخبيء...فإنه لَيجدر بنا ـ الآن ـ أنْ نتناول بنظرةٍ فاحصةٍ، ما يهدُّ مِنْ هذا الحديث أسَّه المنهار:

ـ ١ ـ

تدلُّنا رواية البخاريِّ، على أنَّ الآيتين، نزلتا عند احتضار أبي طالبٍ. ولكنَّا إذا رجعنا إلى نزول الآيتين، وجدنا أنَّ الآية الأوْلى منهما، مدنيَّةٌ.

فكلٌّ منَّا يعرف أين نزلت "براءة".. وذلك بعد أنْ رست دعائم الإسلام.

وقصَّة تبليغ براءة، يعرفها كلٌّ منَّا ـ وهي آخر مانزل مِنَ القرآن(١).

فهناك طويل أمدٍ، بين نزول الآيتين، يُقارب عشرة أعوامٍ، أو يربو عليها.

---

(١) ـ صحيح البخاريِّ ٧٧: ٣، والكشَّاف ٥٧٠: ١ (٢٤٦: ٢) ـ وتعليق شارح الكشَّاف، أيضاً ١٨٨: ٢ ـ وتفسير البيضاويِّ ٢٧٤: ٢، ومجمع البيان ٥: ١٠، وتفسير ابن كثيرِ ٣٣١: ٢، والاتقان ٢٧: ١ ـ عنِ البراء بن عازب.

وَقَدْ نقل ـ ص ٢٦: ١ ـ القولَ بأنه لم ينزل بعدها مِنَ القرآن، سوى خاتمته.

وَقَدِ استغرب في ص ١٥: ١: ١ قولَ "ابن الفرس": (مدنيَّةٌ إلاَّ آيتين" لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ" إلخ)، فقال: (غريبٌ...! كيف وَقَدْ وَرَدَ أنها آخر مانَزَلَ ؟!).

وفي الغدير ٨: ١٠، عن مصادر عدَّةٍ، ونقلاً عنِ: ابن أبي شيبة، والبخاريِّ والنَّسائيِّ، وابن الضريس، وابن المنذر، والنَّحَّاس، وأبي الشَّيخ، وابن مردويه، عن طريق البراء.

- ٢ -

بهذا يتضح أنَّ الآية الأولى "مَا كَانَ لِلنّبيّ" - إلخ - التي هي مِنْ سورة "براءة" كان نزولها بالمدينة، بعد الفتح. فبين وفاة أبي طالبٍ، ونزول هذه الآية،ماينوف على ثمانية أعوامٍ.

فمجرى الحديث، يدل على استمرار استغفار الرَّسول(ص)؛ لعمِّه ـ وهو كذلك ـ ولم ينقطع، طيلة هذه المدة عنِ الاستغفار.وذلك حسب ما نجده مِنَ القول، الذي قيل على لسان الرَّسول(ص):

"لأستغفرنَّ لك مالم أُنْهَ عنك".

فاستمرَّ الاستغفار، ولم ينقطع - عندهم - إلاَّ عند نزول هذه الآية:

﴿مَا كَانَ للنبيِّ﴾.

وهنا... نتساءل: كيف جاز للرَّسول أنْ يستغفر لعمِّه، في الفترة، التي بعد موته، حتى نزول هذه الآية - كما يُسلِّمون به - وكانت قَدْ نَزَلَتْ على الرَّسول آياتٌ زاجرةٌ، تنهاه والمؤمنين: أنْ يُوادُّوا المشركين؛ أن يستغفروا لهم؛ أو يُوالوا أعداء الله - قبل نزول هذه الآية، بأمدٍ طويلٍ، كا لآيات التي عرضنا لها، في فصلٍ سابقٍ، ونأتي بالبعض منها، هنا:

أ - ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ، يُوَادُّوْنَ مِنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوْا آباءَهُمْ﴾ - إلخ(١).

فهذه الآية مِنْ سورة المجادلة - نزلت بالمدينة، قبل سورة براءة - التي فيها آية

---

(١) - المجادلة ٢٢ .

الاستغفار ـ بسبع سورٍ(١). وقيل: إنها نزلت على الرَّسـول، يـوم بـدرٍ(٢) ـ أيْ: في العام الثَّاني مِنَ الهِجرة.

وقيل: إنها نزلت في أُحد(٣) ـ أيْ: في السَّنة الثَّالثة.

كما أنَّ هناكَ مَنْ قال: إنها، أو بعضها، مكيٌّ(٤).

وعلى جميع الأقوال هذه... فإنَّ نزول "المجادلـة" ـ بـدون شـكٍّ ـ قبـل نـزول "براءة" بسنين عدَّةٍ.

ب ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنَ المُؤْمِنِيْنَ؛ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيْناً؟!﴾(٥).

فهذه الآية مكيَّةٌ، على قول النَّحَّاس، كما قيل: إنها نزلت عند الهجرة(٦).

وَذَهَبَ أناسٌ على أنها مدنيَّةٌ.

ومستندُهم في ذلك: قول عائشة:"مانزلت سورة النّساء، إلاّ وأنا عنده(٧).

فيكون نزولها في أُوليات سني الهجرة(٨).

وعلى كلٍّ... فإنَّ سورة النساء، كان نزولها قبل سـورة "بـراءة" ـ وهـي ذات آية الاستغفار ـ بإحدى وعشرين سورةً(٩).

---

(١) ـ الغدير ١٠: ٨ عنِ الإتقان ١٧: ١؛ وَقَدْ وجدناه في نسختنا في ص ٢٦: ١، وَقَدْ ذُكـرَ بين نزول السُّورتين ستُّ سورٍ. وكذلك المنظومة التي أتى بها للبرهان الجعبري.

(٢) ـ الغدير ١٠: ٨، عن ابي حاتمٍ، والحاكم، وأبي نعيمٍ، والبيهقيِّ، وابن كثيرٍ ـ كمـا في: تفسيره ٣٢٩: ٤، وتفسير الشُّوكاني ١٨٩: ٥ .

(٣) ـ الغدير ١٠:٨ .

(٤) ـ أشار لذلك كثيرون مِنَ المفسِّرين.

(٥) ـ النِّساء ١٤٤.

(٦) ـ الإتقان ١٢: ١ .

(٧) ـ الإتقان ١٢: ١، وصحيح البخاريِّ ١٤١: ٣، والغدير ١١: ٨ .

(٨) ـ الغدير ١١: ٨ .

(٩) ـ الغدير ٨:١١ والإتقان ٢٦: ١، في منظومة البرهان الجعبري.

ج - ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟!﴾[١].

وَقَدْ رأيتَ: أنَّ سورة النساء، كان نزولها، قبل "براءة".

د ـ ﴿لاَ يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِيْ شَيْءٍ، إلاَّ أَنْ تَتَّقُوْا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[٢].

فهذه الآية في صدر آل عمران، وَقَدْ نَزَلَ صدرها، إلى بضعٍ وثمانين منها، يوم وفد نجران[٣] ـ وهي في أوائل الهِجرة[٤].

وذكروا: أنَّ هذه الآية، نزلت في يوم الأحزاب ـ وهو العام الخامس ـ في عبادة بن الصَّامت[٥].

وعلى كلا الرَّأيين... فآل عمران، نزلت قبل "براءة" بأربعٍ وعشرين سورةً[٦].

هـ ـ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ، اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ، أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ؛ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[٧].

وَقَدْ نَزَلَتِ السُّورة ـ التي فيها هذه الآية ـ في عام غزاة الرَّسول، لبني المصطلق، هو العام السَّادس للهجرة. ونزلت قبل سورة "براءة"[٨].

إلى بضع آياتٍ أُخر، كلُّها تنهى عنِ الموالاة للمشركين، والاستغفار لهم، والمودَّة لهم.

* *

---

(١) ـ النِّساء: ١٣٩.

(٢) ـ آل عمران: ٢٨ .

(٣) ـ السِّيرة الهشاميَّة ٢٢٥: ٢، وأسباب النُّزول ٤٣، وتفسير ابن كثيرٍ ٣٤٣: ١ .

(٤) و (٥) ـ الغدير ١١: ٨ .

(٦) ـ الغدير ١١: ٨، عنِ الإتقان ١٧: ١ . وقَدْ وجدنا ـ في ص ٢٦: ١، مِنَ الإتقان ـ أنه عدَّ بين السورتين خمس عشرة سورةً، وفي منظومة البرهان الجعبري، بينهما خمسٌ وعشرون.

(٧) ـ المنافقون: ٦ .

(٨) ـ الغدير ١١: ٨، عنِ الإتقان ١٧: ١ ـ أيْ: ص ٢٦ : ١، بنسختنا.

وأنت ـ كما رأيتَ ـ تجد الرَّسول: يُواصل استغفاره لعمِّه... وهذا غاية الموالاة والتَّوادد... وحتّى الحديث المكذوب، يدلُّ على تواصل استغفار الرَّسول لعمِّه، وأنه لم ينقطع، إلاّ عندما نزلت هذه الآية"النّاهية" ـ كما يقول الحديث.

فهل يجوز لنا ـ نحن المسلمين ـ أنْ ننسب للرَّسول عملاً؛ ينهاه عنه الذي أرسله بالحق؟!.

فهل يجوز مِنَ الرَّسول: أنْ يستغفر لعمِّه ـ لو كان ذلك المشرك ـ ولديه وفرةٌ مِنَ الآيات، وكلُّها ناهيةٌ زاجرةٌ... فلا يأبَهُ لها، ولايمتنع عَّما تنهاه، ولايُقلع عن عمله، إلاّ عندما هَمَسَ الوحي إليه، بهذه الآية، مِنْ سورة "التّوبة"؟!.

وكم ضمَّت هذه السُّورة، مِنْ آياتٍ، وتحمل مثل هذا الزَّجر والنّهي؟!.

ولكنَّ الرَّسول ـ وأستغفر الله! ـ لم يُطع ربَّه، إلاّ عند تلقّيه هذه الآية...؟!

ولانعلم على مَ نحمل سابق استغفاره لعمه، وفي كلِّ حينٍ يتنزَّل عليه الوحي، بقطْع كلِّ الصِّلات، بينه وبين المشركين...؟!

اللّهمَّ! إنَّ هذا لايجوز على رسول الهدى والرَّحمة!.

وليس هذا، سوى نيلٍ مِنْ قداسة الرَّسول، وتجاسرٍ على مقامه الأسمى. وأذىً له...!

اللّهم! إنّا نعوذ بك مِنْ أذى رسولك(ص) لئلاّ يحلَّ علينا غضبك وعذابك، والذي وعدتَ به مَنْ يُؤذي منه شعرةً ـ كما نصَّت على ذلك الآيات والأحاديث، الوفيرة العدد...؟

ـ ٣ ـ

إنّنا نبحث، فنجد رواياتٍ وأقوالاً، تنقض هذه الأحاديث، التي أتينا عليها، في وجه نزول الآية الكريمة.

وليس لنا، إلاّ أنْ نُوقف القارئ الكريم، على جانبٍ منها:

أ ـ عن الإمام عليٍّ "عليه السَّلام" قال:

سمعتُ رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان؛ فقلتُ: تستغفر لأبويك، وهما مشركان؟!.

فقال: أوَ لم يستغفر إبراهيم؟.

فذكرتُ ذلك للنبي(ص)، فنزلَتْ:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِيْنَ آمَنُوْا ـ إلى قوله تعالى: وَمَا كَانَ استِغْفَارُ إِبْرَاهِيْمَ لِلأَبِيْهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ، تَبرَّأَ مِنْهُ، إنَّ إِبْرَاهِيْمَ لأَوَاهٌ حَلِيْمٌ﴾(١).

وهذا يدلُّنا على أنَّ النَّهي عنِ الاستغفار للمشركين، معروفٌ بين المسلمين... وإلاَّ فلولا ذلك، لَمَا كان الإمام بالذي يعترض، على هذا المستغفر لأبويه، حيث ليس له أنْ يستنكر منه عملاً، لم يعرف فيه النَّهي!.

واستنكار عليٍّ لهذا المستغفر، لا يتَّفق واستغفار الرسول لعمِّه، مع الزَّعم بشركه...!

ولو كان كذلك لوجدنا جواب الرجل لعليٍّ، غير هذا الجواب، وَلَكِنَّا نراه: يحتجُّ على عليٍّ، باستغفار الرَّسول لعمِّه، تبريراً لعمله...!

ولكنَّه احتجَّ عليه باستغفار إبراهيم لأبيه، فنزلتِ الآية، لِتوضح الغاية مِنِ استغفار إبراهيم له: فهي: موعدةٌ وعدها إياه...

ولَّما رأى ذلك لم يُجْدِ معه، تبرَّأ منه.

---

(١) ـ براءة: ١١٣، ١١٤.

ارجع لهذا الصَّحيح للغدير ـ ١٢: ٨ ـ ففيه: [صحيحةٌ أخرجها الطَّيالسيُّ، وابن أبي شيبة، وأحمد، والتِّرمذيُّ، والنسائيُّ،وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشَّيخ، والحاكم ـ وصحَّحه ـ وابن مردويه، والبيهقيُّ في شُعَب الإيمان، والضِّياء في المختارة].

ولشيخ الأبطح ٦٧ ـ مخرجاً عن هؤلاء أيضاً ـ والإتقان ٣٤: ١ ـ عن التِّرمذيِّ حسناً ـ والأعيان ١٥٨: ٣٩، وأسباب النُّزول ١٢٧، وتفسير ابن كثير ٣٩٣: ٢ .

وذُكرت في الكشَّاف ٢٤٧: ٢ .

على أنَّ استغفار إبراهيم لأبيه[١]، وهو على وجه الحياة، يرجو منه الهداية والإيمان...

أمَّا استغفار الرَّسول لعمِّه، فهذا ما لايجوز بحالٍ، لو لم يكن أبو طالبٍ مؤمناً... لأنَّ الاستغفار والدُّعاء ـ بعد الموت ـ دليلٌ على الإيمان. وليس فيه ما يُحمل على طلب الهداية، والتّوجيه نحو الإقرار بالرِّسالة.

وَقَدْ قال زيني دحلان، حول مانقلناه عنِ الإمام عليٍّ" عليه السلام":

[هذه الرِّواية صحيحةٌ. وَقَدْ وجدنا لها شاهداً بروايةٍ صحيحةٍ، مِنْ حديث ابن عبَّاسٍ "رضي ا لله عنه"؛ قال:

كانوا يستغفرون لآبائهم، حتى نزلت هـذه الآيـة. فلّما نزلـت، أمسكوا عنِ الإستغفار لأمواتهم، ولم يُنْهَوْا أنْ يستغفروا للأحياء حتى يموتوا.

ثم أنزل ا لله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ـ الآية ــ يعني: استغفر له، ما دام حيَّاً، فلّما مات أمسك عن الإستغفار له.

قال: وهذا شاهدٌ صحيحٌ. فحيث كانت هذه الرِّواية، كان العمل بها أرجح. فالأرجح: أنها نزلت في استغفار أُناسٍ لآبائهمُ المشركين، لافي أبي طالبٍ][٢].

ب ـ قال المسلمون للرسول(ص). أَلا نستغفر لآبائنا، الذين ماتوا في الجاهلية؟.

فأنزل ا لله سبحانه هـذه الآيـة، وَبَيَّـنَ أنـه لاينبغي لنبيٍّ ولا مؤْمنٍ: أنْ يدعو لكافرٍ، ويستغفر له[٣].

ج ـ كان يقول المؤمنون: ألاَّ نستغفر لآبائنا، وَقَدِ استغفر إبراهيم لأبيه كافراً؟.

فأنزل ا لله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ـ الآية[٤].

---

(١) ــ ونشير إلى أنَّ هذا عمُّ إبراهيم الخليل (ع)، وأبوَّته له مجازيَّةٌ تربويَّةٌ. والعمُّ يسمى أباً ــ عند العرب.

(٢) ـ الغدير ٨: ١٣، عن أسنى المطالب ١٧ ـ وشيخ الأبطح ٦٧، عنه أيضاً.

(٣) ـ الأعيان ٣٩: ١٥٨، ومجمع البيان ١٠: ١٥٠ ، عن تفسير الحسن.ومثله ما في الأعيان ـ أيضاً ـ ٥٨، ٣٩: ١٩٥، عنِ ابن عباسٍ.

(٤) ـ الأعيان، وقريبٌ منه: ما في تفسير ابن كثير ٢: ٣٩٤، والكشَّاف ١: ٥٧٠ [٢: ٢٤٦].

د ـ إنَّ الرَّسول لَمَّا أقبل مِنْ غزوة تبوكٍ، اعتمر، فجاء قبر أُمِّه، فاستأذن ربَّه أنْ يستغفر لها، ودعا الله أنْ يأذن له في شفاعتها، يوم القيامة، فأبى أنْ يأذن، فنزلتِ الآية(١).

هـ ـ إنَّ الرَّسول لَمَّا قدم مكَّة، وَقَفَ على قبر أمِّه،حتى سخنت عليه الشَّمس، رجاء أنْ يُؤذن له، فيستغفر لها، حتّى نزلت، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(٢).

و ـ إنَّ الرسول(ص) أتى قبر أُمِّه فبكى، وأبكى مَنْ حوله. فقال(ص): أستأذنتُ ربِّي، في أنْ أستغفر لها، فلم يأذن لي... واستأذنته أنْ أزور قبرها، فأذن لي، فزوروا القبور، فإنَّها تذكرة الآخرة(٣).

وهذا الحديث، أُخرج عن أبي هريرة ـ أيضاً!.

وهو إلى ذلك ـ كما ترى ـ يُجيز: البكاء على الأموات، وزيارة القبور معاً؟؟؟ رغم أنَّ البعض ـ وهم مِمَّنْ يثق بأحاديث أبي هريرة ـ يُشنِّع على هاتين النُّقطتين، وعلى مَنْ يقول بهما...!

ز ـ إنَّ الرَّسول مرَّ بقبر أمِّه ـ عام الحُدَيْبِيَة ـ فاستأذن ربَّه، في أنْ يزور القبر، فأذِن له، فزاره، وأصلحه، ومَكَثَ عنده حيناً. ثم استأذن ربَّه، في أنْ يستغفر لأُمِّه، فأبى عليه، فانصرف عنِ القبر: باكياً، كئيباً، وبكى المسلمون لبكائه، واكتأب المسلمون لاكتئابه(٤).

---

(١) ـ الغدير ١٣: ٨ عنِ: الطَّبريِّ، والحاكم،وابن أبي حاتم، والبيهقيِّ ـ عن: ابن مسعودٌ وبريدة، والطَّبرانيِّ، وابن مردويه، والطَّبريِّ، مِنْ طريق عكرمة، عنِ ابن عبَّاسٍ.

(٢) ـ الغدير ١٣: ٨، عنِ الطبري في تفسيره ٣١ : ١ .

(٣) ـ صحيح مسلم ٦٥: ٣، والغدير ١٣: ٨، عن: مسلمٍ وأحمد ـ في مسنده ـ وأبي داؤود ـ في سننه ـ والنسائي، وابن ماجة، وقال: إنهم أخرجوها في سبب نزول آية الاستغفار.

وقريبٌ مِنْ هذا: ما في تفسير ابن كثير ٣٩٣: ٣، والسيرة النبوية ٧١: ١

(٤) ـ على هامش السِّيرة ١٩٣: ١ .

ح ـ عنِ ابن مسعودٍ: خَرَجَ رسول ا لله(ص) ـ يوماً ـ إلى المقابر، فَجَلَسَ إلى قبرٍ منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى، فبكيت لبكائه، فقال: إنَّ القبر، الذي جلستُ عنده قبر أُمِّي، وإني قدِ استأذنت ربِّي في الدُّعاء لها، فلم يأْذن لي، فأنزل ا لله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ(١).

ط ـ عن بريدة: كنتُ مع النبي(ص): إذ وَقَفَ على عسفان، فأبصر قبر أُمِّه، فتوضَّأ، وصلَّى، وبكى، ثم قال: إني استأذنتُ ربِّي أنْ أستغفر لها، فنُهيتُ، فأنزل ا لله: مَا كانَ لِلنَّبِيِّ(٢).

ي ـ وذكر الزمخشريُّ حديث نزولها في أبي طالبٍ، ثم قال:

[وقيل: لَمَّا افتتح مكة، سأل: أيُّ أبويه أحدثُ به عهداً، فقيل: أُمُّك آمنة، فزار قبرها بالأبواء. ثم قام مستعبراً، فقال: إني استأذنت ربِّي، في زيارة قبر أمِّي، فأذن لي، واستأذنتُه في الإستغفار لها، فلم يأْذن لي، فنزلت. وهذا أصحُّ، لأنَّ موت أبي طالبٍ،كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزل بالمدينة](٣).

ك ـ قال القسطلانيُّ: [قَدْ ثَبَتَ أنَّ النَّبيَّ(ص)، أتى قبر أمِّه، لَّما اعتمر، فاستأذن ربَّه أنْ يستغفر لها، فنزلت هذه الآية ـ رواه الحاكم، وابن أبي حاتم ـ عنِ ابن

---

(١) ـ أسباب النُّزول ١٢٧ ـ عنِ الحاكم، والبيهقيِّ، وغيرهما ـ وتفسير ابن كثير ٣٩٣: ٢، والسِّيرة النُّبويَّة ٧٢: ١، والإتقان ٣٤: ١، حيث استدلَّ به، بعدأنْ ذَكَرَ غيره، لجواز الحمل على تعدُّد النُّزول وتكراره!. إلاَّ أنَّ الأصل عدم التَّكرار!.

(٢) - أسباب النُّزول ١٢٧ ـ عن أحمد، وابن مردويه، وقال أيضاً:

[وأخرج الطَّبرانيُّ وابن مردويه نحوه، مِنْ حديث ابن عبَّاسٍ، وأنَّ ذلك بعد أنْ رَجَعَ مِنْ تبوك، وسافر إلى مكَّة معتمراً، فَهَبَطَ ثنية عسفان].

وأورد مثل هذا تفسير ابن كثير ٣٩٣، ٣٩٤: ٢، وعقَّب عليه:

[وهذا حديثٌ غريبٌ، وسياقٌ عجيبٌ].

(٣) ـ الكشَّاف ٥٧٠: ١ [٢٤٦:٢]. وقريبٌ منه: ما تفسير البيضاويِّ ٢٩٨: ٢.

مسعود ـ والطّبرانيُّ ـ عنِ ابنِ عبّاسٍ ـ وفي ذلك دلالةٌ على تأخرُّ نـزول الآيـة، عـن وفاة أبي طالبٍ، والأصل: عدم تكرار النُّزول](1).

ورأيُ القسطلانيِّ ـ هنا ـ يتعارض ورأي السَّيوطيِّ، في الإتقان، حيث حاول أنْ يجمع بين صحَّة الأحاديث المفتعلة، والتي ينال بعضُها أبا طـالبٍ، وبعضُهـا أمَّ الرسـول، فحملها على:جواز تعدُّد النُّزول، وتكراره... رغم أنَّ الأصل عدم التّعدُّد والتّكرار...

ل ـ إنْ رجالاً، مِنْ أصحاب الرَّسول(ص) قالوا: يـانبيَّ ا لله! إنَّ مِـنْ آبائنـا مَـنْ كان يُحسن الجوار، ويصل الرَّحم، ويفكُّ العاني، ويُوفي بالذّمم، أفلا نستغفر لهم؟. فقال النَّبيُّ(ص):

وا لله! لأستغفرنَّ لأبي، كما استغفر إبراهيم لأبيه، فأنزل ا لله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبيِّ﴾.

ثـم عـذر ا لله إبراهيـم "عليـه السـلام"، فقـال: ﴿وَمَـا كَـانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيْـمَ لأبيهِ﴾ ـ إلى قوله: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(2).

م ـ إنَّ النَّبيَّ أراد أنْ يستغفر لأبيه، فنهاه ا لله عن ذلك بقوله: مَا كَانَ لِلنَّبيِّ ـ الآية ـ قال: فإنَّ إبراهيم قَدِ استغفر لأبيه، فنزلت: وَمَا كَانَ اسْتِغْفارُ إبْرَاهِيْمَ ـ الآية(3).

ن ـ دَخَلَ النَّبيُّ مكَّة، عام الفتح، ظافراً منتصراً، وبينما هو في بعض مواضعهـا، رأى أصْل قبرٍ، فَعَطَفَ عليه، وأقام عنـده، واسـتأذن في الإسـتغفار لصـاحب القـبر، فلم يُؤْذن له، فانصرف محزوناً كئيباً، وبكى، فبكـى النّـاس، ومـا رأى النّـاس يومـاً باكياً، أكثر مِنْ ذلك اليوم(4).

---

(1) ـ الغدير ١٤: ٨، عن إرشـاد السَّـاري ٢٧٠: ٧ . وذُكـر مثـل هـذا الحديـث في السِّـيرة الحلبيَّة ١٢٦: ١.

(2) ـ الغدير ١٤: ٨، عـن تفسـير الطَّـبريِّ ١٣١: ١، مِـنْ طريـق قتـادة، وتفسـير ابـن كثـير ٣٩٤: ٢، عن قتادة أيضاً.

(3) ـ الغدير ١٤: ٨، عنِ الدُّرِّ المنثور ٢٨٣: ٣، مِنْ طريق عطيَّة.

(4) ـ على هامش السِّيرة ١٩٣: ١ .

وقريبٌ منه ما في تفسير ابن كثيرٍ ٣٩٣: ٢، لولا أنَّ هذا ذكر: أنَّ صاحبة القبر أمُّ الرَّسول (ص).

وَقَدْ علّق طه حسين، بعد هذا الحديث، بقوله:

[واختلط أمر هذا القبر على الرُّواة، فظنُّوه قبر أُمِّه، وقبر أمِّه في الأبواء. ومَنْ يدري، لعلّه قبر جدِّه الشيخ](١) - ويُريد به: عبد المطّلب...

ولا أدري ماقيمة "لعلَّ" - هنا - ونحن في موضع حسابٍ تأريخيٍّ، وحَدَثٍ له قيمتهُ المعنويَّة، في ميزان الأعمال، وقيم الرجال...!

وَقَدْ عرفنا طه حسين مشكّكاً، يُنكر ضوء الشَّمس الباهر، ببساطة قولة: لعلَّ الشَّمس غير طالعةٍ!.

أمَّا أنْ ينقلب تشكيكه - فجأةً - إلى خطٍّ معاكسٍ، وإلى حدٍّ إثبات المجهول، ووسمه بِمَنْ هو منه بريءٌ، فشيءٌ غريبٌ منه حقاً...!

وكان الأوْلى به - ولاسيَّما على مبدئه المشكّك - أنْ يطعن القضيَّة المزعومة مِنْ أصلها، فيُنكر أمر هذا القبر المختلِط، مِنْ أساسِهِ، لأنَّ الواقع، في جانبه، لو أنكر!.

وبمثل تلك البساطة، التي تُشعر بعدم المسؤُوليَّة، مِنْ خلاف الواقع، أتبع تلك القولة، بهذه الجملة، التي يُعوزها الدَّليل، وتنقصها البرهنة، ولم تنجُ مِنِ اختلاطٍ، مثلما رمى هو به المؤرِّخين:

[وَعرَضَ الإسلام على عمِّه وألحَّ عليه، وكاد الرجل أنْ يقبل، لولا حميَّة الجاهليَّة، فلَّما مات قال ابن أخيه: لأستغفرنَّ لك، فلامه القرآن في ذلك: لوماً عنيفاً "كذا؟!"](٢).

ونحن لا يهمُّنا كثيراً، ما حاول أنْ يصمَ به عمَّ الرَّسول وكافلَه، الذي «يحمي دِينَه مِنْ قريشٍ» - كما يقول طه حسين نفسه(٣) - ولكن الذي يهمُّنا هو هذا الاندفاع الجموح، بلا ريثٍ ولا تأنٍ، حتى جَعَلَ الرَّسول عرضةً للّوم العنيف، يُوجَّه عليه مِنَ القرآن الكريم - ولا ندري برأي طه حسين، حول القرآن، رأيه العقائدي حوله، بعد محاكمته على كتابة حول "الشِّعر الجاهليِّ"، حيث أعلن إيمانه بعد تلك المحاكمة.

---

(١) - على هامش السِّيرة ١٩٣: ١ .

(٢) - على هامش السِّيرة-١٩٣: ١.

(٣) - الفتنة الكبرى: ~ ان ص ١٥١، وَقَدْ ذكرناها، في ما مرّ مِنْ [ذكر عطر] - ص ٢٧٠.

وكيف يُلام الرَّسول، على عرْضه الإسلام على عمِّه، الذي حماه وحمى دِينه، فيُلام الرَّسول اللَّوم العنيف، على هذا العرض أو على الإلحاح في العرض؟!.

أليس مهمَّة الرِّسالة، هي هذا العرض، حتى مع الإلحاح؟!.

ثم الم يأمره القرآن ذاته بإنذار عشيرته الأقربين، في فجر الرِّسالة البِكر، قبل الإنذار العام...؟!

فكيف يلومه ـ بعد هذا ـ على تنفيذ ما يتلقَّى مِنْ أوامر...؟ فهلِ اختلط الأمران على القرآن، كما اختلط أمر ذلك القبر المزعوم، على المؤرِّخين، وراح الدَّكتور طه حسين يدلُّهم عليه..؟!

فما هو ـ عنده ـ سوى قبر عبد المطَّلب!.

وهو لايقف في تعريض الرسول لِلَوم القرآن العنيف، عند تلك القولة فقط؛ بل لايكتفي، حتى يضعه، مع عدد المسلمين، الذين يلومهم القرآن على عملٍ مخالفٍ:

[هل ترى أبلغ في تصوير العدل الصَّارم الحازم، الذي لايقبل هوادةً، ولايحتمل رفقاً، لأنه ليس موضع هوادةٍ ولارفقٍ، مِنْ هذه الآية الكريمة، التي يُلام فيها النَّبيُّ والمسلمون، حين استغفروا لِمَنْ لا مطمع له في المغفرة:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِيْنَ.. إلخ﴾ التوبة ١١٣](١).

وبهذا يبين لنا، كيف اختلط الحال على طه حسين، دونه اختلاط المؤرِّخين، الذي لم يزدْه إلاَّ اختلاطاً، على ذاك الاختلاط، ولم يخرج مِنْ عتمة الشَّكِّ، فالظَّنُّ يحوط به. والتقريب بـ "كاد"، و"لعلَّ" لايُغني عنِ الحقِّ شيئاً.

وَلَقَدْ قلنا: إنه لايهمُّنا كثيراً، ما حاول أنْ يصم به عمَّ الرسول، ونصير الإسلام، ذلك أنَّ هذا الكتاب، قَدْ وُضع مِنْ أجْل هذه التُّهم، يهدُّ منها الأسس الواهية، المبنيَّة على ترابٍ... وما هذه التُّهمة المتداعية، لايُسندها دليلٌ، ولايعضدها برهانٌ، سوى نقطةٍ ممحوَّةٍ، مِنْ بين حروف تلك السُّطور السُّود، التي وُضعت في حقِّ أبي طالبٍ.

---

(١) ـ على هامش السِّيرة ١٩٤: ١ .

س ـ قال الطبريُّ: قال آخرون: الاستغفار في هذا الموضوع، بمعنى الصَّلاة.

ثم أخرج مِنْ طريق المثّنى، عن عطاء بن ابي رباحٍ، قال: ماكنتُ أدَعُ الصَّلاة، على أحدٍ مِنْ أهل هذه القبلة، ولو كانت حبشيةً حبلى مِنَ الزنا، لأنّي لم أسمع الله يحجب الصَّلاة، إلاَّ عنِ المشركين، يقول الله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ـ الآية(١).

فأنتَ ترى: أنَّ هناك مَنْ يُفسِّر الاستغفار بصلاة الأموات. وَقَدْ مات أبو طالبٍ وخديجة، قبل أنْ تُسنَّ صلاة الأموات.

على أنَّ صلاة الأموات، قَدْ شُرعت عند موت المرء... فهل نهى الله رسولَه أنْ لايصلّي على عمِّه، وَقَدْ مضى على موته، ماينيف على العقد..؟!.

إذن... كيف يجتمع هذا الرَّأي، مع فرية تحريفها لأبي طالبٍ، أو أمِّ الرَّسول، أو أبيه.

ع ـ عن عليٍّ: أخبرتُ الرَّسول (ص) بموت أبي طالبٍ، فبكى، فقال: اذهب، فغسِّله، وكفِّنه، ووارِه، غفر الله له ورحمه. ففعلتُ. وَجَعَلَ الرَّسول يستغفر له أيَّاماً، ولايخرج مِنْ بيته، حتى نزل جبريل "عليه السَّلام" بهذه الآية: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ـ إلخ(٢).

فأنت ترى ـ هنا، على هذا الرأي، الذي صيغت نهايته، وفق الهوى السِّياسيِّ أنَّ نزول هذه الآية: كان في العام، الذي تُوفّي فيه أبو طالبٍ، على أكبر تقديرٍ، إنْ لم نقل: في الشَّهر، أوِ الأسبوع، الذي تُوفّي فيه، لوجود كلمة "أيَّاماً"؛ مع أنَّ نزول السُّورة، التي فيها آية الاستغفار، كان آخر مانزل مِنَ القرآن، وبعد وفاة أبي طالبٍ، بعشر سنين، في أقلِّ الصُّور!.

---

(١) ـ الغدير ١٤، ١٥: ٨ ، عن تفسير الطَّبريِّ ٣٣: ١١ .

(٢) ـ الغدير ١٥: ٨، عن طبقات ابن سعد ١٠٥: ١، والدُّرِّ المنثور ٢٨٢: ٣ عنِ ابني سعدوعساكر.

ف ـ لّما مات أبو طالبٍ، قال النبي(ص): إنَّ إبراهيم استغفر لأبيه،وهو مشركٌ، وأنا أستغفر لعمّي،حتى أبلغ، فأنزل ا لله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ـ إلخ ـ يعني به: أبا طالبٍ!، فاشتدَّ على النبي(ص)، فقال ا لله لنبيِّه: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيْمَ ـ إلخ[1].

وهنا... على هذا الحديث... نستبين أنَّ الآية، نزلت عند وفاة عمِّ الرَّسول، ونصيره(ص).

ص ـ لّما مات أبو طالبٍ، قال له رسول ا لله(ص):

رحمكَ ا لله، وغفر لك، لا أزال أستغفر لك، حتى ينهانيَ ا لله.

فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهمُ، الذين ماتوا، وهم مشركون، فأنزل ا لله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ[2].

* *

هذه ثمانية عشر، ممّا تُسمَّى بالأحاديث... وكلُّها رُويتْ سبباً في نزول هذه الآية.

ونحن لانُريد مناقشتها، ووضْعها تحت مطرقة النقد... ففيها ما لايمتُّ لموضوع الكتاب بصلةٍ، وإنْ كنّا لانقرُّ كلَّ مافيها، ولاندين بها كلّها.

ولكنّا سقناها، على أنَّ ثمّة: أقوالاً متعارضةً، وآراءً متناقضةً، في نزول هذه الآية ـ أوِ الأصحّ: في تحريف سبب نزولها...فهي ـ كما وجدتَها ـ يضرب بعضُها بعضاً، وتتباين في ما بينها...

وأوّل مايُلفت النظر، ويسترعي الانتباه، لينكشف قِصر نظر المحرِّف: أنَّ المحرِّف، يُسند لمثل عليٍّ وابن عباس، وغيرهما: القولين المختلفين، والرَّأيين المتناقضين، حول هاذه الآية ذاتها، في وقتٍ واحدٍ، بالإضافة إلى أنَّ ما أُسند لعليٍّ، أو لابن عباسٍ، حول أبي طالبٍ، بالذّات، يتناقض مع الثّابت عنهما، حوله.

---

(١) ـ الغدير ١٥: ٨، عن إسحاق بن بشر، وابن عساكر، في الدُّرِّ المنثور ٢٨٣: ٣ .

(٢) ـ الغدير ١٥: ٨، عنِ الدُّرِّ المنثور، أيضاً.

فما السَّبب في هذا التّناقض ...

وأيَّها نأخذ؟ وأيَّها ندع؟.

فتارةً: يُحرِّفونها لعمِّ الرَّسول!، وأُخرى: لأبيه! وثالثةَ: لأُمِّه!.

ولكنَّ الواقع يدلُّنا على أنَّ البلاء، قَدْ جاء أمَّ الرَّسول وأباه، مِنْ تحريف هذه الآية إليهما... جاءهما هذا البلاء، كرشحٍ، مّما وُجِّه لأبي طالبٍ، ليتمَّ لهم ماشاءُوا في حقِّ شيخ الأبطح!.

إلاَّ أنَّها قَدْ تتَّفق ـ على اختلاف وجهات نظرها، وتباين أهدافها ـ على شيءٍ واحدٍ، هو أنَّ الرَّسول ـ وعفوَه عني! ـ كان يستغفر لمشركين، نهاه الله عن: حبِّهم، وموالاتهم، والاستغفار لهم، في عديدٍ مِنَ المناسبات، ووفرٍ مِنَ الآيات، فما كان لِيُقلع عن عمله، ويدع استغفاره، لِمَنْ لم يرضَ الله له أنْ يستغفر لهم، حتى نزلت هذه الآية!!!.

فهي ـ في النّتيجة ـ تنحدر إلى وهدةٍ واحدةٍ، وتهدف لغايةٍ واحدةٍ، هي مسُّ قداسة الرَّسول، والتّعدي على حرمة الرِّسالة...!

وهي إلى ذلك: إيذاءٌ للرَّسول(ص)، سواءٌ كان عن طريق عمِّه، أو أبيه، أو أمِّه...!

وإلاَّ فإنَّ الواقع يُثبت إيمان آباء الرَّسول(ص)، وأمَّهاته،حتى تنتهيَ السِّلسلة إلى المؤْمنِ الأوَّل: آدم.

لذلك وَقَعَ الحلبيُّ في حيرةٍ، وَقَدْ ذَكَرَ بعض هذه الأحاديث المفتعلة، والمحرَّفة، ورأى أنْ لابدَّ مِنْ تصحيحها، فَبَذَلَ جهده في ذلك، فلم يرَ سبيلاً إلاَّ أنْ يُنحِّيَ النّار عن عبد الله، لأبي طالبٍ، لأنَّ مِنْ بين هذه الأحاديث المكذوبة:

أنَّ رجلاً، سأل الرَّسول: أين أبي؟ فقال له ـ وهو(ص)، لم يقل هذا قطعاً: إنَّ أبي وأباك في النّار [كذا؟!].(١)

---

(١) - السِّيرة الحلبيَّة ١:٦٠ -وذكر الحديث في صحيح مسلم ١:١٣٢.

وبعد سيرٍ رجراجٍ متعب، نال الحلبيُّ فيه مانال، بغيـة التوجيـه الصَّحيـح، لهـذا الحديث المكذوب ـ قال، وكأنه رأى نفسه قَـدْ وَصَـلَ لشـاطئ الأمـان، بتصحيحـه الحديث، فالرَّسول لم يعنِ سوى عمِّه، بقوله: "أبي"(١).

وهكذا يُنجِّي الحلبيُّ مَنْ شاء، مِنَ النَّار، لِيُطعمها مَنْ يشاء...!

ولابدَّ أنْ نُشير إلى أنَّ هذه الأخبار، أقلُّ ما يُقال عنهـا: إنَّهـا متعارضـةٌ.وكفـى بهذا التَّعارض مسقطاً لها عن درجة التَّوثيق، أوِ الاعتبار!.

وهـذا التَّعـارض، نجـده، حتـى في بعـض الأحـاديث المنحرفـة، ضـدَّ الشَّـخص الواحد، فبعضها، وإنِ اتَّفق في التَّحريف، لأبـي طـالبٍ، أو آمنـة، أو عبـد ا لله، إلاَّ أنها ذاتها متناقضة في نفسها.

ونظرةٌ يُلقيها القارئُ عليها، يجد ذلك بأوضح مايكون الوضوح!.

ثم هي مع هذا التَّعارض، المسقِط لها عن درجة الاعتبار ـ بالإضافة إلى: تهـالك السند، وضعْف الرُّواة، كما عرضنا الأقوال عنهم، في ما حُرِّف لأبي طالبٍ، وليس هؤلاء، سوى نماذج، لرواة أمثال هذه الأحاديث الكاذبـة، لأنَّ اسـتقاءها مـنْ عـينٍ آسنةٍ واحدةٍ...!

... إنَّها مع هذا التَّعارض، في ما بينهـا، ومخالفتهـا لأصـل عـدم تعـدُّد وتكـرار سبب نزول الآية...

إنَّها ـ مع ذلـك كلِّـه ـ تتعـارض بمـا هـو أقـوى منهـا دلالـةً، وأوضـح سـنداً؛ وتتصادم بالقرآن العظيم، الذي أثبت طهارة نسب الرَّسـول، وطهـارة أهـل البيـت أيضاً(٢) ـ وليس أدنس، ولا أرجس مِنَ: الشِّرك، والكفر ـ كما أنها تنال منْ قداسة الرَّسول، الذي جعلته يُخالف القرآن، في نهيه عن موالاة الكفَّار، في آياتٍ، سبقت هذه الآية، في تنزُّلها عليه، بما أوضحناه مِنْ قبل.

---

(١) ـ السِّيرة الحلبيَّة ٦٠: ١ .

(٢) ـ إشارةً إلى آية: "وتقلبك في السَّاجدين"، و"إنَّما يُريد ا لله"، وغيرهما.

ـ ٤ ـ

إنَّ الآية، التي اختُلف في: تأويلها، أو تفسيرها، أو تحريفها... تحمل معنى النّفي، لا معنى النّهي ـ أيْ: إنَّ الآية، تنفي عنِ الرّسول: أنه كان يستغفر للمشركين ـ وكذلك المؤمنون، الذين هم لتعاليمه متبّعون ـ فهي تنفي صدور استغفارٍ مِنَ الرَّسول، لرجلٍ لم يقرَّ في قلبه الإيمان، لا أنها تنهى الرّسول عنِ الاستغفار، لِمَنْ لامطمع له فيه، لأنَّ الرّسول مبرّأ، مِنْ أنْ يقع في هذا...!

فكلُّ مَنْ وجدناه، قَدِ استغفر له الرّسول، فعلينا أنْ نُقرَّ بإيمانه، ولا يُخالجنا فيه ذرةٌ مِنْ شكٍّ، أو غبارٌ مِنْ ريبةٍ ـ ما دمنا نُقرُّ للرّسول بالنُّبوَّة والعصمة،والعمل الحقّ.

وليس في الآية شيءٌ، ممّا يُظَنُّ أنَّ الرّسول، كان يستغفر للمشركين، فنهاه الله عنه، لأنَّ في حمل الآية على هذا التأويل، مسّاً لقداسة الرّسول، ونيلاً مِنْ مقام النُّبوَّة... ولاسيّما بعدما وجدنا أنَّ الرّسول، قَدْ تلقّى مِنْ وحي ربِّه، ما قَدْ نهاه ـ قبل هذه الآية ـ أنْ يعمل مثل هذا...!

وإننا نجد في هذه الآية مايكشف عنِ السِّرِّ، في استغفار الرَّسول لعمِّه... فَمِنَ الجائز: أنَّ هناك، مَنْ لم يكن بإيمان أبي طالبٍ، ذلك العليم، لتكتُّمِه به، وَقَدْ رأى الرَّسول يستغفر له، فَظَنَّ جواز وإباحة الاستغفار، لذوي قربى المسلمين، مِنَ المشركين، فجاءت هذه الآية، لتقول لهم:

إنَّ ذلك لايجوز... ولم يكن لِيقع مثل هذا العمل مِنَ الرَّسول... وما استغفر الرَّسول لعمِّه، وهو مشركٌ، حتى يُجوِّز للنّاس: أنْ يستغفروا لآبائهمُ المشركين... ثم أوضحت لهمُ الآية: موقف الخليل إبراهيم...

على أنه فرقٌ، بين: الاستغفار للحيِّ، والاستغفار للميِّت ـ كما أشرنا لذلك، قبل خطواتٍ.

فالآية تنزِّه الرَّسول ـ في استغفاره لعمِّه، ومَنْ كان يستغفر له ـ بأنه لايستغفر لمشركٍ، وهو الشَّديد في جنْب الله، وعلى أعدائه...

وليس استغفار الرَّسول، لأيٍّ كان، إلاَّ دليلاً، مدعماً بالحجج والبراهين، على إيمان هذا الذي يستغفر له لرسول(ص)...

وإنَّ مقام النُّبوَّة، وقداسة الرِّسالة، لتأبيان عليه(ص)، أنْ يستغفر لمشركٍ، أو أنْ يخالف ما ينهاه الله عنه، ويعمل مالا يرضى الله به!.

وَقَدْ عَرَفَ الكثير، مِنِ استغفار الرَّسول لعمِّه، دليلاً على إيمانه... فلم يحتجُّوا بذلك، لتبرير استغفارهم لآبائهمُ المشركين...

فكذلك وجدنا الذي حاوره عليٌّ، ونهاه، بعدما وجده مستغفراً لأبويه المشركين، ولم يحتجَّ إلاَّ باستغفار إبراهيم، لعدم إحاطته بالسِّرِّ في ذلك... ـ وَقَدْ سبق منَّا ذكْر الحادثة، والقول حولها.

ـ ٥ ـ

إنَّ هناك مَنْ يذكر بقيَّةً للحديث، الذي نقلناه، عنِ: البخاريِّ، ومسلمٍ، وإنَّ هناك مَنْ يقول:

[فلَّما تقارب مِنْ أبي طالبِ الموتُ، نَظَرَ إليه العبَّاس، فرآه يُحرِّك شفتيه، فأصغى إليه بأذُنه، فقال: يا ابنَ أخي! والله لَقَدْ قال الكلمة، التي أمرتَه بها](١).

فمع التنزُّل بأنَّ أبا طالبٍ، قال ما قيل على لسانه،عند الاحتضار، فإنَّ هذه الشَّهادة ـ مِنَ العبَّاس ـ تدلُّ على أنَّ آخر ما فاهت به شفتا أبي طالبٍ، وآخر كلمة، انفلت صداها مِنْ لسانه، وهو عند حشرجة الاحتضار، هي: الشَّهادة، التي أرادها منه الرَّسول ـ كما يقول الحديث.

---

(١) ـ السِّيرة النَّبويَّة ٨٣: ١ ، والحبيَّة ٣٨٨: ١ ، والهشاميَّة ٥٩: ٢، والبحار ٥٢٣: ٦، والنَّهج ٣١٢: ٣، وشيخ الأبطح ٧٣، والأعيان ١٣٦: ٣٩ .

وعلى مَنْ يقول بصحَّة الحديث: أنْ يأخذ بنهايته وتمامه... وإلاَّ فعليه، أنْ يرمي به كلّه. إذ ليس له أنْ يأخذ ما يُوافق هواه، ويترك ما يُخالفه...!

- ٦ -

وإنّنا إذا أسدلنا الستر، على إقرار أبي طالبٍ، وأقواله وأعماله،النّاضحة بالإيمان... وتناسينا وصاياه - عند الاحتضار - على الملإ مِنْ قريشٍ... وأغفلنا استغفار الرّسول وشهاداته، وحبَّه والإخلاص له... وشهادات عِدل القرآن، وأحد الثّقلين اللذين خلّفهما الرّسول بعده: أهل البيت... وشهادات الصَّحابة، في حقه - كابي بكرٍ، وأبي ذرٍّ، وابن عباسٍ...

إنّنا إذا تركنا كلَّ هذا جانباً، وجعلنا بيننا وبينه السَّدَّ المنيع، الذي يحجب الضَّوء. وسلّمنا - تنزُّلاً - بصحَّة الحديث - وليس لنا أنْ نُسلّم به، بعد قيام البراهين على دحضه...

أقول: لو تركنا كلَّ هذا، وتنزّلنا، فسلّمنا بالحديث - فإنَّ قول أبي طالبٍ:"على ملّة عبد المطلب"، ليس سوى دليلٍ على إيمانه...

فما ملّة عبد المطلب هذه؟.

أليست هي الحنيفية البيضاء؟.

أليس عبد المطلب على دِين ا لله، الذي ارتضى؟.

أليس مقرّاً بالإله الحقّ، والمبدأ الأعلى، ويوم الحساب، ومُوْقِناً با لله باعث حفيده، لِيصدع برسالة ربِّه، وتمنّى - وهو يحتضر - أنْ يمتدَّ به العمر، لِيشهد انبعاث النُّور، وإشراقة السَّنى...؟

ولكن هذا - أيضاً - ليس سوى رشحٍ، مّما وُجِّه لأبي طالبٍ... فأصاب - مرَّةً - أمَّ الرسول، آمنة؛ وأخرى: أباه، عبد ا لله؛ وتارةً: جدَّه، عبد المطَّلب.

أو هو - بالأصحِّ - رشحٌ، مّما وُجِّه لعليٍّ، لِيحطُّوا مِنْ قدْره، لأنَّ "متسافل الدرجات يحسد مَنْ علا" - كما يقول الشّاعر - فنالوا منه عن طريق أبيه؛ إلاَّ أنَّ

هؤلاء لم ينجوا مِنْ هذا النَّيل ـ أيضاً ـ حتّى ولو كان في كلِّ هذا، نيلٌ للرسول(ص)؛ وأذىً له، مادامتِ الغاية تُبرِّر الواسطة، عند الوصوليِّين.

هذا... وليس ممَّا يختصُّ بموضوعنا إثبات إيمان عبد المطَّلب... إنَّ كان إيمانه يحتاج للإثبات... على أنّا قَدْ أتينا على ما يُبرهن على إيمانه، في الفصل، الذي عقدناه عنه، مِنْ هذا الكتاب.

هذا... وفي الموضوع كتُبٌ مختصَّةٌ، تعرض جوانبه... حتى عُدَّ للسَّيوطيِّ ستَّة كُتبٍ، كلُّها حولَ إيمان آباء الرَّسول الأعظم(ص)[1].

على أنَّ أبا طالبٍ، لم يتَّخذ ذلك الجواب، بقوله: "على ملَّة عبد المطلب، ـ إنْ كان للحديث بالواقع صلةٌ ـ إلاَّ لِيُعمِّيَ موقعه على قريشٍ، هؤلاء العتاة المحيطين به... وَقَدِ اتَّخذ هذه السِّياسة، في صالح: الدَّعوة، ونبيِّ الإسلام ـ كما عرضنا لذلك...

ولو لم يكن قَدِ اتَّخذ مثل هذا الطَّريق، لَمَا تسنَّى له أنْ يقوم بما قام به، مِنْ: جليل العمل، ومؤزَّر النُّصرة...!

نظرةٌ في آية ﴿إنَّكَ لاَ تَهْدِيْ﴾

أمَّا الآية الثَّانية:"إنَّكَ لاَتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْـتَ" ـ الآية ـ فَقَدْ وضعنا يدك على مكمن الداء، الذي كان مِنْ أعراضه: تحريفُ هذه الآية ـ في ما حُرِّف ـ نحو أبي طالبٍ، وكشفنا السَّتر عنِ الخبيء، مِنْ زيف هذا التَّحريف، مادام الحديث يقول: إنَّ هذه الآية، نزلت وآية الاستغفار، في هذه المناسبة...

---

(١) ـ ارجع لأسمائها، للغدير ١٧: ٨ بالهامش. وأُشير لها في السِّيرة النُّبويَّة ٧٧: ١ . وَقَدْ وقفنا عليها ـ أخيراً ـ في طبعتها الثَّالثة، طباعة حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ عام ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١ م، وهي ـ على الظَّاهر ـ ذات منهجٍ واحدٍ، وأُسلوبٍ متقاربٍ، وتجانف ـ فيها ـ على واضحِ الحقِّ الجلّي، بشأن أبي طالبٍ، ولم نرَ حاجةً. لفتح نقاشٍ خاصٍ معه، لأنه تعدٌ آثمٌ، وتجنٍ جائرٌ...!

ومادام قَدِ انهدَّت أُسس التُّهم، التي شيدت في تحريفهم، لتلك الآية، فهي ـ هنا ـ أضعف مِنْ أنْ تبقى في الوجود: لحظةً، بل هي ـ هنا ـ مِنْ بين تلك الأنقاض المهدَّمة.

ولكنّا ـ مع هذا ـ رأينا أنْ نخصَّ تحريف هذه الآية. بنظرةٍ عابرةٍ، نُوجزها في هذه النقاط:

ـ ١ ـ

إنَّ هناك، مَنْ وَضَعَ أحاديث، خَصَّهَا بهذه الآية، غير تلك التي عرضناها، عن: سعيد بن المسيَّب، وأبي هريرة، وناقشنا سندهما، وكشفنا عمَّا فيه مِنْ زيفٍ، بحيث لايبقى سببٌ مِنَ التّشبُّث، بما انطوت عليه هذه الأحاديث، مِنْ كذبٍ، وافتراءٍ، وتزوير...!

ونُريد ـ الآن ـ أنْ نعرض لحديثين آخرين، خُصَّا بهذه الآية، ونُناقش سندهما الواهي المتهالك...

١ – عن طريق أبي سهلٍ السريِّ بن سهْلٍ، عن عبد القدُّوس الدِّمشقيِّ عن أبي صالحٍ، عنِ ابن عباسٍ، قال: نزلتْ: إنَّكَ لاَ تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ ـ الآية ـ في أبي طالبٍ. ألحَّ عليه النبي(ص)، أن يُسلِم، فأبى، فأنزل ا لله: إنَّكَ لاَ تَهْدِيْ(١).

ونُلاحظ على هذا:

أ ـ السري: يقول عنه الذّهبيُّ: "وهَّاه ابن عدي. وقال: يسرق الحديث؛ وكذَّبه ابن خراشٍ".

ثمَّ ذَكَرَ له أحاديث، فيقول قبلها: ومِنْ بلاياه. ومِنْ مصائبه(٢).

وعدَّه الأمينيُّ، في سلسلة الكذَّابين، عن كثيرٍ مِمَّنْ ترجمه(٣).

---

(١) ـ الغدير ٢٠: ٨، عنِ الدُّرِّ المنثور ١٣٣: ٥ .

(٢) ـ الميزان ٣٧٠: ١ .

(٣) ـ الغدير ٢٠٢: ٥، و ٢٠ و١٤٣، ١٤٤: ٨ .

ب ـ عبد القدُّوس الدِّمشقيُّ: قال عبد الرزَّاق: ما رأيتُ ابن المبارك، يُفصح بقوله: "كذَّاب"، إلاَّ لعبد القدُّوس. وقال الفلاس: أجمعوا على ترْك حديثه. وقال النّسائيُّ: ليس بثقةٍ. وقال ابن عديٍّ: أحاديثه منكرة الإسناد والمتن(١).

وقال إسماعيل بن عيَّاش: لا أشهد على أحدٍ بالكذب، إلاَّ على عبد القدُّوس(٢).

وقال عبد الله بن المبارك: لئن أقطع الطريق، أحبُّ مِنْ أنْ أروي عن عبد القدُّوس الشَّاميِّ(٣).

ج ـ لانعرف مَنْ هو أبو صالح؟. وأظنُّ الصَّاد ـ في كنيته ـ طاءً!.

د ـ وإسناد الحديث لابن عبَّاسٍ، يفضح المؤامرة، ويكشف السَّتر عنِ الكذبة...!

فابن عبَّاسٍ كان ميلاده في شِعب أبي طالبٍ، حين حُصر الرسول وبنو هاشم فيه، في العام الثَّالث، قبل الهجرة(٤) ـ أيْ: في العام،الذي تُوفِّي فيه أبو طالبٍ!.

فَمِنْ أين رأى ابن عبَّاسٍ ذلك، لِيروي هذا الحديث...؟!

حاشا ابن عباس! فإنه لم يقُلْ شيئاً مِنْ هذا... بل رأيناه كيف يُجيب مَنْ سأله، عن إيمان أبي طالبٍ ـ فيما عرضناه، عند "ذكر عطر"(٥).

٢- وعاد الكذوبان: السري، وعبد القدُّوس، فأسندا الحديث المفتعَل لابن عمر(٦). وقد كان ميلاد عبدا الله بن عمر، في العام الثَّالث، مِنَ المبعث النَّبويِّ(٧). فهو في وفاة أبي طالبٍ ـ قَدْ شارف السَّبعة الأعوام، مِنْ عمره.

فليس مِنَ المعقول أنْ يشهد ـ وهو في هذه السِّنِّ ـ احتضارَ أبي طالبٍ.

وليس غير هذين الكذَّابين، اللذين اختلقا هذا الحديث، فأسنداه ـ مرَّةً ـ لابن عبَّاسٍ، وأخرى لابن عمر ـ وحاشاهما! ـ لتتمَّ للكذَّابين الغاية السُّوء، التي أرادوها!.

---

(١) ـ الميزان ١٤٣: ٢ .

(٢) ـ الغدير ٢٠٨: ٥ ـ في سلسلة الكذَّابين ـ و ٢١: ٨ .

(٣) ـ الغدير ٩٠: ١٠ .

(٤) ـ الإصابة ٣٢٢: ٢ .

(٥) ـ ص ٢٦٣ .

(٦) ـ الغدير ٢١: ٨، عنِ الدُّرِّ المنثور ١٣٣: ٥ .

(٧) ـ الإصابة ٣٣٨: ٢ .

- ٢ -

أمَّا الآية - فإنّنا نجدها بين آيتين، هي وسطى بينهما:

﴿وَإِذَا سَمِعُوْا اللَّغْوَ أَعْرَضُوْا عَنْهُ، وقَالُوْا: لَنَا أعْمَالُنَا، ولَكُمْ أعْمَالُكُمْ، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ، لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِيْنَ. إنَّكَ لاَ تَهْدِيْ مَنْ أحْبَبْتَ. وَلكِنَّ اللّهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ أعْلَمُ بِالْمُهْتَدِيْنَ.
وَقَالُوْا: إنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ، نُتَخَطَّفْ مِنْ أرْضِنَا... أوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِنا، يُجْبَى إلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا...؟ وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ!﴾(١).

فالآية الأولى مختصَّةٌ بالمؤمنين، تصف عملهم...

والثالثة: تصف الّذين لم يؤمنوا، مخافة أنْ يُتخطَّفوا مِنْ أرضهم - كما يزعمون! - أي: يُستلبون.

والآية المحرَّفة: وسطى بينهما. وهي خطاب للرَّسول(ص)، يقول ا لله له فيها: إنَّ هداية أولئك، ليس لحبِّك لهم، فما أنت بالهادي لهم - بالمعنى الأصيل - أيْ إنَّهم لم يهتدُوا لسماعهم الدَّعوة مِنَ الرَّسول، فحسب؛ وإنَّما لإمداد ا لله ومشيئته...

وليست هذه الآية الوحيدة، في القرآن، مهمَّا تحمل هذا المعنى - وهو نسبة الهداية لله - فهي كآياتٍ كثيرةٍ، منها هذه الطائفة:

أ - لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ(٢).

---

(١) - القصص ٥٥ - ٥٧ .

(٢) - البقرة ٢٧٢ .

ب ـ إنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ، فإنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ(١).

ج ـ أتُرِيدُونَ أنْ تَهْدُوا مَنْ أضَلَّ اللهُ؟(٢).

د ـ أفَأنْتَ تَهْدِيْ العُمْيَ، ولَوْ كانُوْا لاَ يُبْصِرُوْنَ.(٣).

هـ ـ فيَضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ، ويَهْدِي مَنْ يَّشَاءُ(٤).

و ـ مَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ الْمُهْتَدِيْ، وَمَنْ يُضْلِل فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً(٥).

وليس لنا أنْ نتقصَّى هذه الآيات ـ وهي على وفرة عددٍ، وكلُّها تحمل المعنى، الذي تحمله تلك الآية المحرَّفة... وهي كلُّها تُشير إلى أنَّ الهداية تكون بإمدادٍ مِنَ ا لله، ولكن في حدود اختيار العبد، لا أنْ تسلبه حريَّة الاختيار...

ولذلك نجد آياتٍ أُخر، تنسب الهداية والضَّلال، للنفس، كقوله تعالى:

فَمَنِ اهْتَدَى، فَإنَّمَا يَهْتَدِيْ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا(٦).

إلى آياتٍ وآياتٍ، لانُريد تقصِّيَهَا.

ـ ٣ ـ

ويجدر بنا أنْ نعرض بعض الوجوه، التي رأوها في سبب نزول هذه الآية:

أ ـ إنَّ الرَّسول(ص) ضُرب بحربةٍ في خدِّه ـ يوم أُحد ـ فَسَقطَ إلى الأرض، ثم قام، وَقَدِ انكسرت رباعيته، والدَّم يسيل على حَرِّ وجهه. فَمَسَحَ وجهه، ثم قال: «اللهمَّ اهدِ قومي، فإنهم لايعلمون»؛ فأنزل ا لله:

---

(١) ـ النحل ٣٧ .

(٢) ـ النِّساء ٨٨.

(٣) ـ يونس ٤٣.

(٤) ـ إبراهيم ٤، والمدَّثِّر ٣١.

(٥) ـ الكهف ١٧.

(٦) ـ يُونس ١٠٨.

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ـ الآية..(١).

ب ـ قيل: إنَّ قوماً كانوا يُظهرون الإسلام، والإيمان بالرَّسول(ص)، وتأخَّروا بعد هجرته، وأقاموا بمكَّة، مظهرين الكفر والصبوء إلى الدِّين، الذي كانوا له معتنقين...

وإذْ وَصَلَ نبؤُهم للرَّسول، ومَنْ معه مِنَ المؤْمنين، اختلفوا فيهم...

فمنهم مَنْ يرى إيمانهم، ولايرى "ظاهرهمُ" الذي اتّخذوه، سوى تقيةٍ لِمَنِ اضطرَّ، كما قال الله تعالى: "إلاَّ أنْ تتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً"...(٢)

ومنهم. مَنْ يراهم كفَّاراً، إذ كان عليهم أنْ يُهاجروا، لوِ استحبُّوا الإيمان، والنَّجاة بالمبدأ...

لذلك... اجتمع هؤلاء وأُولئك، إلى الرَّسول فأحبَّ بعضهم أنْ يُصدر الرَّسول فيهم حكمه بإيمانهم، للأرحام الوشيجة، التي تربط بين: هؤلاء الرَّاغبين، وأولئك المقيمين.

ولكنَّ الرَّسول أرجأ الحكم، حتى ألقى الملاكُ في أُذُنه: "إنَّكَ لاتَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ الله يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ".

وقالوا: إنَّ معنى الآية: "إنَّك لاتحكم، وتُسمِّي وتشهد بالإيمان، لِمَنْ أحببت. لكنَّ الله يحكم له، ويُسمِّيه، إذا كان مستحقاً له"(٣).

ج ـ قيل: إنَّ هذه الآية، نزلت في الحارث، بن عثمان، بن نوفل، بن عبد مناف، وَقَدْ كانت عند الرَّسول رغبةٌ في إسلامه، وحبٌّ لذلك(٤).

---

(١) ـ الحجَّة ٢٩، والأعيان ١٥٩: ٣٩.
وَقَدْ جاء في الحجَّة: "يوم حنين" ـ خطأً ـ والمقصود، مِنَ سياق الحادثة وتأريخها: يوم أحد.

(٢) ـ آل عمران ٢٨.

(٣) ـ الحجَّة ٣٠، والأعيان ٢٥٩: ٣٩ .

(٤) ـ شيخ الأبطح ٦٩ـ عنِ الحسن بن الفضل، في كتاب "أسباب النُّزول"، لأبي المجد بن رشادة الواعظ الواسطيِّ.

ويقرب مِنْ هذا القول: قول بعضِ المفسِّرين، بأنّ الآية التي بعد هـذه ـ وهـي. "وَقَالُوا: إنْ نتّبعِ الهُدَى مَعَكَ"، إلخ، كان نزولها في الحارث(١).

وَقَدْ قيل: إنَّ إجماع المسلمين، على أنَّ الآية الثّانية ـ "وَقَـالُوا..." إلخ ـ هـي في الحارث(٢).

د ـ إنَّ رسول قيصر، جاء بكتابٍ للرسول(ص)، ـ فدفعه إليه، فَوَضَعَ الرَّسـولُ الكتابَ بحجره، ثم قال: "مِمَّنِ الرجل؟" قال: مِنْ تنوخ. فقال الرسول:

"هل لكَ في دِين أبيك إبراهيم الحنيفيَّة؟".

قال رسول قيصر: إنّي رسول قومٍ، وعلى دينهم، حتى أرجعإليهم.

فضحك الرَّسول(ص)، وَنَظَرَ إلى أصحابه، وقال: ﴿إنَّكَ لا تَهْدِيْ﴾(٣)

* *

هذه أقوالٌ اربعةٌ، قيلت في سبب نزول الآية... والأصل ـ كما قدَّمنـا ـ عـدم تكرارِ النُّزول... فَمنْ أين حُرِّفت لأبي طالبٍ، لولا هؤلاء الكذبة، الذين لايخشـون الكذب، ولايرقبون في مؤمنٍ إلاًّ، ولاذمَّةً؟!.

ـ ٤ ـ

ونحن لو سلَّمنا نزولها في أبي طـالبٍ، فإنّهـا سـتكون سـلاحاً، في يد القـائلين بإسلامه، أكثر مِنْ أن تكون ضدَّهم:

أ ـ لأنَّ مَـنْ يصرفها لأبي طالبٍ، يقول بحبِّ الرَّسول لـه:﴿إنّـكَ لا تَهْدِيْ مَنْ أحْبَبْتَ﴾... فمعناها عندهم: يا محمَّد! إنّك لاتهدي عمّك الذي تحبُّه، ولكن ا لله يهديه!.

---

(١) ـ الكشّاف ١٦٧: ٢ [٣٣٣: ٣]، ومجمع البيان ٣٠٩: ٢٠، وأسباب النُّزول ١٦٩، عن النّسائي عنِ ابن عبَّاسٍ؛ وتفسير ابن كثيرٍ ٣٩٥: ٣، وتفسير البيضاويِّ ٩: ٤ .

(٢) ـ شيخ الأبطح ٦٩.

(٣) ـ تفسير ابن كثيرٍ ٣٩٥: ٣ .

فحبُّ الرَّسول لرجلٍ، هو ـ وحده ـ دليلٌ على إيمان هذا، الذي يحبُّه الرَّسول(ص)، لأنَّ الرَّسول منهيٌّ، عن حبِّ غير المؤْمنين.

وَقَدْ تكرَّرت الإشارة منَّا، لهذه النَّاحية. فالإعادة، ليست سوى تكريرٍ وتطويلٍ.

ب ـ ومِنْ ناحيةٍ ثانيةٍ: تكون دليلاً على رفعة إيمان أبي طالبٍ، لأنَّ إيمانه يكون ـ حينئذٍ ـ بهدايةٍ مِنَ الله، وليس بدعوة الرَّسول له، فحسب. بل إنَّ هناك عنايةً إلهيةً، اختصَّت أبا طالبٍ.

لذلك... خاطب الله سبحانه، رسولَه، قائلاً له: إنَّ هداية عمِّك، ليست منك. وإنما الله هو الذي أمدَّه، فهداه، حيث اختصَّه، فكان حامي دِينك، بعد أنْ رعاكَ، وتحوَّطكَ، وفَدَاكَ...

ـ ٥ ـ

بعد هذا... لانجد حكماً مرتجلاً، أوهى دليلاً، مِنْ هذا الحكم، يُرسله الزَّجَّاج، حول هذه الآية، فيدَّعي: أنْ قَدْ [أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالبٍ](١).

فَمَنْ أين هذا الإجماع، وما هو إلاَّ في عالَم الوهم، والخيال الخلاَّق؟!. وأيُّ دليلٍ، يُعضد هذا الإدِّعاء الكاذب...؟! وكيف لم يخشَ مغبَّة هذه الدَّعوى الشَّائنة: ومسؤُولية هذا الحكم الطَّائش؟.

وأقلُّ ما فيه: إخراج أهل البيت، وشيعتهم، مِنَ المسلمين، الذين يزعم إجماعهم على باطل هذه الدَّعوى... ويُخرج ـ أيضاً ـ طائفةً مِنَ الصَّحابة، وطائفةً مِمَّنِ اتَّبع صريح الحقِّ، وسار في مهيع المحجَّة، فآمن بالأمر الواقع، وأقرَّ بالثَّابت مِنْ إيمان بيضة البلد... لأنَّه إنْ لم يُخرجهم مِنْ عداد المسلمين، انتقض عليه ادِّعاء الإجماع، لأنَّ أية قولةٍ لأحد هؤلاء، تقضي على مزعمته، وادِّعائه للإجماع الذي لا وجود له!.

---

(١) ـ الكشَّاف ٣٣٢: ٣ .

والغريب ـ وكم في هذا الموضوع، مِنْ غريبٍ، عجيبٍ! ـ إنَّ دليله على هذا الإجماع الموهوم حديثٌ كاذبٌ ـ لم يذكر له سنداً، حتى نكشف عمَّا فيه مِنْ: كذَّابٍ، ووضَّاعٍ– ولكن لاشكَّ في أنَّ أصله بعض تلك الأحاديث، الذي زيَّفنا سَنَدَهَا الواهي المتهالك. وَقَدْ أضاف إليه ماشاء له الخيال، الذي أوجد تلك مِنْ عدم... والكذبة قَدْ تُولد صغيرةً، ثم تنمو...!

وإنَّنا لَنجد التَّناقض ظاهراً، وروائح الخَلْق تفوح، بين سطور هذه الكلمات، التي يقولها على لسان أبي طالبٍ:

(يا ابن أخي! قَدْ علمتُ أنَّكَ لَصادقٌ: ولكني أكره أنْ يُقال: خَرَعَ عند الموت)(١) ـ حتى يختمها: [ولكن سوف أموت على ملَّة الأشياخ: عبد المطلب، وهاشمٍ، وعبد مناف](٢).

ولانُريد: أنْ نُعيد النِّقاش حول هذا، أو أنْ ندلَّ على التَّناقض، فيكفي ردّاً على ذلك: ما سَبَقَ حول مثيل هذا القول المخلوق.

ولكن نُشير إلى أنَّ القرطبيَّ، قَدِ استكبر هذه الدَّعوى الضَّخمة ـ دعوى الإجماع! ـ فأراد أنْ يُخفِّف مِنْ حدَّة قبحها. فَعَقَّبَ قائلاً:

(والصَّواب أنْ يُقال: أجمع جلُّ المفسِّرين على: أنَّها نزلت في شأن أبي طالبٍ)(٣).

غير أنَّه لم ينجُ مِنْ مثل ما وَقَعَ فيه الزَّجَّاج، مِنْ: تهويل الدَّعوى، وتضخيم الإدِّعاء... فالإدِّعاءان، لا يُدعِّمهما دليلٌ، ولايُقوِّيهما برهانٌ، ولا يعتمدان على قوَّةٍ، مِنْ: منطقٍ، أو بيانٍ.

وشبيهٌ بهذا الحكم الطَّائش، يرتجله الزَّجَّاج، دون أنْ تتوافر فيه أيُّ مقوِّمات الحكم، ما قاله ابن كثيرٍ، حول هذه الآية:

---

(١) ـ خرع ـ هنا ـ بمعنى: خار.

(٢) ـ الكشَّاف ٢٣٢، ٣٣٣: ٣ .

(٣) ـ الغدير ٢٢: ٨، عن تفسير القرطبيِّ ١٣: ٢٩٩ .

(وَقدْ ثبتَ في الصَّحيحين: أنَّها نزلت في أبي طالبٍ عمِّ رسول ا لله(ص)، وَقَدْ كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفِّه، ويُحبُّه حبّاً شديداً طبيعياً لا شرعيّاً ـ كذا؟!)(١).

ثم استشهد بتلك الأحاديث، التي عرضنا لها، وفكّكنا منها العرى المفصومة...

فَمِنْ أين هذا الثُّبوت، الذي يُرسل الحكم عنه، في غير خوفٍ، مِنْ: مسؤُوليَّةٍ، أو حسابٍ...؟! وهل يثبت مثل هذا التّحريف، بمثل هذه الأخبار التّجاريَّة، التي يضعها هؤلاء...؟

ومضحكٌ أنْ ينقل حول أحد هذه الأحاديث: ما قاله التّرمذيّ: أنه (حَسنٌ غريبٌ، لانعرفه إلاّ مِنْ حديث يزيد بن كيسان).(٢)

فَقَدْ اعترف بغرابته، وانفراد يزيد به. هذا الذي لايُحتجُّ به، ولايُعتمد عليه ـ كما سَبَقَ أنْ رأينا، عندما وقفنا عنده، في ما مضى، مِنْ تزييف السِّلسلة، التي افتعلت هذا الحديث(٣) ـ فَمِنْ أين هذا الحسن، الذي جاز للتّرمذيِّ أنْ يصفه به...؟!

ولانُريد نقاش ابن كثيرٍ، في هذا الحبِّ الذي حلاَ له أنْ يُسمِّيه بالطَّبعيِّ، لا الشَّرعيِّ، حيث أنَّ في تضاعيف الكتاب مايقوم بالبرهنة، على أنَ هذا الحبَّ، يمحضه أبو طالبٍ محمَّداً الرَّسولَ، لا ابنَ أخيه...

* *

ومثيلٌ مِنْ هذا التّخريف، يُسمّى تفسيراً ـ تارةً ـ وتأريخاً ـ أخرى ـ وحديثاً ـ ثالثةً ـ قولُ مَنْ قال:

[إنَّ ابا سعيدِ بن رافع قال: سألتُ ابن عمر عن هذه الآية: إنَّكَ لاَتَهْدِيْ مَنْ أحْبَبْتَ ـ أفي أبي جهلٍ، وأبي طالبٍ؟ قال: نَعَمْ](٤).

---

(١) و (٢) ـ تفسير ابن كثيرٍ ٣٤٩: ٣ .

(٣) – ص٣٢٣.

(٤) ـ أسباب النُّزول ١٦٨، ١٦٩.

ونحن إنْ لم نقف على سند هذا القول، إلاّ أنه ليس مِنَ الأهميّة بمكانٍ، حتى ولو لم يكن في السَّند مغمزٌ، أو فضيحةٌ، مادام هذا ليس سوى رأيٍ منسوبٍ لابن عمر، لابصفته حديثاً.

ولكن كيف يقبل العقلُ هذا الرأيَ ـ حتى مع عدم ثبوت إيمان أبي طالبٍ ـ وهو يجمع بين: ابي طالبٍ، وأبي الجهل، في منزلةٍ واحدةٍ...!؟

فالإثنان ـ أبو طالبٍ، بحبِّه ودفاعه، وتفانيه وكفالته للرَّسول...وأبو الجهل، في الخطِّ المعاكس لهذا الموقف، أوضح مايكون الخلاف ـ الإثنان عند الرَّسول، في منزلةٍ واحدةٍ، يُحبُّ هدايتهما وإسلامهما...!

وَمَنْ يدري، فلعلَّ جانب حبِّه هذا لأبي الجهل، هو الرَّاجح! ـ ولكن ا لله لايُحبُّ ذلك...!

ألاَ فَلْتَسْقطِ القِيم! وَلْتَنعدِمِ الكفاءات! وَلْيَتساوَ: الحسن والقبيح: نصرة الرَّسول، وعداؤُه...!

إنَّ هذا التهجُّم القبيح ليس ضدَّ أبي طالبٍ، فهو ليس سوى النَّيل مِنَ الرَّسول، حيث يكون في منزلةٍ ظالمةٍ جائرةٍ، يُجانف العدالة، ويتجنّى على الحقِّ! عفوك، يا ا لله!.

ولايقف التَّفسير بالرأي عند حدٍّ، بل نجد كلاً، يفسِّر الآية بما يشتهي، حسب الهوى والعاطفة...

إذ نجد مَنْ يرى تبعيض الآية، بين: أبي طالبٍ، والعبَّاس؛ فيرى صدْرَها لأبي طالبٍ، وذيْلَها للعباس(١). وبين وفاة أبي طالبٍ، وإسلام العبَّاس، طويلُ أمدٍ، كما أنَّ العبَّاس لم يُسلم، إلاّ بعد نزول هذه الآية، بعددٍ مِنَ السِّنين!.

* *

---

(١) ـ الغدير ٢٢: ٨، عن تفسير القرطبي ١٣: ٢٩٩، والدر المنثور ٥: ١٣٣.

لَقَدْ تقدَّمتِ الإشارة منّا، لقولة سيِّدنا الوالد، التي ترى: أنَّ البلاء جاء أبا طالبٍ، لكونه أباً للإمام عليٍّ... وأنَّ حملة الدِّعاية والتّشويه والتّحريف، لم تكن لِتُوجَّه ضدَّه، لو كان أباً لغير عليٍّ، فهي لم تُوجَّه إليه، إلاَّ بالواسطة،وإلا فالغاية منها، هي: ابنه عليٌّ!.

وتجد بعض التّحريف ـ حول هذه الآية – يُسند هذا الرّأي، ويُقوِّيه.

طلَبَ معاوية مِنْ سمرة ـ كما قدَّمنا في : [على العتبة](١) ـ أن يُحرِّف آيةً ضدَّ عليٍّ، وآيةً لصالح ابن ملجمٍ!.

ومقابلةً لذلك في أبي طالبٍ، جاء منْ قال:

إنَّ آية [إنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، في أبي طالبٍ، فإنَّ النّبيَّ(ص)، كان يُحبُّ إسلامه، فنزلت الآية؛ وكان يكره إسلام وحشيٍّ قاتل حمزة، فنزل فيه:

يَا عِبَادِيَ الّذِيْنَ أَسْرَفُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوْا مِنْ رَحْمَةِ ا للهِ ـ الآية(٢).

فلم يُسلم أبو طالبٍ، وأسلم وحشيٌّ](٣)...!!!

وتأكيداً لمزعمة هذا الرّأي التّفيه: أنْ يُسند لابن عبَّاسٍ، حتى يبين لنا مدى التّناقض والتّخبيط.

وهو ليس سوى رأيٍ، مِنْ بين تلك الآراء، التي تُوضع، لاتخدم سوى الغاية، التي وُضعت مِنْ أجلها...ولا يهمُّ واضعها ـ بعد ذلك ـ أنْ تنال مَنْ وما تنال، أو أنْ تتخطّى مِنَ القيم ما تتخطّى!.

فالرّسول ـ على هذا الرّأي ومثله ـ يُخالف مَنْ أرسله، في إرادته، فيُحبُّ ما لاتُحبُّه الإرادة الإلهيَّة!.

---

(١) ـ ص : ٢٩، وما بعدها.

(٢) ـ الزُّمر: ٥٣ .

(٣) ـ مجمع البيان ٢٠٧، ٢٠٨: ٢٠

فا لله سبحانه ـ وأستغفره! ـ لم يُرد إيمان ابي طالبٍ، ولعلّه لِعداءٍ بينهما قديمٍ!؛ أو لعلَّ سبب هذا العداء: كفالته للرَّسول، وتربيته، وحماية دِينه، ودفاعه عنِ المؤْمنين به!.

ولكن الرَّسول، أحبَّ إيمانه ـ وفاءً له، طبعاً ـ فتعارضتِ الإرادتان، فغلبتِ الأقوى منهما، فمضت فيه إرادة ا لله، هذه الإرادة العدائيَّة، التي لم تدعْه يُؤمِن...!

أمَّا وحشيٌّ، فَقَدْ تعارضت إرادة المرسِل والرَّسول ـ أيضاً ـ ولكنَّهما اختلفتا عن تينك.

فالرَّسول لم يُحبَّ إيمان وحشيٍّ، لأنَّ وحشيّاً قَتَلَ عمَّه حمزة، فبقي الكره عميقاً، وَنَمَا الحقد مريراً، في نفس الرَّسول، حتى كره له الإيمان...!

ولكن المرسِل عَطَفَ على هذا المسرِف على نفسه، فاغتفر له: دمَ حمزة المسفوح: ظلماً، في الجهاد في سبيله، ولم يرعَ عاطفة رسوله الجموح، فأحبَّ إيمان وحشيٍّ...!

وفي اصطراع الإرادتين، غلبت إرادة ا لله التي جعلت مِنْ وحشيٍّ مؤْمناً...!!!

وليتهم أضافوا: أنَّ مِنْ تمام إيمانه: إدمانه للخمرة، يُعاقرها، حتى خالطت روحَه ودمَه، فلا يكاد يكون منها في ساعة صحوٍ، حتى آخر رمقٍ مِنْ حياته، المليئة بالنُّكر، والجرائم...!(١).

وكيف يصحُّ نزول هذه الآية، في وحشيٍّ، وهي عامَّةٌ للمسلمين، وَقَدْ نزلت بمكَّة، ولم يتظاهر وحشيٌّ ـ الذي لم يُفارقه معنى اسمه ـ بالإسلام، إلاَّ بعدها، بسنين عدةٍ...؟!(٢).

وفي أشدَّ مِنْ هذا... يقع مَنْ لايحسب للمسؤُولية وزناً، فينساق وراء بهْرج السَّراب، أو يخبط في مدلهِّم الظُّلمة!.

---

(١) ـ راجع [على العتبة] ـ ص ٤٩ ـ حيث أسندنا ذلك للاستيعاب ص ٦١: ٣ .

(٢) ـ مجمع البيان ١٦٤: ٢٣ .

ميراث أبي طالبٍ:

مِنْ بين المفتريات، في حقِّ شيخ البطحاء: ما يفترونه بأنَّ عليّاً وجعفراً، لم يأخذا مِنْ تركة أبيهما شيئاً، لأنَّهما مسلمان، واباهما كافرٌ...[١].

ونحن لم نعرف سند الفرية، حتى نكشف الستر، عمَّا خلْفه، مِنْ : خزيٍ، وفضيحةٍ...!

ولكن هذه الفرية، لم يضعها، غير جاهلٍ بشروط الميراث، عند المسلمين. فكلُّ ما لديه مِنَ العلم، هو حديث: "لاتوارث بين ملَّتين".

ونحن نقول بصحَّة الحديث. ولكن معناه: إنَّ الكافر، لايرث المسلم.

وليس مانعاً أن يرث المسلمُ كافراً، لأنَّ الإسلام يرفع المسلم. كما أشارت لذلك الأحاديث، المتَّصلة بهذا الموضوع، كقوله(ص):

[الإسلام يعلو، ولايُعلى عليه].

ومعنى "التَّوارث" لايحصل، إلاَّ إذا كان، ثَمَّة، تفاعلٌ ـ أيْ: أنْ يرث المسلمُ الكافرَ، والكافرُ المسلمَ.

أمَّا أنْ يرث المسلمُ الكافر، فحسب؛ فهو ليس مِنَ التَّوارث؛ إذ ليس فيه شيءٌ مِنَ «التَّفاعل».

ومِنْ هنا... تجد أنَّ الإسلام، لايُبيح للكافر: أنْ يتزوَّج المسلمة، ـ وهي: أرفعُ منهُ واعلى ـ بينما يُجيز بعض العلماء: أنْ يتزوَّج المسلمُ الكافرةَ الكتابيَّة، بالزَّواج الدَّائم. وَقَدْ أجمعتِ الشِّيعة على ذلك، بالزَّواج المنقطع ـ في ما أعلم[٢].

---

(١) – السِّيرة الحلبيَّة ٧٤: ١ .

– وَقَدْ ذُكر في : الحجَّة ٣٢، وشيخ الأبطح ٧٨، مع الرَّدِّ عليه.

(٢) – بمراجعة المصادر الخاصة بالموضوع يتَّضح: أن للشيعة – حول نكاح الكتابية – أقوالاً ثلاثة:

١ – يجوز النكاح، مطلقاً: دواماً، ومنقطعاً، وملك يمين.

٢ – عدم الجواز، مطلقاً.

٣ – المنع: دواماً؛ الجواز: منقطعاً وملك اليمين.

وقد أشار المؤلِّف لذلك، في كتابه: «نسيمٌ وزوبعةٌ، ص ٢٢٨-٢٣٠».

فلو سلّمنا صحّة هذه الفرية – وليس لنا أنْ نُسلّم بهـا، بعد أنْ رأينا الأصل الإسلاميَّ ينقضها ـ فما هـي بدليلٍ، على كفر شيخ الأبطح!؛ إذ لعليٍّ وجعفرٍ "المسلِمَين" ـ اللّذَيْن لا أظنُّ مَنْ يشكُّ في إسلامهما؟! ـ أنْ يرثـا أباهمـا، حتى ولو كان كافراً ـ كما يزعم المفترون! ـ تمشّياً، مع: الأصل، والنّصِّ الإسلاميِّ.

ولكن واضع هذه الفرية ـ كما قلنا ـ جاهلٌ بالإسلام، وقوانينه...!

حديث الضحضاح

نرى أنْ نُقدِّم للقارىء ـ أوّلاً ـ هذا الحديث، في صُورَه، التي وَضَعَها الوضّاعون، لِنبدأ الحديث عنه، بعدئذٍ:

ـ ١ ـ

عن عبيد الله بن عمر القواريريِّ، ومحمَّدِ بن أبي بكرٍ المقدمي، ومحمَّدِ ابن عبد الملك الأُمويِّ، قالوا: حَدَّثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عميرٍ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عنِ العبَّاس بن عبد المطّلب، أنّه قال:

يا رسول الله! هل نفعتَ أبا طالبٍ بشيءٍ؟ فإنّه كان يحوطك، ويغضب لك؟.

قال: نَعَمْ! هو في ضحضاحٍ، مِنْ نارٍ؛ ولولا أنا، لَكَانَ في الدَّرك الأسفل مِنَ النّار!(١).

ـ ٢ ـ

عن ابن أبي عمر، حَدَّثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن الحارث، قال: سمعتُ العبَّاس يقول: قلتُ: يا رسول الله! إن أبا طالبٍ، كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟.

قال: نَعَمْ! وجدتُه في غمراتٍ مِنَ النّار، فأخرجته إلى ضحضاحٍ(٢).

---

(١) ـ صحيح مسلمٍ ١٣٤، ١٣٥: ١، [باب شفاعة النّبيِّ لأبي طالبٍ] إلخ.

(٢) ـ صحيح مسلمٍ ١٣٤، ١٣٥: ١، [باب شفاعة النّبيِّ لأبي طالبٍ] إلخ.

- ٣ ، ٤ -

عن محمَّد بن حاتمٍ، حَدَّثَنَا يحيى بن سعيدٍ، عن سفيان - إلخ(١). عن ابي بكرِ بن أبي شيبة، حَدَّثَنَا وكيعٌ عن سفيان، كالحديث الأوَّل(٢).

- ٥ -

عن قتيبة بن سعيدٍ، حَدَّثَنَا ليثٌ، عن ابن الهاد، عن عبد الله بن خبابٍ، عن أبي سعيدٍ الخدْرِّي: إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه " وآله" وسَلَّم - ذُكر عنده عمُّه أبو طالبٍ، فقال:

لعلَّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ، يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه(٣).

- ٦ -

عن ابي بكرِ بن أبي شيبة، حَدَّثَنَا عفَّان، حَدَّثَنَا حمَّاد بن سلمة: حَدَّثَنَا ثابتٌ، عن أبي عثمان النهدي، عن ابنِ عبَّاسٍ: إنَّ رسول الله قال:

أهون أهل النَّار عذاباً: أبو طالبٍ، وهو منتعلٌ بنعلين: يغلي،منهما دماغه(٤).

- ٧ -

عن مسدَّد، حَدَّثَنَا يحيى، عن سفيان، حَدَّثَنَا عبد الملك، حَدَّثَنَا عبد الله بن الحرث، حَدَّثَنَا العبَّاس بن عبد المطَّلب رضي الله عنه، قال للنَّبي - صلَّى الله عليه "وآله" وسَلَّم -: ما أغنيتَ عن عمِّك؟؛ فإنَّه كان يحوطك، ويغضب لك؟. قال:

هو في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ، ولولا أنا، لكان في الدَّرك الأسفل مِنَ النَّار!(٥).

---

(١) - صحيح مسلمٍ ١٣٤، ١٣٥: ١، [باب شفاعة النَّبيِّ لأبي طالبٍ] إلخ.
(٢) - صحيح مسلمٍ ١٣٤، ١٣٥: ١، [باب شفاعة النَّبيِّ لأبي طالبٍ] إلخ.
(٣) - صحيح مسلمٍ ١٣٥: ١ .
(٤) - صحيح مسلمٍ ١٣٥: ١ .
(٥) - صحيح البخاري ٢٠١: ٢ [باب قصَّة أبي طالبٍ].

- ٨ ، ٩ -

عن عبد الله بن يوسف، عنِ اللّيث - إلخ - كما في الحديث الخامس(١).

عن إبراهيم بن حمزة، حَدَّثَنَا ابن أبي حازمٍ، والـدَّراوردِيُّ، عـن يزيـد، بهـذا الحديث الخامس - وقال: تغلي منه أمُّ دماغه(٢).

* *

الرُّواة:

والآن نطوف بهذه الحلقات، الـتي جاءت بمثل هـذا الحديـث، لِنتعرَّف على مكانة الرُّواة، مِنْ بين رجال الحديث: وكفَّتهمُ الشَّائلة، في ميزان الرِّجال:

- ١ -

ننظر في رواة الحديث الأوَّل:

أ - لم نجد لعبيد الله القواريريِّ أثراً في "الميزان". وَقَدْ وقفنـا علـى حديـثٍ - في الغدير - مِنْ بين رواته عبيد الله هذا، وَقَدْ عَرَضَ لـه المؤلّف بـالتَّزييف. فقـال عـن عبيد الله:

[وفي الإسناد عبيد الله القواريريُّ، روى عنه البخاريُّ خمسـةَ أحاديث، فحسـب، ومسلمٌ أربعين حديثاً؛ وَقَدْ سمع منه أحمد بن يحيى مائـة ألف حديـثٍ، فما حكـم ذلـك الحوش الحائش، لمَّا جاء به القواريـريُّ بعدمـا لم يـأخذِ البخاريُّ ومسـلمٌ منـه، إلاَّ عـدة أحاديث، وضربَا عن كلِّ ذلك صفحاً. ومِنَ المستعبد جدّاً: عدم وقوفهما عليها](٣).

---

(١) - صحيح البخاري ٢٠١: ٢ [باب قصَّة أبي طالبٍ].

(٢) - صحيح البخاريِّ ٢٠١: ١ .

(٣) - الغدير ٢٩٥: ٩، مسنداً ما ذَكَرَه، لِتهذيب التَّهذيب ٧: ٤١ .

ب ـ وكذلك محمَّد بن أبي بكرِ المقدميُّ، لم نجد له ذكراً، سوى ذكرِ لمحمَّدِ بن أبي بكرِ، بأنّه مجهولٌ[1].

وَقَدْ جاء في الغدير: حديثٌ، زُيِّف هناك، ومِنْ رواته: محمَّدٌ بن أبي بكرِ المقدميُّ[2].

ج ـ أما محمَّدٌ بن عبد الملك الأُمويُّ، فيكفينا: أنْ يكون أُمويّاً، ليضع مثل هذا الحديث، أو يروي مايُماثله، في حقِّ شيخ الأبطح.

وإنْ يكن هو محمَّدٌ بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، فيكفينا: أنْ يكون أبوه هذا الطَّاغية، وجدَّاه هذين الملعونين على لسان الرَّسول، وهما الوزغان ـ في تعبيره(ص) ـ

والحكم هو: الملعون، وما أنتج؛ وهو طريد الرَّسول.

ومروان، ليس سوى فضضٍ مِنْ لعنة رسول الله ـ كما عبَّرتِ السَّيِّدة عائشة.

وأمَّا محمَّدٌ هذا، فَقَدْ قال عنه أبو داوُود؟ "لم يكن بمحكَم العقل"[3].

د ـ ولْندَع أبا عوانة: خفيّاً في غموضه.

هـ ـ عبد الملك بن عميرِ: وليَ قضاء الكوفة، بعد الشُّعبيِّ، فَطَالَ عمره، وساء حفظه ـ كما يقول الذَّهبيُّ.

وَقَدْ قال عنه أبو حاتم: ليس بحافظٍ، تَغيَّرَ حفْظه. وقال الإمام أحمد: ضعيفٌ يغلط. وقال ابن معينِ: مخلَّطٌ.

وقال ابن خراشِ: كان شعبة لايرضاه. وذكر الكوسج عن أحمد: أنّه ضعيفٌ جدّاً[4]. وقال ابن حبَّانِ: كان مدلّساً[5].

---

(١) ـ ميزان الاعتدال ٩٦: ٣ .

(٢) ـ الغدير ٢٧٠: ٩ .

(٣) ـ الميزان ٩٦: ٣ .

(٤) ـ الميزان ١٥١: ٢ .

(٥) ـ دلائل الصِّدق ٤٥: ١ ـ مع بعضٍ مِنَ الأقوال السَّابقة.

ومِنْ فضائل هذا القاضي السَّيِّء ـ وماأكثر بلايا الأُمَّة، ومِنْ قضاة السُّوء هؤلاء! ـ أنّه مَرَّ بعبد الله بن بقطر، وَقَدْ القاه ابن زيادِ الطَّاغية، مِنْ عالي القصر، وبه نَفَسٌ، فأجهز عليه حضرةِ القاضي "الرَّحيم" بمديتِهِ(١).

وهذه حادثةٌ، لهذا القاضي ـ وما هو سوى صورةٍ للقضاة البَطل!، الذين يُصدرون أحكامهم، مستمَّدةً مِنَ العاطفة، مسيرَّةً بالشَّهوة! ـ فَقَدْ تَقَدَّمَتْ له كلثم بنت سريع حين ما كان على قضاءِ الكوفة ـ مخاصمةً أهلَها، فما إنْ قضى لها عليهم، حتى ظنَّ في حكمه، وحامت حوله الرِّيَب والشبهات، فانطلق لسان الشِّعر، يُجسِّد هذه التُّهم، ويُصوِّر خطوطها، فقال هذيل بن عبد الله الأشجعيُّ:

أتاهُ وليدٌ بالشُّهودِ، يقودُهُمْ
على مَا ادَّعَى مِنْ صامتِ المالِ والخوَلْ
وجاءتْ إليهِ كلْثمٌ، وكلامُهَا
شفاءٌ مِنَ: الدَّاءِ المخامرِ، والخَبَلْ
فأدلَى وليدٌ عندَ ذاك بحقِّهِ،
وكانَ وليدٌ ذَا مراءٍ، وذا جدَلْ
وكانَ لَهَا دلٌّ وَعينٌ كحيلةٌ
فأدلَتْ بحسْنِ الدَّلِّ منها، وبالكَحَلْ
فَفَتَنتِ القبطيَّ حتَّى قضى لَهَا
بغيرِ قضاءِ اللهِ، فيْ السُّوَرِ الطُّوَلْ
فلوْ كانَ مَنْ بالقصرِ يعلمُ علمَهُ
لَمَا استُعملَ القبطيُّ فينَا على عَملْ(٢)

---

(١) ـ أعيان الشِّيعة ص ٢٢٢ ج٤ ق ١ .

(٢) ـ عُرف عبد الملك بن عمير، بالقبطيِّ، لفرسٍ له، كان اسمه: قبطي ـ الميزان ١٥١: ٢ .

لـــهُ حـــينَ يقضـــيْ للنســـاءِ تخـــاوصٌ
وكـــانَ وَمـــا فيـــهِ التخـــاوصُ والحَـــولْ(١)
إذَا ذاتُ، دلٌ كلّمتُـــــــهُ بحاجـــــــةٍ
فَهَـــمٌ بـــأنْ يقضـــيْ تنحنـــحَ، أوْ سعَـــلْ
وبَـــــرَّقَ عينيــــهِ ولاكَ لسانَـــــــهُ
يرى كـلَّ شيءٍ مَا خـلاَ شخصَهَا جلَلْ(٢)

ـ ٢ ـ

وننتقل لرواة الحديث الثّاني:

أ ـ تبدأُ سلسلة الحديث، حسب العادة، بهذا الغامض: ابن أبي عمر؟

ب ـ وبعده سفيان الثّوريُّ، وهو الذي سَبَقَ أنْ تعرَّفنا عليه، في أوَّل حديثنا، عمَّا حُرِّف في حقِّ أبي طالبٍ ـ فوجدناه كذّاباً مدلّساً(٣).

ـ ٣ ـ

أمّا سلسلة الحديث الثّالث، فَقَدْ سَبَقَ أنْ وقفنا عند أفرادها، كمحمَّدِ ابن حاتمٍ، ويحيى بن سعيد(٤)، وسفيان(٣).

ـ ٤ ـ

ويُوافينا في الحديث الرَّابع:

أ ـ أبو بكرٍ بن أبي شيبة: عدَّه الذهبيُّ مِنْ: مجاهيل الإسم(٥).

---

(١) ـ تخاوص: غضَّ مِنْ بصره وهو ـ مع ذلك يُحدِّق النّظر! وهو يعني هنا: أنه يُسارق النّساء اللّحظات المشبوهة.

(٢) ـ الجلَل مِنَ الأضداد.وهو ـ هنا ـ الهيِّن اليسير.

– ارجع للحادثة والشّعر للبيان والتّبيين ٣٧١: ٣.

(٣) ـ ص ٣٠٢، ٣٠٣ في النسخة التي بين أيدينا.

(٤)– ص ٣٢٢،٣٢٣.

(٥) ـ ميزان الاعتدال ٣٩٥: ٣ .

ب ـ ولسنا نعلم مَنْ وكيع هذا؟.

فإنْ يكن هو: وكيع بن الجرَّاح. فَقَدْ قال ابن المدينيُّ: كان وكيع يلحن، ولو حَدَّثتُ بلفظه، لكانت عجباً، كان يقول: حدثنا الشُّعبيُّ، عن عائشة...!

وسُئل أحمد بن حنبل: إذا اختلف وكيعٌ، وعبد الرَّحمن بن مهديٍّ، بقولٍ، بِمَنْ نأخذ؟ فَقَالَ: عبد الرَّحمن يُوافق أكثر، وخاصَّةً في سفيان ــ والحديث هذا، يُروى عن وكيعٍ، عن سفيان.

ورأى الذَّهبيُّ أنْ يُتَمَّ فيه حلقة القدح، فقال فيه، عن ابن المدينيِّ، في التَّهذيب:"كان فيه تشيُّعٌ قليلٌ".

وهذه النَّغمة ـ مِنَ الذهبيِّ ـ معروفةٌ، تُعبِّر عن طائفيَّته البغيضة المقيتة... فهو إذا شاء أنْ يُبالغ في قدحه لشخصٍ، نَسَبَهُ للتَّشيُّع، الذي هو ـ لديه ــ فوق الكفر والزَّندقة.

ونحن لسنا في مجال حسابه عن هذا... ولكن مِنْ فمه أُدينه.

فإذا كان ليس ثقةً، لتشيُّعه ـ فلماذا يُؤخذ منه حديثٌ، لو صَحَّ تشيُّعه، لانْتفى عَزْوُ الحديث إليه، لأنَّهُ يُخالف عقيدته الحقَّة، في شيخ الأبطح...؟

وعلى كلٍّ، فنحن لايهمُّنا كونه شيعيّاً، أم لم يكن. ولكن يهمُّنا: أنَّ الرَّجل غير مقبولٍ، عند مَنْ يتشبَّث بحديث الضَّحضاح!.

ـ ٥ ـ

وهذا ما ضمَّه الحديث الخامس:

أ- قتيبة بن سعيدٍ، يقول عنه الذهبيُّ: لايُدرى مَنْ هو؟[1].

ب ـ اللَّيث: هناك حفنةٌ، ليس بينهم سوى المجهول، والضَّعيف،والمنكَر، ومضطرب الحديث ـ إلخ..

---

(١) ـ الميزان ٣٤٥: ٢ .

فإنْ يكن هو اللّيث بن سعد ـ كما يقول صاحب شيخ الأبطح[1] ـ فَقَدْ قال عنه يحيى بن معينٍ: إنه كـان يتساهل في :الشّيوخ، والسَّماع. وذكره النّباتيُّ في تذييله على الكامل[2] ـ وهو «كتابٌ في الضُّعفاء»[3].

ج ـ أمَّا ابن الهاد ـ وهو: يزيد بن عبد ا لله بن الهاد ـ فَقَدْ أورده أبو عبد ا لله بن الحذّاء، في "باب مَنْ ذُكر بجرْحٍ مِنْ رجال الموطأ".

وقال عنه ابن معينٍ: يروي عنِ كلِّ أحدٍ[4].

د ـ وأمَّا عبد ا لله بن خبَّاب، فَقَدْ قال عنه الجوزجانيُّ: لايعرفونه[5].

ـ ٦ ـ

وفي الحديث السَّادس

أ ـ أبو بكر بن ابي شيبة. وَقَدْ وقفنا عنده في رقم (٤).

ب ـ ومَنْ عفّان، هذا؟

والظّاهر: إنّه عفّان بن مسلم، حيث أنَّ إسناد الحديث عنه، لحمَّاد بن سلمة، لثابتٍ، يُوافق ما ذَكَرَ الذّهبيُّ مِنْ حديثٍ، عنه، في ترجمته له.

وهوَ الذي قال ابن عديٍّ عنه، بعد كلامٍ: وا لله! لو جهد جهده أنْ يضبط في شعبة حديثاً واحداً، ما قدر. كان بطيئاً رديء الحفظ، بطيء الفهم[6].

وقال أبو خيثمة: أنكرنا عفّان، قبل موته، بأيَّامٍ[7].

---

(١) ـ ص ٧٥ .

(٢) ـ الميزان ٣٦١: ١ .

(٣) ـ شيخ الأبطح ٧٥ .

(٤) ـ ميزان الاعتدال ٣١٤: ٣ .

(٥) ـ المصدر ٣٣: ٢ .

(٦) ـ المصدر ٢٠٢: ٢ .

(٧) ـ المصدر ٢٠٣: ٢ .

ج ـ حمَّاد بن سلمة: له أوهامٌ ـ كما يقول الذّهبيُّ.

وقال ابن المدينيُّ: كان عند يحيى بن الضَّرير، عن حمَّاد، عشرة آلاف حديثٍ.

وقال عمرو ابن سلمة: كتبتُ عن حمَّاد بن سلمة، بضعة عشر ألف حديثٍ(١).

هل رأيتَ هذه الكثرة...؟! فعند واحدٍ عنه: عشرة آلاف!. وعند الآخر: بضعة عشر ألفاً!. ولاتسل: هل عند غيرهما،مثل هذين الرقمين أم لا؟.

ثم إنّهم قالوا: كان حمَّاد بن سلمة لايُعرف بهذه الأحاديث ـ أي: التي في الصِّفات ـ حتى خرَجَ، مرَّةً إلى عبَّادان، فجاء وهو يرويها، فلا أحسب ـ أيِ: القائل ـ إلاَّ شيطاناً خرَجَ إليه مِنَ البحر، فألقاها إليه.

قال ابن الثَّلجيِّ: فسمعتُ عبَّاد بن صهيب، يقول: إنَّ حمَّاداً كان لايحفظ، وكانوا يقولون: إنها [دُرِسَتْ](٢) في كُتبه. وَقَدْ قيل: إنَّ ابن أبي العوجاء كان دبيبته(٣)؛ فكان [يدرس](٢) في كُتُبُه(٤).

ويكفينا لنقض: تفضيل، وتوثيق مَن ادَّعى ذلك له: أنَّ الذّهبيُّ أورد له ـ بعد دفاعه، عنه، ومدحه له ـ أحاديثَ، تنال الخالقَ العظيم نفسَه؛ إذ جَسَّمَهُ، كأبشع وأقبح مايكون التَّجسيم ـ تَنَزَّه ا لله سبحانه، عمَّا يفترون، وتعالى علوّاً كبيراً...!

فَقَدْ حَدَّثَ حمَّاد هذا، عن ثابتٍ، عن أنس: أنَّ النَّبيَّ ـ صلى ا لله عليه «وآله» وسلَّم ـ قرأ: ﴿فلمَّا تجلّى ربُّه للجبل﴾، قال: أخرج طَرَفَ خنصره، وضَرب على إبهامه، فَسَاخَ الجبل.

فَقَالَ حميد الطَّويل لثابتٍ: تُحدِّث بمثل هذا؟. قال: فَضَرَبَ في صدر حميدٍ، وقال: يقول أنسٌ،ويقوله رسول ا لله ـ صلّى ا لله عليه «وآله» وسلّم ـ وأكتمه أنا...؟

---

(١) ـ ٢٧٧: ١ .

(٢) ـ كذا وجدناها. ولعلَّ الصِّحَّة: دُسَّت ويَدُسُّ.

(٣) ـ في الطَّبعة الأخرى: "ربيبته" ، ولعلها الأصحُّ، أو الصَّحيحة. وبهذا وجدناها مصحَّحا في طبعةٍ حديدةٍ، لدار إحياء الكتب العربيَّة بمصر، عام ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢ م.

(٤) ـ الميزان ٤٧٨: ١ .

رواه جماعةٌ عن حمَّادٍ، وَصَحَّحَه التِّرمذيُّ(١).

فَهل مِنْ قيمةٍ ـ بعد هذا ـ لحديثٍ، يُوصف بالصِّحَّة...؟ وهل مِنْ حديثٍ ـ بعد هذا ـ لاينال مثل هذه الصِّفة...؟!

وحمَّاد ـ أيضاً ـ هو الذي يروي مرفوعاً: رأيتُ ربِّي ـ وهو ربُّ حمَّاد، لاربُّنا العظيم! ـ جعْداً أمرد، عليه حلَّةٌ خضراء...! وأنَّه رآه في صورة شابٍّ أمرد، دونه سترٌ مِنْ لؤلؤ، قدميه ورجليه في خضرةٍ [كذا؟!](٢).

حتّى أنَّ الذَّهبيَّ، نسي مدحَه السَّالف فيه، فَعَقَّب على مثل هذه الأحاديث بقوله: [فهذا مِنْ أنكر ما أتى به حمَّاد بن سلمة. وهذه الرُّؤية رؤْية منامٍ، إنْ صَحَّتْ](٣).

ثمَّ ذَكَرَ: إنَّ ابن عديٍّ، ساق لحمَّاد جملةً، ممَّا ينفرد به متناً، أو إسناداً(٤).

وَذَكَرَ: أنَّ البخاريَّ قَدْ تحايده(٥) ـ أيْ: لم يروِ عنه شيئاً.

د ـ ثابت: لاندري مَنْ هذا؟ فهناك حفنةٌ بهذا الإسم، فيهمُ: الكذوب، الضَّعيف، المجهول، ومنكر الحديث(٦). ولاندري بمكانه، مِنْ بين هذه الصِّفات.

ولعلَّ هو ثابت بن أبي ثابتٍ ـ فيكون أخاً لحبيب بن أبي ثابت، أوَّل مَنْ وقفنا عنده، حول هذا التَّحريف، والتَّزوير، في حقِّ شيخ الأبطح(٧). فإنْ يكن هو ـ فَقَدْ عَدَّه الذَّهبيُّ: مجهولاً(٨).

---

(١) ـ الميزان ٢٧٨: ١ .

(٢) ـ الميزان ٢٢٨: ١ .

(٣) ـ الميزان ٢٢٨: ١ .

(٤) ـ الميزان ٢٢٨: ١ .

(٥) ـ المصدر ٢٧٩: ١ .

(٦) ـ المصدر ١٦٨ ـ١٧٢: ١

(٧) ـ ص ٣٠٣ .

(٨) ـ الميزان ١٦٨: ١ .

ولكنه ـ طبعاً ـ هو مايروي عنه حمّاد بن سلمة. ويكفينا منه أنْ يتّفق مع حمّاد في الحديث السّابق، عن تجسيم الخالق الأعظم.

وإنْ كان ذاك الحديثَ مِنْ نكرِ حمّادٍ، فإنّ المتجرّىء على الله سبحانه، لا يرتدع عن عباده الذين اصطفى.

هـ ـ أبو عثمانِ النّهديُّ: ليس مِمَّنْ يُعرَف(١).

ـ ٧ ـ

وَقَدْ ضَمَّ الحديث السّابع:

أ ـ مسدّد: لم نعرفه مَنْ هو؟. فما هناك ـ في الميزان ـ سوى المسدَّد بن عليّ، وفيه تساهلٌ(٢). ولكن لانعلم هل هو هذا؟، أم غيره؟

ب ـ أمَّا بقيَّة السِّلسلة ـ وهي : يحيى، وسفيان، وعبد الملك ـ فَقَدْ وقفنا عند كلٍّ واحدٍ منها، وعرفنا قيمته بين الرِّجال.

ـ ٨ ـ

أمَّا الحديث الثّامِنُ، ففيه:

أ ـ عبد الله بن يوسف. إنْ يكن هو: عبد الله بن يوسف التّنيسيُّ ـ كما يقول صاحب شيخ الأبطح(٣) ـ فَقَدْ عدَّه ابن عديّ في الكامل: في الضُّعفاء(٤).

وإنْ يكن هو: عبدالله بن سليمان بن يوسف، الذي يروي عنِ اللّيث، وهو ما أظنُّه، لأنّ الحديث الذي نحن بصدده، قَدْ رواه عبد الله، عنِ اللّيث ـ فإنه ليس، بمعتمدٍ(٥)، وفيه شيءٌ(٦). وَقَدْ رُوي له حديثٌ في الفضائل، أنكره الذّهبيُّ(٧) ـ وكذلك يُنكره كلُّ ذي فكرٍ.

---

(١) ـ الميزان ٣٧٠: ٣ .

(٢) ـ الميزان ١٦٢: ٣ .

(٣) ـ ص ٧٤ .

(٤) ـ شيخ الأبطح، والميزان ٨٩: ٢ .

(٥) ـ الميزان ٨٩: ٢ .

(٦) و (٧) ـ الميزان ٤٢: ٢ .

ب ـ وهكذا تتّصل سلسلة الحديث باللّيث، إلى آخر السّلسلة، التي عرضنا لها، في الحديث الخامس.

ـ ٩ ـ

ونجد بين رواة الحديث التّاسع:

أ ـ إبراهيم بن حمزة. وندعه، ما دمنا لم نقف عنه على أثرٍ!.

ب ـ ابن أبي حازم، واسمه: عبد العزيز : لَيَّنَهُ ابن سيد النّاس، كما ذَكَرَهُ، قبله، العقيليُّ في كتابه ـ ومجرى الكلام يدلُّ على: أنَّ الكتاب، في الضُّعفاء ـ وهم يرونه: سمع مِنْ أبيه.

وأما هذه الكتُب، التي عنده، لغير أبيه، فيقولون: إنَّ كتُب سليمان بن بلالٍ، صارت إليه، ولايدري بأنه يُدلسُّها.

وقال الفلاّس: ما رأيتُ ابن مهديٍّ، حدَّث عنِ ابن أبي حازم، بحديثٍ.

وقال أحمد: لم يكن يُعرف بطلب الحديث. وقيل: إنه ضعيفٌ، إلاّ في حديث أبيه.

وقال ابن المدينيِّ: كان حاتم بن إسماعيل، يطعن عليه، في أحاديث، رواها عن أبيه؛ قال لي حاتم: نهيتهُ عنها، فلم ينته(١).

ج ـ الدَّراورديُّ، وهو عبد العزيز بن محمَّدٍ(٢)، وقال عنه الإمام أحمد: إذا حَدَّثَ مِنْ حفْظِهِ، يهِمُ. ليس هو بشيءٍ. وإذا حَدَّثَ، جاء ببواطيل. وقال أبو حاتم: لايُحتجُّ به. وقال أبو زرعة: سيِّء الحفظ(٣).

د ـ أمَّا يزيد، فلا ندري به مَنْ هو؟ فإنْ يكن يزيد بن كيسان فَقَدْ عرفناه: مِمَّنْ لايُحتجُّ به، أو يُعتمَد عليه(٤).

---

(١) ـ الميزان ١٣٥: ٢ .

(٢)ـ شيخ الأبطح ٧٥ .

(٣) ـ الميزان ١٣٧، ١٣٩: ٢ .

(٤) ـ ص ٣٢٣ .

نظرة في الحديث:

هذه الجولة، التي قمنا بها في صفوف رواة الحديث، لم تُبقِ فينا مكاناً لِثقةٍ، لِنتقبَّل مايروي هؤلاء...!

فإننّا وجدنا في كلِّ سندٍ: حفنةً مِنَ الكذَبة، الضُّعفاء، والخبثاء ـ بَلْهَ المجهولين، والذين لم نقف عنهم على أثرٍ!.

ولو لم نجد في سلسلة الحديث، إلاّ مغمزاً في أحد رواته، فحسب، لَمَا اطمأننا إليه، ولم نثقْ بما جاء به، في أدنى الأُمور... فكيف بهذه السلسلة المفكّكة، والحديث حول إيمان رجلٍ، نَصرَ الإسلام، ورعاه...؟!

على أنَّ هناك جوانب أُخرى، تدعنا أن لانطمئنَّ لهذا الحديث، وأنْ نضرب به عرض الجدار، حتى لو كان رواته مِنَ الثّقاة... وكيف بهم، وهم مِنَ المجاهيل، الكذبة؛ والحديث مِنَ البواطيل...؟!

ويجدر بنا: أنْ نتناول، بالعرض، بعضَ جوانبه المنهارة:

ـ ١ ـ

هناك تضاربٌ في متن الحديث يختلف به المعنى...

ففي بعض الرِّوايات، نجد الجواب المزعوم على الرَّسول(ص)، وهو: [نَعَمْ! هو في ضحضاحٍ مِنْ نارٍ. ولولا أنا، لَكَانَ في الدَّرك، الأسفل مِنَ النّار].

وتُفيدنا هذه الصورة: أنَّ شفاعة الرَّسول معجَّلةٌ له، وأنَّها قَدْ وقعت فعلاً... ويتّضح ذلك أكثر، في الحديث الثّاني الذي جاء فيه:

[نَعَمْ! وجدتُه في غمرات النّار، فأخرجتُه إلى ضحضاحٍ].

ولاندري لِمَاذا لم يُتمَّ الرَّسول نعمتَه على عمِّه، فيُخرجه مِنَ النّار، بعد أنْ كانت له القوَّة والنفوذ، على إخراجه مِنْ غمرات النّار، فيدعه في هذا الضَّحضاح، دون أنْ يُتمَّ نعمته... بل يدعها ناقصةً مبتورةً، حتى ينضوي تحت خطاب المتنبيِّ، أخيراً:

ولَمْ أرَ فيْ عيــــوبِ النّـــاسِ شـــيئاً

كنقْــصِ القـــادرينَ علـــى التّمـــام...!

في حين أنه(ص) النّسخة الكاملة، للبشريَّة والإنسانيَّة، وهو الذي بُعث لِيُتمَّ مكارم الأخلاق، وهو الذي أدَّبهُ ربُّه، فأحسن تأْديبه...!

أمَّا بعض الصُّور الأُخرى للحديث. فهي: "لعلّه تنفعه شفاعتي، يوم القيامة" ـ الخ...!

وهذه الصُّورة، لاتحمل، سوى الدُّعاء.

فلعلَّ ـ كما يُعبِّر النّحويُّون، تحمل معنى "التّرجِّي" ـ فهو يرجو له الشَّفاعة، فَقَدْ تناله، وَقَدْ لاتناله... وإنْ قُدِّرَ لها أنْ تناله، فهي مؤجَّلةٌ له، إلى يوم القيامة!.

وفي بعضها الآخر: أنه "أهون أهل النّار عذاباً، وهو منتعلٌ بنعلين، يغلي منهما دماغه".

وهذا لايشير إلى: أنّه كان أخفَّ أهل النّار عذاباً،مِنْ أجل شفيعٍ، شَفَعَ له، أو لأنه أقلُّ المعذّبين استحقاقاً للعذاب...

وكيف يجوز أنْ يكون الكافر أهون أهل النّار عذاباً؟.

فهل الكافر أهون ذنباً مِنَ العاصي، أوِ المذنب، حتى يكون ذاك، أهون عذاباً مِنْ هذا؟!.

ثم هل هذا هو أهوَن عذاب أهل النّار؟.

وماذا فيه مِنَ: الرّاحة، والتّخفيف؟!.

وهل أعظم مِنْ هذا العذاب ـ نعوذ با لله منه! ـ ولاسيَّما ما زِيد فيها: "حتى يسيل ـ أيْ: دماغه ـ على قدميه"؟(١).

وهذا ما يتنافى، وقولَ مَنْ علّلَ هذا العذاب، بأنَّ ا لله سَلّطَ العذاب على قدميه خاصَّةً، لتثبيته إيَّاهما على تلك المِلّة، فيكون مِنْ مشاكلة الجزاء للعمل(٢).

---

(١) ـ السِّيرة النّبويَّة ٨٤: ١ .

(٢) ـ السِّيرة النّبويَّة ٨٤: ١ .

وَقَدْ نَسَبَ هذا الزَّعم للسُّهيليِّ ـ في قولةٍ متناقضةٍ.

فإنْ يكنِ العذاب على القدمين خاصَّةً ـ فما بال دماغه يغلي...؟!

ولِمَ يسيل حتى يتدفّق...؟! أو يتدفّق حتى يسيل...؟!

وهل الدِّماغ عينٌ لاتنضب...! كلَّما فاضت بما يتدفّق منها، نَبَعَ مِنَ الأعماق ما لايجفُّ؟!.

اللهُمَّ! إنا نعوذ بك، مِنَ: السُّخفِ، والخرافات!.

ـ ٢ ـ

وكيف يشفع الرَّسول لعمِّه، وهو الذي لم يقرَّ في قلبه الإيمان ـ كما يقولون ـ وَقَدْ نُهي الرَّسول عن أقلَّ مِنْ ذلك، في مَا رأينا مِنَ الآيات، لأنَّ الشَّفاعة: فوق الموالاة، وفوق المودَّة، وفوق الرِّفق، بدرجاتٍ ودرجاتٍ...؟!

وهو ـ كما رأينا ـ منهيٌّ عمَّا دونها، فكيف عنها...؟!

وهذه الشَّفاعة مِنَ الرَّسول لعمِّه ـ كما يقولون ـ ما الدَّاعي لها؟.

هل هو العمل، الذي قام به، في :نصرة الرَّسول(ص)، ومؤازرة الرسالة؟.

فما الذي دفعه لهذا العمل؟.

وما الذي دَعَا الرَّسول، لقبول هذه اليد منه ـ إن كانت مِنْ كافرٍ! ـ وهو القائل، في مانقلناه عنه:

"اللهمَّ! لاتجعلْ لفاجرٍ، ولا: لفاسقٍ" ـ إلخ ـ وهلِ الفسق، إلاَّ دون الكفر...؟

أقول: ما الذي دَفَعَ الرَّسول، لأنْ يشفع لعمِّه، فيُخفِّف عنه العذاب ـ إنْ كان كافراً ـ وهناك آياتٌ، تنصُّ على أنَّ الكافر مخلَّدٌ في النَّار، لاتُرجى له رحمة الله، ولايُرجى له أنْ يُخفف عنه العذاب، ولاتنفعه شفاعة الشافعين.

وهذه بعض تلك الآيات:

أ ـ ﴿خَالِدِيْنَ فِيْهَا لاَيُخَفَّفُ عَنْهُمْ العَذَابُ، وَلاَهُمْ يُنْظَرُوْنَ﴾(١).

---

(١) ـ البقرة: ١٦٢ وآل عمران :٨٨ .

ب ـ﴿أُولَئِكَ الَّذِيْنَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ، فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ، وَلاَهُمْ يُنْصَرُونَ﴾(١).

ج ـ ﴿وَذَرِ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوا دِيْنَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيْعٌ. وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا. أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ أُبْسِلُوْا بِمَا كَسَبُوْا، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيْمٍ، وَعَذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ﴾(٢).

د ـ ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا الْعَذَابَ...فَلاَ يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُوْنَ﴾(٣).

هـ ـ ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ، لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوْتُوْا، وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، كَذَلِكَ نَجْزِيْ كُلَّ كَفُوْرٍ﴾(٤).

و ـ ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ فِيْ النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ادْعُوْا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ. قَالُوْا: أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟. قَالُوْا: بَلَى!. قَالُوْا: فَادْعُوْا، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِيْنَ إِلاَّ فِيْ ضَلاَلٍ﴾(٥).

ز ـ ﴿فِيْ جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُوْنَ عَنِ الْمُجْرِمِيْنَ: مَا سَلَكَكُمْ فِيْ سَقَرَ؟!. قَالُوْا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّيْنَ،

---

(١) ـ البقرة : ٨٦ .

(٢) ـ الأنعام: ٧٠ .

(٣) ـ النحل: ٨٥ .

(٤) ـ فاطر: ٣٦ .

(٥) ـ غافر: ٤٩، ٥٠

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِيْنَ، وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِيْنَ، وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّيْنِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِيْنُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِيْنَ﴾(١).

ح ـ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ، إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِيْنَ، مَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ: حَمِيْمٍ، وَلاَ شَفِيْعٍ، يُطَاعُ﴾(٢).

ط ـ وجاء في الحديث: إذَا دَخَلَ أهلُ الجنَّة الجنّة، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقوم مؤذّنٌ بينهم: يا أهلَ النَّار! لاموتَ!. ويا أهلَ الجنَّةِ! لاموتَ!، خلودٌ...(٣).

ي ـ وآخر جاء فيه: يُقال لأهل الجنَّة: خلودٌ لا موتٌ!. ولأهل النَّار: ياأهل النَّارِ! خلودٌ لاموتٌ(٤).

فهذه الآيات ـ ومثلها ما في الحديث ـ كلُّها تنصُّ على تخليد الكافرين في العذاب المهين. وأنَّ العذاب لايُخفّف عنِ الكافر، حتى ساعة مِنْ نهارٍ، لأنَّ الشفاعة ليست مِمَّا تناله.

ـ ٣ ـ

وهذا الحديث ـ بالإضافة إلى: تناقض الرُّواة في متنه، وتضاربها، وإلى تعارضه مع صريح الآيات، التي لاتُجيز الشَّفاعة للكافر، ولايصله أثرها ـ يتعارض بالحديث الذي وُضع في أبي طالبٍ، بخاصَّةٍ، وهو حديث: الاحتضار، الذي ناقشناه: سنداً، ومتناً.

(١) ـ المدثّر: ٤٠ ـ ٤٨ .

(٢) ـ غافر: ١٨ .

(٣) ـ صحيح البخاريّ ٨٤: ٤ .

(٤) ـ صحيح البخاريّ ٨٤: ٤ .

فحديث الضَّحضاح، وحديث الاحتضار، يتناقضان، ويتعارضان، فهما على طرفي نقيضٍ، لايُمكن الأخذ بهما حتى لو كانا عن طريق الثِّقاة.

وبالرُّغم مِنْ هذا، فإنّنا نجد بعض رجال حديث الاحتضار، بين رجال حديث الضَّحضاح، وفي صورته التي تُفيد معجَّل الشَّفاعة لأبي طالبٍ.

وهي: أظهر تناقضاً، وأصرح تعارضاً، مع ذلك الحديث ـ فكيف جاز لهم رواية حديثين متعارضين: متناً، ومعنىً؟!...

لَقَدْ نسي كلٌّ مِنْ: ابن ابي عمر، ومحمَّدِ بن حاتمٍ، ويحيى بن سعيدٍ... نسي هؤلاء عند روايتهم أحدَ الحديثين، ماكانوا قَدْ خلقوه مِنَ الحديث الأوَّل...!

ونسي هؤلاء بأنَّ على الكذَّاب: أنْ يكون على قسْطٍ محترمٍ مِنَ الذّاكرة، لئلاَّ يَقَعَ في: مثل ما وقعوا فيه، مِنَ الكذب المتناقض، فتنفضح غايتهم، ودخلتهمُ السَّوداء...! ولكن فهذه نهاية كلِّ باطلٍ وافتراءٍ.

لَقَدْ ذكروا ـ في حديث الاحتضار ـ أنَّ الرَّسول(ص)، طلب مِنْ عمِّه كلمةً ـ وهي: الشَّهادة ـ لِيَشهدَ له بها عند ا لله، ويُحاج له بها عنده، ويستحلَّ له بها الشَّفاعة[1] ويقولون: إنّه لم يقلْها.

فهو ـ في هذا المحكيِّ على لسان الرَّسول ـ قَدْ علَّقَ استحلال الشَّفاعة على النُّطق بالشَّهادة، حيث لايحلُّ له ذلك بدونها...

لذلك لم يقولوا فيه: إنَّه شَفَعَ له، وإنّما استغفر له، حتى نهاه ا لله عنه، وأعلمه بخطإِ استغفاره ـ ذلك الوقت الطَّويل ـ رغم مانزلت عليه، مِنْ آياتٍ ناهيةٍ فلم ينتهِ بها...!

ثم يقولون ـ هنا ـ إنَّ الرَّسول شَفَعَ لعمِّه شفاعةً معجَّلةً، صدرت قبل نطقه، بهذه القولة.

---

(١) ـ الغدير ٣٧٠، ٣٧١: ٧ ـ مسنداً لمصدرين ـوص ٢٤: ٨، عن ستّة مصادر، مع تصحيح الحاكم، والذّهبيِّ له.

[نَعَمْ ! وجدتُه في غمراتٍ مِنَ النّار، فأخرجتُه إلى الضَّحضاح].

فكيف شَفَعَ له ـ في هـذا الحديـث ـ إذا كـان قَـدْ عَلَّقَ الشَّفاعة علـى النُّطق بالشَّهادة، وهو لم يتفوَّه بها...؟

فهل قالها أبو طالبٍ؟، أم لم يقلها؟.

فإنْ لم يكن قَدْ نَطَـقَ بهـا ـ كمـا يقولـون في حديـث الاحتضـار ـ فَقَـدْ رأينـا الشَّفاعة ـ أيّاً كان نوعها ـ لاتنـال الكـافر، في الآيـات الـتي ذكرنـا بعضهـا، حتـى بتخفيف العذاب عنه...؟

كمـا أنهـا لاتنالـه بـالذّات، علـى رأي أصحـاب الحديـث الأوَّل، الـذي عَلَّـقَ الشَّفاعة على نطق تلك الكلمة ـ وحلقة بعض الرُّواة فيهما واحدةٌ.

وهو إنْ نطَقَ بها، فإنَّ مفهوم الكلام والحوار ـ في حديث الاحتضار ـ لايُقْصَرُ على تخفيف العذاب، مِنَ الغمرات إلى الضَّحضاح...!

وهلِ الرَّسول مِـنَ البخـل إلى هـذا الحـدِّ، بحيـث لايشـفع لِمَـنْ نَصَـرَه وَرَبَّـاه، وكفله، إلاّ بتخفيف العذاب...؟!

وَمَاذَا خفَّفَ عليه مِنَ العذاب، بعد فيض دماغه، وتدفُّقه على قدميه؟!.

وهو إنْ نَطَقَهَا، ولم يستحلَّ الرَّسول له الشَّفاعة، إلاّ بعد التفوُّه بها... فإنَّ هذا الحديث ـ في تحديده الشَّفاعة، بتخفيف العذاب ـ يتعارض، مع بعض الأحاديث الأُخرى، الموجودة في الصِّحاح، التي تعتبر النّاطق بالشَّهادة، مِنْ أهل الجنَّة، لا مِنْ أهل النّار:

"مَنْ ماتَ، وهوَ يعلمُ: أنَّه لا إله إلاّ الله، دَخَلَ الجنَّة"(١).

[لاَيدخلُ النّارَ أحدٌ، يقولُ: لاَ إله إلاّ الله"(٢).

ثم إنَّ حديث الضَّحضاح، يتعارض ـ أيضاً ـ في تعجيله الشَّفاعة، بأحاديث أُخرى، تتَّصل بموضوع الشَّفاعة، ونرى مِنَ الخير استعراض جانبٍ منها:

---

(١) ـ صحيح مسلم ٤١: ١ ـ وفي الغدير ٦٤، ٦٥: ٩، ١١٩، ١٢٠: ١٠: بضعةٌ مِـنَ الأحاديث، التي تتَّصل بهذا المعنى.

(٢) ـ سِير أعلام النُّبلاء ٢٩٥: ٢ .

[قيلَ لِيْ: سَلْ، فإنَّ كلَّ نبيٍ قَدْ سأل. فأخّرتُ مسـألتيْ، إلى يـومِ القيامـةِ، فهـيَ لكمْ لِمَنْ شهدَ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ ا للهُ(١)].

فهذا الحديث يُفيد: أنَّ الشَّفاعة مِنَ الرَّسول، لاتنال مَنْ لم يُؤدِّ الشَّهادة. مثله هذه الأحاديث:

[أُعطيتُ الشَّفاعةَ، وهيَ نائلةٌ مِنْ أمّتيْ: مَنْ لا يُشركُ با للهِ شيئاً](٢).

[إنَّ شفاعتيْ لكلِّ مسلمٍ](٣).

[أوحى ا للهَ إلى جبريل عليه السلام: أنِ اذهبْ إلى محمَّد، فقلْ لهُ: ارفَعْ رأسَكَ، سَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشفَّعْ - إلى قوله: أُدخلُ مِنْ أمَّتِكَ مِنْ خلْقِ ا للهِ مَـنْ شـهدَ أنْ لاَ إله إلاَّ ا للهُ يوماً واحداً، مخلصاً، وماتَ على ذلك](٤).

فالشَّفاعة - في هذه الأحاديث - لاينالها، إلاَّ كلُّ مَنْ لفِظ الشَّهادة. وهي وإنْ لم تُحدِّدِ الشَّفاعة، إلاَّ أنها تحتم علينا أنْ نـرى، لمَّا تـدلُّ عليـه كلمـة "الشَّـفاعة": أنَّ المشفوع له، لاتمسُّه النَّار - ولا سيَّما مـع وجـود الحديثـين، اللذيـن يُوجبـان الجنَّـة، ويُحرِّمان النَّار، على مَنْ تَفوَّهَ بالشَّهادة.

ثم إنَّها مؤجَّلةٌ له، إلى يوم القيامة، حيث لم يسـألِ الرَّسـولَ(ص) مسـألته، الـتي أمره ا للهُ أنْ يُبديها، فَأجَّلَهَا إلى يومِ القيامة. فهو: «أوَّلُ شافعٍ ومشفَّع»(٥).

فكيف شَفَعَ الرَّسول لعمِّه - وهو الكافر، كما يدَّعون - وهو الذي لايشـفع إلاَّ لِمَنْ أدَّى الشَّهادة، وأسلم مخلصاً...؟!

وكيف حدَّدوا الشَّفاعة، وهي مؤجَّلةٌ لذلك اليوم...؟!

---

(١) - الغدير ٢٤: ٨، عنِ الحافظ المنذريِّ - في التَّرغيب والتَّرهيب ص ١٥٠ - ١٥٨: ٤ - مِنْ طريق عبد ا لله بن عمر. وقال: رواه أحمد، بإسنادٍ صحيح.

(٢) - المصدر - عن أبي ذرٍّ، قال: رواه البزَّار، وإسناده جيِّدٌ، إلاَّ أنَّ فيه انقطاعاً.

(٣) - المصدر، عن عوف بن مالكٍ الأشجعيِّ، وقال: رواه الطَّبريُّ بأسانيد، أحدها جيِّدٌ.

(٤) - المصدر عن أنس. وقال المنذريُّ: رواه أحمد، ورواته محتجٌّ بهم في الصَّحيح.

(٥) - صحيح مسلمٍ ٥٩: ٧ .

إذن... فهذا الحديث ليس متناقضاً، مع حديث الاحتضار، فقط، بل مع عدَّة أحاديث أُخرى.

وكفى بهذا التّعارض والتّناقض مسقطاً للحديثين المكذوبين، حتى لو لم تسقط رجالهما الكذبة في ميازين الرِّجال.

فكيف بهم مِنَ الكذبة، والمدلّسين، والتّناقض صادرٌ مِنْ رواةٍ بعينهم...؟

*** ***

وهناك أحاديث، مِنْ نوعٍ آخر، يجدر عرض جانبٍ منها:

أ ـ يدخل الجَنّةَ مِنْ أمّتي سبعون ألفاً بغير حساب(١).

ـ وفي بعضها: "سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألفٍ" ـ لايدري أبو حازمٍ أيَّهما(٢) ـ وأبو حازمٍ أحد رواة حديث الاحتضار...!

ب ـ يُبعث مِنْ هذه المقبرة ـ البقيع الفرقد ـ سبعون ألفاً، يدخلون الجنّة، بغير حسابٍ(٣).

ج ـ لَيدخلنَّ الجنّة مِنْ أمّتي سبعون ألفاً، لاحساب عليهم، ولاعذاب مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفاً(٤).

د ـ إنّي وجدتُ ربِّي ماجداً كريماً، أعطاني مع كلِّ واحدٍ، مِنَ السَّبعين الألف، الذين يدخلون الجنّة بغير حسابٍ، سبعين ألفاً(٥).

---

(١) ـ صحيح مسلمٍ ١٣٦: ١، والبخاريّ ٨٤: ٤، والغدير ٢٨٣: ٥ وفيها طائفةٌ شبيهةٌ بهذا.

(٢) ـ صحيح مسلمٍ ١٣٧: ١، والبخاريّ ٨٤: ٤ .

(٣) ـ الغدير ٢٨٣: ٥ مخرجاً عنِ الطّبرانيِّ في الكبير ١٣: ٤ .

وفي الغدير أحاديث أُخرى، ترى دخول أعدادٍ ـ كهذه ـ للجنّة بغير حسابٍ، مِنْ بعض المدن الأخرى، فَمِنْ بين حائط حمصٍ والزَّيتون، سبعون ألفاً، ومِنْ ظهر الكوفة كذلك، ومِنْ حمص تسعون ألفاً!.

(٤) ـ الغدير ـ عن أحمد، والطّبرانيِّ، والبزّار ـ وفيه ص ١٢٠: ١٠ عن مجمع الزوائد ١٠: ٤٠٥ ـ ٤١١، مثل هذا، أيضاً.

(٥) ـ الغدير ٢٨٣: ٥ . وقال: أخرجه الطّبرانيُّ بسندٍ، رجاله رجال الصّحيح، غير شيخه.

إلى سلسلةٍ طويلةٍ، مِنْ هذه الأحـاديث، ذات الأرقـام الهائلـة، ولسـنا نريـد أن نشغل فكر القارِىء، بالإكثار منهـا، فـيروح يضـرب السَّـبعين الألـف، في السَّـبعين الألف، ليرى ما سيُصفيِّه الحساب.

ولكن فهـلِ اسـتعراض واضـع حديـث الضَّحضـاح، هـؤلاء السَّـبعين الألـف، والسَّبعين الألف، التي مع كلٍّ واحدٍ، مِنْ أولئك السَّبعين الألف...؟!

...هل دَخَلَ في هذه الزُّمرة الهائلة، فلم يجـد بينهـم أبـا طـالبٍ، وَدَخَـلَ النَّـار، فَوَجَدَه في الضَّحضاح، يتدفَّق دماغه على قدميه...؟!

ونُشير إلى: أنَّنا لانلتزم بكثيرٍ، مِنْ هذه الأحاديث، التي أتينا عليها، في ما تحدَّثنا به، عن "حديث الضَّحضاح". وليس مِنْ موضوعنا: تناولها، أو العرض لها.

وإنَّما رأينا: أنْ نُحاجج بها واضع حديث الضَّحضاح، ليس إلاَّ...! وذلك أنَّها جميعها واردةً في الصِّحاح، وتستقي جميعها، مِنْ مصدرٍ واحدٍ، وتلتقي عند أكثر مِنْ غرضٍ...!

ونرى: أنْ نقف عند قولة رجلٍ مِنَ الأنصار، كـان آخـر مَـنْ أقامـه معاويـة ـ مِنَ الخطباء ـ للعْن عليٍّ "عليه السَّلام"، ويقال له: أنيس، فحمد ا لله وأثنى عليه، ثم قال:

[إنَّكم قدْ أكثرتمْ ـ اليوم ـ في: سبِّ هذا الرَّجل، وشتمه، وإنِّي أُقسم با لله! إني سمعتُ رسول ا لله(ص) يقول:

لأشفع، يوم القيامة، لأكثر ممَّا على الأرض، مِنْ مدرٍ، وشجرٍ.

وأقسم با لله! ما أحـدٌ أوصـل لرحمـه منـه...!، أفـترون شـفاعته تصـل إليكـم، وتعجز عن أهل بيته...؟!(1)].

يا لروعة هذه الكلمة؟ حتى أنَّه لايخلو معها قولٌ، أو تعليقٌ!.

---

(1) ـ الغدير ٢٦١: ١٠، عن أُسد الغابة ١: ١٣٤ .
وذُكر في الإصابة ٨٩: ١، إلاَّ أنه لم يُشَر فيها، إلى أن معاوية، هو المقيم لهذا اليوم، الأدكن.
وأُشير للحديث ـ الذي رواه أنيس عنِ الرَّسول (ص) ـ في الإستيعاب ٣٧: ١ .

- ٤ -

رأينا: أنَّ حديث الضَّحضاح، يُفيد الشفاعة، مِنَ الرَّسول لعمه، وهي: إمَّا أنْ تكون،، بعد أداء أبي طالبٍ للشَّهادة، فهي تنفي عنه النّار، لأحاديث الشّفاعة، التي عرضنا لها.

وإمَّا أنْ تكون للشَّفاعة له، قبل أدائه الشَّهادة، فهي ساقطةٌ بما نَوَّهَتْ به الآيات الشَّديدة.

وإذا لحظنا: أعمال أبي طالبٍ، وأقواله... ولحظنا شهادات: الرَّسول، وعترته... ونظرنا سقوط ميزان الرُّواة للحديث... رأيناه: ساقطاً... بالإضافة إلى أنّه يُعارض صريح القرآن.

وحديثٌ يعارض صريح القرآن ــ حتى مع وثاقة الرُّواة ــ ليس له سوى الجدار، يُصفع به، إنْ لم يمكن تأويله على محملٍ صحيح... فكيف ــ مع: معارضة القرآن، وسقوط الرُّواة ـ ثمّة وفرةٌ مِنَ الدّلائل، تُناقضه وتمحوه، وتجهز عليه...؟!

- ٥ -

إنَّ الحديث مسندٌ للعبَّاس ـ وحاشاه!. وهو معارَضٌ بحديث الإحتضار، المنقول عن العبَّاس ـ أيضاً ـ حيث جاء فيه: إنّه سمع ابا طالبٍ ــ في نَفَسهِ الأخير ــ يُردِّد الشَّهادة، التي أرادها الرَّسول، منه، لِيستحلَّ له بها الشَّفاعة، فقال له:

"لَقَدْ قَالَ الكلمةَ، التي أردتها منه".

وَقَدْ قلنا، في التّعليق على حديث الإحتضار:

إنَّ على مَنْ يقول بصحَّته: أنْ يأخذ به، حتى نهايته، وإلاَّ فيرمي به بكامله، لا أنْ يأخذ ما يُحقّق الشّهوة، ويترك ما يُنافي الغرض...

ثم إنَّ مَنْ يُسلِّم بصحَّة الحديثين ـ الإحتضار، والضّحضاح ـ يقع في :التّعارض، والتناقض، بينهما، حسب ما أشرنا لذلك في الرَّقم الثّالث، مِنْ هذا التّعليق[1].

ومَنْ رَفَضَ أحدهما، لزمه رفضُ الآخر، لاتّحاد بعض الرُّواة، في الحديثين... فَمَنْ يُرفض منه حديثٌ، لايُؤخذ منه آخر...!

ـ ٦ ـ

كيف لاتصل شفاعة الرَّسول(ص) لعمِّه، بأنْ تأخذ بيده، مِنْ ضَّحضاح النّار، إلى ظلال الجنَّة ـ بعد أنْ أخذ بيده مِنْ غمرات النّار، إلى الضَّحضاح، كما يفترون ـ فيُتمَّ نعمته،وهو القادر على التّمام...؟! في الحين، الذي نجد حديثاً، في فضائل الخليفة عثمان، يقول:

"لَيدخلنَّ بشَّفاعة عثمان، سبعون ألفاً ـ كلُّهم قدِ استوجبوا النّار ـ الجنَّة، بغير حسابٍ[2].

لاحظ هذا الرَّقم: السَّبعين الألف، الذي يكاد يسِم هذه الأحاديث، التي تُريد إدخال هذا العدد الثّابت للجنّة، بغير حسابٍ، مع أنّهم يستوجبون النّار...!

ثم نتساءل: هلِ الخليفة أكرم عند ا لله، مِنْ محمَّدٍ...؟

ولم تكن للخليفة هذه المنزلة ـ أو يصحُّ الحديث!، وتتحقّق الأماني والرَّجاوات! ـ إلاَّ لدخوله في الإسلام، وصحبته لصاحب الرِّسالة...!

أقول: أليس للرَّسول مِنْ قيمةٍ عند ا لله، تُساوي واحداً، مِنْ سبعين ألفاً، مِنَ الكرامة والقيمة، التي للخليفة الثالث، عند ا لله...؟!

---

(١) ـ ص ٣٩٢ .

(٢) ـ الصَّواعق ٦٥، الغدير ٢٤٨: ٩ ـ عنِ "الفتوحات الإسلاميَّة" لدحلان ـ وفي أيضاً، ص ٣٠٣: ٩: "أنّه يشفع في عدد: ربيعة، ومضر"!. وَقَدْ بَسَطَ عِلَلَه!.

أفلا يُشفّعه الله في عمّه، إذا كان مستحقاً للنّار ـ كما يفترون ـ وَقَدْ أسدى الرّسول الأيادي الجسام، التي طَوّقَ بها عنق كلّ مسلمٍ، فيُدخله الجنّة ـ في الحين الذي نجد ما يقول: إنّ الله مشفّعٌ عثمان في سبعين ألفاً، وكلُّهم قَدِ استوجبوا النّار، فتشملهم رحمة الله، ويُدخلهمُ الجنّة... بشفاعة الخليفة...!!!

... ولاتشمل هذه الرّحمة الواسعة، بل تضيق عَمَّنْ نَصَرَ دِينه، وآزر رسالته، وكفلَ رسوله، وَتَحوَّطَه، فلا تنفعه شفاعة الرّسول، إلاّ بتخفيف العذاب، فحسب...؟! وماهو هذا التّخفيف المزعوم...؟!

صحيحٌ! إنَّ أبا طالبٍ، مِمَّنْ يدخل الجنّة، باستحقاق عمله، وهو لايحتاج، أو يتوقّف دخوله لها، على شفاعة شفيعٍ؛ لأنَّ عدالة الله، تحتم بدخوله، جزاء عمله...

وإلا فَلِمَنِ الجنّة، إنْ لم تكن لمثل أبي طالبٍ...؟!

أمَّا الشَفاعة، فهي لِمَنْ لايستحقُّ الجنّة، جزاء العمل، إذ لايستحقُّها ـ حينذاك ـ بالعدالة، وإنما بالعفو والمغفرة...

ولايغفر الله لِمَنْ يُشرك به ـ كذا قضتِ العدالة ـ ولكنه يغفر مادون ذلك، لِمَنْ يشاء ـ وكذا قضتِ المغفرة والعفو!

وما مثل هذا الحديث ـ في أبي طالبٍ ـ إلاّ بباعث البغض للرِّجال الخيِّرين، والكفران بالقيم والإحسان...!

اللهُمَّ! إنّا نعوذ بك أنْ ينسج البغض لأوليائك، على أعيننا، غشاوةً، نضلُّ بها الصُّوى، ونعمى عنِ المنهاج الألحب، والصِّراط الأقوم؛ ونخبط في: مزالق الأخطار، ومهاوي الضّلال...!

المؤمن

الإيمان: كلمةٌ، تعني ـ في اللُّغة ـ التّصديق. فآمنتُ بقولك، تعني: إنّي صدَّقتُ به. وهي ـ بعد ذلك ـ كلمةٌ، خُصِّصت للإيمان، الذي هو ضدُّ الكفر. فالمؤْمِنُ: ضدُّ الكافر!.

إذن...فكلمة "إيمان"، صارت ذات صبغةٍ دينيةٍ، لها تعريفها الخاصُّ.

فالإيمان ـ بالتّعريف الدِّينيِّ ـ هو: اعتقادٌ بالقلب، وتصديقٌ باللّسان، بما أنزل ا لله، على رسوله الأعظم(ص)...

والمؤْمِنُ هو: الذي نجد فيه توافر هذين الشّرطين، مع مايترتّب عليهما، ممّا يتطّلبانه مِنَ القيام بالأركان.

أمّا الإعتقاد بالقلب... فهذا شيءٌ، ليس مِنْ سبيلٍ للعباد، إلى معرفته. فهو عائدٌ للخالق العظيم. إذ هو ـ وحده ـ العليم برواسب الضّمير، وعقيدة الإنسان، المكنونة في الخفايا...

ولكنَّ النّاس تحكم بالظّواهر ـ مادامت غير قادرةٍ، على معرفة الباطن ...

فمتى رأت ظاهر إنسانٍ، تلوح عليه لمحات الإيمان، فليس لأحدٍ أنْ ينال منه، ويتطاول عليه... فإنَّ مَن يفعل ذلك، فإنّه لَمِنَ المبهتين، يُقام عليه حدُّ القذف.

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ: لَسْتَ مُؤْمِناً﴾(١).

فإنَّ ا لله سبحانه، قَدْ نهى أنْ يُقال للملقي بالسّلام، بأنه ليس بالمؤْمن...! فكيف بِمَنْ يُقرُّ بالإيمان في كلِّ لحظاته، ويرعى بذرته الأُوْلى...؟!

وإذا شاء إنسانٌ أنْ يعرف إيمان شخصٍ، فإنّه ليس بمستطيعه، إلاّ أنْ يعرف ذلك، مِنْ أقوال الشّخص...فإنّه ـ حينئذٍ ـ يحكم له بالإيمان، ويحكم له بالجنّة ـ أيضاً ـ إنْ كان الظاهر والباطن صورةً واحدةً...

---

(١) ـ النّساء: ٩٤ .

ويحكم له بالإيمان ـ أيضاً ـ إذا شهد له بذلك الرَّسول، أو أحد الذين تتوافر فيهم العصمة ـ بالمعنى الدَّقيق عندنا ـ لأنَّ الرَّسول لاينطق عنِ الهوى، وإنَّما هو الوحي، الذي يكشف له عنِ الواقع الرَّهين...

والمعصوم، يبلّغ عن الرَّسولِ الموحى إليه، فليس ـ ثمَّة ـ زيفٌ، أو تحريفٌ، ولاتخمينٌ، أو حدسٌ، ولايصدر عن هوىً، أو عاطفةٍ...

لذلك... نستطيع الحكم الباتَّ، بإيمان أبي طالبٍ، مِنَ النَّاحيتين.

فأقوال أبي طالبٍ كلُّها،تشهد له بالإيمان، ويتبعها ذلك العمل الصَّحيح، والجهاد السَّافر... ويتبع هذا وذاك: سيلٌ مِنْ شهادات: الرَّسول(ص)، والأئمة مِنْ آل محمَّدٍ(ص)...

وَقَدْ وقفنا على: ثروةٍ، مِنْ أقواله، المضمَّخة بعطر الإيمان الصَّميم... وصفحاتٍ نواصع، مِنْ جهاده الخالد، الطَّويل الشَّاقِّ... وطائفةٍ مِنَ الشَّهادات، تنطلق مِنْ فم: الرَّسول الأقدس، وعترته الطَّاهرة...

* *

وَقَدْ نرى مِنَ الخير: أنْ نأتي ـ هنا على شيءٍ مِنْ أقواله، التي تتَّصل بهذا العنوان... إنَّه هو القائل:

مليكُ النَّاسِ ليسَ لَهُ شريكٌ
هوَ: الوهَّابُ، والمبدِيْ المعيدُ
ومَنْ تحتَ السماءِ لهو بحقٍّ،
ومَنْ فوقَ السَّماءِ لَهُ عبيدُ(١).

فهذان البيتان، هما: شاهدا صدْقٍ، على أنَّ قائلهما مِنَ الموحِّدين للخالق العظيم، توْحيداً لايخالطه: شيءٌ مِنْ شركٍ، أو ذرَّةٌ مِنْ جحودٍ...

فهو يُعبِّر عن الخالق بـ "مليك النَّاس"، وهو تعبيرٌ إسلاميٌّ قرآنيٌّ: "ملك النَّاس"(٢). وهو ينفي عنه الشَّركة: "ليس له شريكٌ" .

---

(١) ـ إيمان أبي طالبٍ ٢٠، وديوان أبي طالبٍ ١١، والحجَّة ٨٠، وشيخ الأبطح ٨٥ .

(٢) ـ النَّاس: ٢ .

ثم يأتي بشيءٍ مِنْ صفاته، عَزَّ وَجَلَّ... فهو: "الوهَّاب"، الذي بيده مفاتيح الأرزاق، فيهب، ويمنع..وهو :"المبدي"، الذي بَدَأَ الخلق، ولم يكُ شيئاً... وهو: "المعيد"، الذي سيُعيد ما خَلَقَ، بعد الموت...

فهو إقرارٌ باليوم الأكبر: يوم المعاد، الذي يُنصب فيه ميزان العدالة، حيث لاظلم، ولابخس، ولاحيْف...

ثم يقول ـ في البيت الثَّاني ـ إنَّ جميع المخلوقات، هي عبيدٌ لله، سواءٌ مَنْ أظلَّته السَّماء، أو مَنْ كان فوقها...

فهل التَّوحيد، أكثر مِنْ هذا...؟

وهل أبقى لقائلٍ أو مرتابٍ، ذرَّةً مِنْ شكٍّ، لم يجلُها لألاءُ اليقين...؟!

وهل تُعبِّر قولتنا: "لا إله إلاَّ الله" ـ في معناها التَّوحيديِّ ـ أكثر ممَّا عَبَّرَ هذان البيتان...؟

* *

ويقول:

يا شاهدَ اللهِ! عليَّ فاشْهدِ
إنِّي على دِينِ النَّبيِّ أحمدِ
مَنْ ضلَّ في الدِّينِ، فإنِّيْ مهتدِيْ(1)

فهو ـ هنا ـ يُشهد على نفسه ـ بأنَّه على دِين ابن أخيه.

---

(1) ـ النَّهج ٣١٥: ٣، والحجَّة ٨١، وشيخ الأبطح ٨٠ .

وَقَدْ ذَكَرَها المبرِّد ـ في كامله ص ٩١٩: ٣ ـ على أنها مِنْ شعر أمير المؤمنين عليٍّ "عليه السلام" الذي لااختلاف فيه، وأنَّه كان يردِّدها.

ولكنَّه حكمٌ مرتجلٌ... ككثيرٍ مِنَ الأحكام المرتجلة، التي يرمي بها المبرِّد، في كامله.

وَقَدْ يكون هذا الحكم، جاء نتيجة ترديد عليٍّ "عليه السلام" لها، وهو: شيءٌ منتظرٌ ومعقولٌ، مِنْ عدَّة نواحٍ:

بعضها: يتَّصل بموضوع الشِّعر، النَّاطق بصريح الإيمان، والمعبِّر عن كامن العقيدة...

وبعضها: يتَّصل بتجديد ذكرى الوالد الحدِب، النَّاطق بهذا الشِّعر الإيمانيِّ الصَّريح.

ثم يقول: إنَّ الذي لايتّبع هذا الدِّين، ليس إلاَّ تيَّاهـاً في الضَّلال...! وإنّـه هـو المهتدي، حين اتبع هذا الدِّين القويم.

فبربِّكَ قل لي: أليست هذه القولة، أعظم أداءً مِنْ قولك: إنّي مسلمٌ؟.

فلو جاء لك مَنْ يقول: إنّي مسلمٌ ـ اليس قَدْ حَصَّنَ بها: دَمَه، ومالَه، وعرضه؛ فكان كأحد المسلمين، له ماهم، وعليه ماعليهم...؟!

فما بالنا نجحد إسلام هذا الصَّارخ، بملء فيه، لِيُشهد عليه شاهدَ ا لله، بأنّـه قَـدِ اهتدى، بسنى دِين ابن أخيه، ونُنكر عليه ذلك...؟

أليس سوى الضَّلال، الذي يُسدل على العيون، بغشاوته، فيضلُّ عنِ الدِّين مَنْ يضلُّ، ويهتدي مَنْ يهتدي...؟!

ولكنَّ الضَّالَّ، وَقَدْ نَظَرَ للرَّجل الرَّشيد، بمنظار نفسه، يظنُّ هداية ذلك: ضلالاً ـ وهو في الضَّلال، ذلك الخبَّاط...؟!

* *

ومِنْ شعره:

لَقَـــدْ أكـــرمَ ا للهُ النَّـــبيَّ محمَّـــداً
فـــأكرمُ خلـــقِ ا للهِ فيْ النَّـــاسِ أحمَـــدُ
وشَـــقَّ لَـــهُ مِـــنْ إسمـــه، لِيُجِلَّـــهُ
فـذُوْ العـرشِ محمـودٌ، وهـذا محمَّـدُ[1].

فهذان البيتان، فيهما الشَّيء الكثير، مِنَ: التَّوحيد، والإقرار بـالنُّبوَّة، للرَّسولِ الأعظم(ص)...

أمَّاما يتعلق بالإقرار بنبوَّة الرَّسول... فهناك جـانبٌ كبيرٌ... وَقَدْ وجدنا منه الشَّيء الكثير: في ما مرَّ بنا، بين تضاعيف هذا الكتاب.

---

(١) ـ النَّهج ٣١٥: ٣، والحجَّة ٧٥، ومعجم القبـور ١٩٧: ١، والغدير ٣٣٥: ٧، وديوان أبي طالبٍ ١٢، والأعيان ١٤٧: ٣٩ .

ولكن فهذه حفنةٌ، مِنْ بيتٍ وبيتٍ: وَقَدْ يكون مِنْ بينها ما قَدَّمْنَـاه للقـارئ، في ما مضى مِنَ الفصول:

أنـتَ الرَّسـولُ، رسـولُ ا للهِ نعلـمُهُ
عليـكَ نُـزِّلَ مِـنْ ذيْ العـزَّةِ الكُتـبُ

أَلمْ تعلمُـوا: أنَّـا وجدنَـا محمَّـداً
نبيّـاً، كموسى، صـحَّ ذلـكَ فيْ الكُتُـبِ!

أنتَ ابنُ آمنةَ النَّـبيُّ محمَّـدٌ...إلخ
نبيٌّ أتاهُ الوحـيُ مِنْ عندِ ربِّهِ...إلخ
أنـتَ النَّـبيُّ محمَّـدُ ...إلخ

ألاَ إنَّ أحمـدَ قَـدْ جاءَهُـمْ
بحـقٍّ، ولمْ يـأْتِهِمْ بالكـذِبْ

أوْ يُؤمِنُـوْا بكتـابٍ مـنزلٍ عجَـبِ
على نبيٍّ، كموسَى، أوْ كـذِيْ النُّـونِ

لَقَـدْ علمُـوْا: إنَّ ابنَنَـا لاَ مكـذَّبٌ
لدينـا، ولاَ نعبـأ بقـولِ الأباطـلِ

ومِمَّا يُثير السُّخرية، ولكنّه مِمَّا يكشف، عن سوء النِّيَّـة: أنَّ القرافيَّ، يقول بعد هذا البيت:

(تصريحٌ باللِّسان، واعتقادٌ بالجَنان، غير أنَّه لم يُذعن)(١).

وأنا لا أعلم هل عند هذا المغرض، تعريفٌ آخر للإيمان...؟!

أم أنَّ الشُّعور الباطن، أو تداعي الخواطر، هو الذي دعاه لأنْ ينحرف عنِ المسلك الأقوم...؟!

* *

(١) ـ السِّيرة النبويَّة ٨٥: ١ .

هذه حفنةٌ،وإلى جانبها: حفنات، وحفنات... وكلُّها اعتراف سافرٌ بالرِّسالة المحمديَّة... وكلُّها دعايةٌ لرسالته... وكلُّها تدلُّ على التَّبعيَّة منه، لابن أخيه...

وفي هذه التَّبعيَّة، منه لابن أخيه، وهذا الإطراء له: أعظم شاهدٍ، وأكبر دليلٍ على إيمانه برسالته...

وإلاَّ فما الذي يدعوه، وهو الزَّعيم المسوَّد، وشيخ مكَّة، وسيِّد قريشٍ: أنْ يتصاغر، أمام ابن أخيه، هذا اليتيم، الذي في كنفه ربى؛ وتحت جناحه ترعرع؛ وبعطفه ورعايته، صلُب سنه العود...؟!

فهو منه: كالولد، أوِ الحفيد... فهو لايعدو التَّابع له ـ على أيِّ التَّقديرين.

فما الذي يدعوه ـ لولا الإيمان برسالته ـ أنْ يُسوِّده عليه، ويتصاغر أمامه، ويدعوه: "سيِّدي!" ـ في ما رأينا ـ ويُخاطبه بهذا المديح، وهذه العبارات، التي تحمل: التَّقدير، والتَّعظيم، والإكبار، والتَّقديس...؟!

فلو لم يكن هو إيمان، لَماَ تَصاغَرَ له، حتى أصبح أمامه ـ وهو: المتبوع، والسَّيِّد، والزَّعيم ـ كأحد التَّابعين للرَّسول...!

أللعمومة والرَّحم...؟

فَلِمَاذَا لايقف أبو لهبٍ، بعض هذا الموقف، ولانسمع منه، حتى بعض المقاطع، مِنْ هذا الفيض، مِنْ أبي طالبٍ... بل لانسمع منه، سوى الموقف البغيض، والكلام الدَّنيء؟!.

وهل عاطفة الرَّحم، بالتي تقف أمام العاطفة الدِّينيَّة، وهي التي تبتُّ بحديد شفرتها، كلَّ العواطف الأُخرى، ولايقف في وجهها شيءٌ،مهما طغى، وصلب، واشتدَّ...؟

وَقَدْ رأينا كيف تكتسح العاطفةُ الدِّينيَّةُ، عاطفةَ الأُبوَّة والبنوَّة، كموقف عبد الله بن عبد الله بن أُبي؛ وكموقف عديٍّ بن حاتم، مِنِ ابنه زيد، حيث شاء أنْ يُسلمه بيده، إلى يد مَنْ يقتصُّ منه... وَلَمَّا أفلت منه، شَيَّعَه بوابلٍ مِنَ الدُّعاء الحارِّ، لأنْ يرميَه الله، بما يقصف منه الحياة... وغيرهما كثيرٌ...

فالعاطفة الدينيَّة ـ ولاسيما عند مثل هذا الشَّيخ الزَّعيم ـ ليست بالتي تضمحّل وتتلاشى، في قرارة شيخ الأبطح،حتى يتناسى وجودها... فينصر ابنَ أخيه، فحسب ـ وابن أخيه، هو: الدَّاعي لِدِينٍ، غير الدين، الذي ينسبه المغرضون لشيخ البطحاء... بل هو: ثورةٌ، ومعمولٌ، يهدُّ مِنَ الدِّين المزعوم، أسَسه المنهارة...

إنَّ هذا شيءٌ، لايقرُّ في قلبٍ، يُسيِّره قليلٌ مِنْ عقلٍ!.

* *

فهلِ العاطفة النَّسبيَّة ـ وحدها ـ هي التي دعت أبا طالبٍ: أنْ يُزجي للرَّسول هذه الآيات، مِنَ: المدحِ والإطراء، وهذه الأقوال والدِّعايات... لِكسْب الصُّفوف إلى جانبه، والحضِّ على: اتِّباعه، ونصرته:

أعوذُ بربِّ البيتِ مِنْ كلِّ طاعنٍ
عليْنا بسوءٍ، أو يلوحُ بباطلِ(١)
ومِنْ فاجرٍ، يغتابنَا بمغيبةٍ
ومِنْ ملحقٍ فيْ الدِّين مَالمْ نُحاولِ(٢)
كذبتُمْ ـ وبيتِ اللهِ! ـ نُبزى محمَّداً
وَلَمَّا نُطاعنْ دونَهُ، ونُناضلِ(٣)
ونُسلمهُ، حتَّى نُصرَّعَ حولَهُ...
ونذهلَ عنْ: أبنائنَا، والحلائِل !
وحتَّى نرى ذَا الردعِ، يركبُ ردعَهُ
مِنَ الطَّعنِ، فعْلَ الأنكبِ المتحصِّلِ(٤)!

---

(١) ـ في السِّيرة: ملحٌ ـ بدل: يلوحُ.

(٢) ـ في السِّيرة: [ومِنْ كاشحٍ، يسعَى لنَا بمعيبةٍ].

(٣) ـ نُبزى محمَّداً: نُسلَبه، ونُقهر عليه.

(٤) ـ ركب البعير ردعه: إذا سَقطَ، فَدَخلَ عنقه في جوفه.

وفي السِّيرة: الضِّغن، بدل الردع.

وينهضُ قومٌ – في الحديدِ – إليكُمُ:

نهوضَ الرَّوايَا، مِنْ طريقِ جلاجلِ(١)

وإنّا ـ وبيتِ اللهِ ـ إنْ جدَّ ما أرى

لَتلتبسَنْ أسيافُنَا بالأماثلِ(٢)

بكلِّ فتىً، مثلِ الشِّهابِ، سميدعٍ

اخي ثقةٍ، عندَ الحفيظةِ، باسلِ(٣)

ومَا تركُ قومٍ ـ لاَ أباً لكَ ! ـ سيِّداً

يحوطُ الذِّمارَ، غيرَ نكسٍ مُواكلِ(٤)

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجههِ

ثمالُ اليتامى، عصمةٌ للأراملِ

يلوذُ بهِ الهلاَّكُ مِنْ آلِ هاشمٍ

فهمْ ـ عندَهُ ـ فيْ: نعمةٍ، وفواضلِ

وميزانِ. صدْقٍ، لايخيسُ شعيرةً

ووزَّانِ صدْقٍ، وزنُهُ غيرُ عائلِ(٥)

---

(١) ـ الرَّوايا ـ جمع راويةٍ: الدَّابَّة يُستسقى عليها. جلاجل ـ ويروى: حلاحل ـ موضعٌ، على الأظهر. ويُروى: "تحت ذات الصَّلاصل". وهي: المزادات لها صوتٌ مِنْ بقيَّةِ الماء، حين مسير الإبل.

(٢) ـ في السِّيرة: "وإنّا ـ لعمر الله! ـ إنْ جَدَّ ما أرى".

(٣) ـ السَّميدع: السَّيِّد.

وفي السِّيرة: "حاميْ الحقيقةِ باسل".

(٤) ـ الذِّمار: مايلزمك أنْ تحميه. النكس: الدَّنيء الذي لاخير فيه. المواكل: الذي يكل أمره لغيره، حيث لاجدَّ عنده.

وفي روايةٍ: ذرْب. والذرَب ـ محرَّكاً ـ بذاء اللِّسان؛ والمرض، الذي لايبرأ.

(٥) ـ خاسَ بالعهد: نكث، وغدر. وبالوعد: أخلف. عال في الميزان: خان. عال الميزان: نقص.

ويروى هذا البيت، بهذه الصُّورة.

بميزان قِسطٍ لايخسُّ شعيرةً

لهُ شاهدٌ مِنْ نفسِهِ غيرُ عائل

وخسَّ في الوزن: نقص. يريد: أنَّه لايُنقص الحقَّ، ولابمقدار شعيرةٍ، وهي أدنى ماتكون.

أَلَــمْ تعلمُــوْا: أنَّ ابننَــا لاَ مكــذَبٌ
لدينَــا، ولاَ نعبــا بقــولِ الأبــاطلِ[١]
لعمــرِيْ! لقــدْ كُلِّفــتُ وجْــداً بــأحمدٍ
وأحببتُــهُ حــبَّ الحبيــبِ المواصــلِ
وُجــدتُ بنفســيْ دونَــهُ، فحميتُــهُ
ودافعــتُ عنــهُ بــالذرى والكواهــلِ[٢]
فــلاَ زالَ للدنيــا جمــالاً لأهلِهَــا
وشــيناً لمــنْ عــادَى، وزيــنَ المحــافلِ
فَمَــنْ مثلُــهُ فِيْ النــاسِ أيُّ مؤمــلِ
إذا قاسَــهُ الحكّــامُ، عنــدَ التفــاضلِ؟!
حليــمٌ، رشــيدٌ، عــادلٌ غــيرُ طــائشٍ
يــوالي إلاهــاً. ليــسَ عنــهُ بغــافلِ!
وأيَّــدَهُ ربُّ العبــادِ بنصــرِهِ
وأظهــر دينــاً، حقُّــهُ غــيرُ بــاطلِ[٣]

ولانُريـد: أنْ نقـف عنـد هـذه الرَّائعـة، فنتطـاول علـى روعتهـا، إذا تناولناهـا ببسطٍ، أو عرضٍ، أو تحليلٍ... فَلْيَأخذِ القاريءُ منها مايستطيع، فإنّها لَسوف تـأخذ

(١) ـ يُروى: لَقَدْ علموا... إلخ، ولا يُعنى ... إلخ.

(٢) ـ الذُّرى ـ جمْع ذِروةٍ: العلوُّ، والمكان المرتفع. والكواهل ـ جمـع كـاهلٍ: أعلـى الظَّهرممَّـا يلي العنق.

(٣) ـ النَّهج ٣١٥، ٣١٦: ٣، وديوان أبي طالبٍ ١ـ ٦، وإيمان أبـي طـالبٍ ٦ ـ٨، والحجَّـة ٨١ـ ٩٥، والسِّيرة الهشاميَّة ٢٩١ ـ٢٩٩: ١، في ٩٤ بيتاً. وقال ابن هشـام:"وهـذا مـاصحَّ لي مِـنْ هذه القصيدة". وشيخ الأبطح ٣٤، ٣٥، وهاشم وأُميَّـة ١٧٤، ١٧٥،والغدير ٣٣٨ ـ ٣٤٠: ٧، والأعيان ١٤٩، ١٥٠: ٣٩ .

وَقَد اقتصرنا ـ منها ـ على هذه الأبيات؛ وهي ـ هنا ـ غير متّصلةٍ.

على أنَّ هناك بعض اختلافٍ ـ بين الرِّوايات ـ في بعض الكلمات؛ وَقَدْ أشرنا لبعضها.

بمجامع قلبه، وتدع فيه أثراً، بعيداً كلَّ البُعد: عميقاً كلَّ العمق... ففيها مِنَ: الطَّراوة، والقوَّة، والعذوبة، ما تأسر به القلوب...

وهو ليس بالذي يقول القول، فحسب!. ولكن القول مدعَّمٌ بالعمل... فَقَدْ حَاطَ الرَّسول، وَنَصرَه، وَرَعَى الإسلام، وحماه، مالم يستطع جحدانه، حتى العدوُّ البهَّات، الذي وَضَعَ في حقِّه: تلك الأراجيف المبطَلَة...!

* *

فخلاصة القول: في إيمان أبي طالبٍ.

إنَّ إيمانه مِنَ الثُّبوت، بحيث لايحتاج إلى سَوْق دليلٍ... اللّهمَّ! إلاَّ كما تُؤكّد لِمَنِ افتقد الباصرة: بأنَّ الشَّمس تحبو في كبد السَّماء، وأنَّها تُرسل الشُّعاع النَّيِّر، وأنَّ النَّهار مبصرٌ... وما إلى ذلك مِنَ الأشياء المستطيلة، القائمة بنفسها ـ كما يقول أبو الطَّيِّب ـ التي لاتحتاج إلى سَوْق دليلٍ...

ولكن، فيُبرهن لنا على إيمانه: هذه الأقوال، التي يُرسلها مِنْ فيه، وكلُّها تنضح بالتَّوحيد، والإقرار بالرِّسالة... وهذا الجهاد الموصول، الذي قام به، فقام الإسلام...وهذه الشَّهادات مِنَ: الرَّسول، وآله، المطهَّرين بنصِّ الكتاب ـ إذا كنَّا مسلمين . ـ ومِنَ الصَّحابة، الذين لم ينحرفوا عنِ المنهج، ولم تعمِ الأغراضُ منهم القلوبَ...

* *

ولأجل ذلك، وَقَدْ قامتِ الدَّلائل والبراهين على إيمانه... فَقَدْ جزمت به الشِّيعة ـ وليس لها إلاَّ ذلك ـ وقالت به: قولاً، لاتُخالجهُ الرِّيبة، ولايعتوره الشَّكُّ ...وأجمعت عليه، فلم يشذَّ منها واحدٌ؛ إذ أنَّ الشَّاذَّ منها، عن هذا القول، ليس بشيعيٍّ، بعد أنْ جاء ما يُدعِّم إيمانه مِنْ أقوال الأئمَّة ـ مِمَّنْ تدين الشِّيعة لله بإمامتهم، ولاسيَّما قولة الإمام الرِّضا "عليه السَّلام" ـ في ما مَرَّ بنا، عند:"ذكر عطر"...(١)

---

(١)- ص- ٢٦٤ .

فالتّشيُّع، والقول بكفر أبي طالبٍ، لا يجتمعان: لأنَّ القول به: تكذيبٌ للأئمَّة، الذين يقولون برجحان إيمانه؟.

وكيف يكون شيعيَّاً، مَنْ يُخالف أئمَّة المذهب؟.

لذلك... فإنَّ إيمان أبي طالبٍ، يُعتبر مِنَ الضَّرورات المذهبيَّة.

وتبع الشِّيعة الإماميَّةَ في قولها: الأكثرُ مِنَ الزَّيديَّة(١). وقال بهـذا القـول بعض الأكـابر، مِنَ المعتزلـة(٢). ومنهـمُ: الشَّـيخ أبـو القاسـم البلخـيُّ، وأبـو جعفـرٍ الإسكافيُّ(٣).

كمـا أنَّ كثيراً مِـنَ الأوليـاء، العـارفين أربـاب الكشـف، قَـدْ ثَبَـتَ عندهـم إسـلامه(٤)، وقـالوا بنجاتـه. منهـمُ: القرطـبيُّ، والسَّـبكيُّ، والشَّـعرانيُّ، وخلائـقُ كثيرون، وقالوا: هذا الذي نعتقده، وندين الله به(٥).

وَقَدْ قال الإمام أحمد بن الحسين الموصليُّ الحنفـيُّ، المشـهور بـابن وحشـي: "إنَّ بغض أبي طالبٍ كفرٌ"(٦).كما نَـصَّ علـى ذلـك الأجهـوريُّ، في فتاويـه، وهـو مِـنَ الأئمَّة المالكيَّة(٧).

وقال التّلمسانيُّ، عند ذكر أبي طالبٍ: لاينبغي أنْ يُذكر إلاَّ بحماية النَّبيِّ، لأنّـه حَمَاهُ ونَصَرَهُ، بقوله وفعله، وفي ذكره بمكروهٍ أذيّةٌ للنّبيِّ(ص)؛ ومؤذي النَّبيِّ كافرٌ، والكافر يُقتَل(٨)...!

---

(١) و (٢) ـ الشَّرح الحديديُّ ٣١٠: ٣، وشيخ الأبطح ٥٥، وأعيان الشِّيعة ١٣٥: ٣٩ .

(٣) ـ النَّهج ٣١٠: ٣،والأعيان ١٣٥: ٣٩ .

(٤) ـ السِّيرة النُّبويَّة ٨٧: ١، والغدير ٣٨٢: ٧، والأعيان ١٣٥: ٣٩ .

(٥) ـ الغدير ٣٨٣: ٧ .

(٦) ـ المصدر ٣٨٢: ٧، عن شرحه على "شهاب الأخبار" لمحمَّد بن سلامة القضاعيِّ.

(٧) ـ المصدر ٣٨٢: ٧ .

(٨) ـ المصدر ٣٨٢: ٧ .

وقال أبو طاهرٍ: مَنْ أبغض أبا طالبٍ، فهو كافرٌ(١).

وقال دحلان: فقول هؤلاء الأئمَّة بنجاته، أسْلَمُ للعبد، عند الله تعالى، لاسيَّما مع قيام هذه الدَّلائل والبراهين، التي أثبتها البرزنجيُّ(٢).

وللسَّيوطيِّ ـ في هذا الموضوع ـ كتابٌ بعنوان :"بغية الطَّالب لإيمان أبي طالبٍ"(٣)، ويكفينا عنوان كتابه، لِنستشفَّ رأيه ، مِنْ بين سطوره..

ولزيني دحلان كتاب "أسنى المطالب". وَقَدْ أشرنا له، في فصلٍ سابقٍ.

ولسنا نُريد أنْ نتقصَّى المؤلِّفين، في هذا الموضوع، واسماء كُتبهم، وهي مِنَ الكثرة، بحيث لاتُحصى.

* *

أمَّا القائل بكفره ـ واستغفر الله! ـ وهو: بين مَنْ تعامى عنِ الحقِّ، فَوَضَعَ تلك التُّهم، وافترى ذلك الكذب، وَقَالَ ذلك الزُّور؛ وَتَقَاضَى على ذلك أجره العاجل، لِيتبوَّء مقاعد مِنَ النَّار، في جهنَّم، فيعرف ـ حينذاك ـ "الدَّرك الأسفل مِنَ النَّار" لِمَنْ...؟!

وبين مَنْ جَاءَ، وقَدْ رأى هذا الزُّور، فلم يهتدِ للجوانب المنهارة منه، ولم يكشف عنه الغطاء المسدول... لو كَشَفَه لَكَشَفَ عن جيفةٍ منتنةٍ...

وَقَدْ رأينا ذلك، بعد ما كشفناه، في الفصل السابق... فلم تبقَ للقائل بكفره ـ وأستغفر الله! ـ حجَّةٌ عليها يعتمد، أو ركيزةٌ عليها يعتضد...

وإنَّ العجب ليأخذ منَّا غايته: أنْ نجحد إسلام وإيمان أبي طالبٍ ـ والشَّواهد تعضد ذلك، والدَّلائل تقوم عليه، والبراهين تُسفر عنه، في الحين الذي نجد مثل هذا الحديث:

---

(١) ـ الغدير ٣٨٢: ٧ .

(٢) ـ المصدر ٣٨٣: ٧ .

(٣) ـ المصدر ٣٨٤: ٧ . وَقَدْ أشرنا ـ في الهامش ١ ـ ص ٣٦٢ ـ إلى تجانف السَّيوطيِّ، على أبي طالبٍ، في كُتبه، عن آباء النَّبي(ص).

ولعلَّ هذا مثل ما وقع لدحلان، في السِّيرة النُّبويَّة، حيث تَنَاقَضَ في مابين الكتابين.

عنِ الشَّريد، قال: ردفتُ رسول ا لله(صلى ا لله عيه "وآله" وسلّم) يوماً، فَقَالَ: هل معك مِنْ شعر أميَّة بن ابي الصَّلت شيءٌ؟.

قلتُ: نَعَمْ!.

قال: هِيْه! فأنشدته بيتاً.

فقال: هيه ثم أنشدته بيتاً.

فقال: هِيْه!. حتى أنشدته مئة بيتٍ.

فقال: إنْ كاد لَيُسلم!. أو قال: فَلَقَدْ كاد يُسلم، في شعره !(١).

وهذا زيدٌ بن عمروٍ، وَقَدْ خرَجَ يطلب الحنيفيَّة: دِين إبراهيم، حتى أخَذَ طريقه إلى الشّام، ومنها إلى مكّة. ولكنّه مات في طريقه إليها، فيروون عن عائشة: أنَّ الرَّسول، قال:

دخلتُ الجنّة، فوجدتُ لزيدِ بن عمروٍ دوحتين(٢).

ويروون: أنَّ سعيداً بن زيدٍ، بن عمرو، بن نفيل، وعمر بنَ الخطّاب ـ وهو. ابن عمِّه ـ قالا لرسول ا لله(ص): "استغفر لزيدِ بن عمرو!".

قال: "نَعَمْ! فإنّه يُبعث أُمَّةً وحدَه"(٣).

ويروون عنه(ص) قوله: رحم ا لله قسّاً ـ قسَّ بن ساعدة ـ يُحشر يومَ القيامة، أُمَّةً واحدةً، أو وحده!(٤).

فما هذا التّناقض...؟!

وما بال كرم الرَّسول ـ وهو معدن الجود والسَّخاء ـ يَتدَفَّق هنا، على البُعداء، الذين لم تمتدَّ منهم، إليه، يدٌ بمعروفٍ، وتنقبض يده، عن أنْ تمتدَّ، لِيردَّ على أبي طالبٍ شيئاً، مِنْ أياديه الحسان، ويُجازيه بالإحسان إحساناً، وَقَد أمره ا لله بذلك:

---

(١) ـ صحيح مسلم ٤٨، ٤٩: ١ .

(٢) ـ السِّيرة النُبويَّة ٩٦: ١ .

(٣) ـ على هامش السِّيرة ١٣٦: ١ ـ عنِ ابن إسحاق ـ واشير إليه، في السِّيرة النُبويَّة ٧٣و ٧٦و ٩٥: ١.

(٤) ـ البحار ٥٧: ٦؛ وفي السِّيرة النُبويَّة ٧٣ و٧٦: ١، ما يُماثله...

كما أنَّ في مروج الذَّهب ٦٩، ٧٠: ١، إشارةٌ لذلك، في قصَّةٍ طويلةٍ.

﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ، إِلاَّ الإِحْسَانُ؟!﴾(١).

فلا يُجازيه بالإحسان، إلاّ سوءاً ـ وحاشا الرَّسول الأعظم!.

* *

بعد هذا... نجد: أنَّ أقلَّ ماينتج عن بهت أبي طالبٍ بالكفر: أنّه إيذاءٌ للرَّسول الأقدس(ص)...!

وكفى بهذا ذنباً عظيماً، وجريمةً لاتُغتفر...!:

﴿والَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ رَسُولَ اللهِ: لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُوْلَ اللهِ﴾(٣).

﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ اللهَ وَرَسُوْلَهُ؛ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي: الدُّنْيَا، والآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيْناً﴾(٤).

ومِنْ هنا... رأينا التلمسانيَّ، كيف أشار لذلك، في ما قاله عن أبي طالبٍ ـ كما وقفنا عنده، قبل سطورٍ ـ إذ حكم بقتل القائل بكفر شيخ الأبطح، لأنّه إيذاءٌ للرَّسول، ومؤذي النَّبيِّ يجب قتْله، فالقائل بكفره يجب قتله!.

وقتْل مؤذي النَّبيِّ، مسألةٌ يكاد يُجمع عليها المسلمون، لصريح الآيات،بتخليد مؤذيه في النَّار.

وليس أذىً لرسول الله، كأذى النَّيل مِنْ عمِّه ونصيره، ببهته بالكفر، وهو: المؤْمِنْ العميق، والنَّصير الفذُّ.

وإذا كانوا يقولون: إنَّ سبيعة بنت أبي لهبٍ ـ تبَّتْ يداه! ـ جاءت للرَّسول شاكيةً، مِنْ قول النَّاس لها: أنتِ بنتُ حطب النَّار...!

---

(١) ـ الرحمن ٦٠.

(٢) ـ التوبة ٦١ .

(٣) ـ الأحزاب ٥٣ .

(٤) ـ الأحزاب ٥٧ .

ـ وبذلك وَصَفَ القرآن أمُّها اللَّعينة، وأباها المنكودُ ـ فيقوم الرَّسول، وهو مغضبٌ، لِيصيح بهم:

"ما بال أقوامٍ يؤذونني في قرابتي؟!.

مَنْ آذاني، فَقَدْ آذى ا لله"!(١).

وأيُّ قرابةٍ، بقيت له، مع ابي لهبٍ، هذا الذي بَتَّ كلَّ قرابةٍ، وَقَطَعَ كلَّ وشيجةٍ، وَبَتَرَ كلَّ صلةٍ...؟!

وإذا كانوا يروون عنِ الرَّسول: لاتسبُّوا الأموات، فتُؤذوا الأحياء(٢).

وبذلك حكموا: "أنَّ أذى النَّبيِّ كفرٌ، يُقتل فاعله، إنْ لم يتُب"(٣).

ورأت المالكيَّة قتْله، وإنْ تاب(٤).

إذا كان هذا كلُّه... أفليس بهْتُ أبي طالبٍ بالكفر: أذىً للنَّبيِّ ـ على أقلِّ تقدير...؟!

وكفى به ذنباً، يُحكم بقتْل مرتكبه ـ عقاباً دنيوياً ـ وتعذيبه بالعذاب الأليم المهين ـ عقاباً أُخرويّاً...؟!

ولعنة ا لله تُلاحق ظلَّه في: الدُّنيا، والآخرة...؟!

ومِنْ أجل هذا... قال السَّيوطيُّ، حول أبوي الرَّسول، في ما دار حولهما مِنْ بهتٍ، كان نصيبهما منه، كالسَّهم الخاطىء عنِ القصد، إذِ الهدف هو: عليٌّ في شخص أبيه... فكان أنْ أخطأ، فأصاب الرَّسول في شخص أبويه: عبد ا لله، وآمنة، وجدِّه عبد المطَّلب.

وعلى كلٍّ... فالرَّسول وعليٌّ: نفسٌ واحدةٌ. وأبو طالبٍ للرَّسول، كعبد ا لله. كما كانت فاطمة له ـ في الأُمومة ـ كآمنة.

---

(١) ـ السِّيرة النُّبويَّة ٧٧: ١، عن ابن مندة.

(٢) ـ السِّيرة النُّبويَّة ٧٧: ١ مرويّاً عنِ: الطَّبرانيِّ، وأحمد، والتِّرمذيِّ.

(٣) ـ المصدر.

(٤) ـ المصدر.

قال السَّيوطيُّ:

[إنّي لم أدَّعِ: أنَّ مسالة الأبوين إجماعيَّةٌ، بل هي مسألةٌ اختلافيَّةٌ(١)، فحكمها حكم سائر المسائل المختلَف فيها، غير أنّي اخترتُ أقوال القائلين بالنَّجاة، لأنه الأنسب بهذا المقام.

والحذر الحذر! مِنْ ذكرهما بما فيه نقصٌ...! فإنَّ ذلك قَدْ يُؤذي النَّبيَّ (صلّى ا لله عليه "وآله" وسلّم)(٢)، لأنَّ العرف جارٍ بأنّه إذا ذُكر أبو الشخص بما يُنقصه، أو وُصِفَ بوصفٍ قائمٍ به، وذلك الوصف فيه نقصٌ، تأذىّ ولده، بذكْر ذلك له، عند المخاطبة](٣)..

وإذا كان مّمَا يُنقص الرَّسول: أنْ يكون واحدٌ مِنْ آبائه مشركاً، فإنّه ـ ولاشكَّ ـ لَمِمَّا يُنقصه: أنْ يتربَّى، في بيت مشركٍ(٤)،ويرعاه وينصره، ويحميه، ويحمي دينه وأتباعه ذلك المشرك...! فيكون مديناً لمشركٍ، نحو هذه الحقوق ـ وما أرفعها شأناً! وأعظمها قيمةً...!

ومِنْ هنا قال الرَّسول: "اللّهُمَّ لاتجعل لفاجرٍ، أو فاسقٍ، عندي نعمةً" ـ كما سَبَقَ أنْ ذكرناه.

وإذا كان الأب المشرك، يُنقص شرف الإبن المؤْمنِ، فإنَّ شرْك أبي طالبٍ، يُنقص ابنه عليّاً ـ وهو لم يُبهت بالشِّرك، إلاّ تنقُّصًا لعليٍّ، في سبيل لملمة بعض

---

(١) ـ لانرى : أنَّ هذه المسألة خلافيَّةٌ، بعد أنْ يقوم البرهان النَّصيع، مدعَّماً بالقرآن، إلى جانب القائلين بإيمان آباء الرَّسول إلى المؤْمنِ الأوَّل: آدم...!

إذ لاتبقى قيمةٌ ـ بعدئذٍ ـ لقول المخالفين، بحيث يجوز أنْ تُعتبر المسألة خلافيَّةً، مادام قول المخالِف يُناقض القرآن، ويُناهض الأدلَّة...!

(٢) ـ لاشكَّ أنَّ هذا يُؤذي الرَّسول...! وليس مِنْ أجل العلَّة، التي بَسَطَهَا السَّيوطيُّ، فحسب، وإنَّما لتجنّيها ـ بغير حقٍّ ـ على مؤْمنين، هم: نبعةُ الإيمان، في ظمأِ الشِّرك؛ وظِلال التَّوحيد، في صحراء الكفر!.

(٣) ـ السِّيرة النُّبويَّة ٧٦: ١ .

(٤) ـ لاشكَّ أنَّ للتربية أثرها الفعَّال، في توجيه الإنسان، نحو الخلال: طيِّبها، وسيئها، لقابليَّة الطِّفل واستعداده للتأثُّر الشَّديد السَّريع بمربِّيه، وتطلُّعه له، في احتذاء: أعماله، وأقواله.

خصائصه ومزاياه، التي انفرد بها، وَمَيَّزته على غيره، مِنْ جميع الصَّحابة، إذ لم يُؤْمنْ أحدٌ مِنْ آبائهم، ولم يرتفعوا عن وهدة النّسب المشرك، ولم يضربوا في الإيمان بعميق الجذور...!

ومِنْ هنا... رأينا كيف حاولوا، فوضعوا بعض الأحاديث، التي تدّعي نسبة البعض، مِنْ آباء الصَّحابة، للإسلام، وتزعم لهم ذلك...!

وهم قَدْ وضعوا هـذه الأحاديث، في قبالة وضْع حديث شرك أبي طالبٍ، لِتخفَّ كفّة عليٍّ، وترجح عليه كفّة غيره، نحو هذه الخصيصة.

ولو صحَّت أحاديث إسلام أولئك، لَمَا تساوتِ الكّفتان، في حالٍ مِنَ الأحوال...! ذلك أنَّ آباءهم، لاشكَّ في أنّهم كانوا مشركين، فأسلموا ــ إنْ صحَّ إسلامهم...

أمَّا أبو طالبٍ، فلم يدرِ: ما الشِّرك...؟! وما أظلم قلبه يوماً بسواد الشِّرك...! بل كان ذلك المتفتّح المشرق ـ دائماً ـ بسنى التّوحيد، ونور الإيمان.

وشبيه بهذا: مادار حول سبق عليٍّ للإيمان بالرَّسول(ص) فوضعوا حول ذلك ما وضعوا، حتى جاء مَنْ لم يستطع جحدان الحقيقة، جهْراً، فحاول تلبيسها ــ ولكن على الغُفْل ـ بقوله:

أوّل مَنْ آمَنَ مِنَ الصِّبيان: عليٌّ؛ ومِنَ الرِّجال: أبو بكرٍ؛ ومِنَ النِّساء: خديجه.

وإذا صَحَّ أنْ يُقال لشخصٍ: أسلم؛ فلأنّه كان كافراً، فأسلم...!

وهذا لايصحُّ في حقِّ عليٍّ، الذي لم يكن كافراً، في لحظةٍ مِنْ حياته،وما انحنى منه الهامُ لصنمٍ، أو وثنٍ؛ بل كان ذلك المرفوع الرَّأس، ينظر لعظمة الله الخالق العظيم، فهو مؤْمِنٌ مِنْ يومهم الأوَّل، لم يمرَّ بطور: الكفر، فالإيمان؛ ولم يسجد لسوى الله...

ولهذا... فالنّقاش في موضوع: أيِّ واحدٍ سَبَقَ للإيمان، لايصحُّ في حقِّ عليٍّ "عليه السَّلام".

إذا كان هذا ـ كفر الأب ـ مِمَّا يُنقص الإبن، فكفر أبي طالبٍ، مِمَّا ينقص علياً...!

وهو، بعد هذا ـ بل في ذات الوقت ـ لَمِمَّا يُنقص الرَّسول، أيضاً، مادام محمَّدٌ وعليٌّ نفساً واحدةً، تجمع بينهما خصائص البيت، الضَّارب الجذر في الإيمان البعيد العميق...!

ولابدَّ أنْ يكون محمَّدٌ وعليٌّ، في درجةٍ، مِنَ المزايا، والخصائص، واحدةٍ ــ عدا ميزة النُّبوَّة، التي تُخصِّص محمَّداً عن عليٍّ ـ حتى يتَّحدا في نفسٍ واحدةٍ...

لذلك... فلا بدَّ أنْ يكون أبو طالبٍ كعبدِ الله؛ وآمنة كفاطمة: إيماناً، وكفراً، حتى يتَّحد الآباء، كما اتَّحد الولدان، فكان عليٌّ نفسَ محمَّدٍ(ص).

وإذا كان الرَّسول يُؤذيه أنْ يُقال لسبيعة: أنتِ بنت حطب النَّار... ـ وقدْ نَزَلَ القرآن، في أُمِّها: حمَّالة الحطب؛ وأبيها: أبي لهبٍ، بِمَا نَزَلَ... ــ فكيف به يرضى ببهْت عمِّه، وقذْفه بما هو منه بريءٌ...؟!

أفلا يُؤذيه هذا، أشدَّ الأذى، لأنَّه قذْفٌ بالباطل، وتجنٍّ على الحقِّ، ينال شخصاً، هو أقرب له قربى: إنْ مِنْ حيث الرَّحم، وإنْ مِنْ حيث النُّصرة، وكلُّها تستحقُّ منه الوفاء، والتَّأذِّي ممَّا يُؤذي: هذا المؤْمِنَ، والقريب، والنَّصير...؟!

وهو ـ أيضاً ـ أذىً له، ما دام يُؤذي نفسه علياً، ومَنْ آذى نفسه، فَقَدْ آذاه، ومؤْذيه مؤذٍ لله ـ كما جاء في لسان الحديث، الثَّابت عنه...!

وإذا كانتِ الشَّفاعة، تنال مَنْ تنال، مِنْ تلك: الأعداد الكثر، والأرقام الضِّخام، التي تأبى الحصر... فهلاَّ تسع عمَّه، لو لم يكن مؤْمِناً، كما يزعمون، في مايحلو لهم، مِنْ بهْت الرَّجل المؤْمِنِ، والتَّجنِّي على حقِّه، والتَّعدِّي على طهر قداسته، ونصيع إيمانه...؟!

وإذا لم يكن أحدٌ أوْصَلَ لرحمه. مِنَ الرَّسول الأعظم(ص) ــ كما أقسم بذلك أنيسٌ، ويُقرُّه على قسمه كلُّ مَنْ عرفَ محمَّداً الرَّحيم ـ أفَتَصِلُ شفاعته ـ لمثل تلك

الأعداد والأرقام، وتعجز عن عمه، الذي كان لـه كأبيـه ـ تربيـةً، ونصـرةً فـذّةً ـ وهو، مع ذلك، أبو نفسه: عليٌّ عليه السَّلام...؟!

ولكنَّ أبا طالبٍ ـ كما قلنا، ويُوافقنا عليه كلُّ منصـفٍ، يـرى الحقَّ، فيتّبعـه ـ مِمَّنْ يدخل الجنّة، باستحقاق عمله، دون حاجةٍ للشّفاعة، التي يحتاجها مَنْ لم ينهض به عمله، لاِستحقاق الجنّة، التي لاتُوجبها له العدالـة؛ لأنّـه لم يعمـل مـا يجـب عليـه نحوها...!

ومَنْ قام بواجبه، بدون نقص، فإنَّ العدالة، تُوجب له على ا لله الجنّة، بلا حاجةٍ لشفاعة شفيعٍ، فهي له حقٌّ...

وإذا لم يدخلِ الجنّةَ: مثلُ أبي طالبٍ، فَلِمَنْ خُلقتْ إذن...؟!

بل هي لِمَنْ إنْ لم يتصدَّرها مثل أبي طالبٍ ـ وهي جزاء عمله...

وإنْ دَخَلَ أبو طالبٍ النّار ـ كما يرجفون ـ فَمَنْ ذا ينجـو منهـا، حتـى الأنبيـاء المرسلون ـ فالنّار لاتُخاف، ولاتُخشى، حينئذٍ ـ إذ تنعدم القِيم، ولايكون الجزاء مِنْ جنس العمل، وتنمحي العدالة، ويجور الحكم ـ وحاشا لله.!

﴿وَالَّذِيْنَ يُؤْذُونَ الْمُوْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَـا اكتَسَبُوْا فَقَـدِ احتَمَلُوْا: بُهتَانا، وَإِثْماً مُبِيناً﴾[1].

* * *

(١) ـ الأحزاب ٥٨ .

مراجع الكتاب

أرجعنا - في ثنايا الكتاب - كلَّ موضوعٍ لمصادره: صفحةً وجزءاً. ونُسلسل - هنا - أسماء المصادر، التي رجعنا لها، مع ذكر مؤلِّفيها، وطباعتها، رامزين للمطبعة بـ "م"، وللطَّبعة بـ "ط"، مرتِّبين الأوَّل، فالأوَّل ممَّا رجعنا إليه.

* * *

١ - القرآن الكريم.

٢ - شرح نهْج البلاغة، لابن أبي الحديد - ج ٣ - م دار الكُتُب العربيَّة الكبرى - مصر ١٣٢٩هـ.

٣،٤ - البيان والتَّبيين ج١، ٢- للجاحظ - شرح حسن السَّندوبيِّ - م الاستقامة بالقاهرة - ط ٣ - ١٣٦٦هـ.

٥ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ج١ - م المينية - مصر: ١٣١٣ هـ.

٦ - تأْريخ الأُمم والملوك ج٤ - لابن جريرٍ الطَّبريِّ - م الاستقامة - ١٣٥٧هـ ١٩٣٩ م.

٧ - الكامل في التَّأريخ ج٣ - لابن الأثير الشَّيبانيِّ الجزريِّ - مصر. ١٣٥٦هـ.

٨ - الغدير في: الكتاب، والسُّنَّة، والأدب ج١١ - للشَّيخ عبد الحسين الأمينيِّ ط١ - م الحيدريِّ طهران: ١٣٧٢هـ.

٩ - النَّهج ج١.

١٠ - الغدير ج٢ - ط٢ - م الحيدريِّ - طهران: ١٣٧٢ هـ.

١١ - صحيح مسلم ج١ - م محمَّد علي صبيح - مصر: ١٣٢٤هـ.

١٢ - معاوية بن أبي سفيان: في الميزان - لعبَّاس العقَّاد - العدد الـ ٥٨، مِنْ سلسلة "كتاب الهلال" - جمادى ١٣٧٥هـ يناير ١٩٥٦م - القاهرة.

١٣ - رسائل الجاحظ - جمْع السَّندوبيِّ - م الرحمانيَّة بمصر: ١٣٥٢ هـ. وَقَدْ رجعنا منها إلى هذه الرسائل:

١ - رسالة في بني أميَّة.

٢ - نقض العثمانية للإسكافي.

٣ - فضْل هاشم، على عبد شمس.

١٤،١٥ ـ الغدير ج٥و١٠ ـ ط١ ـ م الزّهراء بالنّجف ١٣٦٧ هـ، وم الحيدريّ بطهران ١٣٧٢هـ.
١٦ ـ صُلح الحسن "ع" ـ للشّيخ راضي آل ياسين ـ م الزّهراء ـ بغداد: ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م.
١٧ ـ الحسن بن عليٍّ لكامل سليمان ـ بيروت ١٣٧٣ هـ.
١٨ ـ الدّعوة الإسلاميّة إلى وحدة أهل السُّنّة والإماميّة ج١ ـ للشّيخ علي أبو الحسن الخنيزيّ ـ م الإقبال ـ بيروت: ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م.
١٩ ـ الكامل، في:اللّغة، والأدب، والنّحو، والتّصريف ج٢ ـ للمبرِّد ـ م البابي ـ مصر ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م.
٢٠ ـ أعيان الشّيعة ج٣٥ ـ للسيِّد محسن الأمين ـ ط١ ـ م الإنصاف ـ بيروت: ١٣٧٠هـ ١٩٥١م.
٢١ ـ لباب النُّقول، في أسباب النُّزول ـ للسّيوطيّ ـ ط٢ ـ م البابي ـ مصر: ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤م.
٢٢ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ج٥ ـ للطَّبرسيّ ـ بيروت: ١٣٧٦هـ ١٩٥٧ م.
٢٣ ـ الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل ج١ – للزّمخشريّ – ط٢ – م الإستقامة ـ مصر ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٣ م ـ محمَّد مصطفى ١٣٠٨هـ.
٢٤ ـ السِّيرة الحلبيّة ج١ –للحلبيّ –ط٣ – م الأزهريّة – مصر: ١٣٥١هـ – ١٩٣٢م.
٢٥ ـ إحياء علوم الدِّين ج٣ ـ للغزاليّ ـ م البابي ـ مصر: ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.
٢٦ ـ سرُّ العالَمين وكشف ما في الدّارين ـ للغزاليّ ـ م الحجر بومبي ١٣١٤ هـ.
٢٧ ـ الإستيعاب في أسماء الأصحاب ج٣ ـ ليوسف النمريّ القرطبيّ ـ م مصطفى محمَّد ـ مصر ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م [بهامش الإصابة].
٢٨ ـ شرح النّهج ٤ ـ لابن أبي الحديد.
٢٩ ـ مقدّمة ابن خلدون ـ م مصطفى محمّد ـ مصر.
٣٠ ـ ينابيع المودّة ـ للشّيخ سليمان الحسينيّ ـ ط٢ ـ م العرفان ـ صيدا ـ وم بمبي ١٣١١هـ.
٣١ ـ فصْل الحاكم، في:النّزاعَ والتّخاصم، في ما بين بني أميّة، وبني هاشم ـ لمحمَّد بن عقيل ـ م العرفان ـ صيدا: ١٣٤٣ هـ.
٣٢ ـ كشْف الأستار، عن وجه الغائب عنِ الأبصار ـ لميرزا حسين النُّوريّ ـ م أحمد آقا ـ ١٣١٨ هـ.
٣٣ ـ أبو هريرة ـ للسّيِّد عبد الحسين شرف الدِّين ـ م العرفان ـ صيدا: ١٣٦٥ هـ.
٣٤ ـ الغدير ج٨ ـ م الزّهراء بالنّجف: ١٣٧٠هـ.
٣٥ ـالسِّيرة النّبويّة، والآثار المحمّديّة ج١ ـ للسّيِّد أحمد زيني دحلان ـ بهامش (السِّيرة الحلبيّة).
٣٦ ـ الإستيعاب ج٤.

٣٧ ـ الغدير ج٣ ـ ط١ ـ م الغريّ النّجف ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦ م.
٣٨ ـ الإصابة في تمييز الصّحابة ج٢ ـ لابن حجر العسقلانيّ [مطبوعة مع الاستيعاب].
٣٩، ٤٠ ـ الإمام عليٌّ صوت العدالة ـ لجورج جرداق ١٩٥٦م ـ وج٤ ـ م الجهاد، بيروت.
٤١ ـ الإمام عليُّ بن أبي طالبٍ ج١ ـ لعبد الفتّاح عبد المقصود ـ ط٢ ـ دار الكتاب العربيّ ـ مصر ١٣٦٦هـ.
٤٢ ـ معجم القبور ـ للسيّد محمد مهدي الموسوي ـ م النّجاح ـ بغداد ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.
٤٣ ـ أصل الشّيعة وأصولها ـ للشّيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ـ ط٢ ـ م العرفان ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م.
٤٤ ـ مروج الذّهب ـ لأبي الحسين عليٍّ المسعوديّ ـ ط٣ ـ م السّعادة بمصر ـ ١٣٧٧ ـ ١٩٥٨م.
٤٥ ـ بحار الأنوار، ج٦ ـ لمحمّد باقر المجلسيّ ـ م خورشيد طهران ـ ١٣٢٣هـ.
٤٦ ـ العبّاس بن أمير المؤمنين ـ للسيّد عبد الرزّاق المقرّم ـ م الحيدريّة، بالنّجف.
٤٧ ـ الكامل في التّأريخ، ج٢ لابن الأثير ـ ١٣٤٩ هـ.
٤٨ ـ حليف مخزوم ـ للسيّد صدر الدّين شرف الدّين ـ ط١ ـ م العرفان: ١٣٧٣هـ ١٩٥٤ م.
٤٩ ـ الكامل في التّأريخ ج١ ـ ١٣٤٨ هـ.
٥٠ ـ الغدير ج٧ ـ م الزّهراء بالنّجف ١٣٦٩هـ.
٥١ ـ أعيان الشّيعة ج٢ ـ ط٣ ـ م الإنصاف، بيروت: ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م.
٥٢ ـ السّيرة النُبويّة ج١ ـ لابن هشام ـ م البابي ـ مصر، ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦ م.
٥٣ ـ على هامش السّيرة ج١ ـ لطه حسين ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م.
٥٤ ـ المجالس السّنيّة في مناقب ومصائب العترة النُبويّة ج٤ ـ للسيّد محسن الأمين ـ ط٢ ـ م ابن زيدون ـ دمشق ١٣٦٣هـ.
٥٥ ـ تذكرة الخواصّ ـ لسبط ابن الجوزي ـ م العلميّة بالنّجف ١٣٦٩ هـ.
٥٦ ـ الإستيعاب ج١ .
٥٧ ـ شرح النّهج لابن أبي الحديد ـ ج٢.
٥٨ ـ إثبات الوصيّة ـ للمسعوديّ "صاحب المروج" ـ ط٣ ـ م الحيدريّة بالنّجف.
٥٩، ٦٠ ـ أعيان الشّيعة ج٣ ق١ ط٢، م الإتقان دمشق ١٣٦٦ وج٣٩ ط١، م الإنصاف ـ بيروت ١٣٧٥ هـ.

٦١ ـ عمدَة الطّالب في أنساب آل أبي طالبٍ لأحد بن عليٍّ الداوُوديّ ـ ط١ ـ المطبع الجعفري . لكنوء.
٦٢ ـ مناقب آل أبي طالبٍ ج١ ـ لابن شهراشوب المازندرانيّ ـ بمبي.
٦٣ ـ الحجّة على الذّاهب إلى تكفير أبي طالبٍ ـ للسّيّد شمس الدّين فخار بن معدٍّ ـ م العلويّة ـ النّجف: ١٣٥١ هـ.
٦٤ـ الإمام عليٌّ: صوت العدالة ج١، م الجهاد بيروت.
٦٥ ـ مجالس ثعلب ق١ ـ لأبي العبّاس أحمد ثعلب ـ دار المعارف بمصر: ١٣٤٨هـ.
٦٦ ـ أبو طالبٍ شيخ بني هاشم ـ لعبد العزيز سيِّد الأهل ـ دارَ العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥١ م ـ ط١.
٦٧ ـ هاشم وأميّة ـ في الجاهليّة "١" ـ للسّيِّد صدر الدّين ـ بغداد: ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٥م.
٦٨ ـ صحيح البخاريّ ج٢ ـ م الميمنيّة للبابي ـ مصر.
٦٩ ـ شيخ الأبطح، أو أبو طالبٍ ـ للسّيِّد محمد علي شرف الدّين ـ م دار السّلام ـ بغداد. ١٣٤٩ هـ.
٧٠ ـ معجم البلدان ج٥ ـ لياقوت الحمويّ ـ بيروت: ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.
٧١،٧٢ ـ فاطمة بنت محمّدٍ، ومحمّدٌ النّبيُّ العربيُّ ـ لعمر أبو النّصر ـ م الوطنيّة ـ بيروت ١٩٥٣ م.
٧٣ ـ على هامش السِّيرة ج٢.
٧٤ ـ تأْريخ الأمم والملوك ج٢.
٧٥ ـ قصص العرب ج١ ـ لمحمّد جاد المولى وصاحبيه ط٢ ـ مصر ١٣٦٧ هـ.
٧٦ ـ إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاّنيّ ـ دار المعارف بمصر.
٧٧ ـ الكامل في اللّغة ج٣ ـ ط١.
٧٨ ـ غاية المرام، إلخ ـ للسّيِّد هاشم البحرانيّ ـ إيران ١٢٧٢ هـ.
٧٩ـ الإصابة ج٤.
٨٠ ـ الرِّياض النّضرة في مناقب العشرة ـ للمحبِّ الطّبريّ ـ ط١. م الحسينيّة ١٣٢٧ هـ.
٨١ ـ أعيان الشّيعة ج١٦ ـ ط١ ـ م ابن زيدون ـ دمشق ١٣٥٩ هـ.
٨٢ ـ تفسير عليِّ بن إبراهيم ـ إيران ١٣٦٣ هـ.
٨٣ ـ ديوان أبي طالبٍ ـ م فيض رسان ـ بمبي ١٣٢٦ هـ.

٨٤ ـ إيمان أبي طالبٍ ـ للشّيخ المفيد [ضمن المجموعة الأولى مِنْ"نفائس المخطوطات"] ـ م الحيدريَّة ـ النّجف: ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م.

٨٥ ـ مجمع البيان ج٧.

٨٦ ـ ثمرات الأوراق في المحاضرات ج٢ ـ لتقيّ الدّين بن حجّة الحمويّ ـ بهامش المستطرف ـ م المشهد الحسينيّ ١٣٦٨ هـ.

٨٧ ـ الكشّاف ج٢ ط٢ ـ م الإستقامة بالقاهرة ١٣٧٣ هـ.

٨٨ ـ السِّيرة النُّبويّة لابن هشامٍ ج٢.

٨٩، ٩٠ ـ معجم البلدان ج٥ ط١، م السّعادة مصر ١٣٢٤ هـ ـ وج٣ بيروت: ١٣٧٦هـ ـ١٩٥٧م.

٩١ـ على هامش السِّيرة ج٣ ـ عام ١٩٤٦م.

٩٢ ـ الإستيعاب ج٢.

٩٣ ـ نسب قريشٍ ـ لمصعب الزُّبيريّ ـ دار المعارف للطّباعة والنّشر ١٩٥٣ م.

٩٤ ـ الأغاني ج١٧ ـ لأبي الفرج الأصبهانيّ ـ م التّقدُّم ـ مصر.

٩٥ ـ الغدير ج١ ـ ط٢ ـ م الحيدريّ طهران: ١٣٧٢ هـ.

٩٦،٩٧ ـ الكشّاف ج٢ م محمَّد مصطفى ١٣٠٨ هـ ـ وج٤ ط٢ ـ م الإستقامة بالقاهرة ١٣٧٣ هـ.

٩٨ ـ تفسير القرآن العظيم ج٤ ـ لأبي الفداء بن كُثيرٍ ـ دار إحياء الكتب العربيَّة بمصر.

٩٩ ـ١٠٢ ـ مجمع البيان ج٢٨ ط٢ ـ دار الشّمالي بحريصا ـ وج١٠ و٦ و٢٦ ـ بيروت ١٣٧٦ هـ و١٣٧٤ هـ.

١٠٣ ـ الكشّاف ج٣ ـ م محمَّد مصطفى ١٣٠٨ هـ.

١٠٤ ـ وقعة صِفّين ـ لِنصر بن مزاحمٍ ـ ط١ ـ القاهرة: ١٣٦٥ هـ.

١٠٥ ـ الصّواعق المحرقة ـ لأحمد بن حجر الهيتميّ ـ م الميمنيّة ـ مصر: ١٣١٢ هـ.

١٠٦ ـ الفتنة الكبرى "١" عثمان ـ لطه حسين ـ دار المعارف بمصر ١٩٤٧ م.

١٠٧ ـ تأريخ الأمم والملوك ج٦ ـ ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩م.

١٠٨ ـ الكامل في التّأريخ ج٥ عام ١٣٥٧ هـ.

١٠٩ ـ محاضرات تأريخ الأمم الإسلاميّة ـ الدّولة العباسيّة ـ للشّيخ محمَّد الخضريّ ـ ط٥ ـ م الإستقامة ـ القاهرة ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥م.

١١٠ ـ ميزان الإعتدال في نقد الرّجال ج٣ ـ لمحمّد الذّهبيّ ـ ط١ ـ م السّعادة بمصر ١٣٢٥ هـ.
١١١ ـ تفسير البيضاويّ ج٢ ـ م مصطفى محمّد ـ مصر.
١١٢ ـ تفسير القرآن ج٢، لابن كثيرِ.
١١٣ ـ ميزان الإعتدال ج١.
١١٤ ـ دلائل الصّدق ج١ ـ للشّيخ محمّد حسن المظفّر ـ جاب تابان ١٣٧٩هـ.
١١٥ ـ إسعاف المبطأ برجال الموطّأ ـ لجلال الدّين السّيوطيّ ـ م مصطفى محمّد ١٣٥٨ هـ [في نهاية الموطّأ].
١١٦ ـ الفهرست لابن النّديم ـ م الرّحمانيّة ـ مصر ١٣٤٨ هـ.
١١٧ ـ صحيح البخاريّ ج٣.
١١٨ ـ ميزان الإعتدال ٢.
١١٩ ـ الإصابة ج٣.
١٢٠ ـ سِير أعلام النُبلاء ج٢ ـ لمحمّد الذّهبيّ ـ دار المعارف بمصر: ١٩٥٧م.
١٢١ ـ الغدير ج٦ ط٢ ـ م الحيدريّ ـ طهران: ١٣٧٢ هـ.
١٢٢ ـ فتوح البلدان ـ لأبي العبّاس البلاذريّ ـ دار النّشر للجامعيّين: ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧ م.
١٢٣ ـ الإتقان في علوم القرآن ـ لجلال الدّين السّيوطيّ ـ م حجازي بالقاهرة ١٣٦٨ هـ.
١٢٤ ـ تفسير القرآن ج٣ لابن كثيرِ.
١٢٥ ـ صحيح مسلمِ ج٣.
١٢٦ ـ الكشّاف ج٣ ـ ط٢ ـ م الإستقامة بالقاهرة: ١٣٧٣ هـ.
١٢٧ ـ مجمع البيان ج٢٠ عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م.
١٢٨ ـ تفسير البيضاويّ ج٤.
١٢٩ ـ مجمع البيان ٢٣ ـ عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م.
١٣٠ ـ صحيح البخاريّ ج١.
١٣١ ـ الغدير ج٩ ـ م الحيدريّة، النجف ١٣٧١ هـ.
١٣٢ ـ أعيان الشّيعة ج٤ ق١ ط٢ ـ م الإنصاف ـ بيروت ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨ م.

ترجمة

المُؤلِّف وآثارُه

جُمِعَت من بَعض الكتب التي أشارت إليها

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم: الشَّيخ عبدا لله، الشَّيخ علي، حسن، مهدي، كاظم، علي، عبدا لله، الخُنيزيُّ.
اسم الشهرة: الشَّيخ عبدا لله الخُنيزيُّ.
تاريخ الميلاد ومكانه: ١٣٥٠هـ ١٩٣١م – القلعة – القطيف.

السيرة الذاتية (الحياة العلمية والعملية)

*** أُدخل الكتَّاب في سنٍّ مبكِّرةٍ، فقرأ القرآن الكريم، وتعلَّم: القراءة، والكتابة، ومبادىء الحساب، في سنٍّ مبكِّرةٍ**

*** قرأ العربيَّة – على النهج القديم – في شهر ربيع الأول عام ١٣٦١هـ على يد أخيه الأُستاذ محمَّد سعيد (١).**

*** في هذا العام بدأ يُزاول الكتابة، فصار يكتب بعض القصص – وَقَدْ كان لديه للقصة: ميلٌ، وحبٌ – وينظم ما لا يتجاوز البيتين؛ وألَّف كتاباً، أسماه: (الحديقة الأدبية)، قسمه إلى أقسامٍ ثلاثةٍ: شعرٍ، ونثرٍ وحكاياتٍ، يجمع فيها شيئاً، مِنَ: القديم، والحديث؛ كما أنَّ له تعاليق نحويَّة، وَقَدْ أهمل الجميع.**

*** في ليلة ١٣٦٣/١١/٢١هـ انتقل والده العطوف إلى رحمة ا لله، فكانت صدمة فقْده عليه قويَّة عنيفةً هزَّت كيانه، وأثَّرت عليه، بعد ما جفَّ عنه نبْع الحنان، الذي منه ينتهل.**

---

(١) جاء في (أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، خلال ١٤قرناً) –ص٢٣١: ٣ – للأستاذ سالم النويدري، عند ترجمته للمذكور برقم ٥٠٦: وقَدْ أَلَمَّ بعلوم اللُّغة العربيَّة. على يد أخيه (الشيخ عبدالحميد) –وهو خطأٌ، صحَّته ماذُكر بعاليه، ذلك أَنَّه حين قراءته العربيَّة، كان أخوه هذا في العراق، ينتهل العلم، في جامعة النجف الأشرف، وإنْ كان الشيخ عبدالحميد، يعدُّ: معلِّماً له: توجيهٌ، ورعايةٌ معنويَّةٌ.

* أثّرت عليه هذه الكارثة، فصار يرثيه في كلّ مناسبةٍ، ونَظَمَ فيه قطعةً وقصيـدة – وأتبعها بأخرى – ولكن كثيراً مِنَ المقالات وأدَهَا – أخيراً – لتقدُّمه عليها.

* نشـر في كثير مِنَ الصحف، في: المملكـة، والبحرين، والعراق، ولبنـان، ومصر. وأوّل مانشره: مقالٌ في صحيفةٍ، في شهر ذي القعدة ١٣٦٨هـ – وذلك في مجلة العرفان.

* أراد مزاولة التجارة، فمَارَسَهَا لمدة عامٍ، ولكن خسارته فيها، نتيجة: تسامحه، ولينه في استيفاء الدُّيون، وعدم وجود الرُّوح التجاريـة لديه.. اضطرَّته لأنْ يُغلق الدُّكّان، فأغلقه، وصفّاه بالخسارة.

* ألحّت عليه الحياة الإقتصادية: أنْ يبحث عن عمـلٍ، يكفل لـه غطاءً لأُمور معيشته، حيث لايستطيع التّفرغ للدراسة، التي أرادها له والـده، فما وجد سوى الإلتحاق بالسلك الوظيفيِّ الحكوميِّ، فعمل مدةً تربو على عشرين عاماً.

* في أوائل شهر شوال، عام ١٣٩٠هـ، غادر موطنه للعراق، وفي أوائل ذي الحجَّة، مِن نفس العام، التحقت به عائلته بتمـام أفرادهـا: زوجـةً، وبنـين، وبنـاتٍ، فَاستَقَرَّ، هناك، في النجف الأشرف، واشترى داراً، مواصلاً دراسته العلمية الدِّينيَّة، حيث قرأ هناك الكُتُب المهمَّة، مِنْ مرحلة السُّطوح، بعد أنْ وجَدَ نفسه: غير محتـاجٍ لدراسة بعض الكُتُب الاعتيادية، مما كانت تُقرأُ، قبل هذه المرحلة، بل كان متمكّنـاً مِنْ تدريسها، حيث قرأ عليه كثيرٌ – من الطُّلاَّب – بعض تلك الكُتُب.

* بعد هذه المرحلة، وفي نهايتها، حَضَرَ البحث الخارج، وهو المسـتوى العلمـيُّ الأعلى، لدى سماحة الإمام المقدَّس السـيد أبـو القاسـم الخوئـيِّ، الـذي كـان لـه بـه ارتباطٌ وثيقٌ، حيث كان يُوليه رعايته، ويحوطه بعنايته، ويُضفي عليه تقديره، ويُنيط به بعض الأُمور، كالرَّدِّ على بعـض الاسـتفتاءات، والإجابـة علـى بعـض الرسـائل، ومإلى ذلك، مِنْ مهامَّ، يراه الأَوْلَى بها.

* وفي نهاية العشر الأواخر مِنْ محرم ١٤٠١هـ، يَمَّمَ قصْده نحو وطنه، بنيّة تجديد العهد به، وبالأقارب والأصحاب، وَقَدْ بقيت عائلته هناك - في النجف الأشرف - وكانت الحرب الإيرانية العراقية، قَدْ مضى على اشتعالها قرابة شهرين، أو تزيد، فما استطاع العودة، ومضى مايقرب مِنَ العام، دون أنْ يَتَيَسَّرَ أمر العودة، فاضُّطرت عائلته للعودة للوطن، في شهر ذي الحجة ١٤٠١هـ، واستقرَّ به المقام في وطنه، يُودِّي واجبه: الدِّينيَّ، والوطنيَّ.

* * *

تَلَمَذَّ على يديه الكثير، قبل أن يُغادر وطنَه، إلى النجف الأشرف، وهناك حال هجرته، وبعد عودته للوطن. وهذه أسماء طائفةٍ منهم، مع الاحتفاظ بالألقاب، وبعض هؤلاء قرأ عليه، في النجف، وفي القطيف.

أ- السادة: سعيد الخبَّاز، منير الخبَّاز، محمد العوامي، حيدر العوامي، مجيد الشاخور، مهدي الشعلة، هاشم الخبَّاز.

ب- المشائخ: منصور موسى طاهر، محمد عبدا لله كاظم، نزار سنبل، ضياء سنبل، عبدا لله سنبل، محمد محمد حسين، صادق المقيلي، مهدي العوازم، عبدالعظيم الشيخ، محمد عبيدان، عباس العنكي، عباس المحروس، محمد علي البيَّابي، حسن الصفار، إبراهيم الحمود، سعد أبو السعود، وغيرهم.

ثبت بالمؤلَّفات

الرقم	عنوان الكتاب	دار النشر	تأريخ النشر
١	ذكرى الإمام الخنيزي باكورة نتاجه	ط١ المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف	١٣٧٠هـ ١٩٥١م - وهي الآن في طريقها للخروج بطباعة أنيقة وإضافات ضافية.

٢	ذكرى الزعيم الخنيزي	ط١ المطبعة العلميَّة النجف الأشرف	١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م
٣	أبو طالب مؤمن قريش دراسة وتحليل	ط١ - منشورات مكتبة الحياة - بيروت. وأعيد طبعه عدة مرات لايعلم بها المؤلف. وترجم للأوردو، وطُبع بها: مرتين. وهاهو في طبعته الخامسة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.	١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٤	أدواؤنا	ط١ منشورات مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة	١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م وأعيد طبعها في بيروت
٥	ضوءٌ في الظل		
٦	نسيم وزوبعة	مطبعة الكيلاني	١٣٩٧هـ ١٩٧٧م
٧	مداميك عقديَّة ٣حلقات في مجلدين	ط١ منشورات دار الكتاب الإسلامي - بيروت	١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م
٨	زهرات مجموعة شعرية، وشعر منثورٌ	مخطوط (لعلهما فُقدا في العراق)	
٩	مجموعة قصصيَّة	مخطوط	
١٠	صورٌ مِنَ الحياة ـ كلمات قصار	مخطوطٌ لعلَّ بعضها فُقِد	
١١	بقية حلقات مداميك عقدِيَّة	مخطوطٌ	
١٢	ابن المقرب: الشاعر الثوري	مخطوطٌ - كان موضوعاً نُشر في مجلة الأديب اللبنانيَّة، فوسَّعه لكتاب.	
١٣	الحركات الفكرية في القطيف	مخطوطٌ - لعله مـمَّا فُقِد في العراق - كان حلقات نُشرت في مجلة العرفان الصيداوية، وُوسِّع لحلقات كتاب	

١٤	لا إكراه	(لعلهما ممّا فُقدا في العراق)	
١٥	المرأة بنظرةٍ إسلامية		
١٦	الصَّلاة والصِّيام، في السَّفر، كتاباً وسنَّةً	مخطوطٌ - قيد الإكمال	
١٧	ترجمةٌ ذاتيَّةٌ	مخطوطٌ - قيد الإكمال	
١٨	الدعاء والأخلاق، في مدرسة أهل البيت(ع)	مخطوطٌ - قيد الإكمال	
١٩	أَلقٌ مِنَ الذكريات	معدٌّ للطَّبع	
٢٠	السَّيِّد السبزاوي عرفانيّاً	مخطوطٌ - قيد الإكمال	
٢١	قطاف المسجد	حلقاتٌ متتاليةٌ - بعضها معدٌّ للطَّبع	
٢٢	مجموعة دراساتٍ، ومقالاتٌ متنوعةٌ	لم يُجمع شتاتها في عقدٍ، بعدُ	

- عدا تحقيق بعض مؤلَّفات والده - كشرح (دلائل الأحكام): الدَّورة الفقهية في شرح ﴿شرائح الإسلام﴾ و(المناظرات) و(في عدَّة الحامل، المتوفَّى عنها زوجها)، و(قبسة العجلان في معنى الكفر والإيمان).

وتحقيق كتاب (ثمرات لبِّ الألباب، في إبطال شُبه أهل الكتاب) لجدِّه - جدُّ أبيه لأُمِّه - الحجَّة المقدَّس الشَّيخ علي آل عبدالجبَّار.

- وعدا فكرة وضع كتابٍ، عن (قيس بن سعد)، وَضَعَ مقدَّمته، منذ أعوامٍ، وصُرف عنه.

العنوان الدائم:القطيف - حي الحسين

الهاتف: ٨٥٥٤٩٩٨ - ٨٥٥٤٨١٥ - الفاكس ٨٥٥٢٦٣١

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

صورة المؤلـف ٥
مؤْمِنُ آل فرعون ٧
الإهداء ٩
هذا الكتاب ١١
مقدِّمةٌ ـ بقلم: الأُستاذ بولس سلامة ١٣
على العتبـة ١٩

الجزء الأوْل

في مدارج الحياة ٧٣
بيتٌ ٧٧
شـخصيَّةٌ ٩٥
دلائلُ ١٠٥
أ ـ نبْع الماء ١١٠
ب ـ مع العائف ١١١
ج ـ إنك لَمباركٌ ١١٢
د ـ إلى الشام ١١٣
زواجٌ ١٢٣
في فجر الدَّعوة ١٢٩
الفجر الأوَّل ١٣١
يوم الإنذار ١٣٥
جهادٌ ١٤٥
الشِّعب والصَّحيفة ١٧٩
عند الاحتضار ٢٠٣

الجزء الثاني

في ذمَّة التأْريخ ٢١٧
بعد الموت ٢١٩
ذكرٌ عطرٌ ٢٢٧
على لسان الرَّسـول ٢٢٩
على لسان الإمام عليٍّ ٢٤٥
على لسان أهل البيت ٢٥٥
على لسان الصَّحابة وآخريـن ٢٦٩
وقفةٌ مع الحديديِّ ٢٨٥
افتراءٌ وتزويرٌ ٣٠٣
الآية الأوْلى ٣٠٦
الآية الثانية والثَّالثة ٣١٤
رواة الأحاديث الثَّلاثة الأوْلى ٣١٧
رواة الحديثين الآخريـن ٣٢٨
نظرةٌ في آية "ماكان للنَّبيِّ" ٣٤٣
نظرةٌ في آية "إنَّك لاتهدي" ٣٦٢
ميراث أبي طالبٍ ٣٧٥
حديث الضَّحضاح ٣٧٦
الرُّواة ٣٧٨
نظرةٌ في الحديث ٣٨٨
المؤْمِنُ ٤٠١
مراجع الكتاب ٤٢١
ترجمة المؤلف وآثاره ٤٢٩
محتويات الكتاب ٤٣٧